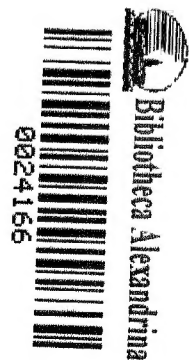


مكتبة جامعة القاهرة

إهداء الأستاذ الدكتور والبروفيسور الدكتور محمد عبد الحليم
وإهداء الأستاذة الدكتورة هاجر محمد عبد الحليم

القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية

دار النشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الاولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار المنصار
للطببع والنشر والتوزيع
٦ شارع الباب الاخضر - ميدان الحسين
القاهرة

القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية

تأليف

د. محمد حمزة شون

أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة
الأزهر وأم القرى وجامعة
ابن سعود الإسلامية سابقا

دار المنار

إهداء

الى روح الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهري رضى الله عنه
البطل العربى المسلم النافذ الفكر الذى أمس « مدينة القيروان »
المعقل العسكرى والسياسى والفكرى . فشح منها الفكر الاسلامى
والحضارة العربية فى الشمال الافريقى وجزر البحر المتوسط وأوربا .
تحية اجلال وتقدير واعجاب»

« اللهم املاها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها
عزا لدينك وذلا على من كفر واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة
الأرض » .

« عقبة بن نافع الفهري »

فهل للفيروان وساكنيها عدل حين يفتخر الفخور
بلاد حشوها علم وفقه واسلام ومعروف وخير
بناها كل بدري كريم كان صفاح أوجههم بدور
« أبو القاسم الفزاري »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .. وبعد ...

فالانسانية على مدى عمرها الطويل تدرجت فى مدارج الحضارة مرحلة بعد مرحلة كل منها تأخذ من سابقتها ، الى ان جاء الاسلام ليأخذ بيد الانسان الى منزلة عالية من السمو والرقى فى تفكيره وسلوكه وحياته ومعيشته ، واستطاع ان يوجه أتباعه بمبادئه السامية الى الرقى الروحى والمادى مما أدى الى نشأة حضارة اسلامية زاهرة شملت جميع جوانب الحياة وأدت الى تقدمها ورقىها .

وكان ظهور الحضارة الاسلامية وتقدمها وشمولها وتليبيتها لجميع حاجات الفرد والجماعة عاملا مهما فى جذب الافراد والجماعات الى اعتناق الاسلام واتباعه حيث يرقى بالفرد ماديا ومعنويا ، مما أدى الى انتشار الاسلام وسيادة مبادئه فى كثير من البقاع .

وهنا نشأت المدن الاسلامية الى تحمل الطابع الاسلامى المتمثل فى مناهج الاسلام ومبادئه الداعية الى توفيق الصلة بالله تعالى ، والى النظر والتفكير ، واستخدام العقل ، وبذل كل الجهود فى سبيل تقدم الحياة وإزدهارها وخاصة الجانب الفكرى المؤدى الى التبحر فى العلوم والفنون والآداب .

وقد حفل العالم الاسلامى بكثير من المدن التى حملت راية الحضارة وبثتها فى كثير من ارجاء العالم ، وحظى كثير من تلك المدن بدراسات مستفيضة وضحت جوانبها المختلفة ، وإبعادها المتعددة ، ولم تحظ مدينة

القيروان من بينها سوى بالنزير اليسير مما دعانى الى أن يكون موضوع هذا الكتاب : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية .

ولقد كان الهدف الذى قصدت اليه من اختيار هذا الموضوع هو التركيز فى البحث عن الحياة الفكرية فى القيروان ، وإن اقتبعها فى مراحلها المختلفة منذ البداية وإن أبين : كيف بدأت ؟ تم كيف تمت وازدهرت ؟

وأوضح العوامل التى ساعدت عليها ، والمجالات التى شغلتها ، والعلماء الذين تحملوا عبئها ، والدور الذى قامت به فى مجال الفكر ، ثم فى سبيل نشره وتوصيله الى غيرها ، وأخيرا بيان هذا الاتصال بالغير تأثيرا وتأثيرا بما يجعلنا نلمس الحياة الحضارية والفكرية حقيقة واضحة أمام أعيننا ، وبما يزيل الحيرة التى يقع فيها من يطلب منه أن يتحدث عن القيروان مركزا من مراكز الفكر الاسلامى فى عصر ازدهاره ، ومظهرا أصيلا من مظاهر الحضارة الاسلامية .

لقد قضيت وقتا طويلا وأنا استجلى ابعاد هذا الموضوع وأتحرى عن المصادر التى أستطيع أن أجِد فيها بذوره وأفكاره لكى أكتشف عنها وأجليها وأرى ما أستطيع أن أبحث فيه وأخيرا استقر الراى على الاختيار وبدأت أضج له التخطيط الذى أسير عليه .

ومع ما كان يحيط بهذا الموضوع من غموض وإبهام لا يغرى بالاقبال عليه ، إلا أن ذلك الإبهام الذى يكتنفه والغموض الذى يلفه كان من الدوافع التى حفزتنى الى التمسك به والحرص على بذل الجهد فى سبيله .

ولذلك بدأت أقرا كتب الطبقات التى تحدثت عن علماء القيروان وأقدم ما وصل إلينا من المصادر فى هذا الصدد : طبقات علماء أفريقية وتونس لأبى العرب تميم المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، وكتاب رياض النفوس للملكى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وترتيب المدارك للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، ومعالم الايمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ المتوفى سنة ٦٩٦ هـ ، وطبقات الاطباء لابن جليل الذى ألفه سنة ٣٧٧ هـ ، وعبون.

الأنباء فى طبقات الاطباء لابن أبى اصبيعه المتوفى سنة ٦٦٧ هـ ، وبغية
الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وغير
ذلك من المؤلفات التى اهتمت بالترجمة لعلماء القيروان .

كما قرأت كتب التاريخ التى تهتم بالجانب السياسى ، ولكنها تورد
بعض الاشارات الى الحياة الفكرية التى كنت احاول رصدها لما تلقيه
من ربط بين الجانب السياسى والجانب الحضارى والفكرى ومن اجل
ذلك قرأت كتب التاريخ المشرقى والمغربى . فقرأت كتاب فتوح مصر
واخبارها لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وفتوح البلدان للبلازرى
المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وتاريخ الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وكتاب
الكامل لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ وغيرهم من مؤرخى المشرق
بالاضافة الى مصنفات مؤرخى المغرب ككتاب تاريخ افريقية والمغرب
للرقيق القيروانى المتوفى فى بداية القرن الخامس الهجرى ، والبيان
المغرب لابن عذارى المراكشى المتوفى فى القرن السابع الهجرى ، وكتاب
العبر وديوان المبتدئ والخبر لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

واضفت الى ذلك كتب المسالك والممالك ككتاب المغرب للبكرى
المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، واحسن التقاسيم للمقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ،
وكتاب المسالك والممالك للاضطخري المتوفى فى منتصف القرن الرابع
الهجرى . وغير ذلك من المصادر القديمة الكثيرة ، ولم يفتنى الاطلاع
ايضا على المراجع الحديثة التى اشارت الى الحضارة الاسلامية والحياة
الفكرية اشارات حاولت رصدها وتلمس معالمها من بين سطورها مما ذكرت
اسمه فى ثبت المصادر والمراجع .

وبالاضافة الى ذلك فقد قمت برحلة علمية الى الجمهورية
التونسية زرت فيها مدينة القيروان وشاهدت معالمها الباقية والمندثرة وبعض
الحفريات القائمة فيها وقابلت بعض العلماء وخاصة المهتمين بالقيروان
فى الماضى . كما حصلت على ثبت بالمخطوطات الباقية منذ ذلك العصر ،
وقد تمكنت من قراءة بعض الكتابات البارزة او المحفورة على المساجد
الاثرية ، وشواهد المقابر وقد ضمنت الكتاب ذلك .

ولقد كان المنهج الذى مرت عليه هو استخلاص واستنباط الجوانب الحضارية والحياة الفرية من مظاهر الحياة المختلفة وقراءة تراجم العلماء الذين ظهروا فى فترة البحث مع الترجمة لأهم أعلام الفكر فى القيروان انطلاقا من أن حياة العلماء ومجهودهم هى الصورة الحقيقية التى نستطيع أن نرى من خلالها ملامح وقسمات الجوانب الحضارية والفكرية واضحة جليلة لا سيما إذا كان معظم المؤلفات مفقودة ولم تصل إلينا .

ولذلك تكون الكتاب بعد هذه المقدمة من ثمانية فصول وخلاصة ذكرت فى نهايتها نتائج البحث ، وتلى ذلك تذييل ببعض الملاحق وتعريف ببعض المصادر .

حيث بينت المقدمة اختيار الموضوع والهدف منه ومنهجه مع اشارة سريعة الى المصادر الرئيسية .

ووضحت فى الفصل الاول كيف تم الفتح الاسلامى فى الشمال الافريقى والدور العظيم الذى كان للقيروان فى اتمام هذا الفتح .

وفى الفصل الثانى : بينت الاسباب الداعية الى تاسيس القيروان والاهداف المقصودة منه وبينت كيف تم اختيار مكانها ، وتخطيطها ، والحركة العمرانية فيها ونموها .

وتحدثت فى الفصل الثالث عن الحالة السياسية وهو يشتمل على عصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس . ثم عصر الاغالبية حيث حصلت القيروان على نوع من الاستقلال ، ثم عصر الفاطميين الذى استقلت خلاله استقلالاً تاماً .

وخصص الفصل الرابع للحديث عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى القيروان .

ويعد معرفة الاطار السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى كانت تعيش فى ظله القيروان . كان الفصل الخامس الذى تحدث عن بداية

الحياة الفكرية وبين كيف انها ابتدأت على أيدي الصحابة والتابعين . وكان الاساس لها القرآن الكريم ثم الحديث والفقه والتفسير ، كما تحدث عن العلماء من أبناء القيروان في بداية الحياة الفكرية ، وكانت هذه البداية الفكرية في القيروان مقدمة لازدهار الفكر ونموه .

ولذلك خصص الفصل السادس للحديث عن ازدهار الحياة الفكرية وتوضيح أبعادها وآفاقها التي شملت كثيرا من العلوم والفنون والآداب بحيث صارت القيروان مقصدا للطلاب من شتى الاقاليم .

أما الفصل السابع فقد تناول علاقات القيروان بغيرها من مراكز الفكر : مكة ، والمدينة ، والكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ودمشق ، ومصر وغير ذلك وبين الجهود الشاقة المثمرة والتي قام العلماء بها في ميدان البحث العلمي . كما وضع اتصال القيروان بالاقاليم المجاورة لها في المغرب والاندلس وصقلية . وما ترتب على ذلك من حماية القيروان من العزلة الفكرية عن غيرها من مراكز الفكر .

وخصصت الفصل الثامن والآخر لبيان الحياة الحضارية والفكرية في القيروان بين التأثير والتأثير مع ملاحظة السمات التي طبع بها الفكر القيرواني .

وختمت البحث بخلاصة وافية أثبتت في نهايتها النتائج التي وصل اليها البحث تلاها تذييل بملاحق اشتملت على نماذج من الخطابة والشعر والكتابة ، ويسجل عن المخطوطات الباقية في مكتبة القيروان العتيقة وقد حصلت على هذا السجل أثناء رحلتى الى تونس واتبعت ذلك بتعريف ببعض المصادر القديمة التي اعتمدت عليها .

وانى لأرجو وقد بذلت في اعداد هذا البحث من الجهد الشاق المضنى ما الله وحده يعلمه والذي قصدت به وجهه الكريم أن يكون التوفيق قد صاحبني فيما قصدت اليه ، وفيما توصلت الى توضيحه وتجليته من

أمور تتعلق بمدينة القيروان العريقة ، ودورها العظيم الذي قدمته
للحضارة الإسلامية . وأن يجد القراء فيه ما ينفعهم ويمدهم بمعلومات
وأفيدة أصيلة عن ذلك المصير الأملاى العتيق .

ولا يسعنى فى هذا المقام الا أن اتوجه بالشكر وافرا وجزيلا لكل
من مدلى يد العون أو ساهم برأى أو مشورة فى إنجاز هذا البحث داعيا
المولى سبحانه وتعالى أن يجزيهم عنا خير الجزاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وسلم .

.. مكة المكرمة فى غرة رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

دكتور

محمد محمد زيتون

الفصل الأول

الفتح الإسلامى فى أفريقيا

تمهيد

الفتح الاسلامى فى افريقية :

● فتح برقة (١) :

لم يذكر احد من المؤرخين القدامى او المحدثين سوى الواقدى استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة حين الفتح العربى فقد ارسل ارسطوليس^(٢) هدية الى الملك صاحب برقة وارسل اليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قيصر « وانهم قد اتونا ٠٠٠ واخذوا مصر واخذوا ملكنا وحكموا فى بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك والصواب ان تشمر لهم الهمم وتجدنا على من بغى واجرم فنحن جيرانك وكلنا جندك واعوانك والسلام »^(٣) .

ثم يصور الواقدى موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بانه عرض الأمر على ارباب دولته « وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له ايها الملك مازالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى اشار به هو الحق وأن العرب اذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور الى بلادنا فابعث اليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فاجابه الى ذلك وامر ابن اخيه

(١) برقة : كانت قبل الفتح العربى تسمى انطابلس وهى كلمة رومية ومعناها خمس مدن واسماؤها الان طوكرة ، شحات ، وبنغازى ، وسوسة ، والمرج وكانت لها اسماء اخرى يونانية انظر الطاهر الزاوى تاريخ فتح العرب فى ليبيا ص ٣٢

(٢) حاكم الاسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام ج ٢ ص ٥٤ .

لواقدى .

(٣) فتح الشام ج ٢ ص ٥٢ .

اسطفانوس ان يمضى فى أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب الاسكندرية « (٤) .

ومن هنا نرى أن اصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غربا بعد فتح مصر والاسكندرية أمر كانت تدعو اليه ضرورة تأمين فتح مصر لا سيما وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الاسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين ومدافعتهما عن البلاد .

يضاف الى ذلك رغبة عمرو بن العاص فى مواصلة الفتح نشرًا للمدين الذى يؤمن به وتبلغا للدعوة التى خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة العربية . ولم يكن اصرار عمرو على مواصلة الفتح التماسا للمغانم التى تعود عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين^(٥) فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من المغرب برامج ثبوت الاتصال بين الحاكمين ثم ما يتسم به عمرو من الحذر جعله يعجل باستطلاع حالة الاقليم المجاور لمصر والاسكندرية غربا ويارسال البلائع لمناوشته وجمع الأخبار والتقريرات عنه فـ « وجه عقبة^(٦) بن نافع الفهرى الى زويلة^(٧) وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه الى برقة فصالح أهلها »^(٨) .

(٤) فتوح الشام للوافدى ج ٢ ص ٥٢ .

(٥) انظر المغرب الكبير ج ٢ ص ١٤٢ .

(٦) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة فتح المغرب لحسين مؤنس

ص ١٣٠ عن أسد الغابة لابن الأثير ج ٣ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٧) زويلة : مدينة من مدن فزان القديمة وتقع فى الجنوب

الشرقى من مرزق بنحو ١٥٠ كم وتبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب

الشرقى بنحو ٧٧٠ كم . طاهر الزاوى تاريخ الفتح ص ٣٥ .

(٨) البيان لابن عذارى ج ١ ص ٨ وفى النسخة تحقيق

ليفى بروفنسال : ووجه منها (أى مصر) عقبة بن نافع الفهرى الى

لوية وافريقية فافتتحهما . ثم توجه عمرو بنفسه الى برقة فصالح

أهلها على الجزية .

وعد اقبل كثير منهم على الاسلام بل اسلم سكان برقة قيادهم للمسلمين مما جعل عمر يرسل تقريراً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه « انه فد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وان ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم قد ادى مسلمهم الصدقة واقر معاهدهم بالجزية وانه قد وضع على اهل زويلة ومن بينه وبينها ما راي انهم يطيفون^(٩) » وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين^(١٠) .

والذى يبدو لى ان اهل برقة التى كان « اكثر اهلها لواته البربرية »^(١١) كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لتسفههم وظلمهم^(١٢) وراوا فى قدوم العرب اليهم ما يخلصهم من البيزنطيين كما ان منهم من قبل الاسلام وآمن به ولن نجد فى تاريخ الفتح لافريقية الذى استغرق اكثر من نصف قرن ان برقة قد انتقضت على المسلمين .

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدو ان سلطتهم لم تكن قوية على اهل البلاد فى ذلك الوقت فنراهم قد أرخوا عنائهم لعقبة ثم قدم عمرو فعقد بنفسه الصلح مع اهل برقة حيث « صالح اهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم^(١٣) من اُحبو بيعه »^(١٤) .

وقد بدا فتح برقة فى سنة احدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبى^(١٥) والطبرى^(١٦) وتم خلال عام اثنتين وعشرين وفقاً

(٩) البلاذرى فتوح ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٥٠ .

(١١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٢ ص ١٢٨

(١٢) انظر فتح العرب المغرب لحسين مؤنس ص ١٦ - ٢١ المغرب

الكبير السيد عبد العزيز سالم ص ١٤٣ ج ٢ ص ١٢٨ .

(١٣) الظاهر ان هذه كانت عادتهم فى اداء ما عليهم من ضرائب

بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية .

(١٤) فتوح البلدان للبلاذرى القسم الاول ص ٢٦٤ .

(١٥) تاريخ اليعقوبى ص ١٧٩

(١٦) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٥٠ .

عن عبد الحكم^(١٧) وابن الأثير^(١٨) .

● فتح طرابلس (١٥) :

بعد ان انتهى عمرو من عقد الصلح مع اهل برقة واصل السير غربا مسجدا نحو طرابلس ولكنه التزم الحذر فصار بالطريق الساحلى بجبته ليستولى على ما فى طريقه مما بين برقة وطرابلس ثم ارسل عنه الى قران^(٢٠) ففتحها ونجح فى مهمته واصبحت المنطقة الداخلية مدمومة بالعواقب لا خوف على الجيش الاسلامى ان يؤتى من قبلها بعد ان استولى على طرابلس وحيادهم^(٢١) وقد استولى عمرو وهو متجه نحو طرابلس على سرت^(٢٢) ولبدده^(٢٣) ثم انتهى الى طرابلس وكانت

١٧١ فنوح مصر ص ١٧١ .

١٨١ تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٢ .

١٩١ مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية .

- ربح الفتح العربى فى ليبيا الطاهر الزاوى ص ٤٥ .

٢٠١ قران : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها أكثر

من ٣٠٠ كم^٢ . انظر الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٨٩ .

٢١١ فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٦٠ .

٢٢١ سرت : بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى

بها الآن وهى تبعد عن البحر الى الجنوب بنحو ٤ كم وتقع فى الجنوب

الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ كم وكانت محاطة بسور من التراب

وهى غير سرت المعروفة الآن سرت الحالية انشئت فى العهد التركى

سنة ١٣٠٢ هـ الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٣٩ .

٢٣١ لبددة : مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر

قبل الميلاد ٠٠٠ وتقع شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم وقد أكل

البحر جزءا كبيرا منها وبنيت مدينة الخمس فى أوائل القرن التاسع عشر

على جزء منها وبأنقاضها . نفس المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

حصينة مصورة فحرب الحصار عليها لامتناعها عليه . وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الاسلامى من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية^(٢٤) البحر^(٢٥) .

وعندما تم فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتمتولى على صبراته^(٢٦) وكان أهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين الى طرابلس ولكن عندما امتنعت طرابلس عليه وضرب عليها الحصار شعروا بالأمان ولم يعبثوا بجيش المسلمين ويبدو أن عمرا كان يتحسس أخبارهم اثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده وانتصر المسلمون عليهم وغنموا ما فى بلدهم^(٢٧) . كما بعث عمرو اثناء حصاره لطرابلس قائده بسر بن ارطاه الى ودان^(٢٨) فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة .

ولقد بعث عمرو بعد أن اتم فتح طرابلس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى فتح افريقية ومواصلة الفتح غربا وكأنه كان يرى أن فتح برقة وطرابلس متمم لفتح مصر أو أن ذلك كان أمرا واجبا

(٢٤) لم تكن مصورة من ناحية البحر . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا طاهر الزاوى ص ٤٧ .

(٢٥) كتاب العبر ج ٢ ص ٢٨ ابن خلدون وفتوح البلدان ص ٢٢٦ . البلاذرى .

(٢٦) صبراته : مدينة قديمة ذات آثار تقع غربى مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر انظر طاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٥٢ .

(٢٧) ارجع الى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢ .

(٢٨) ودان : مدينة قديمة من مدن البرير الجنوبية فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩ كم والى جنوب سرت بنحو ٢٨٠ كم الزاوى تاريخ ص ٦٠ .

لأمن مصر لاسيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة
كما روى الواقدي .

ولذلك كتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتح
طرابلس ثم يطلب منه ابداء الرأى فى مواصلة الفتح الى افريقية يقول
ابن عبد الحكم « أراد عمرو أن يوجه الى المغرب فكتب الى عمر بن
الخطاب : ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة
ايام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » (٢٩)
ولكن حديث ابن عذارى عن مضمون هذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة
افريقية وحكامها وعدد سكانها ثم وسائل دفاعهم ومقدار استعدادهم
وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو « الا بلاد
افريقية وملوكها كثير وأهلها فى عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل » (٣٠) .

وفى مضمون هذا الخطاب عن وصف استعداد افريقية ما يوحى
بأن مواصلة الفتح يقتضى مددا جديدا لا سيما وإن أمامهم كثير من الملوك
الحاكمين لاعداد بشرية كثيرة ذات خبرة ودربة على ركوب الخيل .
ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قد طالت المسافة بينه وبين
خط القتال غربا فى فترة لا تتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين
خلالها على الشام وفلسطين فمصر ثم برقة فطرابلس فى هذا الزمن
الوجيز ، فلذلك لم يأذن لعمرو بن العاص فى مواصلة الفتح الى افريقية
وكتب اليه ينهائى عنها ويقول : ما هى بافريقية ولكنها مفرقة غادرة
مغدور بها . وذلك ان أهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئا فكانوا
يغدرون به كثيرا ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم (٣١) ويضيف

(٢٩) فتوح ابن عبد الحكم . ص ١٧٢ .

(٣٠) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٣١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٦ ولا شك ان ذلك يجعل

لأهلها طيبة خاصة فى الحكم وفى سياستهم .

ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر فى كتابه انه سوف لا يسمح لأحد بغزوها
مدة حياته « لا يغزوها أحد ما بقيت » (٣٢) .

فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلا الى مصر^(٣٣) ويضيف ابن عبد الحكم
سببا آخر حمل عمرا على سرعة العودة الى مصر وهذا السبب يقوى
وجهة نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة فى مواصلة الفتوح ومحاوله
تثبيت الفتح فى البلاد المفتوحة أولا : فقد أتى الى عمرو بن العاص
كتاب المقوقس يذكر له فيه ان الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان
بينهم وبينه وكان عمرو قد عاهد المقوقس على ان لا يكتمه أمرا يحدث
فأنصرف عمرو راجعا مبادرا لما أتاه « (٣٤) » وان كان ابن عبد الحكم
يضيف الى ذلك ان عمرا كان يواصل استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس
وصبراته فيقول « وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون
الغنائم ثم يرجعون » (٣٥) .

ونستخلص من ذلك ان الأسباب التى حملت عمرا على الرجوع هى :

- ١ - عدم رغبة عمر بن الخطاب فى التوسع فى الفتح غربا بعد
ان طالبت المسافة وبعد خط القتال .
- ٢ - ما عرف عن أهل افريقية من الغدر .
- ٣ - نقض الروم عهد عمرو بن العاص فى مصر .

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمرو الى مصر بعد أن ترك
عقبة بن نافع ببرقة يدعو للإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان
البلاد من « قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا فى
الإسلام وأصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر » (٣٦) .

-
- (٣٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .
 - (٣٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨ .
 - (٣٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .
 - (٣٥) نفس المرجع ص ١٧٣ .
 - (٣٦) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج ٢ ص ١٥٢ .

● فتح افريقية (٣٣) :

- غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح :

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهمل شأن هذه البلاد ولم يصرف النظر عن الاتصال بأحوالها وانما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون^(٣٨) .

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلل ذلك بعض المؤرخين وانما هو اشعار البلاد بقوة المسلمين ثم استطلاع الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

ولكن بعد أن توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وبايع المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبد الله بن سعد بن أبي السرح العامرى عن صعيد مصر وكان عمر ولاء الصعيد قبل موته فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها(*) وقد تابع عبد الله بن أبي السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف افريقية ويغنمون(*) .

يزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحا فيذكر انها كانت بأمر من عثمان وان بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندي ولكنها لم تقدر على التوغل فى افريقية لكثرة أهلها وان نتائج ما حصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح ان هذا الأمر فى حاجة الى استعداد أكثر .

(٣٧) نعى بافريقية هنا ما يسمى الآن تونس .

(٣٨) ابن عبد الحكم ص ١٧٢ .

(*) الكندى القضاة والولاة ص ١٠ .

(**) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

وهنا نلاحظ ان سياسة امير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة امير المؤمنين عمر فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضى الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذى وصلت اليه الفتوح فى عهده وهو افريقية حتى تستقر الأمور .

ووجد عثمان ان ظروف الدولة تمكنه من مواصلة الفتوح فأمر باستئناف الفتوح من جديد فأصدر أوامره الى عبد الله بن أبى السرح بزيادة نشاط الطلائع على افريقية فأرسل عبد الله بن أبى السرح عقبة ابن نافع بن عبد القيس على جند وعبد الله بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقيا فى عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها (*) ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير فى ارسال الجرائد الى أطراف افريقية بأمر عثمان وان كان يضيف الى ذلك ان بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبد الله بن أبى السرح وكان المسير له عمرو بأمر عثمان يقول « وفى سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبى سرح الى أطراف افريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر فلما سار اليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب الى عثمان يستأذنه فى غزو افريقية «(**) .

وبعد أن تأكد عبد الله من قدرته على فتح افريقية بعد توفر وجود الجند الكافى لغزوها « كتب الى عثمان وأخبره بقريهم من حرز المسلمين ويستأذنه فى غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه فى ذلك «^(٣٩) ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستشارة

(*) ابن خلدون كتاب العبر ج ٢ ص ١١٩ .

(**) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٤٢ ومن هنا نفهم ان عبد الله ابن أبى السرح خرج فى هذه الطلائع عندما كان أمر مصر الى عمرو بن العاص وعندما عاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند اليه كتب الى عثمان يحبذ له فتح افريقية بعد ان كان يغزو أطرافها .

(٣٩) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ .

عثمان لله وصلاته فى المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسور « خرجت من منزلى بليل طويل أريد المسجد فاذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى ﷺ يصلى فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى اذن المؤذن ثم قام منصرفا الى بيته فقامت فى وجهه فسلمت عليه فقال : يابن مخزومة واتكأ على يدى انى استخرت الله تعالى فى ليلتى هذه فى بعث الجيوش الى افريقية وقد كتب الى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبيهم وقرب حوزهم من المسلمين فقلت : خار الله لأمر المؤمنين قال : فما رأيك يا ابن مخزومة ؟ قلت : اغزهم قال : اجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ واستشيرهم فما اجمعوا عليه فعلته او ما اجمع عليه أكثرهم فعلته ٠٠٠ ايت عليا وطلحة والزبير والعباس وذكر رجالا فضلا بكل واحد منهم فى المسجد ٠٠٠ فلم يختلف أحد ممن شاوره ^(٤٠) غير الأعور سعيد بن زيد .

وقد تحمس الخليفة لهذه الغزوة وأعان المسلمين من ماله الخاص « بالف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التى كانت للمسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك فى المحرم من هذه السنة ^(٤١) سنة سبع وعشرين .

ويصور أبو العرب سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج الى افريقية فى جيش أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى ^(٤٢) .

وعندما اجتمع المجاهدون فى المدينة أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم الى ان يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون اليه الأمر ^(٤٣) .

-
- (٤٠) المالكي رياض النفوس ص ٩
 - (٤٠) ابن عذارى البيان المغرب ص ٩
 - (٤٢) أبو العرب تميم طبقات علماء افريقية وتونس ص ٧٠
 - (٤٣) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣

سار الجيش من المدينة متوجها الى مصر حيث انضم اليه جند مصر وتولى عبد الله بن ابي السرح قيادته وفي طريقه الى افريقية انضم اليهم « عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فنهبوا^(٤٤) الروم عندها »^(٤٥) .

وكانت طرابلس قد نقضت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها وتحصنت فلم يقف عندها ابن ابي السرح لأنه يريد منزلة صاحب افريقية والقضاء عليه وكان صاحب افريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون سعة ملكه بأنه يملك ما بين طرابلس الى طنجة^(٤٦) ، « ولكن المؤرخين اختلفوا في تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فابن عبد الحكم يذكر انه خلق هرقل وضرب الدنانير على وجهه^(٤٧) وابن خلدون وابن الاثير يذكران انه كان تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج كل سنة »^(٤٨) ويزيد صاحب الخلاصة النقية انه : « كان يستند الى صاحب القسطنطينية ويستظهر في حروبه بجيرانه من البربر »^(٤٩) .

والذي تميل اليه النفس ان جرجير لم يخرج على هرقل وانما كان انشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعيا لانشغالهم عن شئون افريقية بدليل انهم عندما قتل جرجير وعقد الصلح

(٤٤) لا شك ان ابن خلدون يقصد بذلك انهم استولوا عليها واذا علمنا انهم كانوا قد طردوا الوالى الذى خلفه عليهم عمرو بن العاص اثناء فتحه لطرابلس كما انهم تحصنوا دون ابن ابي السرح فالمسلمون فى حل من حربهم والاستيلاء على متاعهم .

(٤٥) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤٦) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ ، ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٤٧) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٤٨) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن الاثير الكامل

ج ٣ ص ٤٣ .

(٤٩) الخلاصة النقية للبايى ص ٣ .

مع العرب على جزيرة كبيرة أرسل هرقل بطريقا آخر لى يحصل على مال يعادل ما تعهد بدفعه للعرب^(٥٠) .

ولا شك ان جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت جيوش المسلمين الى برقة وطرابلس ويرى تتابع الملاحع العربية للاغارة على افريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن ابي السرح الى افريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على اهبة الاستعداد حيث قد كون جيشا من مائة وعشرين الفا من الفرنج والروم والبربر وملوكهم .

يقول ابن خلدون متفقا مع ابن الاثير ويتابعهما صاحب الخلاصة النقية وصاحب تاريخ الجزائر فى القديم والحديث : « فجمع لهم جرجير ملك الفرنجة يومئذ بافريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجة^(٥١) وكانت دار ملكه سبيطة فلقوا المسلمين فى زهاء مائة وعشرين الفا والمسلمون يومئذ فى عشرين الفا^(٥٢) .

التقى الجمعان فى مكان يسمى عقوبة^(٥٣) على يوم وليلة من سبيطة^(٥٤) وكان دار ملكهم وكما هى عادة المسلمين عرضوا عليه الاسلام او الجزية فأبى قبول احدهما ونشب القتال ودارت المعركة

-
- (٥٠) ابن خلدون عبر ج ٢ ص ١٣٠ ، ابن الاثير ج ٣ ص ٤٤ .
(٥١) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب .
فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ٥٦ .
(٥٢) ابن خلدون العبر ج ٣ ص ١٠٧ ، ابن الاثير الكامل ج ٣ ص ٤٣ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٢٢ .
(٥٣) البلاذرى فتوح ص ٢٦٧ .
(٥٤) سبيطة : مدينة تبعد عن القيروان سبعين ميلا وعن قفصة مرحلة واحدة وكانت عاصمة افريقية القديمة عن قادة فتح المغرب العربى ج ١ ص ٨٠ للواء شيت خطاب .

واستمرت أياما كان ختامها فى صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب جيشه ومزق شر ممزق وتبعته خيول المسلمين الى حصن سبيطة فمنعوه من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأمازي (٥٥) .

ويث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة (٥٦) فسيبوا كثيرا وغنموا ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الواقعة ويبين اثرها فى الروم بافريقية وكيف ان جموعهم الكثيرة لم تغن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئا مما دعاهم آخر الأمر الى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية كبيرة للمسلمين فقد « أذلت هذه الواقعة الروم بافريقية ورعبوا رعبا شديدا فلجأوا الى الحصون والمعازل ثم طلبوا من عبد الله بن سعد ان يقبض منهم ثلاثمائة (٥٧) قنطار من الذهب فى السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان فى شرط صلحهم ان ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم » (٥٨) .

اما ابن خلدون فيعقب على المعركة بان المسلمين قد جدوا كذلك فى اثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحوف ثم أسر لبعض ملوكهم الذين أشخصوا الى الخليفة حيث أعلنوا اعتناق الاسلام وانه عقد لهم على قومهم فقد « حصل فى أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان بن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر

(٥٥) ابن عذارى البيان المغرب ص ١١ .

(٥٦) قفصة : بلد صغير فى طرف افريقية من ناحية المغرب بينها

وبين القيروان ثلاثة أيام انظر معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٥٧) ثلاثمائة قنطارة = ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار : انظر

البلاذرى ص ٢١٨ .

(٥٨) ابن عذارى البيان المغرب ص ١٢ والبلغ الذى ذكره يتفق

مع ذكره البلاذرى فتوح ص ٢٦٨ .

زنانته ورفعوه الى عثمان بن عفان فاسلم على يديه ومن عليه واطلقه وعقد له على قومه « (٥٩) » .

هذه النتائج التى توصل اليها عبد الله من الانتصار على جرجير وفتح سبيلة وقفصة وحصن الأجم^(٦٠) ثم اذلال الروم والبربر والأهم من ذلك هو قبول بعض ملوك البربر للإسلام ووفوده على الخليفة وعقده له على قومه : تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة للإسلام والمسلمين . ولكن عبد الله بعد أن يوقع الصلح يعود الى مصر فلماذا يرجع عبد الله الى مصر بدون أن يترك حامية ؟ او ان يولى عليهم واليا من المسلمين ؟

ان من ينظر الى نتيجة الحرب بين ابن أبى السرح وجرجير ويرى ان المسلمين قد انتصروا يقول لماذا لم يستغل عبد الله هذا النصر ويوطد أقدام المسلمين فى هذه البلاد ؟

ولكن من يمعن النظر فى هذا الرجوع يتجلى له ان عبد الله قد أدرك ان فتح أفريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لا سيما وهو لا يلتقى بجيش دولة لها كل السلطة على البلاد فاذا ما قضى على الجيش قضى على كل شيء وانما يلتقى بجيش الروم فى الشمال ثم بقبائل البربر فى الجنوب حيث لها ثقايلها وطبائعها وما تتصف به من القوة والدفاع عن حماها وان توطيد أقدام المسلمين يحتاج الى امدادات أخرى مع بعد خطوط هذه الامدادات . ولذلك اكتفى بالانتصار فى الموقعة التى خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلح والجزية الكبيرة التى يعبر عنها البلاذرى فى رواية عبد الله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، وفى رواية ابن كعب ان عبد الله بن سعد بن أبى السرح صالح بطريق

(٥٩) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٦٠) الاجم : العجم الأعجام وكانت مركزا حربيا طوال العهد

البيزنطى : انظر فتح العرب لمؤنس ص ٨٣ .

أفريقية على ألفى دينار وخمسمائة ألف دينار . ويزيد المازنى انه رجع الى مصر ولم يول على أفريقية احدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع (٦١) .

ولا شك انه كان من الممكن أن يترك عبد الله ولو حامية استطلاعية تحمل اليه أخبار البلاد التي تغلب عليها وإن كان واضحا من قول البلاذرى انه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية ولعله اعتمد على

ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الاسلام والايمان به . ولذلك عاد الى مقر ولايته في مصر بعد أن قضى خمسة عشر شهرا في هذه الغزوة فوصل الى مصر في سنة ثمان وعشرين هجرية .

غير « انه عاد لغزو أفريقية سنة ثلاث وثلاثين مرة ثانية حين نقص أهلها العهد (٦٢) . مما يدل على أن ابن أبى السرح حاول أن يحتفظ بأفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة معها فلما نقضت العهد غزاها ثانيا .

وإذا اعتمدنا هذه الرواية الثانية لابن عذارى لتبين لنا أن ابن أبى السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذي حققه عن طريق المعاهدة . غير أن ماجد من حوادث في مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا علاوة على مواصلة الفتح حيث قد ذر قرن الفتنة التي أحاطت بعثمان رضى الله عنه . وتوقفت بسببها الفتوح وقد استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عن الجميع .



- غزوة معاوية بن حديج :

استقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل

(٦١) البلاذرى فتوح ص ٢٦٨

(٦٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٤

المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانيا الى الخارج وبدات موجة جديدة للفتوحات في افريقية حيث اسند الخليفة معاوية بن ابي سفيان في سنة خمس وأربعين الى معاوية بن حديج السكوني أمر مواصلة الفتوح في افريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندي فيه بعض الصحابة والتابعين^(٦٣) .

ويذكر المؤرخون ان بعض الظروف قد خدمت المسلمين ودفعتهم للاسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على افريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد في مطالبة رؤساء افريقية بان يقدموا اليه من الأموال مثل ما دفعوا لابن ابي السرح في صلحهم معه مما أدى الى تذمر أهل افريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد مما دعاه الى حبسهم^(٦٤) . ولذلك تذكر بعض الروايات ان الحاكم الذي أقامه أهل افريقية بعد جرجير لجأ الى معاوية بن ابي سفيان واصفا له أمر افريقية وطالبا منه ارسال جيش لفتح افريقية^(٦٥) .

وهكذا نرى ان أهل افريقية قد ثاروا وغضبوا من حاكم هرقل الجديد كما نلاحظ ان الوالى السابق يذهب الى دمشق لى يستنجد بالخليفة معاوية .

ولقد حاول الخليفة ان يستفيد من هذه الفرصة المانحة فسارع بارسال معاوية بن حديج لاستئناف افريقية .

وقد سار معاوية بن حديج بالقوة الى أرسلها معه الخليفة حتى دخل

(٦٣) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦ ، رياض النفوس للمالكى ص ٧

(٦٤) انظر الطبرى ج ٥ ص ٥١

(٦٥) انظر الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٤٤ ، ابن عذارى البيان

المغرب ج ١ ص ١٦

بها افريقية فنزل بجيشه على قمونية وهى القيروان افريقية^(٦٦) وغادرها الى مكان يقال له القرن^(٦٧) حيث بعث الى جلولا^(٦٨) عبد الملك بن مروان فى الف رجل ٠٠٠ فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها^(٦٩) .

ولقد وصلت انباء حملة معاوية بن حديج الى صاحب القسطنطينية فأرسل جيشا فى البحر مكونا من ثلاثين الف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم^(٧٠) ويقال ان الجيش الرومى قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذى ارسله معاوية ابن حديج بقيادة عبد الله بن الزبير للتصدى لجيش الروم ثم تمكن الزبير بعد ذلك من فتح سوسة^(٧١) ويفيدنا المالكى « ان معاوية غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا الى قمونية وبنى بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور^(٧٢) » .

ومن هذا نرى معاوية بن حديج قد تمكن من فتح جلولا وسوسة وبنزرت وان لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبد الله بن أبى السرح وظهور ميل الأفريقيين لوجود المسلمين

-
- (٦٦) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٤٣
(٦٧) القرن : جبل بأفريقية وهو المعروف الآن بجبل وسلات انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ٨٠
(٦٨) جلولا قرية من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلا منها انظر ماكينة حسين مؤنس فى فتح العرب للمغرب ص ١٢٣ هامش ٠
(٦٩) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٣
(٧٠) الخلاصة النقيه للباجى ص ٤ ، ٥ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣ وابن الأثير تاريخ الكامل ج ٣ ص ٤٥
(٧١) انظر ابن عذارى ج ١ ص ١٦ وسوسة ميناء على البحر وصار ميناء كبيرا أيام الأغالبة ٠
(٧٢) رياض النفوس للمالكى ص ١٩

فيها كما بدأت تظهر فكرة ايجاد مصر اسلامى فى افريقية يكون مستقرا للجيش الاسلامى وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق اهدافه بدون ان تكون المسافات الشاسعة قد استنفذت جهده واضعفت من قوته . واذا كانت فكرة ايجاد مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج الا أن الذى تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها واعطائها طابعها الحقيقى فانما هو القائد الذى سيتولى امر الفتوح من بعد معاوية بن حديج وهو عقبة بن نافع الذى سيسند اليه الخليفة فى دمشق امر افريقية فاصلا بين الامارة فى مصر والقيادة فى افريقية^(٧٣) وحيث استقر ابن حديج واليا على مصر وحدها .



- عقبة بن نافع فى افريقية :

ومما لا شك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح فى افريقية كان اختيارا موفقا لرجل عاش قريبا من افريقية أو فيها منذ توجه جنود المسلمين الى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركا فى الفتح أو قريبا منه . لقد عاش فى برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للاسلام واسناد أمر افريقية اليه معناه أن يجعل افريقية أرضا اسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتداء عقبة اقامته فى افريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتداء يؤسس القيروان لتكون القاعدة الاسلامية والمدينة الاسلامية التى يزود عنها المسلمون والتى تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذين لازالوا يقيمون فى شمالها ثم لنشر الاسلام بين السكان : فى الداخل أو على الساحل .

فقد خرج عقبة الى افريقية بعد معاوية بن حديج « فأقبل حتى نزل بمغمداش »^(٧٤) من سرت . . . فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ثم سار بنفسه وبمن

(٧٣) انظر حركة الفتح الاسلامى لشكرى فيصل ص ١٦٢

(٧٤) مغمداش : بلد قرب من سرت بليبيا .

خف معه اربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قرية حتى قدم ودان فافتتحها ٠٠٠ ثم فزان ففتح قصورها ٠٠٠ ثم انصرف راجعا ففسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمعت خيولهم وظهرهم فسار متوجها الى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ الى أرض مزاته فافتتح كل قصر بها ٠٠٠ ثم بعث خيلا الى غدامس^(٧٥) فافتتحت غدامس فلما انصرفت اليه خيله سار الى قفصه (٧٦) فافتتحها وفتح (٧٧) قسطيلية (٧٨) .

وقد انضم الى جيش عقبة المكون من عشرة الاف جندي من اسلم من البربر^(٧٩) في تلك البلاد مما يدل على ان أهل البلاد قد اعتنق كثير

(٧٥) غدامس : واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا للطاهر الزاوي ص ٨٧
(٧٦) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .

(٧٧) قسطيلية : احدى بلاد الزاب على حدود الصحراء .
(٧٨) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .
(٧٩) البربر : قسم النسابة قبائل البربر الى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس ، البتر وقالوا ان الجماعة الأولى أبناء برنس بن بر ، وان الجماعة الثانية أبناء ما دغيس بن بر الذي لقب بالابتر .
(ا) البرانس :

من قبائلهم المشهورة عشر : ازداجة ، ومصمودة ، أوربة ، عجيسة ، كتامة ، صنهاجة ، أوريغة ويضاف اليهم لمطة وهكسورة ، وجزولة . وهذه الأصول تنقسم الى فروع صغيرة فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .
(ب) البتر :

من قبائلهم المشهورة أربعة : ادراسة ونفوسة وضريمة وبنولوا

منهم الاسلام وحسن اسلامه فانضم الى الكتائب المدافعة عن الاسلام ولكثرة ارتداد بعض البربر في مداخل افريقية عن الاسلام حمل ذلك عقبة على الشدة معهم فـ « وضع السيف في اهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل اليهم امير اطاعوا واظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارند من اسلم »^(٨٠) .

ولقد كان لهذه الغزوة اثر عميق في الروم والبربر حيث تمكن عقبة من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة المسلمين علاوة على تأسيس القيروان ويعبر الدباغ عن ذلك بأنه « افنتح كثيرا من حصونها - اى افريقية - واثخن في قتل الروم والبربر واخط مدينة القيروان وتجول بها أياما . ثم قدم ابو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الانصارى الى افريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيده وحبسه وخرب ما كان اختطه وبناه بالقيروان »^(٨١) .

ورغم ان عقبة لم يقيم خلال هذه الفترة التي تولى فيها امر افريقية الا بتطهير الداخل ثم شن بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان الا ان كارل بروكلمان يعده المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى افريقية الشمالية ويبالغ فيذكر انه وفق للقضاء على الحكم النصرانى فى شمال افريقيا جملة فهو يعتبره « المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى افريقية الشمالية ٠٠٠ ووفق بمعاونة البربر الى القضاء على الحكم النصرانى فى شمال افريقية جملة واحدة ثم عزل بعد أن انشأ مستعمرة عسكرية فى القيروان »^(٨٢) .

الأكبر ومن قبيلة لوا قبيلنا نفزاوة ولواته ومن قبيلة نفزاوة تنحدر قبيلة ولهاصة ومن ولهاصة تنحدر قبيلة تيرغاش ومن تيرغاش تنحدر قبيلة ورفجوة . انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦ .

(٨٠) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٣٤

(٨١) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

(٨٢) تاريخ الشعوب الاسلامية - كارل بروكلمان ج ١ ص ١٥٢ .

ولا شك ان عقبة اثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس اخبار عدوه بارسال الطلائع والحملات السريعة التى تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذى يملأ شغاف قلب عقبة واصحابه وهو نشر الاسلام وتبيينه للناس وبذلك « دخل كثير من البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمانوا على المقام فثبت الاسلام فيها » (٨٣) .

وبهذا يتبين لنا ان بناء القيروان كان ذا اثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان الى النفوس لترضى بالمقام ثم تثبت بذور الاسلام فى افريقية .

وبعد ان مكث عقبة فى ولايته هذه خمس سنوات قضى معظمها فى تأسيس القيروان ونشر الاسلام فى النواحي القريبة منها عزل عنها بأبى المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية (٨٤) .

* * *

- أبو المهاجر دينار :

عندما أوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان لكى يواصل الفتح فيزيل سلطان الروم من الشمال تم يستمر فى نشر الاسلام بين البربر حسب خطته فوجيء بعزله بأبى المهاجر دينار فى سنة خمس وخمسين هجرية والبلاذرى يشير الى ولاية أبى المهاجر دون أى ذكر لآعماله فقد « عزل معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصارى فولى المغرب أبا المهاجر دينار مولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع على عمله » (٨٥) . وهكذا

(٨٣) ابن الأثير اسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ عن فتح العرب للمغرب

حسين مؤنس ص ١٤٦ .

(٨٤) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٨٥) البلاذرى فتوح ص ٢٧٠ .

لا يسند اليه البلاذرى اى عمل قام به سوى الاشارة الى ولايته وعزله .
أما ابن عبد الحكم فيسند اليه أنه أقام بأفريقية واتخذها منزلا لا يفارقها
الى القسباط وان كان قد كره ان ينزل فى القيروان عقبة « ومضى حتى
خلفه بميلين فابتنى ونزل . وكان الناس قبل أبى المهاجر يغزون افريقية
ثم يقفلون منها الى القسباط . وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر
مولى الانصار اقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا » (٨٦) .

ولكننا نعلم ان عقبة قد اقام فى افريقية أربع أو خمس سنوات حين
كان يبنى القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم ان أبا المهاجر هو أول من
أقام بأفريقية فترة الشتاء والصيف ؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التى فضاها أبو المهاجر فى حملته على
المغرب الأوسط التى انتهى فيها الى العيون المعروفة بأبى المهاجر
نحو تلمسان (٨٧) ولبت فيها هناك نحو عامين أو ثلاثة (٨٨) وفى خروجه
هذا « افتتح أبو المهاجر المذكور ميله (٨٩) (مدينة صغيرة بينها وبين
بجاية (٩٠) ثلاثة أيام) وكانت اقامته فى هذه الغزوة نحو من سنتين (٩١) »

ويحدثنا المالكى عن الجند الذى صحب أبا المهاجر بأنهم من أهل
الشام ومصر وانه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير اشارة مهمة الى أنه قد وجه
حسين بن عبد الله الصفهاجى بجيش الى الجزيرة (٩٢) فافتتحها . ومن

(٨٦) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٨٧) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم اقادير على بعد مرحلة
من وهران . انظر التفاصيل معجم البلدان (١٠٩/٢) .

(٨٨) المالكى رياض النفوس ص ٢١ .

(٨٩) ميله : مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام .

(٩٠) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب .

التفاصيل فى معجم البلدان (٦٢/٢) .

(٩١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥ .

(٩٢) نفس المصدر .

هنا يظهر لنا أن بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر . ذلك ان أبا المهاجر قد « نزل بفحص تونس ويقال انه نـزل بسيخة وبنى بها ومنها حارب اهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش الى الجزيرة فافتتحها وكتب الى أبى المهاجر بذلك فرحل اليه واجتمع معه وقسم الفء هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بذكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمس الى مصر »^(٩٣) ويقال : ان أبا المهاجر عقد صلحا مع اهل قرطاجنة على أن يخلو جزيرة شريك^(٩٤) .

ومن هنا نرى أن أبا المهاجر قد قاتل الروم فى قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم ويعقد صلحا معهم ليتوجه بجيوشه الى البربر متوغلا الى المغرب الأوسط حيث ينزل البربر فى عقر دارهم ويتغلب عليهم ثم هو يتألفهم حتى يعتنقوا الاسلام ويكون ذلك نصرا لنشر الاسلام فى أماكن لم ينشر فيها من قبل ويشير الى ذلك ابن عذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه من كسلة بن لمزم الاوربى « بأن أبا المهاجر فى ولايته لافريقية كان نهض الى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف الآن بعيون أبى المهاجر فزحف منها الى كسيلة وهو فى عدة من قبائل البرانس فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الاسلام فأسلم واحسن اليه أبو المهاجر واستبقاه »^(٩٥) .

وزيد ابن خلدون الامر وضوحا بأن كسيلة كان على دين النصرانية وانه كان رئيسا لاورية التى كانت تنتزع البربر آنذاك وقد اجتمع اليه البرانس فزحف اليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم « فظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه »^(٩٦) وبذلك استطاع أبو المهاجر خلال فترة ولايته ان يتعمق فى الداخل بين البربر الى أن وصل الى تلمسان فى المغرب الأوسط واذا كان

(٩٣) المالكي رياض النفوس ص ٢٠ .

(٩٤) انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٣٩ .

(٩٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٩٦) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

لم يستطع ان يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل من ناحية الساحل الى ميلة ثم عاد الى المكان الذى بناه ليجد أن الخليفة يزيد بن معاوية قد اعاد عقبة لى يتولى أمر افريقية مرة اخرى .

ـ عقبة بن نافع فى افريقية ثانيا :

لقد قضى عقبة وقتا طويلا فى برقة وعندما اسند اليه أمر افريقية اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لى يواصل منها تبليغ الدعوة الى الشمال الافريقى كله ولكنه بعد أن اتم بناء القيروان عزل عن امارة افريقية ولذلك ذهب الى دمشق لى يوضح للخليفة خطته ويبين ما يرمى اليه من نشر للإسلام وفتح للبلاد كما يوضح ما قد تم فى فترة ولايته السابقة ويورد ابن عبد الحكم أن عقبة قدم « على معاوية بن أبى سفيان فقال له فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ثم ارسلت عبد الانصار فأساء عزلى فاعتذر اليه معاوية » (٩٧) .

بينما يذكر المالكى : انه قدم على معاوية بن أبى سفيان فوجده قد توفى الى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه وقال له : لما افتتحتم افريقية بنيت مسجد الجماعة ثم بعثتم عبد الانصار فاهاننى وأساء عزلى فغضب يزيد وقال « ادركوها قبل أن يخربها » ورد عقبة « وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثنين وستين وقدم عقبة الى القيروان بعشرة آلاف فارس » (٩٨) ورأى المالكى هذا يتفق مع رواية ابن عبد الحكم الثانية فى انه قدم على يزيد لا على معاوية .

(٩٧) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٩٨) المالكى رياض النفوس ص ٢ ٢ . ويذكر الدباغ كذلك ان جند عقبة كان عشرة آلاف ولكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلا عن الدباغ انهم كانوا خمسة عشر الفا . فتح العرب للمغرب ص ١٨١ ويتابعه د . سيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢٢٢ .

ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فيبدأ بتعمير القيروان واعادتها الى سابق عهدها وجعلها موطناً ومقراً للمسلمين « فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس اليها فعمرت وعظم شأنها »^(٩٩) .

وبادر عقبة ذلك بحملة كبرى على المغرب وهى حملة طويلة وسريعة وصل فيها الى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفضهم حيث استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية^(١٠٠) وليس ولقيه ملوك البربر بالزاب^(١٠١) وناهرت^(١٠٢) فضضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب الاقصى واطاعته غمارة « ثم اجاز الى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فآخذن فيهم وانتهى الى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا »^(١٠٣) .

وبعض المؤرخين يذكر انه ترك بالقيروان جندا واستخلف عليها زهير بن قيس البلوى كما انه عندما هزم الروم عند باغاية كرة المقام

(٩٩) رياض النفوس المالكي ص ٢٢ .

(١٠٠) باغاية : مدينة كبيرة فى اقصى افريقية بين مجانة وقسنطينة وهى حصن بربرى قديم وكان سكانها من البربر والروم شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ٩١ .

(١٠١) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة وهى كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطنة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها . وفى تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) ان بلاد الزاب نطلق عليها اليوم ولاية قسنطينة المرجع السابق ص ٩١ .

(١٠٢) ناهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما : ناهرت القديمة وللأخرى : ناهرت المحدثه المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١٠٣) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

عليها فسار الى الزاب وقتل النصارى فى مدينتها اربة^(١٠٤) وقد استعان الروم بالبربر فى تاهرت ولكنه تغلب عليهم وغنم المسلمون المال والسلاح كما نزل بطريق طنجة على حكمه فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى ان عقبة كان يتطلع الى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فصار الى السوس^(١٠٥) الأدنى ثم السوس^(١٠٦) الأقصى فقتل فى البربر قتلا ذريعا ومار حتى بلغ ماليان^(١٠٧) ورأى البحر المحيط فقال « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه »^(١٠٨) .

ويذكر ابن عذارى « ان صاحب سبتة سال عقبة المسألة وان ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به »^(١٠٩) حيث صالحة وأفره على بلاده^(١١٠) .

ويعلق الرقيق القيروانى على موقعة من المواقع التى خاضها عقبة

-
- (١٠٤) اربة : مدينة بالمغرب من اعمال الزاب وهى أكبر مدينة بالزاب شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٠٨ .
- (١٠٥) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين المرجع السابق ص ٩١ .
- (١٠٦) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم مدينة الا انها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يحف بها طوائف من البربر نفس المرجع ص ٩١ .
- (١٠٧) ماليان : بلد فى أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط . معجم البلدان (٣٦٧/٧) .
- (١٠٨) الكامل لابن الأثير بتصرف ج ٤ ص ٥٣ .
- (١٠٩) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .
- (١١٠) تاريخ افريقية والمغرب للرقين القيروانى ص ٤٣ .

فى حملته على المغرب وهى موقعة ادنه^(١١١) بقوله « فانهزم القوم وقتل فيها اكبر فرسان البربر فذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر الدهر »^(١١٢) كما كان لهذه الموقعة اثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا وتحصنوا^(١١٣) .

ومن هنا يتبين لنا ان عقبة قد نجح فى التغلب على كل الجموع التى تصدت له الى أن قفل راجعا ولو لم ينته الى الغاية التى سينتهى اليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة اثر كبير فى عدم انتفاض الشمال الافريقى كله بعد استشهاد . ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله : « ثم انقلب بعد ذلك عائدا ادراجه ليعود الى القيروان دون أن يترك باى ناحية مر بها اثرا يذكر »^(١١٤) ثم يقول « بل لم يكن نشر الاسلام غاية واضحة فى ذهن عقبة اذ لو كان يطلب هذا فليس تلك هى السبيل التى تؤدى الى ادراك هذه الغاية انما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الاسلام وتخير الناس بينه وبين الحرب والجزية فان ابوا كانت الحرب هكذا كان الفاتحون فى الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . اما عقبة فكان ينقض على المدائن محاربا مقاتلا ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون ان ينتهى مع اهل البلد الى شىء معلوم بل لو كان يرجو نشر الاسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم اهله الاسلام »^(١١٥) .

ولا شك ان هذا فيه تجن كبير على عقبة رضى الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الاسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما اقام المساجد

-
- (١١١) ادنة : بلدة كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل انظر الرقيق تاريخ افريقية ص ٤٢ .
(١١٢) المؤنس لابن أبى دينار ص ٣٠ .
(١١٣) المسالكى رياض النفوس ص ٢٣ .
(١١٤) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٩٥ .
(١١٥) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

فى كثير من الأماكن التى مازالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقى شاهدا على ما كان لهذه الغزوة من تأثير مازال مستمر الى الآن حيث ان أهل البلاد مازالوا يعظمون تلك المساجد التى أنشأها عقبة أثناء غزوته فيها الى ماسة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجدا^(١١٦) .

كما يذكر ابن عذارى انه « سار حتى نزل ايجلى بالسوس وبنى فيه مسجدا وانه لم يصح عنده ان عقبة رضى الله عنه حضر بنىان شىء من المساجد بالمغرب الا مسجد القيروان ، ومسجدا بدرعة ومسجدا بالسوس الأقصى . واما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فان الناس والله اعلم بنوها بموضع نزوله »^(١١٧) .

وهكذا نرى ان عقبة حتى فى اثناء قيامه بالغزوة كان يبنى المساجد وهذا يعطى دليلا على انه كان هناك من يدخل فى الاسلام من أهل هذه النواحي وانه كان يهتم بالدعوة الى الله ونشر الاسلام قبل أى شىء آخر . وان المساجد الكثيرة التى تحمل اسمه والتى بناها الناس بعد ذلك بالمواضع التى كان ينزل فيها . يعطى الدليل الواضح على الأثر الذى تركه عقبة فى المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضحا انه ترك فى المغرب صاحبه شاكرا وبين انه كان يعرض الاسلام ويدعو اليه قبل ان يشهرا السيف . يقول « ثم رجع عقبة قافلا الى المغرب الأوسط وسلك على ايفيران يطوف ثم الى تارنا ثم الى موضع شاكرا وترك به صاحبه شاكرا فسمى باسمه . ثم رحل منه الى بلاد دكالة فوجد فيها قوما فدعاهم الى الاسلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمى ذلك الموضع مقبرة الشهداء الى الآن . ثم رجع من دكالة الى بلاد هسكورة الى موضع يقال له اطار فوجد فيه اقواما فدعاهم الى الاسلام فامتنعوا فقاتل معهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب »^(١١٨) كما يعبر ابن عذارى فى مكان آخر بأنه ترك فى

(١١٦) المالكى رياض النفوس ص ٢٦ .

(١١٧) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ .

(١١٨) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

المغرب الأقصى أكثر من معلم غير شاكر كما يذكر ان كثيرا من المصامدة اسلموا على يديه يقول « وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والاسلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى احد ولاة خلفاء بنى أمية بالمشرق الا عقبة بن نافع الفهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل ان أكثرهم اسلموا طوعا على يديه » (١١٩) .

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد انكاره لآثار عقبة في تلك الغزوة الى الاعتراف ببعض آثاره فيقول « لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه يقاض على كل اثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضيا على بعض الأثر السياسى لأن عمل عقبة لم يكن سياسيا وانما كان دينيا » (١٢٠) وقفل عقبة بعد وصوله الى البحر المحيط قاصدا القيروان « فلما انتهى الى ثغرة افريقية اذن لمن معه من أصحابه أن يفرقوا ويقدموها فوجا فوجا وعند طبنه (١٢١) اذن لمن بقى معه بالانصراف الى القيروان ومال فى خيل يسير يريد تهودة » (١٢٢) ، (١٢٣) وكان عقبة بن نافع قد أساء الى كسيلة بن لمزم الزعيم البربرى ولم يحفل به عندما تولى امارة افريقية للمرة الثانية وتبالغ المصادر فى هذه الاساءة التى وجهها الى كسيلة غير ان الشيء الذى لا شك فيه ان كثيرا من البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التى يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد ان فل جموعهم وشتت شملهم وانتصر عليهم فى كل المواقع التى خاضها

(١١٩) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(١٢٠) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٢١) طبنه : بلدة فى طرف افريقية مما يلى المغرب على ضفة

الزاب انظر معجم البلدان (٢٨/٦) .

(١٢٢) تهودة : مدينة فى جنوب جبال أوراس وفى الجنوب الشرقى

لمدينة طبنه وتبعد عنها ٣٧ر٥ ميلا . شيت خطاب فتح المغرب

ج ١ ص ١١١ .

(١٢٣) المالكى رياض النفوس ص ٢٥ .

ضدّهم فما زالوا يتريصون به حتى وانتهم الفرصة عندما انفرد بعيدا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه .

فقد « عرض له كسيلة بن للمم فى جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن معه » (١٣٤) .

وهكذا كان عدم الحذر حتى بعد الانتصار هو السبب الذى مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الاسلامى على مغادرة افريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل ابعاد الفرصة التى واثته فجمع اهل الغرب وزحف الى القيروان « فانقلبت افريقية نارا وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة » (١٣٥) ويعلل الرقيق القيروانى خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث « لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم واسلموا القيروان وبقي بها اصحاب الذرارى والاثقال فارسلوا الى كسيلة يسألونه الامان فامنهم واجابهم واقام كسيلة حتى نزل القيروان واقام اميرا على افريقية وقد بقى من بقى من المسلمين تحت يده » (١٣٦) .

وبذلك تحقق لكسيلة بعد ان تمكن من اغتيال عقبة من أن يكون اميرا على كل افريقية حيث امن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين واقام بالقيروان اميرا على سائر افريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين الى ان ولى الخلافة عبد الملك بن مروان . ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى ان يقاتل كسيلة بمن بقى من

(١٣٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٨ .

(١٣٥) رياض النفوس للمالكي ص ٢٨ .

(١٣٦) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص ٤٦ .

الجيش مع الحامية التى تركها عقبة عند مغادرته القيروان وان يدافع عن القيروان غير ان أثر قتل عقبة وما اجتمع حول كسيلة من الاعداد الكثيرة من الروم والبربر حمل حنش الصنعانى^(١٣٧) ان يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة بجموعه « لا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين الى مشرقهم »^(١٣٨) واضطر زهير خليفة عقبة الى مغادرة القيروان تحت هذه الظروف الفهرية الخارجة عن ارادته بالنسبة للعدو وللحامية التى معه حيث خالفه حنش^(١٣٩) الصنعانى وعاد الى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير الى العودة معهم فصار الى برقة واقام بها^(١٣٠) .

ولا شك ان قتل عقبة فى تهودة كان مأساة حقيقية كما يقول الدكتور شكرى فيصل^(١٣١) وان كان لم يفن الجيش كله فى تهودة وانما استشهد عقبة والعدد القليل الذى كان معه ثلاثمائة مقاتل . ولقد قتل النعمان بن مقرن فى موقعة نهاوند ولكن كان النصر فى المعركة .

ولذلك فاننى القى بعض المسئولية فى خروج البلاد من طنجة الى القيروان على بقية قوات الجيش التى أثرت الانسحاب ولم تمل الى رأى

(١٢٧) حنش الصنعانى : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعى كبير ثقة روى عن رويغ بن ثابت ، وأبى هريرة غزا المغرب وسكن افريقية وهو أول من ولى عشور افريقية فى الاسلام ، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفى سنة ١٠٠ هـ . شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٥٢ .

(١٢٨) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .
(١٢٩) يذكر اللواء محمود شيت خطاب فى قادة فتح العرب للمغرب ان الصحيح هو حنش لا جيش ج ١ ص ١٥٢ وهو حنش فى البيان لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .

(١٣٠) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٤ .
(١٣١) حركة الفتح الاسلامى ص ١٧٠ .

زهير فى مقاومة كسيلة ولو حدث وانصنت القوات المقاتلة الى حديث زهير وهو يناديهم « يا معشر المسلمين ان صاحبكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة فاسنكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك »^(١١٢) لكان لهم النصر على هذه القوات التى انتصروا عليها من قبل وسينتصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الانسحاب على المواجهة .

* * *

- زهير بن قيس البلوى : يسترد القيروان :

لا شك ان مدينة الفيروان قد أسست لتكون مدينة اسلامية على المسلمين ان يفتنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها ، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الاسلامى الى الرحيل عنها مخلفا « اصحاب العيال وكل منقل من التجار واهل الذمة »^(١٣٣) دافعا للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح ، وهكذا نرى مركز القيروان وسكانتها تطالب المسلمين جميعا بأن يدافعوا عنها فيتحدث بشأنها اكابر المسلمين الى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزرائه فيجتمع الرأى على تعيين زهير بن قيس البلوى ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هبة المسلمين والأخذ بثار عقبة بن نافع « ففى سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك بن مروان فلما اشتد سلطانه واجتمع اكابر المسلمين عليه سالوه تخليص افريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا من هو مثله دينا وعقلا » فاستشار وزرائه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى وقالوا : هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم يطلب دمه فوجه عبد الملك الى زهير وهو ببرقة فأمره بالخروج على أعنة الخيل الى افريقية ليستنقذ من بالقيروان فكتب اليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فأمده عبد الملك بن مروان بالخيول والرجال

(١٣٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(١٣٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٥٥ .

والأموال وحشد اليه وجوه العرب وبعثهم اليه فوفدت الجبوش على زهير وتسرع الناس معه الى افريقية « (١٣٤) .

ولقد كان لكل من الشام ومصر أثر واضح فى هذا البعث الذى اسند اليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال والشام بتقديم الرجال فقد « أرسل عبد الملك الى اشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام وافرج عليهم أموال مصر فسارع الناس الى الجهاد » (١٣٥) .

اما زهير فقد قضى هذه الفترة - منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة الى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ الفيروان - مرابطا فى برقة يزود عنها من يريد بها سواء وخاض كثيرا من المواقع هو ومن بقى معه من الجيش الافريقى (١٣٦) . فكانت له بها وقائع كبيرة (١٣٧) .

ولقد استمر حكم كسيلة للقيروان خمس سنين اتسع فيها سلطانه واعطى الأمان للعرب الذين تخلفوا عن اللحاق بالجيش من أهل الذرارى والأثقال وعظم خلالها سلطانه على البربر (١٣٨) .

وكان اسناد عبد الملك ولاية افريقية الى زهير لكى يستنفذها من يد كسيلة فى سنة ٦٩ ووجه اليه جيشا كبيرا قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير بعشرة آلاف جندى (١٣٩) . وعندما احس كسيلة بقدوم جيش المسلمين احضر اشراف اصحابه وعرض عليهم اختيار ممس (١٤٠) مكانا للمعركة

-
- (١٣٤) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .
 - (١٣٥) رياض النفوس للمالكي ص ٢٩ ، ٣٠ .
 - (١٣٦) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيروانى ص ٤٧ .
 - (١٣٧) رياض النفوس للمالكي ص ٣٠ .
 - (١٣٨) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .
 - (١٣٩) تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبور ج ٢ ص ٦٢ .
 - (١٤٠) ممس : مدينة بيزنطية قديمة وتقع فى جنوبى القيروان المالكي رياض هامش ص ٢٨ .

بحيث يكون آمنا من غدر المسلمين فى القيروان ثم اذا هزم العرب تتبعهم وقطع اثرهم من افريقية كلها واذا هزمه العرب لجأ الى الجبال ونجا من قبضة المسلمين فأجابه اصحابه الى رأيه فغادر القيروان متجها الى ممس ليتمكن من الفرار من وجه العرب عند الهزيمة^(١٤١) .

وكان استعداد كسيلة لخوض المعركة استعدادا تاما فقد تمكن من حشد عدد عظيم من البربر والروم تحت لوائه بلغ اضعاف جند المسلمين كما استشار رؤساء الجند وأشرفهم وكل ذلك أعطى لجنوده روحا معنوية جعلتهم لا يهابون المسلمين^(١٤٢) .

وكما استعد كسيلة للمعركة وحدد مكانها فى ممس فان زهيرا حدد زمانها فلم يلتق بكسيلة فور وصوله الى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال بل نزل قريبا من القيروان ولم يدخلها ومكث بها ليستريح جيشه ويأخذ حظه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التى يأخذ بها الثأر لعقبة ويحمى القيروان ويستنقذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف فى اليوم الرابع فوقف على كسيلة وعسكره آخر النهار . فلم ينازله ولكن الجيش بقى على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلسا ثم تزاحف الجيشان والتحموا فى قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل فى الفريقين حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها^(١٤٣) وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعوا فلول الجيش المنهزم ولم يمكنوهم من اللحاق بالجبال التى كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل فى هذه الواقعة كثير من ملوك البربر وأشرفهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة مما أدخل الرعب

(١٤١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ .

(١٤٢) انظر الرقيق تاريخ افريقيا ص ٤٩ ، ٥٠ البيان المغرب

لابن عذارى ج ١ ص ٣٢ .

(١٤٣) الرقيق تاريخ افريقية ص ٥٠ ، ٥١ .

والفزع فى قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهير الى القيروان فأوطنها^(١٤٤) .

لقد كان لموقعة ممس فى افريقية اثر كبير فى اعادة هيبية المسلمين لما كانت عليه قبل مقتل عقبة كما اعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان فى كثرة كاثرة « وكان لها من الأثر الكبير فى نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسلمين مثل الذى كان لمحركة تهودة فى نفوس المسلمين من اثر قبل ، فتا فى العصد واثارة للرب «^(١٤٥) وتقوية للروح المعنوية بين المسلمين .

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وإن يسترد للمسلمين هيبتهم فى افريقية ولكنه بعد أن يستقر له الأمر ويطمئن الى أن المسلمين قد أصبحوا فى امان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكرا كثيرا من أصحابه ويرحل فى جمع آخر قاصدا المشرق غير مصغ الى طلب رؤساء أصحابه بالمقام فى القيروان .

وعند وصوله الى برقة يلتقى بالروم المغيرين عليها حيث يلقى ربه شهيدا فى سبيل انقاذ أسرى المسلمين فى برقة .

فقد استغل الروم خروجه من برقة قاصدا افريقية لقتال كسيلة وأعدوا حملة بحرية كبيرة للاغارة على برقة خرجت اليها من صقلية وتمكنوا من سبى كثير من المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين استنفادا لسبى المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤيته غير ملق بالا الى تفوق الجيش المغير على من معه وياشر القتال واشتد الأمر

(١٤٤) المالكي رياض ص ٣٠ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٢ .

(١٤٥) حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول وشكرى فيصل

ص ١٧٢ .

وعظم الخطب فتكاثر أنروم عليه فقتلوا زهيرا ومن معه ولم ينج منهم احد وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية^(١٤٦) .

لقد اقتص زهير من البربر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد فى برقة بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظره حسان بن النعمان الذى سيتولى أمر افريقية بعده الى محاولة القضاء على النفوذ الرومى فى شمال افريقية حتى يقضى على كل أمل للقسطنطينية فى الشمال الافريقى كله .

ولكن لماذا عاد زهير من القيروان الى برقة أو المشرف ؟

يشير ابن عذارى وابن الأثير الى أسباب العودة بأن زهيرا رأى بأفريقية ملكا عظيما فأبى أن يقيم بها وقال « انى ما قدمت الا للجهاد وأخاف أن تميل بى الدنيا فأهلك^(١٤٧) » ويتفق معهما المالكى والدباغ بعبارة أخرى قريبة من ذلك . انما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا^(١٤٨) .

ويعلل ابن خلدون عودة زهير بقوله « ثم ترهب^(١٤٩) زهير بعدها وقفل الى المشرق فاستشهد^(١٥٠) ببرقة » أما الرقيق الفيروانى فيذكر ما هو قريب من ذلك من رفض زهير لملك الدنيا ورغد عيشها « انى قدمت الى الجهاد وأخاف أن تميل بى الدنيا فأهلك ولست أرضى بملكها ورغد عيشها^(١٥١) » .

(١٤٦) انظر المالكى رياض ص ٣٠ ، ابن الأثير الكامل ج ٤

ص ٥٥ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٣

(١٤٧) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ ، الكامل لابن الأثير

ج ٤ ص ٥٥

(١٤٨) رياض النفوس للمالكى ص ٣٠ ، ومعالم الايمان للدباغ

ج ١ ص ٥٩

(٣٤٩) لعله يقصد زهد فى الامارة .

(١٥٠) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨

(١٥١) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق الفيروانى ص ٥٢

هذا ما يعلل به المؤرخون القدامى عودة زهير ولم يطمئن الى ذلك الدكتور حسين مؤنس ويقول عنه : « تحليل ضعيف لان الزاهد الورع الذى يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذى يقيم على الثغور ويرابط على دار الحرب ٠٠٠ ثم يقول يبدو أن زهيرا اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بأفريقية من المسلمين ٠٠٠٠ ويبدو كذلك أن الرجل كان مسناحين هم بحملته تلك وانه لم يقم بها الا طلبا لنار صاحبه فلما فرغ منه عجل بالعودة » (١٥٢) .

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى « ان السبب الحقيقى هو وصول معلومات أكيدة اليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة لذلك سارع الى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولا ، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانيا خاصة انه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريبا » (١٥٣) .

ويوجز صاحب حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول رايه بقوله : « وعاد زهير ادراجه الى برقة مكثفيا بما حقق من نصر » (١٥٤) ويقول صاحب المغرب الكبير « ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القبول الى برقة » (١٥٥) .

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين لا يميلون الى الأخذ برأى قدامى المؤرخين .

ويبدو لى أن زهيرا ربما كان لا يزال متأثرا بما حدث عقب مقتل عقبة من اختلاف الناس عليه وانه رأى ذلك طعنا فى قيادته فأثبت

(١٥٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

(١٥٣) قادة فتح العرب للمغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦٠ .

(١٥٤) حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول بشكرى فيصل

ص ١٧٢ .

(١٥٥) المغرب الكبير سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٣٧ .

جدارته وانتصر لمقتل عقبة وبعدد أقل من جند عدوه واسترجع القيروان وأمنها وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بدا له أنه قد أتم ما تطمئن إليه نفسه فترك ولاية أفريقية وعاد . يضاف الى ذلك أنه كان يزهد في الامارة ويرى أن امارته كانت لمهمة قد قام بها يشير الى ذلك ما عبر عنه الدباغ بعد اختيار عبد الملك له بقوله « فلما اتصل ذلك بزهير سره ذلك وسارع الى الجهاد وكتب الى عبد الملك يخبره بقله من معه من الرجال وقلة الأموال ^(١٥٦) ومع ذلك فأنى أقول مع الدكتور حسين مؤنس : « ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضا يحتاج الى كثير من الايضاح » ^(١٥٧) .

* * *

— حسان بن النعمان الغساني (١٥٨) يثبت أقدام المسلمين في أفريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر :

لقد استطاع زهير أن ينتصر على كسيلة وبذلك تحقق الانتصار على بربر الشمال أو البرانس وبقي بربر الجنوب البثر الذين يسكنون الأوراس ، كما بقى الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن الساحل .

ولقد كان استشهاد زهير محمدا لمن يأتي بعده للأخذ بثأره . العدو الذى يجب أن يقضى عليه حتى يصير المسلمون فى مأمن من مثل هذه الهجمات ويتفرغوا للمهمة التى يضطلعون بها من نشر الاسلام وتعاليمه فى تلك البقاع . ثم حمله الى غيرها من البقاع ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .

(١٥٦) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٥٧

(١٥٧) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٨ .

(١٥٨) انظر شيت خطاب قادة فتح العرب للمغرب ج ١ ص ١٧٢ .

لقد استاء عبد الملك بن مروان الخليفة لاستشهاد زهير « وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة » (١٥٩) .

وكان لقتله اثره البعيد في افريقية فقد « اضطرت افريقية نارا وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم » (١٦٠) مما دعا اشراف المسلمين واصحاب الرأي بأن يطلبوا من الخليفة أن يوجه الى افريقية من يستطيع أن يقوم بامرها حتى تثبت اقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان ليتولى أمر افريقية وزكاه بأنه لا يصلح لافريقية أحد سواه ويعبر المالكي عن ذلك بأن اشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر الى أهل افريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش اليهم فقال عبد الملك « ما أعلم أحدا أكفاً بأفريقية من حسان بن النعمان الغساني » (١٦١) .

واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي توجه فيها حسان الى افريقية اختلافا كثيرا فهو يتردد بين « سنة تسع وستين الدباغ » (١٦٢) والرياض وسنة ثلاث وسبعين ابن عبد الحكم (١٦٣) وأربع وسبعين ابن الأثير (١٦٤) وست وسبعين وسبع وسبعين وثمان وسبعين ابن أبي دينار (١٦٥) وتسع وسبعين الباجي « (١٦٦) ولعل السبب في ذلك يعود الى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم أمر بالبقاء في مصر لما قد

(١٥٩) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٣ ، المؤنس لابن

أبي دينار ص ٣٣ .

(١٦٠) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

(١٦١) رياض النفوس للمالكي ص ٣١ ، الرقيق القيرواني تاريخ

افريقية والمغرب ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٦٢) معالم ج ١ ص ٦٠ ، رياض ص ٣١ .

(١٦٣) فتوح مصر ص ٢٠٠ .

(١٦٤) الكامل ص ٥٥ .

(١٦٥) المؤنس ص ٧٣ .

(١٦٦) الخلاصة النقية ص ١٠ .

يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة . يضاف الى ذلك ان حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم في قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم الى قصور حسان ببرقة ومكث هناك الى أن وصلته الامداد مرة أخرى ليقود حملته الثانية التى قضى بها على الكاهنة ثم طهر قرطاجنة ثانيا : كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون أنه سار الى افريقية منذ اختياره وجعلهم يخلطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى « قدم حسان بن النعمان افريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا : أقامه أولا في مصر بالعسكر عدة لما يحدث . ثم كتب اليه يأمره بالنهوض الى افريقية ويقول له « انى أطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك واعط الناس واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه » (١٦٧) .

وهكذا نرى ثانيا أن أموال مصر توجه لاجل اتمام الفتح في افريقية ويكون اعداد الجيش صادرا من مصر ثم ينضم الى الجيش من أقام من العرب في برقة ومن أسلم من البربر في برقة أيضا بحيث نرى في الجيش قيادات من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للإسلام وقد استفاد حسان بخبرة تلك القوات فيوجهها في المقدمة حيث مضى « في جيش كبير حتى نزل أطرابلس واجتمع اليه بها من خرج من افريقية وأطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتى » (١٦٨) وسار الجيش الى أن وصل الى القيروان فسال حسان

(١٦٧) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ويتفق معه في أن عدد الجيش أربعون ألف كل من صاحب المؤنس ص ٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص ١٠ ويقول عنه ابن الأثير في الكامل لم يدخل افريقية جيش مثله ج ٤ ص ١٧٩ والمالكى في الرياض ص ٣١ أو الدباغ في معالم الايمان ج ١ ص ٦ يذكر أن عدد الجيش ستة آلاف وان ذلك سنة تسع وستين .

(١٦٨) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠٠ .

أهلها عن أعظم الملوك بأفريقية قدرا فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية »^(١٦٩) ولم يكن أحد من القواد السابقين قد تمكن من التغلب عليها فسار حسان إليها وخرجت اليه قواتها مع رئيسهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها حتى افتتحها و « كانت دار الملك بأفريقية »^(١٧٠) ويوضح ابن الأثير كيفية الاستيلاء عليها ويبين ما حدث للمدينة وسكانها وانهم عندما أدركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعدم نجاتهم منه قرروا الهرب منها . ثم هدم حسان بعض أجزائها فقد قاتلهم « وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا اليه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه »^(١٧١) و « قطع القناة عنها »^(١٧٢) . ولقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة فجمعوا عسكريا عظيما بموضع يسمى صطفورة^(١٧٣) وحاولوا الاستعانة بالبربر ليتمكنوا من الانتصار على حسان ولكن الجيش الاسلامي استطاع بعد قتال عنيف قدم فيه كثيرا من الشهداء أن يتغلب عليهم وان يتتبع آثارهم فينحاز الروم الى باجة^(١٧٤) والبربر الى

(١٦٩) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ، ويزيد صاحب الخلاصة قوله هي المدينة العظمى فزبعة رومة وضررتها واحدى عجائب الدنيا ص ١٠ .

(١٧٠) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ .

(١٧١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٨٠ .

(١٧٢) المالكي رياض النفوس ص ٣٢ .

(١٧٣) صطفورة : بلدة من نواحي أفريقية . انظر معجم البلدان

(٣٥٦/٥) نقلا عن قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠ .

(١٧٤) باجة : بلدة بأفريقية تعرف (بباجة القمح) لكثرة

محصولاتها من القمح انظر التحاصيل في معجم البلدان (٢٥/٢) نقلا

عن شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠ .

بونة^(١٧٥) فقد «اجتمع عليه - أي حسان - الروم وغدوا عليه عسكريا عظيما لا يعلمه الا الله تعالى وأمدتهم البربر وذلك في بلد تسمى صطفورة فزحف اليهم فقاتلهم قتالا عظيما وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله تعالى عنا وعنهم ثم أن الله تبارك وتعالى ضرب في وجوه الذين كفروا من الروم والبربر فانهمزوا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلا عظيما واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما نزل في بلادهم موضعا الا واطئة بخيله ولجأ الروم خائفين هاربين الى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر الى اقليم بونة ٠٠ ثم انصرف حسان الى مدينة القيروان فاقام بها حتى برئت جراح أصحابه «^(١٧٦) .

بهذا انتهى حسان من القضاء على عقبة كاداء كانت تقفه في وجهه من سبقه وهم الروم في الشمال من أفريقية حيث لم يسبق ان تغلب عليهم احد من المسلمين قبله وتمكن من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها وبقي عليه ان يتغلب على داخل البلاد على الأوراس ولذلك بعد ان اطمأن الى اخذ الجيش لقسط من الراحة وبرء جراح جنوده . ولى وجهه نحو داخل البلاد لكي يقضى على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله . ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه «سأل أهلها - أي القيروان - بمن بقى من أعظم ملوك أفريقية ليسير اليه فيبيده أو يسلم»^(١٧٧) ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وإنما الحرب عند الوقوف في وجه تبليغ كلمة الله فان قبلت فلهم ما لنا وعليهم ما علينا والا فامتشاق الحسام . فكانت الاجابة باخباره عن الكاهنة التي صار اليها رئاسة البربر وقيادة بربر الداخل

(١٧٥) بونة : مدينة حصينة بأفريقية تقع على البحر نفس المرجع السابق ونفس الصفحة (٣٠٩/٢) .

(١٧٦) رياض النفوس للمالكي ص ٣٢ وانظر ابن عذارى بيان ج ١

ص ٣٥ .

(١٧٧) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٥ .

ويضيف ابن خلدون انه قد صارت اليها رئاسة البربر بعد قتل كسيلة وانضمام قبائل بنو يفرن وغيرهم اليها « فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة ، رجعوا الى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس^(١٧٨) وقد ضوى اليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناته وسائر البتر^(١٧٩) » فاذا ما تمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة ولذلك توجه اليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نينى^(١٨٠) ولكنه لقي هزيمة منكرة أدت الى ضياع كل أفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء ، وفقد عددا كبيرا من الشهداء وقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة حتى خرج من قابس ويعبر المالكى عن اللقاء بين حسان والكاهنة في تلك الموقعة بأنهم « اقتتلوا قتالا شديدا فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمى ذلك اليوم يوم البلاء فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس^(١٨١) فأسلم أفريقية وبضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العيسى وكان رجلا مذكورا^(١٨٢) » .

وهكذا يتخلى الجيش الاسلامى عن أفريقية اثر هذه الهزيمة وان كان المسلمون ما زالوا في عاصمتهم لم تتعرض لهم الكاهنة . ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم في أفريقية قرطاجنة بعد أن أرغموا تحت

(١٧٨) أوراس جبل بأفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر وتقع بالجزائر .

(١٧٩) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ .

(١٨٠) نينى : نهر مشهور بأفريقية معجم البلدان (٣٦٩/٨) عن

شيت خطاب قادة الفتح العربى ج ١ ص ١٨٣ .

(١٨١) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر

نفس المرجع السابق ١٨٣ .

(١٨٢) رياض النفوس للمالكى ص ٣٢ ، ٣٣ .

ضُبط جيش المسلمين على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متسما بالقسوة والعنف فأعدوا أسطولا كبيرا بقيادة البطريق يوحنا « وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) وتمكن من الاستيلاء على المدينة في يسر وطرده المسلمين الذين كانوا فيها وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفورا « (١٨٣) .

وكتب حسان يخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم وهى الجنس الكثرة كسائمة النعم » فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبنى هنالك قصورا تسمى الى الآن بقصور حسان « (١٨٤) ولقد تأخر ورود المدد من الخليفة لمدة طويلة جعلت الكاهنة صاحبة الشأن في أفريقية وفي تصريف شئونها حيث « ملكت أفريقية خمس سنين منذ هزمت حسان » (١٨٥) والمالكي والدباغ يحدد أن المدة التى ملكت فيها الكاهنة أفريقية بثلاث سنين ويعبران عن ذلك بأن حسان قد لقيه كتاب أمير المؤمنين « وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان فبنى هنالك قصرا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملك الكاهنة أفريقية كلها » (١٨٦) .

(١٨٣) فتح العرب للمغرب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥٤ عن ديبل .

(١٨٤) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٦ ، قصور حسان : قصور بناها حسان في منطقة برقة .

(١٨٥) انظر الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦١ ، البيان المغرب ج ١ ص ٣٦ .

(١٨٦) رياض النفوس للمالكي ص ٣٣ ، الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٦٣ .

وسواء ملكت الكاهنة ثلاث سنوات أو خمس سنوات فماذا فعلت خلال هذه المدة وماذا فعل حسان بن النعمان ؟

أما بالنسبة للكاهنة : فقد أخطأت الغرض من قدوم المسلمين الى أفريقية وظنت أنهم انما يقدمون للسلب والنهب للاستيلاء على المدن والذهب والفضة كما كان يفعل الغزاة سابقا وهذا تفكيرها الى أنها اذا أتلفت ذلك فقد استطاعت أن تقطع أمل المسلمين في العودة الى أفريقية حيث لا يوجد بها ذهب أو مدن . ولقد كان ذلك خطأ كبيرا من الكاهنة مما عجل بالقضاء عليها وجعل أهل البلاد خارج الأوراس ينقلبون عليها بل دعا بعضهم الى اللجوء الى حسان يستغيثون به من الكاهنة وسياستها الخرية وما لحقهم منها خلال انسحاب القيادة الاسلامية الى برقة . ويعبر الرقيق القيرواني عن ذلك بأن الكاهنة لما « أبطأ العرب عنها قالت للبربر : ان العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع والمراعى فما نرى لكم الا خراب أفريقية حتى يئسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قوما الى ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون »^(١٨٧) كما يعبر أيضا عن استغاثة أهل أفريقية بحسان لينقذهم من الكاهنة ويصور حسن استقبالهم له بأنه قد « لقيه من النصارى في طريقه ثلاثمائة رجل يستغيثون اليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ومضى الى حسان حتى وصل الى قابس ، فخرج أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مر بهم فاستأمنوا اليه وادخلوا عامله فأمنهم على مال فاستطال طريق طريق القيروان فمال الى طريق قفصة^(١٨٨)

(١٨٧) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٦١ .

(١٨٨) قفصة : بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريدة بينها وبين القيروان ثلاثة أيام انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٩٧ .

وقسطنطينية^(١٨٩) ونفزاوة^(١٩٠) وبعثوا اليه ايضا يتعينون به من امر الكاهنة فسر ذلك «^(١١١) وهكذا ادرك السكان الفرق البعيد بين سياسة المسلمين الكاهنة البربرية مما جعلهم يفضلون حكم المسلمين ويستغيثون تحسان ليخلصهم من حكم الكاهنة .

اما بالنسبة لحسان : فقد قضى هذه المدة يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويأخذ لها الآهبة كاملة ومن أهم ما قام به في ذلك بعد طلب المدد من الخليفة هو استطلاع احوال العدو والتمكن من معرفة مواطن القوة والضعف حتى يستطيع أن يوجه اليه الضربة القاضية . ولقد استعان في ذلك بأحد الأسرى المسلمين الذي لقي من الكاهنة تقديرا عظيما وصل الى أن تبنته على عادة البربر^(١٩٢) فأرسل اليه حسان رسولا لكي يستطلع حالة الكاهنة وحالة البربر فأجابه بوصف كامل عن حالة جندهم ومقدار تماسكهم في الرأي والمشورة وحث حسان على سرعة القدوم لان الفرصة سانحة ويصور الدباغ كيفية هذه المخابرات ووسائلها بأن

(١٨٩) قسطنطينية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير معجم البلدان (٨٨/٧) نفس المرجع السابق والصفحة .
(١٩٠) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان (٣٠٣/٨) المرجع السابق نفس الصفحة .

(١٩١) تاريخ أفريقية للرقيق ص ٦١ ، ٦٢ .
(١٩٢) وذلك كما يقول ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ « وحبست عندها خالد بن يزيد . فقالت له يوما : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أضعك فتكون أخالولدي وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به فعمدت الى دقيق الشعير فليته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديي ففعلا فقالت « قد صرتم أخوة » .

يزيد أرسل كتابا « الى حسان مع رسوله وجعله في خبزة ملة قد انضجها ثم دفعها الى الرسول ليخفى الكتاب وليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل ٠٠٠ وفيه - أى الكتاب - كل ما يحتاج اليه من خبر الكاهنة يقول فيه « ان البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم فى الرأى وانما ابتلينا بأمر قدره الله واكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فاذا نظرت فى كتابى هذا فاطو المراحل وجد السير فان الأمر اليك ولست أسلك ان شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » (١٩٣) .

وعندما أتم حسان الاستعداد للقاء الكاهنة ووصلته الامداد من جنود العرب وفرسانهم ومن انضم اليهم ممن أسلم من البربر سار الى الكاهنة والتقى بها مع جيشها وتمكن من هزيمتها وقتلها . ورغم جمعها وضراوة المعركة فقد تمكن من « فض جموعهم وأوقع بهم وفيل الكاهنة واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف » (١٩٤) .

وهكذا تمكن حسان من القضاء على الكاهنة واقتحام الأوراس وقدم اليه البربر يطلبون الأمان ويعلنون الاسلام والطاعة ولكن لما يعرفه حسان من كثرة ارتداد البربر أحب ان يشركهم معه فى الحرب ويكونوا من جنود الدولة يزودون عن حياضها . ثم بعد التفقه فى الدين يكون لهم حظ المشاركة فى نشر مبادئها ورفع اعلام هدايتها فقبل البربر منه ذلك وأمدوه بما طلبه منهم من الجنود الذين سيكون لهم نصيب كبير وخط عظيم بالمشاركة فى الفتوح القادمة . ذلك ان البربر قد استأمنوا الى حسان « فلم يقبل أمانهم الا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لواعين لولدى الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون فى أفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر

(١٩٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(١٩٤) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩

وحسن اسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان الى مدينة القيروان « (١٩٥) .

وبذلك قضى حسان على البربر في الداخل ولم يبق الا ان يسترجع قرطاجنة من الروم الذين تمكنوا من طرد المسلمين منها اثناء اقامة حسان في برقة فتوجه بقواته الى قرطاجنة حيث قاتل اهلها قتالا شديدا شعر منه اهلها بانهم لا طاقة لهم به مما جعلهم يصانعونه بانهم يريدون الصلح . وكان ذلك خديعة منهم حتى يلهو رقباء حسان وعيونه لئيتمكنوا من مغاللتهم ، فلما كان الليل ركبوا سفنهم فارين الى صقلية والاندلس ظانين انهم سوف يعودون ثانيا عندما تتيح لهم الظروف ذلك ولكنه كان خروجا ابديا ودخل حسان المدينة وأزال منها ما كان يعتصم به الروم واقام بها مسجدا فكان الهداية المشعة لمن يقيم بها ممن شرح الله صدره للاسلام . والمالكي والدباغ من مؤرخي المغرب القدماي ينفردان بالحديث عن فتح قرطاجنة بعد تمكن حسان من القضاء على البربر في الجنوب واتقيادهم للاسلام وان كان يشاركهما باشارة موجزة صاحب المؤنس فقد سار حسان « يريد قرطاجنة . . . فخرج اليه اهل قرطاجنة فحاربوه حربا شديدة فهزمهم الله وملك حسان فحص تونس وقرطاجنة فلما رأت الروم قهرته لهم وعلموا انهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وان يضع عليهم الخراج فأجابهم الى ذلك وادخلوا ثقلهم في مراكب كانت عندهم معدة في البحر وهربوا من باب يقال له باب النساء في الليل وحسان لا علم عنده بذلك وتركوا المدينة خالية لا أحد فيها ونزلوا بجزيرة صقلية وبعضهم بالاندلس فدخلها حسان فأخربها وأحرقها وبنى بها مسجدا « (١٩٦) .

وبذلك تمكن حسان من القضاء على مقاومة البربر في الداخل ثم القضاء على الروم في الساحل وتوج أعماله بالشروع في اقامة مدينة ساحلية تكون عينا للقيروان على شاطئ البحر ومحرسا ترقب

(١٩٥) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيرواني ص ٦٤ .

(١٩٦) رياض النفوس للمالكي ص ٣٧ ، انظر الدباغ ج ١

ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن أبي دينار ص ٣٥ .

تحركات الروم وترد عادياتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذى كان لقرطاجنة من قبل وتكون مدينة وميناء اسلاميا عوضا عنها ليقوم بها المسلمون ويبنوا بجوارها دار صناعتهم فتتحول الى ميناء حربى وتجارى يشرف على حوض البحر المتوسط « فحسان هو الذى فرق البحر اليها - اى تونس - وجعلها دار صناعة فأخرج اليها الماء واجراه من البحر اليها » ^(١٩٧) وبذلك تحقق للمسلمين فى افريقية الأمن من البحر كما تحقق لهم الأمن من الصحراء .

وقد كان لانشاء دار الصناعة وتعميرها وجلب الخبراء اليها من مصر بأسرهم هو الاستعداد الحقيقى للدور الكبير الذى سيقوم به القيروان بأسطولها القوى من الاغارة على شواطئ الروم فى عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الاسلام فى المشرق ^(١٩٨) وبذلك توج حسان اعماله الحربية بالتوجه الى الأعمال الادارية والانشائية المعمارية والصناعية التى كان لها الأثر البعيد فى افريقية وتثبيت الاسلام فيها الى الابد ان شاء الله . فقد « استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من اقام معهم على دين النصرانية » ^(١٩٩) . كما جدد بناء مسجد القيروان وأحسن بناءه واقام حسان فى مدينة القيروان مقر الولاية الافريقية يوجه منها شئونها ويدير احوالها وقد عمرها المسلمون واطمانوا الى سكنها .

« وانتشروا وكثروا فيها وامنوا وولى حسان على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى رضى الله تعالى عنه » ^(٢٠٠) .

(١٩٧) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٦٨ .

(١٩٨) الرقيق القيروانى ص ٦٥ ، ٦٦ تاريخ افريقية والمغرب .

(١٩٩) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ .

(٢٠٠) رياض النفوس للمالكي ص ٣٨ .

وعندما تمهدت أفريقية وأمن أهلها رجل حسان عنها قادما على الخليفة في دمشق بعد أن أدى واجبه عسكريا وإداريا واطمأنت نفسه الى ما قام به من أعمال .

ذلك أن عبد العزيز بن مروان والى مصر « قد عزله عن أفريقية » ليولى عليها أحد أتباعه وأرسل اليه أربعين رجلا من أشرف أصحابه ليتحفظوا على ما معه من الغنائم^(٢٠١) فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان أهدى اليه مائتي جارية من خيار ما معه ٥٠٠ فتخير ما أحب وأخذ منه خيلا كثيرة ورجل حسان بمن معه من السبى والجمال والأنعام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكى اليه ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك وأكره فقال حسان لمن معه « أيتونى بالقرب فاتى بها ففرغت بين يدي الوليد مما فيها من الجواهر والذهب والفضة فاستعظمه وابهته » فقال له : « يا أمير المؤمنين انما خرجت مجاهدا في سبيل الله وليس مثلى خان الله ولا الخليفة » فقال له الوليد أردك الى عملك وأحسن إليك « فحلف حسان : انه لاولى لبنى أمية ولاية أبدا فلما رأى ذلك الوليد غضب على عبد العزيز وكان يسمى حسان الشيخ الأمين - رحمه الله «^(٢٠٢) .

لقد أدى حسان واجبه بصدق وإخلاص جعله خليقا يلقب الشيخ الأمين فعلى يديه تم فتح أفريقية وصارت القيروان عاصمة لها لا يحكمها غير المسلمين « واستقامت أفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر ، وصارت القيروان دار اسلام وجميع مدن أفريقية الى يومنا هذا والى آخر الدهر ان شاء الله تعالى «^(٢٠٣) .

(٢٠١) الرقيق القيروانى تاريخ أفريقيا المغرب ص ٦٦ ، البيان

المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٨ .

(٢٠٢) الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية المغرب ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢٠٣) رياض النفوس للمالكي ص ٣٨ ، الدباغ معالم الايمان

ج ١ ص ٦٩ .

وسوف يتجلى لنا عند حديثنا عن بداية الحركة الفكرية في القيروان أثر هذا الفتح من الناحية الفكرية ، وما كان للقواد والجنود من الصحابة والتابعين الذين تشرفت بهم القيروان من أثر عميق في أن يفهم الناس حقائق الاسلام ويتمتعوا بالعيش الرغيد في ظل الحضارة الاسلامية العربية بحيث كانت القيروان المنارة التي يشع منها نور الاسلام وفكره ليصل الى المغرب الأقصى ثم الى الأندلس وصقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط وجنوب أوروبا ولكننا في حاجة الى أن نعرف شيئاً عن تأسيس مدينة القيروان وما اكتنف تأسيسها من أحداث خلال الفترة التي سبقت الحياة الفكرية فيها .

* * *

الفصل الثاني

تأسيس القيروان

كان المسلمون يخرجون لغزو أفريقية وينتصرون في غزوهم ثم يعودون الى مصر أو دمشق وذلك لبعد خطوط مواصلاتهم وامداداتهم وبعد عودتهم الى مقرهم في مصر أو دمشق كان ينقض أهل افريقية الذين عاهدوهم معاهداتهم المبرمة بينهم ، كما يرتد من أهل افريقية بعض من دخلوا في الاسلام ولقد مكث معاوية بن حديج أثناء غزوته التي قام بها بمكان يسمى القرن . ويقال انه حفر فيه آبارا وبني فيه مساكن وسماها قيروانا . يقول ابن عبد الحكم « واتخذ قيروانا^(١) عند القرن فلم يزل فيه حتّى خرج الى مصر »^(٢) ويعبر عن ذلك المالكى بأن معاوية « قد اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان واقام بها مدة اقامته بأفريقية وحفر آبارا عند باب تونس في ناحية الجبل منه منحرفا للشرق بالقرب من مصلى الجنائز تسمى للآن آبار حديج غلب عليها اسم أبيه حديج وذلك قبل تأسيس القيروان »^(٣) .

تلك كانت المقدمة لاهمية ايجاد معسكر او مدينة ليقم فيها المسلمون . وعندما أئسد امر أفريقية الى عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ جعل اول امر يقوم به هو أن يؤسس القيروان .

- ا - فما هي الأسباب التي دعت له لتأسيس القيروان ؟
- ب - وكيف اختار مكانها ؟ وهل وفق في ذلك ؟
- ج - وما هو التخطيط الذي وضعه لها ؟

(١) قيروان : مدينة أو معسكر أو مسلحة وقال الدباغ في تفسيره « واختلف في لغة العرب في لفظ القيروان ف قيل هي موضع اجتماع الناس والجيش وقيل محط أثقال الجيش وقيل هي الجيش نفسه والمعنى متقارب . انظر الدباغ معالم ج ١ ص ٨ وفتح العرب للمغرب لمؤنس ص ١٥١ ، ١٥٢ .

- (٢) فتوح ابن عبد الحكم ص ١٩٢ .
- (٣) رياض النفوس للمالكى ص ٦٠ .

د - وماذا طرأ عليها في مدى الفترة التي نحاول بحث الحياة الفكرية فيها ؟

(١) الأسباب التي دعت عقبة لتأسيس القيروان :

ان الأمر الذي أخرج العرب من الجزيرة لكي يصلوا الى افريقية انما هو الاسلام واذا كان العرب يطلبون الاقامة في افريقية فانما من أجل ذلك واذا كانوا يبنون مدينة فانما من أجل ذلك الدين أيضا . ولتحقيق هذا الهدف .

فالهدف الأصلي هو تبليغ دعوة الله ثم الوسيلة الى ذلك هي الدفاع عن هذه الدعوة . فتأسس مدينة القيروان كان لهدف ديني ولهدف عسكري حربي وهذا ما يشير اليه الدباغ متفقا مع المالكى وابن عذارى حين يورد المحادثة بين عقبة وأصحابه « ان افريقية اذا دخلها امير تحزم أهلها بالاسلام فاذا خرج منها رجعوا الى الكفر وانى ارى ان اتخذ بها مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » (٤) .

وهكذا يبدو السبب واضحا في عز الاسلام ونشر تعاليمه وافساح المجال أمام شعاعه حتى يهدى القلوب ويزيل الضلالة ولكن السيوف مصلته من حوله فليكن في المدينة المنشودة الحماية والمنعة والتحرز من ان يكون بين أهلها غير المسلمين الذين قد يكونون عيوناً للعدو ولقد توجه أمل عقبة الى أبعد من ذلك بأن تكون القيروان مركزا علميا مملوءا بالعلماء والفقهاء والمطيعين لله والدارسين الذين سيتولون ذلك ويقومون به عندما تغمد السيوف وتتلاشى المقاومة أمام المد الاسلامي ويعبر عن ذلك أبو العرب في طبقاته تعبير حين يذكر أن عقبة بن نافع كان معه في عسكره خمسة وعشرون من أصحاب النبي ﷺ وان عقبة جمع وجوه أصحابه وأهل العسكر فدار بهم حول مدينة القيروان وأقبل

(٤) الدباغ ج ١ ص ٨ انظر رياض النفوس ص ٦ ، وابن عذارى

ج ١ ص ٢٩ .

يدعو لها ويقول في دعائه « اللهم املاها علما وفقها واعز بها الاسلام
وامنعها من جبابرة الأرض »^(٥) .

ولقد كانت القيروان عزا للاسلام وأهله حيث كانت مركزا حربيا
ومدينة للمجاهدين وأسرهم وجامعة لتعليم اللغة ومبادئ الدين ومنها
انتشر سلطان الاسلام فعم المغرب بأجزائه تونس والجزائر والمغرب
الأقصى ثم عبر الى الأندلس وإلى جزر البحر المتوسط ليصل الى أوروبا
وامتد جنوبا ليصل الى أعماق وغرب القارة الأفريقية .

(ب) اختيار مكانها :

من فهم أهداف قيام القيروان يتبين اختيار مكانها . لقد كان الهدف
في نشر الاسلام بين أهل البلاد الأصليين وهم البربر أما المستعمرون
من الروم فهم السد الذي يقف أمام انتشار نور الاسلام ولذلك لا بد من
أخذ الحذر منهم الى أن يتمكن نور الاسلام من القلوب ويعم شعاعه
الآفاق فيتمكن من جذبهم الى نوره أو من طردهم الى المكان الذي قدموا
منه ما داموا يقفون سدا حائلا دون الاسلام وانتشار نوره ، ولذلك
كان قرب مكان القيروان من الداخل يوضح الهدف ومنها وهو توضيح
حقائق الاسلام والتقرب من أهل البلاد حتى يشرح الله صدرهم للاسلام .

وهكذا يعبر النويرى عن أثر قرب مدينة القيروان من البربر في
الداخل مما أدى الى انقياد كثير من البربر للاسلام وذلك عندما يعبر
عما أجمع عليه المؤرخون من مناداة عقبة عند احتطاط القيروان
« أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ أرحلوا عنا
أنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس في ذلك اليوم الى
السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها والحيات تحمل أولادها »^(٦)

(٥) طبقات علماء إفريقية وتونس لأبى العرب تميم ص ٥٦ .

(٦) يذكر الواقدي أن أصحاب عقبة أشاروا عليه بحرق الأشجار
التي كانت موضع القيروان فخاف من حرقها بالنار لوجود الحيوانات

فاسلم كثير من البربر «^(٧) ويقول ياقوت « فحمل ذلك كثيرا من البربر على الاسلام «^(٨) .

ومن ذلك يبدو الأثر واضحا لتأثير اختيار مكانها في تحقيق أهم أهدافها وهو أن تكون موطننا لنشر كلمة الاسلام .

ولكن المستعمرين من البيزنطيين الذين يتحكمون خاصة في سواحل هذه البلاد ما زالت لهم شوكة وقوة وهم بلا شك سوف يحاولون مدافعة المسلمين عن هذه البلاد وقد سبق لهم ذلك وسيتابعونه كما أن البحر المتوسط - الذى يفصل بين القسطنطينية وبين الشمال الأفريقى كله وخاصة أفريقية قاعدة حكمهم وتسلطهم في هذه البلاد - ما زالت لهم السيادة عليه وليس للمسلمين الأسطول المتحرك السريع والقواعد البحرية الآمنة التى يمكن به وبها مدافعة ذلك العدو والتغلب عليه في معارك بحرية وما زال سبيل المسلمين الى التغلب على عدوهم من الروم هو خوض معارك برية حسب الطاقة التى يتمتعون بها برية ومن هذا تتجلى لنا الأسباب والعوامل التى جعلت القيروان تبعد عن البحر ليتحقق لها الامان النسبى فى فترة تقاتل فيها عدوا يترصص بها وحتى

=

فى هذا الموضع فنادها بهذا النداء . ففى هذا تحرز من أن يحرق الحيوان بالنار لان هناك نهيا عن التعذيب بالنار . ولا شك أن الحيوانات والحيات عندما سمعت بجلبة الجيش أو أحست بالنار أو بقطع الاشجار رحلت عن المكان . انظر المغرب الكبير - دكتور السيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٧) النويرى نهاية الأرب ٦٨ ب عن فتح العرب للمغرب ص ١٤٢ ، ١٤٣ وأوردها غيره مع عدم ذكر اسلام البربر وبصورة قريبة منها ، أبو العرب طبقات ص ٥٨ الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٠ ، المالكى رياض النفوس وابن عذارى ج ١ ص ٢٠ .

(٨) معجم البلدان لياقوت المجلد السابع من عشرة مجلدات

ص ١٩٣ .

لا تكون عرضة لهجمات اسطول العدو المباغته . خاصة عندما يكون الجيش الاسلامى يؤدى واجبه فى ردع اية مقاومة تقف فى سبيل نشر الدعوى الاسلامية فيسهل على العدو تخريبها وسبى سكانها وطمس شعاعها فتفقد الهدف المنشود من بنائها بأن تكون قاعدة دينية ودفاعية كما روعى فى اختيار موقعها سهولة امدادات الجيش من ناحية الدواب التى تحمله آنذاك .

ويمكن تلخيص أسباب اختيار المكان فى الآتى :

- ١ - البعد عن الساحل حتى لا تتعرض لاساطيل البيزنطيين .
- ٢ - القرب من البادية لتبأشر نشر الاسلام بين البربر .
- ٣ - تأمين امدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهى الابل .

هذا ما نستطيع ان نفهمه من تلك المناقشة التى يرو بها المؤرخون عما دار بين عقبة وأصحابه فى اختيار مكان القيروان وموضعها بالنسبة للروم والبربر وما قام به من ارتياد الأماكن حتى توصل الى اختيار المكان المحقق لاهدافها وعبر المالكى عن ذلك وهو قريب مما ذكره ابن عذارى حين يقول : « فقال له بعض أصحابه « قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين » فقال لهم انى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه غزاة البحر لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل فيخرج فيقيم فى غارته الى نصف النهار فلا تدركها منه غارة أبدا فان كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم وهم عسكر معقود الى آخر الدهر وميتهم فى الجنة فاتفق رأيهم على ذلك فقال : قربوها من السبخة فقالوا : نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها فى الشتاء وحرها فى الصيف فقال : لا بد لى من ذلك لان أكثر دوابكم الابل وهى التى تحمل عسكرنا والبربر قد تنصروا واجابوا النصارى الى دينهم . ونحن اذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من

المغازى والجهاد ونفتح الأول منها فالأول فتكون ابلنا على باب مصرنا
في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى فأجابه الى ذلك فمال الى
موضع بناء المدينة على ساحل واديهـا «^(٩) .

ولكن المقدسى يوجه الى اختيار مكانها نقدا من ناحية قلة الماء
الموجود فى المكان وهو من أول الأمور اللازمة لانشاء المدن وقد تغلب
على ذلك فيما بعد عند اتساع العمارة فى المدينة بايجاد المواجل لخزن
المياه . وربما كانت معيشة عقبة وأصحابه فى الصحراء واستطاعتهم
المعيشة بقليل من الماء جعلهم لا يلقون كبير بال الى هذا الأمر المهم
ويبدو أن قلة الماء فى القيروان كانت بالنسبة لماء الشرب اما الماء
اللازم للاستعمال فقد أنشئت الآبار للحصول عليه كثر أم عياض وبئر
روطة^(١٠) ومع ذلك فالمقدس يثنى عليها بأنها مفخرة العرب ويذكر رخص
الأسعار وتوفر الحاجيات فيها مشيرا الى ما آلت اليه فى عصره فهى :

« مصر الاقليم بهى عظيم حسن الاختيار جيد اللحوم قد جمع
اضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص
عجيب . اللحم خمسة أمناء بدرهم والتين عشرة ولا تسال عن الزبيب
والتمر والأعناب والزيت . هى فرضة المغربين ومتجر البحرين - فهى
مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الأركان . أرفق من نيسابور
وأكبر من دمشق وأجل من أصبهان الا أن ماءها ضعيف ، الماء مخزون
فى مواجين والضرائب موضوعة على أصحاب الدكاكين »^(١١) .

وهذا يوضح لنا التوفيق فى اختيار مكانها حيث نمت وازدهرت
وصارت مفخرة المغرب ومركز السلطان .

ويحدد ياقوت موقع القيروان من الناحية العمرانية عامة « بأن

(٩) السالكى رياض النفوس ص ٦ ، ٧

(١٠) انظر الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب قسم أول ص ٤٧ .

(١١) أحسن التقاسيم للمقدس ص ٢٢٤ .

القيروان في الاقليم الثالث طولها احدى وثلاثون درجة وأربعون دقيقة» (١٢) .

ويذكر الاصطخرى المسافات بين القيروان وبين المدن الأخرى ويحددها بأنها « من مصر الى برقة ٢٠ مرحلة ومن برقة الى طرابلس مثلها ومن طرابلس الى القيروان مثلها فذلك من مصر الى القيروان ٦٠ مرحلة ٠٠ ومن القيروان الى السوس الألفى ١١٦ مرحلة فجميع المسافة من مصر الى أقصى المغرب في شرقى بحر الروم نحو ٦ أشهر ٠٠ ومن القيروان الى زويلة نحو شهر ومن القيروان الى المهدية مسيرة يومين ومن القيروان الى تونس ٣ مراحل ٠٠ ومن القيروان الى سجلماسة في البرنحوا من ٨٠ مرحلة» (١٣) .

وليس من المبالغة أن نقول أن عقبة وإصحابه قد وفقوا الى اختيار موقع القيروان لكى تؤدى الهدف الذى أنشئت من أجله خاصة في بداية امرها فكانت منارة للهدف شح منها الى الشمال الأفريقى ثم عبر الى أوربا عن طريق الأندلس أولا ثم عم جزر البحر المتوسط ليصل الى معقل المسيحية في روما بعد ذلك كما كانت المقر الحكومى للولاة ثم للدولة الأغلبية والفاطمية ودولة الصنهاجيين ومما يؤيد التوفيق في اختيار موقعها أن كسيلة عندما قتل عقبة وحمل الجيش الاسلامى على مفارقة افريقية . أقام كسيلة بالقيروان مدة سيطرته على افريقية ولم يقم بمدينة أخرى .

ويعبر الادريس عن القيروان بما يوضح لنا التوفيق في اختيار مكانها بما أهلها لنمو سكانى وعمرانى وتجارى وثقافى فهى « أم أمصار وقاعدة اقطار وكانت أعظم مدن الغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وانفسها همما ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وانفقها سلعة ، واتماها ربحا ، والغالب على فضلائها

(١٢) معجم البلدان لياقوت المجلد السابع ص ١٩٣ .

(١٣) المسالك والممالك للاصطخرى ص ٣٧ ، ٣٨ .

التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلّى عن الشبهات واجتناب المحارم ،
والتفنن في محاسن العلم ، والميل الى القصد «^(١٤) رحم الله عقبة
وأصحابه لقد بذلوا أقصى جهدهم لاختيار مكان مدينة القيروان كي
تحقق الهدف المقصود منها . فوفقوا الى ما أرادوا وقامت بأهدافها خير
قيام وربما زادت على ما كان يدور في أذهانهم أثناء البحث عن موضع
لتأسيس مدينة القيروان .



(ج) تخطيط عقبة للقيروان :

بعد أن استقر رأى عقبة ومن معه على بناء القيروان واختيار
مكانها شرع في تمهيد مكانها للبناء وإزالة الأشجار الموجودة فيها حتى
يبدأ بتخطيطها وإقامة المباني التي يريد بناءها ويعبر ابن الأثير عن
الأشجار التي كانت مكانها قبل بنائها وما كان يسكن فيها من الحيوان
والحيات بأنها « كانت دجلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع
والحيات وغير ذلك »^(١٥) وقد أقبل المسلمون يقطعون الأشجار ويمهدون
الأرض لاجل تخطيط المدينة فاذا ما انتهوا من ذلك شرع عقبة يخطط
المدينة ويحدد شوارعها ومصالحها كإهم شيء في ذلك هو ما يحقق
الهدف من قيامها وهو المسجد ثم دار الامارة وبعد ذلك المساكن والدور
التي سيقم فيها الجنود وأسرههم وقد تم ذلك بالمواد الموجودة في المكان
دون عناء كبير « فكانت بنايات القيروان في أول أمرها على غاية البساطة
وقد استعمل لتشييدها قراميد الأجر لوجود الطين المناسب على عين
المكان ولخلو ضواحي العاصمة من الحجارة »^(١٦) وهناك حفريات

-
- (١٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من
كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تأليف الشريف الإدريسي ص ١١٠ .
(١٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ .
(١٦) الورقات لحسن حسنى القسم الأول ص ٤٤ .

جارية الآن بجوار المسجد كشفت عن دار الامارة وقد شاهدت ذلك اثناء زيارتي للقيروان .

ويذكر المؤرخون أنه عندما اختط المسجد لم يحدث فيه بناء وانما كان يصلى فيه بدون بناء مما جعل الناس يحتلفون في تحديد القبلة . وربما دعاهم الى اثاره مثل هذا الاختلاف شعور المسلمين بما سيكون لتحديد القبلة من اثر يهفون الى تحقيقه فيما يستجد بعد ذلك من المساجد التى ياملون قيامها عندما تنتشر كلمة الله ولأنه امر يتصل بالهدف الذى اقيمت المدينة من اجله وهو انتشار كلمة الله ولذلك أخذوا يتحرون مطالع النجوم والشمس شتاء وصيفا ولكنهم اختلفوا فى الاستقرار على رأى واحد مما جعل قائدهم يغتم لذلك ثم يروون حصول رؤيا لعقبة تحدد لهم قبلة المسجد بما يقطع أمر هذا الاختلاف وبما يعطى لتحديد هذه القبلة منزلة روحية سامية . ويتفق على ذلك المالكي والدباغ ويعبر عن ذلك ابن عذارى^(١٧) . بأن عقبة « أتى الى موضع المسجد الأعظم فاخبطه ولم يحدث فيه بناء وكان يصلى فيه وهو كذلك واختلف الناس عليه فى القبلة وقالوا : ان جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك فى تقويمها فأقاموا أياما ينظرون الى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارك الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموما ، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه فاتاه آت فى منامه فقال له « اذا صبحت فخذ اللواء فى يدك واجعله على عنقك فانك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير : فهو قبلتك ومحرابك وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة وسوف يعز الله بها دينه ويذل بها من كفر به فاستيقظ من منامه وهو جزع فتوضأ للصلاة وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس فلما انفجر الصبح وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين اذا بالتكبير بين يديه

(١٧) البيان المغرب ج ١ ص ٢٠ ، ٢١ المالكي رياض النفوس

ص ٧ ، ٨ ، الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٠ ، ١١ .

فقال لمن حوله « اتسمعون ما أسمع » ؟ فقالوا : لا فعلم ان الأمر من عند الله فاخذ اللواء فوضعه على عنقه واقبل يتبع التكبير حتى وصل الى موضع المحراب فانقطع التكبير . فركز اللواء . وقال هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة . ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت وسد الناس اليها من كل أفق وعظم قدرها .

وسواء صحت هذه الرؤيا أو لم نصح - وأن هذه الرواية من اختلاف الرواة خاصة بعد استشهاد عقبة غان قبلة المسجد قد حددت وانتهى الخلاف وبنى المحراب ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على تغييره - مع تعدد الولاة وميل بعض من قام بعمارة في المسجد بعد ذلك الى تغييره حتى لا يكون في المسجد أثر لسواه - وما زال المحراب قائما الى الآن منذ بناء عقبة رضى الله عنه لم يهدم منه شيء وان كان أضيف اليه ما سمحت به فنون العمارة بعد ذلك ويضيف الى ذلك صاحب الورقات « ان محراب مسجد القيروان أقدم محراب مجوف أدخل على المساجد » (١٨) .

ويذكر ابن الأثير مقدار مساحة دور القيروان وتاريخ اتمام بنائها بأن « دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس » (١٩) ويحدد ابن عذارى مساحتها بالذراع فـ « دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع » (٢٠) وربما تكون القيروان عند نشأتها أقل من أن تشغل كل هذه المساحة مما جعل بعض المؤرخين المحدثين يصفون ذلك بالمبالغة (٢١) . ولكن الدكتور الحبيب الجنحاني يصفها بأن شوارعها الرئيسية تمتاز بالاتساع « اذا قورنت بالعواصم

(١٨) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب القسم الأول ص ٥٩ .

(١٩) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢٠) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢١ .

(٢١) مؤنس فتح العرب للمغرب ص ١٤٥ ، المغرب الكبير السيد

عبد العزيز سالم ص ٢٠٧ .

الاسلامية القديمة . اما أسواقها فانها منظمة حسب أنواع الصناعات « (٢٢)
مما يؤيد صحة رأى المؤرخين القدامى عن مساحتها وسعتها .



(د) الحركة العمرانية فى القيروان : فى فترة البحث :

عندما انتهى عقبة من بناء القيروان فوجيء بعزله وأسند أمر
أفريقية الى أبى المهاجر الذى لم ينزل فى قيروان عقبة فخلفه مدينة
القيروان^(٢٣) بميلين وابتنى ونزل وعبر ابن عبد الحكم عن ذلك بأنه
« كره ان ينزل فى الموضع الذى اختطه عقبة بن نافع ومضى خلفه
بميلين فابتنى ونزل »^(٢٤) ثم أسند أمر أفريقية الى عقبة للمرة الثانية
فقدمها وجدد بناء القيروان ونقل الناس اليها وذلك سنة اثنتين وستين
حين « قدم عقبة الى القيروان بعشرة آلاف فارس . . . وجدد بناء
القيروان وشيدها ونقل الناس اليها فعمرت وعظم شأنها »^(٢٥) .

وعندما تمكن حسان بن النعمان من القضاء على مقاومة البربر
والروم وبسط سلطان المسلمين على أفريقية التفت الى مسجد القيروان
« فبناه بناء حسنا وجدده وذلك فى شهر رمضان المعظم من سنة
أربع وثمانين من الهجرة »^(٢٦) . ويعبر ابن الأبار عن مقدار التغيير

(٢٢) القيروان للدكتور حبيب الجناحى ص ٥٨ .

(٢٣) وذكر ابن عذارى أنه خلفه بميلين مما يلى طريق تونس
فاختط بها مدينة . البيان ص ٢٢ . وسمها المالكي دكرور رياض
ص ٢٠ وسمها الدباغ تاكروان معالم ج ١ ص ٤٧ ولعلها قرية أو مدينة
كانت للبربر فنزل فيها وأضاف اليها المعالم الاسلامية من مسجد ودار
للإمارة انظر المغرب الكبير للسيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢٤) فتوح لابن عبد الحكم ص ١٩٧ .

(٢٥) رياض النفوس للمالكي ص ٢٢ .

(٢٦) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٦٧ .

الذى ادخله حسان على المسجد بأنه « هدمه - أى المسجد - حاشا المحراب وبناء بالطوب »^(٢٧) .

وتوالى بعد ذلك الحركة العمرانية على القيروان وتعددت وتنوعت حسب حاجة المدينة ونموها وكثرة سكانها وسعة سلطان حكامها . ويمكن الحديث عن ذلك حسب الأهداف المقصودة من العمران . فبعضها كان تحصينات حربية وبعضها كان معالم دينية والبعض الآخر يعتبر من المنافع العامة ومظهرا للتقدم الحضارى .

(١) التحصينات الحربية :

كان للأسوار والمحارس شأن مهم بالنسبة للدفاع عن المدن فى الماضى ويشير البلاذرى الى ما قام به محمد بن الأشعث فى القيروان اشارة موجزة بقوله « فرم مدينة القيروان ومسجدها »^(٢٨) . أما البكرى فيتحدث عن ذلك بتفصيل يبين انه أقام السور للمدينة وجعل فيه الأبواب وعليه المحارس^{٢٩} ف « للقيروان من القديم سبع محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها وكان للقيروان فى القديم سور طوب سعة عشرة أذرع بناه محمد بن الأشعث بن العقبة الخزاعى سنة أربع وأربعين ومائة وهو أول قائد دخل أفريقية للمسودة وكان فى قبله باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب وبين القبلة والمشرق باب أبى الربيع وفى شرقيه باب عبد الله وباب نافع وفى جوفيه باب تونس وفى غربية باب أصرم وباب سلم ٠٠٠ ثم يقول وللمدينة اليوم أربعة عشر بابا منها المذكورة وباب النخيل والباب الحديث وللغصيل بابان وباب الطراز وباب القلالين وباب سحنون »^(٢٩) ويحدثنا الأستاذ حسن حسنى عن أرباضها ودروبها بما يدل على أنها كانت محصنة خارجيا وداخليا فيقول : « أما داخل المدينة فكان ينقسم الى أرباض أهلة وحارات وشوارع وأزقة وأسواق

(٢٧) ابن الأبار الحلة السيرة ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٨) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧١ .

(٢٩) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٤ ، ٢٥

عامرة . فمن أشهر أرباضها (ريبض السدرة) ثم (ريبض الدوحا) قرب أبى الربيع (وريبض البقرية) وكأبه كان معدا للملاهى والخلاعة ثم (حارة القرشين) و (حارة القرانصة) قرب السور و (ريبض المفلس) و (ريبض الريدان) ومن الدروب (درب السكة) و (درب الهذلى) و (درب الفرسان) بجوار سوق اليهود وغيرها (كدرب ازهر) قرب باب تونس و (درب ابن سواده) و (درب أم أيوب) قرب سوق الأحد «^(٣٠) ومن ذلك نرى أن المدينة كانت محصنة من الداخل والخارج بحيث يمكن الدفاع عنها حتى في دروبها وأرباضها . ويذكر في الورقات انه « لم يمر نصف قرن على تأسيس القيروان حتى أصبحت أم القرى المغربية تنبعث منها أشعة الايمان والعرفان وصارت العاصمة الأفريقية التى تنتهى إليها المسالك وتتفرق منها الطرقات مثلما كانت قرطاجنة في عصر الرومان ومع ذلك فانها المركز الحرسى الممتاز الذى يقوم بالدفاع عن حوزة البلاد وفيه يستعد للهجوم على المقاومين ومستودع السلع الواردة من الشرق من بضائعه وصنائعه ومعرض دائم لمنتجات البلاد وغيرها »^(٣١) .



(ب) معالم دينية :

لقد ابتدئ في بناء مدينة القيروان ببناء المسجد الجامع ولذلك كثرت بها المساجد الى أن بلغت « زهاء ثلاثمائة بيت يعبد فيها الله »^(٣٢) ولا شك أن أعظمها وأشهرها هو المسجد الجامع الذى أسسه عقبة عند تخطيط القيروان . والذى بذل كثير من الولاة والأمراء جهودا كبيرة لتجديده وتحسينه بحيث أضفى تأثيره قويا على المدينة كلها ويعبر عن ذلك الاستاذ

(٣٠) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق في حضارة القيروان

وشاعرها ابن رشيقي ص ٣

(٣١) حسن حسنى عبد الوهاب الورقات قسم أول ص ٥٢

(٣٢) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٦

أحمد فكرى بقوله : « ويظهر فيها المسجد الجامع جليا واضحا بل أن صورة المدينة تأثرت بصورته لتزيده قوة وجلالا »^(٣٣) ويذكر لنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم تخطيط جامع القيروان ويصفه بأنه « من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام وأعظمها مظهرا إذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعرضه ٧٧ مترا وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا وعرضه ٣٧ مترا وطحنه فسيح واسع طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا ولهذا الصحن مجنبتات^(٣٤) عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر وتنقسم المجنبة الى رواقين^(٣٥) ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة تمتد على عشرة أساكيب^(٣٦) أو بلاطات عرضية وبلاط المحراب واسكوبه أوسع من بقية البلاطات والاساكيب ولا تعترضها أية عقود فهما يؤلفانه مجازين متعامدين على هيئة حرف T^(٣٧) .

ويتحدث الأستاذ أحمد فكرى عن أبواب المسجد والمئذنة بقوله : « وليبيت الصلاة بابان متقابلان أحدهما مفتوح في الحائط الشرقى والآخر في الحائط الغربى وكلاهما عند نهايتى الاسكوب الخامس وللمسجد خمسة أبواب أخرى ينفذ من ثلاثة منها الى المجنبة الغربية ومن الآخرين الى المجنبة الشرقية وتقوم المئذنة في منتصف ضلع المستطيل الشمالى ولكنها لا تقع بالضبط في محوره وهى عبارة عن مربع طول كل ضلع

(٣٣) أحمد فكرى المسجد الجامع القيروان ص ١٢

(٣٤) المجنبتات : الزيادات تحيط بفناء المسجد أحمد فكرى المسجد

الجامع ص ١٩ ، ٢٠

(٣٥) الاروقة : الممرات المتجهة الى حائط المحراب - المرجع

السابق نفس الصفحة .

(٣٦) الاسكوب من بيت الصلاة : الممر بين الأعمدة من يمينه الى

يساره والذى يعلو العمود رأس وتاج واسطوانة ، نفس المرجع السابق والصفحة ، ص ٦٤

(٣٧) الدكتور السيد عبد العزيز سالم - بيوت الله مساجد ومعاهد

ج ٢ ص ١٧٢

منه عشرة امتار ونصف ويختلف نظام المجنبة الشمالية التى فيها هذه المئذنة عن نظام المجنبتات الثلاثة الأخرى اذ انه قد استعيض عن كثير من اساكبها بغرف ومنافع» (٣٨) ويضيف الدكتور عبد العزيز سالم ان المئذنة من « ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة والطابق الادنى مربع القاعدة تنحدر جدرانه الى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضه كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا ٠٠٠ وقد اتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن الاسلامية ٠٠٠ لا فى المغرب والاندلس فحسب بل فى بعض المآذن المصرية مثل مئذنة مسجد الجيوشى ومئذنة مدرسة قلاوون وقبتها ٠ واصبحت مئذنة جامع القيروان تؤلف طابعا مغربيا بحثا» (٣٩) . وقد أكسبها تصميمها هذا قوة صارعت بها الزمن فـ ان مآذن مساجد الاسلام الأولى قد اندثرت وظلت مئذنة القيروان قائمة فهى أقدم المساجد الاسلامية» (٤٠) وقد شاهدت عند صعودى الى المئذنة أن قبتها تقوم على ستة عشر عمودا من الرخام تثير الاعجاب فى نفس من يراها ٠

ولقد كان المسجد يتوسط المدينة وتحيط به الأسواق ويقارن المقدس بينه وبين مسجد ابن طولون فيذكر انه : « بموضع يسمى السماط الكبير وسط الأسواق فى سرّة البلد ٠ اكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ٠ ومزاريبه رصاص له باب السماط ، باب الصرافين ، باب الرهاذنة ، باب الفضولين ، باب المئذنة ، باب الصباغين ، باب الحوارين باب سوق الخميس ، باب الميضة ، باب الخاصة فى التمارين ولهم باب اللحامين وسوق الرماحين» (٤١) .

ويغنيها البكرى بوصفه الشيق الدقيق المفصل للعمارات والزيادات التى حدثت فى المسجد مع ذكر من قام بها وتاريخها فيقول : « ان أول

(٣٨) أحمد فكرى ، المسجد الجامع ، ص ٢٠.

(٣٩) بيوت الله د . السيد عبد العزيز سالم ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٤٠) أحمد فكرى ، المسجد الجامع ، ص ١١٠

(٤١) المقدس حسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

من وضع محرابه وبناه عقبة بن نافع ثم هدمه حسان حاشا المحراب وبناه وحمل اليه الساريتين الحمراءوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب ويقولون ان صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما الى الجامع زنتهما ذهباً فابتدعوا الجامع بهما . فلما كانت خلافة هشام ابن عبد الملك كتب اليه عامله على القيروان يعلمه ان الجامع يضيق بأهله وان بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر فكتب اليه هشام يأمر بشرائها وان يدخلها المسجد الجامع ففعل وبنى في صحنه ماجلاً^(٤٢) وهو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات وبنى الصومعة^(٤٣) في بئر الجنان ونصب أساسها على الماء واتفق ان وقعت في نفس الحائط الجوفى . وأهل الورع يكرهون الصلاة في هذه الزيادة ويقولون انه اكراه أهل الجنة على بيعها والصومعة اليوم على بنائه طولها متون ذراعاً وعرضها خمسة وعشرون ولها بابان شرقي وغربي وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما . فلما ولي افرقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين ومائة هدم الجامع كله حاشا المحراب وبناه واشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضع فيه وهو الذى كان يصلى عليه القاضى أبو العباس عبدون . فلما ولي زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب هدم الجامع كله واراد هدم المحراب فقلل له ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع اثر لغيره حتى قال له بعض البناءة انا ادخله بين حايطين ولا يظهر في الجامع اثر لغيرك فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه الى اليوم والمحراب كله وما يليه مبنى بالرخام الأبيض من أعلاه الى أسفله مخرم منقوش كله . منه كتابة تقرأ ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام في غاية الحسن والعمودان الأحمران المذكوران يقابلا المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب وعدد ما في الجامع من الأعمدة أربع مائة وأربعة

(٤٢) الماجل : خزان يجمع فيه ماء المطر .

(٤٣) الصومعة : المئذنة .

عشر عمودا وبلاطاته سبعة عشر بلاطا . وطوله مائتان وعشرون ذراعا وعرضه مائة وخمسون ذراعا وكانت فيه مقصورة فلم يزل بناء زيادة الله فيه والمقصورة اليوم انما هي دار بقبلى الجامع بابها في رحبة الثمر لها باب عند المنبر يدخل منه الامام بعد أن ينزل في هذه الدار حتى تقرب الصلاة . وبلغت النفقة في بنيانه ستة وثمانين الف مثقال . ولما ولى ابراهيم بن أحمد ابن الأغلب زاد في طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب وفي دورها اثنان وثلاثون سارية من بديع الرخام وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجبية يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه وقد فرش من الصحن بين أيدي البلاطات نحو خمسة عشر ذراعا وللجامع عشرة ابواب ومقصورة للنساء في شرقيها بينها وبين الجامع حائط مخرم محكم العمل « (٤٤) .

والحق أن البكرى قد أفاد وأوجز لذكر ما حدث لتلك البناية الدينية الهامة في القيروان مما حملنى على نقل هذا النص مع طوله لأنه خير من تحدث عن عمارة المسجد بما يعطى صورة واضحة عنه .

كما يورد الدباغ أسماء بعض المساجد القديمة الفاضلة : منها « (مسجد الأنصارى) ^(٤٥) بمحرس الأنصار وعليه بنى هذا المحرس . ولم يزل الصلحاء والأبدال يتناوبونه ويعمرونه وله بركات مشهورة . . . و (مسجد الزيتونة) ^(٤٦) بمحرس الأنصار أيضا . . . وهو مسجد كبير جليل في وسطه ما جل مستطيل بنى هذا المسجد سنة ثلاث وتسعين

(٤٤) البكرى . المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٢ - ٢٤

(٤٥) زرت هذا المسجد ومكتوب عليه أسسه رويفع بن ثابت الأنصارى أحد أعيان الصحابة سنة ٤٧ هـ ليكون محرسا وذلك قبل أن يختط عقبة القيروان .

(٤٦) زرت كذلك هذا المسجد ومكتوب عليه أسسه اسماعيل

تاجر الله .

بناه اسماعيل بن عبيد الأنصارى وبهذا المسجد كان أهل القيروان يجمعون اذا كان بجامع عقبة بناء ٠٠٠ و (مسجد أبى ميسرة) بناه بعض التابعين ٠٠ وهو عن يسار الداخل من باب تونس احد أبواب المدينة المذكورة ٠٠٠ و (مسجد الحبلى) بدرب أزهر قرب باب تونس بناه أبو عبد الرحمن الحبلى سنة مائة هجرية ٠٠ و (مسجد حنش الصنعانى) الذى لا يزال موجودا وفيه يعلم القرآن وقد زرت هذا المسجد ووجدت به معلما للقرآن يعلم الأطفال الصغار من الذكور والانات وقد سجلت ذلك بصورة لهم وهو يقع بباب الريح ٠٠٠ و (مسجد على بن رباح اللخمى) بجوار باب نافع عن يمين الخارج قبل أن يخرج ٠٠٠ و (مسجد السبت) ويعرف بمسجد الدمنة ٠٠٠ و (مسجد الخميس) بالقرب منه بناه أبو اسحاق ابراهيم بن المضاء الزاهد صاحب سحنون بالدمنة أيضا ٠٠٠ و (مسجد عبد الله) عند باب عبد الله الأقدم ٠٠ وقد اندرس باب عبد الله هذا باندراس رسوم القيروان واندرس المسجد المذكور « (٤٧) .

ويذكر ابن عذارى انه : « فى سنة ٢٥٢ هـ بنى محمد بن خيرون الاندلسى المعافرى الجامع الشريف بالقيروان المنسوب اليه ٠ بناه بالأجر والجص والرخام وبنى فيه جبابا للماء « (٤٨) وقد زرت هذا المسجد ويسمى مسجد الثلاثة أبواب ومكتوب عليه بالجص : بالخط الكوفى « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ٠ بسم الله الرحمن الرحيم لله الأمر من قبل ومن بعد ٠ امر ببناء هذا المسجد محمد بن خيرون المعافرى الاندلسى ٠٠٠ الحمد لله على نعمته وصلى الله على سيدنا محمد ٠

كما كان هناك بعض المصليات التى تتمثل فى مساحة متسعة

(٤٧) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٢٧ - ٣٢ بتصرف ٠

(٤٨) لابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١١٤ ٠

مربعة في الغالب يحيط بجهاتها الأربع جدار قصير الارتفاع من غير سقف وفي قبلتها محراب بسيط الوضع وأشهر هذه المصليات « مصلى باب نافع ومصلى باب سلم وبها كان أمراء الأغالبة يصلون على جنائز كبار العلماء لقربها من أبواب المدينة والمقابر » (٤٩) .

تلك هي أهم المعالم الدينية في مدينة القيروان فما هي المنافع العامة ؟



(ج) المنافع العمرانية العامة : للدولة والشعب :

١ - دار الامارة والدواوين :

بعد أن اختط عقبة المسجد اختط دار الامارة جنوب المسجد لتكون مقرا للولاة يقول ياقوت : « ثم اختط دارا للامارة » (٥٠) وقد استمرت دار الامارة مقرا للولاة من قبل الأمويين والعباسيين الى أن انتقل عنها ابراهيم بن الأغلب عندما بنى بجوار القيروان مدينة القصر القديم (العباسية) ويذكر الأستاذ حسن حسنى أن دار الامارة بعد أن انتقل عنها الأمير الى رقادة « بقيت دار الامارة خاصة للدواوين » (٥١) وقد اهتم حسان بن النعمان عندما استقر له الأمر بأفريقية الى الناحية الادارية « فدون الدواوين » (٥٢) وكان مقر الدواوين عند انشائها مجاورا لدار الامارة وهى تتكون من « ديوان الجند - وديوان الخراج - وديوان الرسائل - وما الى ذلك من المنشآت الضرورية لتسيير دولاب الحكومة » (٥٣) . كما كان في المدينة دار لضرب النقود وتعديل الأوزان

(٤٩) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٨ .

(٥٠) ياقوت الحمري معجم البلدان ص ١٩٤ المجلد السابع

من عشر مجلدات .

(٥١) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١١

(٥٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٨

(٥٣) حسن حسنى عبد الوهاب - الورقات القسم الأول ص ٥٠

وضبطها وكانت « جوار باب الطراز وبها تصنع النقود وتعديل الأوزان »^(٥٤) يضاف الى ذلك ان انشأت الدولة لاستقبال المبعوثين الدبلوماسيين^(٥٥) والرسل من الدول الأخرى والوفود القادمة لزيارة الدولة دارا تسمى « دار الضيافة »^(٥٦) .

٢ - مشاريع المياه والقناطر :

إذا كان المقدمي قد وجه نقدا الى قلة وجود الماء في القيروان عندما قال : « ان ماءها ضعيف »^(٥٧) فان المؤرخين يذكرون كثيرا من المشاريع التي قام بها الولاة والأمراء لاجل التغلب على مشكلة المياه بل يذكرون أن هناك آبارا قد حفرها معاوية بن حديج قبل تخطيط القيروان حين قيامه بغزوته الى إفريقية حيث « نزل بمكان القيروان اليوم واحتفر بها آبارا تسمى آبار حديج الى الآن غلب عليها اسم آبيه وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرقى عند مصلى الجنائز »^(٥٨) « وانما احتفرها اذ كان عسكره هنا »^(٥٩) .

كما يذكر صاحب الورقات أن هناك بئرا عذبة غزيرة الماء بين المسجد ودار الامارة ولا تبعد عنهما أكثر من خمسة عشر مترا من ناحية الشرق وربما وجود هذا البئر العذب هو الذى حدد اختيار مكان المسجد ودار الامارة وما زالت البئر موجودة الى اليوم « وهى

(٥٤) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٠

(٥٥) ويقصد بذلك الوفود التى كانت تأتى من القسطنطينية كما يحدث فى أيام العكى أو من غيرها كما حدث أيام إبراهيم بن الأغلب وزيادة الله والمعز لدين الله .

(٥٦) انظر حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١١

(٥٧) المقدس أحسن التقاسيم ص ٢٢٤

(٥٨) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

(٥٩) نفس المرجع ص ٤٥

بئر أم عياض وهى المسماة اليوم ببئر نكفة «^(٦٠) فاذا ما كان زمن هشام ابن عبد الملك بنى والية على القيروان الماجل القديم فى صحن مسجد القيروان وبنى غيره خارج المدينة . وقد رأيت هذا الماجل فى صحن المسجد ويفوهته آثار الحبال عندما كان يستقى منه .

يقول البكرى : « وبنى فى صحنه - أى المسجد - ماخلا وهو المعروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات «^(٦١) ويفيدنا الدباغ عن بعض المواجل عند حديثه عن المساجد القديمة فى القيروان بأن « مسجد الزيتونة وهو مسجد كبير جليل فى وسطه ماجل مستطيل ، بنى هذا المسجد سنة ثلاث وسبعين «^(٦٢) .

ولقد كان الأهالى يستعملون جميع المياه الممكن الاستفاد بها ف « كان السكان يستعملون ماء وادى السراويل فى قبلة المدينة فيما يحتاجون اليه من الماء فى المنازل وليس للشرب لانه كان مالحا «^(٦٣) وفى سنة ١٨٠ هـ حفر هرثمة بن أعين والى القيروان البئر المعروفة الآن باسم (بروطة) أو (بئر روطة) قريبا من سوق الأحد وذلك نتيجة لامتداد العمران فى القيروان وهى بئر واسعة الفم لها سفرة رخام غزيرة الماء بالقرب من سوق الأحد «^(٦٤) ، وقد شاهدت هذا البئر وشربت من مائه العذب حيث عليها ساقية يديرها بعير أبيض جميل وهى مرتفعة يصعد اليها بدرج . وهكذا نرى أنهم بحثوا عن الماء فى الآبار والعيون كما توصلوا الى فكرة اقامة المواجل لخرن ماء المطر فيها عند نزوله على أسطح المنازل ، كما اقيمت المواجل

(٦٠) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب قسم أول ص ٤٧

(٦١) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكرى ص ٢٣

(٦٢) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨

(٦٣) القيروان للدكتور الحبيب الجنحاني ص ٥٩

(٦٤) الورقات قسم أول حسن حسنى عبد الوهاب ص ٤٨

خارج القيروان ومهدت السبل لى تصل الى المواجل مياة الأودية
عندما تنزل الأمطار .

ولعل أعظم المواجل التى أنشئت لخزن المياة سعة واتقاننا هو
الماجل الذى بناه أحمد بن محمد بن الأغلب فقد بلغت روعة البناء
لهذا الماجل أن عبيد الله الفاطمى عندما رآه أبدى دهشته لاتقانة
وروعته وعده من العجائب التى لم يرها فى المشرق « رايت بأفريقية
شيئين لم أرد مثلهما بالشرق : الحفير الذى بباب تونس يعنى الماجل
والقصر الذى بمدينة وقادة المعروف بقصر البحر »^(٦٥) ولا شك أن
مشروعاً للمياه يبقى منذ ذلك الزمن الى اليوم ولم يتصدع ولا زال
فيه الماء لأمر عظيم يدعو الى الدهشة والعظمة ودقة الاتقان والمتانة
وذلك الماجل هو « المشهور اليوم باسم (فسقية الأغالبة) وهو مستدير
متناهى الكبر أنشئ سنة ٢٤٥ هـ وأتفق عليه ما يقرب من مائه ألف
دينار (مليون ونصف فرنك) »^(٦٦) . ويحدثنا البكرى عما تم أيام
خلافة هشام بن عبد الملك وغيره من بناء مواجل المياة خارج القيروان
ويذكر عددها آنذاك ثم ينوه بهذا الماجل ويصفه وصفا تفصيليا
ف « خارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها
منها بنيان هشام بن عبد الملك وغيره وأعظمها شأنًا وأفخمها منصبا
ماجل أبى ابراهيم أحمد بن الأغلب بباب تونس وهو مستدير متناهى
الكبر ... ويتصل بهذا الماجل قبلية اقباء طويلة معقودة ازاجا على
ازاج وكان زيادة الله قد بنى على غريبى هذا الماجل قصرا ويجوفى هذا
الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقية يقع فيه ماء الوادى اذا
جرى ينكسر فيه شدة جريان الماء ثم يدخل منه الى الماجل الكبير
اذا ارتفع الماء فى الفسقية قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى المرح
وهذا الماجل عجيب الشأن غريب البنيان »^(٦٧) .

(٦٥) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٦

(٦٦) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٩

(٦٧) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٦

ولقد أدى اتصال بعض المواجهل ببعضها ووجود الأبواب لسور القيروان الى بناء قناطر وكبارى على هذه المواجهل أمام أبواب سور المدينة فبنى زيادة الله الأول قنطرة باب الربيع وكان يقول : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة أبى الربيع وبنيانى حصن مدينة سوسة وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى أفريقية »^(٦٨) . « ولقد حدث سيل عظيم بالقيروان سنة ٢٤٧ هـ هدم قنطرة باب الربيع فأمر صاحب أفريقية باصلاحها وتم اصلاحها سنة ٢٤٨ هـ »^(٦٩) ومع ذلك فان الماء عندما كان ينفذ من مواجهل القيروان كان يجلب اليها من مدينة القصر القديم التى تقع جنوبها على ثلاثة أميال^(٧٠) منها . وقد كشف المسيل الذى نزل بتونس سنة ١٩٦٩ م عن ماجلين آخرين بجوار الفسقية السابقة وقد شاهدت ذلك أثناء رحلتى .

٣ - الأسواق وحوانيت التجارة والمصانع :

لا شك أن وصف القدامى لسوق القيروان الكبير (السماط) بأنه يبدأ من المسجد الى باب الربيع ومن المسجد الى باب تونس مما يدل على أنه قد روعى عند تخطيط عقبة للمدينة أهمية السوق والتجارة والصناعات ، كما نفهم من هذه السعة والتنظيم فى تخطيط المدينة نتيجة أخرى وهى أن تخطيط المدينة بهذه المثابة لا شك يجعلها من السعة بقدر كبير فقد « كان سماط سوق القيروان قبل نقله الى المنصورية متصلا من القبلة الى الجوف وطوله من باب أبى الربيع الى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع الى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك »^(٧١) وقد بذل الأمير يزيد بن حاتم المتوفى سنة

(٦٨) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٠٦

(٦٩) انظر المرجع السابق ص ١١٣

(٧٠) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٨

(٧١) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٥ ، ٢٦

١٧١ هـ « جهده المستطاع في تنظيم أسواق التجارة وإقامة معامل الصناعة »^(٧٢) حيث « رتب أسواق القيرون وجعل كل صناعة في مكانها »^(٧٣) .

وكان في المدينة الى جانب هذا السوق الكبير المشتل على جميع أنواع المتاجر والصناعات أسواق أخرى متخصصة الأغراض « للحرف والصنائع الخاصة (كمسوق الصيارفة) والمظنون انه كان معدا للعمليات المالية و (سوق الجوهريين) و (سوق البركة) يعرض فيه الرقيق والجوارى و (سوق الأحاد) للمنسوجات الصوفية و (سوق الكتانين) و (سوق الغزل) وهذه الثلاثة الأخيرة كانت متلاصقة و (سوق السراجين) و (سوق البزازين) و (سوق الدجاج) جوار باب تونس . و (سوق الرهادرة أو الزهاد)^(٧٤) و (سوق اليهود) الى غير ذلك من محلات البيع والشراء والتعامل »^(٧٥) وان أبواب المسجد لتوصف بأسماء صناعات وتجارات في كتب الأقدمين مما يدل دلالة واضحة على أن هذه الأبواب سميت باسم الأماكن التي تفتح عليها لكثرة وجودها في ذلك المكان فمنها « باب السباغين ... باب سوق الخميس ... باب اللحامين ... وسوق الرماحين »^(٧٦) .

وكان بجانب هذا النشاط التجارى الذى تمثله هذه الأسواق صناعات متطورة في القيرون خاصة في عصر الأغالبة كصناعة النسيج

(٧٢) عمر الركبانى خلاصة التاريخ :تونسى ص ٣٠

(٧٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٧٨

(٧٤) رهدار من الفارسية : ره = طريق ، دار - صاحب أى أن

معنى رهدار المسافرون من أجل الاتجار : الكعك الحضارة العربية ص ٨

(٧٥) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٦

(٧٦) المقدس أحسن التقاسيم ص ٢٢٥

وصناعة الزربية وصناعة الجلود والأواني الفخارية ومنها صناعة الأجر ومواد الزخرفة البنائية وغير ذلك من الصناعات الأخرى^(٧٧) .

٤ - الحمامات والمتنزهات والمستشفيات :

ولقد حظيت القيروان كمدينة عاصمة للأقليم بالحمامات والمتنزهات والمستشفيات وان وجود الحمامات والمتنزهات كذلك يشير الى التغلب على مشكلة قلة الماء في القيروان فيذكر البكري أن « في القيروان ثمانية وأربعين حماما »^(٧٨) « كما اهتم بإنشاء المتنزهات خارج المدينة لتكون متنفسا لاهلها ومكانا للترويح عنهم . وقد أقيمت هذه المتنزهات قريبا من المدن التي أنشئت حول القيروان لتكون مقرا للحكام فكان خارج مدينة القصر القديم « متنزه بديع الشكل يدعى « الرصافة » تشبها بسميتها بغداد »^(٧٩) وعندما خرب المعز لدين الله وقادة « لم يبق منها غير بساطينها »^(٨٠) كما كان في القيروان المستشفيات لمعالجة المرضى وقد اقيم خارج القيروان مستشفى عظيم يسمى « الدمنة » كان ذا اقسام وله نظام خاص ويقال : « ان أصل وضعه كان ملجأ كبيرا للفقراء ثم خصص أيام الأغلبة للمصابين والعجزة فصار ينقسم الى قسمين أحدهما للمجزومين ويعرف (بدار الجزماء) والآخر مأوى للعمى الفقراء يعالجهم به أطباء ماهرون . وكان الأمراء من كل دولة يزورون هذا المعهد الخيري لا سيما في المواسم ويوزعون الأموال والحلويات على المقيمين به »^(٨١) .

٥ - المقابر :

كما أن من المنافع العامة التي ضمتها القيروان وكانت خارجة

(٧٧) انظر د . حبيب الجناحاني القيروان عبر عصور ازدهارها

ص ١٣٨

(٧٨) البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٦

(٧٩) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٣

(٨٠) البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

(٨١) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ١٠

عنها - ولا شك أن ذلك اسلم من الناحية الصحية - هي المقابر لدفن الموتى وإن سعة المدينة وكثرة عدد سكانها أدى الى تعدد المدافن فيها كما أن بعضها يحمل أسماء لصحابة رسول الله ﷺ ومن ذلك مقبره البلوية نسبة الى الصحابي الجليل أبو زمعة البلوي الذي « مات بالقيروان ودفن بها بالبقة التي تعرف الآن بالبلوية سميت به من ذلك الوقت »^(٨٢) ومن أشهر المقابر من قديم (مقبرة قريش) غربى المدينة التي يخرج اليها من باب سلم - وتسمى اليوم بالجناح الاخضر - وهو مدفن شاسع به من قبور العلماء والصالحين شئ كثير . وأول من دفن بها بنية لعبد الله بن عمر بن الخطاب توفيت بقمونية عند الغزوة الثانية لافريقية سنة ٣٣ هـ فرفعت الى هذا المكان قبل تخطيط القيروان »^(٨٣) وقد زرت هذه المقبرة وقرأت على شاهد من الشواهد فيها الرخامية مكتوبا عليه بالخط الكوفي البارز :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد نبيه ، قل هو الله أحد الله الصمد الى آخر السورة . كل نفس ذائقة الموت الى متاع الغرور . هذا قبر القاضى عبد الله بن هاشم توفى يوم الاثنين من ٦ بقين من شعبان سنة ٣٦٣ هـ وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وان الجنة حق والنار حق والبعث حق والحساب حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور . وعلى هذه الشهادة حىي وعليها مات وعليها يبعث حيا رحم الله من دعا له ولوالديه ولجميع المسلمين بالرحمة والمغفرة وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم .

وبجوار قبره شاهد مكتوب عليه مكية بنت قاضى القضاة عبدالرحمن ابن محمد بن عبد الله ابن هاشم توفيت يوم الجمعة لاحدى عشر بقين

(٨٢) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٩٨

(٨٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ٨

من شهر رمضان سنة ٤٢٧ هـ وهى تشهد ان لا آله الا الله وحده
لا شريك له . . .

كما ان هناك من المقابر الاخرى مقبرة الحاطبية ومقبرة سحنون
نسبة الى العالم الجليل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ويجواره مدافن امراء اسرة
الأغالبة» (٨٤) .

* * *

(د) المنشآت الخاصة :

كان فى القيروان بجانب هذه المنشآت العامة منشآت خاصة تتمثل
فى قصور الاثرياء والامراء ومنشآت اخرى لأجل الترفيه والتنزه ومن هذه
القصور بعض ما أنشأه الاغالبة بمدينة القيروان كقصر أبى الفتح وقصر
حمص وقصر الماء الذى بناه زيادة الله وكان يقع عربى المايل الكبير
بمغربة من باب تونس (٨٥) .

وقد انفق على هذه القصور كثير من الاموال ومما يوضح لنا
ضخامة هذه القصور ما يذكر من ان احد العلماء اتفق فى اواخر القرن
الثالث على ترميم قصره بريض الروحاء الفا ومائتى دينار وهو قدر
كبير بالنسبة لذلك الوقت (٨٦) .

وقد انشأ الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب فى وسط المايل الكبير
صومعة مئمنة فى اعلاها قصبة بها فبة (كشك) مفتحة على أربعة ابواب
على أحد عشر رجلا لا خلل بينهم وكان ذلك الأمير عندما يمتلىء المايل
بالماء يدخل الى هذه القبة فى مركب يسمى (الزلاج) كسرعه ولاشك
انه كان يتخذ ذلك مكانا للترفيه والتنزه (٨٧) .

(٨٤) انظر المرجع السابق بتصرف ص ٩

(٨٥) البكرى المغرب ص ٢٦ ، حسن حسنى عبد الوهاب ،

بساط العفيق ص ١١

(٨٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٧) انظر المرجع السابق ص ١٠ ، والمغرب فى ذكر بلاد افريقية

والمغرب ص ٢٦

(ه) حول القيروان :

خلال حكم الدولة الاغلبية والفاطمية اقيمت حول القيروان وقريبا منها ثلاث مدن كانت مقرا للحكام واعوانهم وقد ازدهرت هذه المدن ازدهارا عظيما كما ان بعضها قد نقل اليه أخيرا أسواق القيروان وبعضها الآخر كان يستمد من مواجلة الماء عند نفاده من القيروان وهذه المدن هي القصر القديم ورقاده وصبرة .

١ - القصر القديم أو العباسية :

في سنة مائة وأربع وثمانين من الهجرة أسس ابراهيم بن الأغلب مدينة القصر القديم وهي تقع على ثلاثة أميال جنوب القيروان ثم انتقل اليها وصارت دار امراء بنى الأغلب وقد عمرت وكثر فيها الحمامات والفنادق والأسواق ومواجل الماء التي كانت تستمد منها القيروان نفسها عند نفاد الماء فيها . كما بنى فيها مسجد وصفه البكرى بأن : « له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم بين أحكم منها ولا أحسن منظرا » (٨٨) . وكان في داخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان واحيطت المدينة بسور له خمسة أبواب هي : « باب الرحمة قبلى وباب الحديد قبلى وباب غلبون شرقى وباب الريح شرقى وباب السعادة غربى يقابل المقبرة الكبيرة » (٨٩) . وقد استقبل ابراهيم بن الأغلب في القصر القديم سفراء شارلمان ملك الافرنج في أبهة عجيبة « وتسمى آثارها اليوم قصور الأغالبة » (٩٠) .

٢ - رقادة :

أنشأها ابراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة ٢٦٣ هـ (٩١) على بعد أربعة أميال من القيروان على مساحة قدرها أربعة وعشرون ألف ذراع

(٨٨) البكرى المغرب في بلاد افريقية والمغرب ص ٢٨

(٨٩) نفس المرجع ص ٢٨

(٩٠) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ١٢

(٩١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ١١٧

وأربعون ذراعا وهى حسنة الموقع كثيرة المتنزعات « فأكثرها بساتين وليس بافريقية أعدل هواء ولا أرق نسيما ولا أطيب تربة من مدينة رقادة »^(٩٢) . وقد عمرت ونفقت أسواقها وكثرت حماماتها وفنادقها وأنتقل إليها مقر الامارة من القصر القديم كلما بنى بها ابراهيم قصورا عجيبة أشهرها وأجملها قصر البحر الذى تعجب منه عبيد الله الفاطمى عند رؤيته وبنى بها كذلك مسجدا وقد بقيت رقادة دار ملك الأغالبة الى أن سقطت دولتهم فأقام بها الفاطميون الى سنة ٣٠٨ هـ ثم انتقلوا منها الى المهدية بعد بنائها . فلحقها الوهن وفارقها سكانها . « ولم تنزل تخرب شيئا بعد شيء الى أن ولى معد بن اسماعيل فخرى ما بقى منها وعفا آثارها وحرث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها »^(٩٣) وقد شاهدت فى رقادة بقايا قصر البحر وقصر الصحن وهما يقعان قرب المايل الكبير الموجود آثاره هناك والخالى من الماء الآن وقد بنى الأغالبة ذلك المايل كما يوجد برقادة بعض انواع الخزف الباقي من ذلك التاريخ كما يوجد بقايا من الفسيفساء فى أرضية القصر . وفى متحف عقبة بالقيروان توجد مصابيح وأوانى خزفية وقلل وصحون مزخرفة وسكريات بغطاء ومعجنة كسكى وكانون وقلة زجاجية وكلها وجدت برقادة وترجع الى العصر الأغلبى كما نقلت بعض الآثار من رقادة الى المعهد القومى للآثار والفنون ومتحف البارديو بتونس العاصمة وقد شاهدت كل ذلك . كما شاهدت بمتحف عقبة عصاة سحنون وبعض الشواهد التى عليها تاريخ وفاة العلماء .

٣ - صبرة أو المنصورية :

أسسها اسماعيل بن القائم بن عبيد الله المهدي الفاطمى سنة سبع وثلاثين^{٣٧٧} وثلثمائة عندما تم له الانتصار على أحد الثائرين أبى يزيد مغلذ بن كدياد الملقب بصاحب الحمار وهى متصلة بالقيروان وتبعد

(٩٢) البكرى المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

(٩٣) البكرى وصف بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

عنها نصف ميل^(٩٤) وانتقل اليها مقر الخلافة الفاطمية من المهديّة بعد تأسيسها فهي « منزل الولاية الى حين خرابها ٠٠٠٠ كمل نقل اليها معد ابن اسماعيل اسواق القيروان كلها وجميع الصناعات »^(٩٥) . وقد نشطت التجارة فيها نشاطا واسعا ف « كان يدخل واحد ابوابها كل يوم ستة وعشرون الف درهم »^(٩٦) كما عمّرت بالمباني الجميلة والسوارع الفسيحة والمساجد والفنادق « ولها ثلاثمائة حمام اثّرها للديار وبافيهـا مبرز للناس كافة »^(٩٧) .

وكان الماء يجري في وسط المدينة كما سورت بسور سميك عرضه « اثنا عشر ذراعا »^(٩٨) . وكان لها خمسة ابواب الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وهو جوفي وباب الفتوح ومنه كان يخرج بالجيوش »^(٩٩) .

وقد شاهدت في صبرة بغايا من مصنع البلور عثر عليها وخاصة الأفران لحرق البلور ووجدت هناك بعض الأدوات المنزلية وعمدانا ضخمة وما زالت بعض ارضية معمل البلور مفروشة بالبلاط الصغير الذي يسمى زليح من الخزف من صنع القيروان .

وقد تخرّبت واندثرت هذه المدن التي قامت حول القيروان ولم يبق منها سوى بعض الاطلال البالية والرسوم الخالية »^(١٠٠) ولكن بقيت القيروان تامخة بانفها متحدية عوامل البلى محتفظة بآثارها وتاريخها .

(٩٤) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ٢١٩ ، حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٤

(٩٥) ، (٩٦) البكرى وصف بلاد افريقية والمغرب ص ٢٥ وقد خربها الهلاليون مع القيروان سنة ٤٥٢ انظر القيروان عبر عصور ازدهارها للحبيب الجنحاني ص ٦٢

(٩٧) حسن حسنى ، بساط العقيق ص ١٥

(٩٨) المقدس أحسن التقاسيم ص ٢٢٥

(٩٩) البكرى المغرب ص ٢٥

(١٠٠) حسن حسنى ، بساط العقيق ص ١٥

الفصل الثالث

الحالة السياسية في القيروان
بعد أن تم فتح أفريقيا

(١) عصر الولاية من بنى أمية وبنى العباس :

بعد أن تم فتح إفريقية على يد حسان بن النعمان وثبتت اقدام المسلمين فيها توافد الولاية على القيروان من قبل خلفاء بنى أمية تم من قبل خلفاء بنى العباس لادارة شئون ولاية إفريقية التي كان مقرها القيروان .

وقد اتسع نطاق هذه الولاية حتى وصل الى المغرب الأقصى وعبر المضيق الى الاندلس التي انضوت تحت سلطان المسلمين . فكان والى القيروان هو المسئول عن ادارة هذه الاقاليم الشاسعة . ثم عاد سلطان والى القيروان فانكمش ثانيا بحيث اقتصر على إفريقية وحدها بعد ان استقل الامويون بالاندلس والرسنميون تباهرت والمدرايون بسجلماسة والادارسة بفاس وبذلك انفصل الاندلس والمغرب الاقصى وبعض اقاليم المغرب الاوسط عن التبعية للسلطة الحاكمة فى القيروان .

وقد عانت السلطة الحاكمة فى القيروان خلال عصر الولاية كثيرا من الثورات العاتية وتعرضت فى بعضها للحصار بل تمكن الثوار فى بعض الاحيان من طردها من مقرها والاستيلاء على القيروان نفسها وانتهاك حرمتها ومقدساتها الى أن قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ .

١ - ولاية موسى بن نصير :

وقد تولى امر إفريقية بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير سنة ٨٨ هـ^(١) حيث قام بكثير من الفتوح كان أولها فتح قلعة زغوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم^(٢) كامل ثم تابع فتوحه فتوحة غربا

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ويذكر البلاذرى فتوح البلدان انها سنة ٨٩ ص ٢٧٢ ، ويذكر ابن عبدالحكم فتوح انها سنة ٧٨ هـ ويخيل الى انها ٨٧ وان التاريخ فى ابن عبد الحكم قد عكس العدد وهذا ما يذكره المقرئ فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٣

(٢) انظر ابن عذارى ج ١ ص ٤٠

متوجها الى المغرب الأقصى ففتح طنجة وانتهت خيلة الى السوس الأدنى (٣) ودان له أهل المغرب بعد حروب كثيرة خاضها ضدهم وأسر فيها كثيرا منهم فانقادوا له ودانوا بالطاعة فولى على السوس الأدنى واليا واستعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها في سبعة عشر الفا من العرب ، واثني عشر الفا من البربر وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ثم انصرف الى القيروان أفريقية ولم يبق في أفريقية من ينازعه (٤) .

وفي سنة ٩٢ هـ استطاع طارق بن زياد واليه على طنجة أن يغزو الأندلس وينتصر على حاكمها في المعارك الأولى حيث لحق به موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ الذي تابع فتوح الأندلس (٥) وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان ثم عاد موسى الى القيروان - بعد أن ترك ابنه عبد العزيز واليا على الأندلس (٦) ليجد كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه فاستخلف على أفريقية (٧) أكبر بنيه عبد الله وعلى طنجة ابنه عبد الملك ثم توجه الى دمشق ليصل اليها قبل وفاة الوليد بن عبد الملك بأيام قليلة (٨) .

٢ - ولاية محمد بن يزيد :

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك فأسند امر

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٢

(٤) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٢ ، ابن عذارى البيان

المغرب ج ١ ص ٤٢ ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٥٩

(٥) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٣ ، ابن عذارى البيان .

المغرب ج ١ ص ٤٣ ، ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠٧

(٦) تاريخ فتح أفريقية للرقيق ص ٨٥

(٧) يقصد بأفريقية هنا القيروان .

(٨) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١٠ ، الرقيق تاريخ

أفريقية ص ٨٨ . توفي الوليد بن عبد الملك سلخ جمادى الآخرة سنة

٩٦ هـ المرجع السابق ص ٩١

أفريقية والمغرب كله إلى محمد بن يزيد مولى قریش وأوصاه بقوله :
« يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيمن وليتك بالحق
والعدل اللهم أشهد عليه » فخرج وهو يقول : « مالى عذران لم
أعدل »^(٩) . وقد وصل محمد بن يزيد إلى مقر ولايته سنة ٩٧ هـ ،
ويتحدث المؤرخون عنه بأنه كان حسن السيرة عادلا كما قام ببعث
السرايا إلى ثغور أفريقية وقد أسند أمر الأندلس إلى الحر بن
عبد الرحمن الثقفي^(١٠) وقام بمصادرة أملاك أسرة موسى بن نصير
في القيروان وقد استمرت ولايته سنتين وأشهرًا .

٣ - ولاية اسماعيل بن عبيد الله :

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز
ولى على أفريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر مولى بنى
مخزوم سنة ١٠٠ هـ الذى بذل جهودا مخصصة لأجل إقرار العدل
والسلام كما اهتم بنشر الاسلام والتعريف به بين البربر مما أدى
إلى اعتناق كثير من البربر للإسلام ويذكر ابن عذارى « انه ما زال
حريصا على دعوة البربر إلى الاسلام حتى أسلم بقية البربر بأفريقية
على يديه »^(١١) كما بعث معه الخليفة بعشرة من التابعين لتعليم أهل
أفريقية الحلال والحرام وقد ولى اسماعيل بن أبى المهاجر على الأندلس
السمح بن مالك الخولاني ويجمع المؤرخون الحالة السياسية فى أيام
اسماعيل بقولهم : « انه كان خير أمير وخير وال »^(١٢) .

(٩) المرجع السابق ص ٢٣

(١٠) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٤٧ ، الرقيق
تاريخ أفريقية ص ٩٣ ، ويذكر الرقيق أن اسمه الحسن بن عبد الرحمن
القيسى .

(١١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، والرقيق تاريخ

أفريقية ص ٩٧

(١٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، الرقيق تاريخ

أفريقية ص ٩٧ ، وابن عبد الحكم فتوح ص ٢٨ . يصفه بأنه كان حسن
السيرة .

٤ - ولاية يزيد بن أبى مسلم :

وعندما آلت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك أسند ولاية المغرب الى يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج بن يوسف فقدم اليها سنة ١٠٢ هـ وكان يتسم بالقسوة والظلم سواء بالنسبة للرعية حيث حاول أن يضع الجزية على من أسلم^(١٣) من أهل الذمة أو بالنسبة لحرسه حيث أراد أن يسهم على أيديهم حتى يعرفوا بذلك مما أدى الى تأمرهم عليه وقتله بعد شهر من ولايته^(١٤) .

٥ - ولاية بشر بن صفوان الكلبى :

واختار أهل القيروان محمد بن أوس الأنصارى واليا عليهم . وكان فى غزو صقلية فبعد عودته قام بالأمر وكتب الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من قتل يزيد بن أبى مسلم واختيار أهل القيروان له^(١٥) . فولى يزيد على أفريقية بشر بن صفوان الكلبى الذى قدم الى القيروان سنة ١٠٣ هـ فقام بتصفية آل موسى بن نصير كما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى وفى سنة ١٠٧ هـ ولى على الأندلس ثانيا يحيى بن سلمة الكلبى كما أن بشرا مهد أمور أفريقية وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبيا كثيرا وعند عودته الى القيروان أدركته الوفاة فى سنة ١٠٩ هـ^(١٦) .

ونلاحظ هنا سرعة تغيير والى أفريقية فى القيروان الذى كان يغير بالتالى الولاة التابعين له وخاصة فى الأندلس . وقد أدت سرعة هذا التغير الى عدم القيام بأعمال هامة سوى ما قام به اسماعيل بن أبى المهاجر

(١٣) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

(١٤) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٩٩ ، ١٠٠

(١٥) انظر المرجعين السابقين البيان ص ٤٩ والرقيق ص ١٠٠

(١٦) انظر ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٨ ، وابن عذارى

البيان ج ١ ص ٤٩

من نشر للاسلام بين البربر وكذلك نلمح روح الثورة في قتل والى القيروان يزيد بن ابي مسلم لعدم قيامه بالعدل في الرعية والقسوة التى ابداهها في معاملة حرسه الخاص مما أدى الى قتله .

٦ - ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى :

وفى سنة ١١٠ هـ قدم الى القيروان عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ليقوم بحكم افريقية خلفا لبشر بن صفوان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث عبيدة من قبله الى الأندلس مدة حكمه أربعة ولاية كان آخرهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى غزا فرنسا حيث استشهد سنة ١١٥ هـ بموضع يعرف ببلاط الشهداء^(١٧) كما وجه عبيدة المنستير بن الحبحاب الحرشى غازيا الى صقلية فغرقت السفن ولم تصل الى الهدف المنشود^(١٨) .

وقد عامل عبيدة عمال الوالى السابق بقسوة وعنف وفرض عليهم بعض الغرامات فشكوه الى الخليفة مما أدى الى عزله عن افريقية^(١٩) .

(١٧) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٠ ولعل ابن عذارى يقصد انه فى أيامه كان يسمى بذلك . ويذكر سيد امير على أن المعركة التى استشهد فيها دارت فى نقطة واقعة بين تور وبواتيه واستمرت عشرة أيام . وسمى الميدان الذى جرت فيه تلك المعركة فى التاريخ العربى (بلاط الشهداء) بالنظر الى كثرة من استشهد فيها من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن . وما يزال الاتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء يمكن أن تسمع هناك وهى تدعوا المؤمنين لصلاة الغروب . مختصر تاريخ العرب ص ١٤٩ - ١٥١

(١٨) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٦

(١٩) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥١ ، دبوز تاريخ المغرب الكبير

ج ٢ ص ٢١١

٧ - ولاية عبيد الله بن الحبحاب :

وأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب واليا على أفريقية والمغرب سنة ١١٦ هـ وكان كاتباً بليغاً يقول الشعر وكان واليا على مصر قبل اسناد ولاية أفريقية اليه^(٢٠) فقدم القيروان ونظم شئونها وقام في تونس ببناء المسجد الجامع والزيادة في دار الصناعة^(٢١) كما أرسل الولاة الى أطراف الولاية فبعث الى الأندلس عقبة بن الحجاج وولى على طنجة وما والاها ابنه اسماعيل ثم ولى بعده عمر بن عبد الله المرادى وأرسل جيشاً بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع الى المغرب الأقصى فبلغ السوس الأقصى ولم يقابله أحد الا ظهر عليه وفي سنة ١٢٢ هـ أرسل حبيب بن أبى عبيدة غازيا الى صقلية فتمكن من فرض الجزية عليها^(٢٢) .

وكان عامله على طنجة والمغرب الأقصى عامل الرعبة معاملة سيئة وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين مما أدى الى قيام ثورة عنيفة تزعمها ميسرة المدغرى الذى تمكن من قتل والى طنجة عمر بن عبيد الله المرادى كما تمكن من قتل اسماعيل بن عبيد الله الذى كان يلى أمر السوس^(٢٣) وذر قرن الفتنة في المغرب فقد كان ميسرة المدغرى ممن يدين بمذهب الخوارج الصفرية وادعى الخلافة وتسمى بها وكثر جمعه وأعلن استقلاله عن والى القيروان فأرسل اليه ابن الحبحاب جيشاً بقيادة خالد بن حبيب فالتقى بالبربر الذين ولوا عليهم خالد

(٢٠) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٠٧

(٢١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٥١

(٢٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٥١ ، الرقيق تاريخ

أفريقية المغرب ص ١٠٨ ، ١٠٩

(٢٣) انظر عبد الحكم فتوح ٠٠٠ ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان

المغرب ص ٥٢ ، ٥٣ الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٠٩ وربما كان مذهب الخوارج هو سبب الفتنة لا ظلم الولاة كما يذكر المؤرخون .

ابن حميد الزناتى خليفة ميسرة ودارت معركة عنيفة أنف العرب فيها من الفرار مما أدى الى استشهاد خالد بن حبيب وأصحابه حيث قتل فى تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها فسميت لذلك غزوة الأشراف^(٢٤) وانتقض المغرب الأقصى ضد حكم القيروان . وبلغ استشهاد كرامة العرب وانتفاض المغرب على والى الفيروان الى اسماع هشام بن عبد الملك فقال : « والله لاغضببن لهم غصبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت الى جانبه خيمة فيس أو تميمى » ثم كتب الى ابن الحبحاب بقدمه عليه فخرج فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة^(٢٥) . موجها الى دمشق .

٨ - ولاية كلثوم بن عياض القشبرى :

وأسند هشام بن عبد الملك القيام بأمر أفريقية والقضاء على الثورة فيها الى كلثوم بن عياض القشبرى وأرسل معه اثنى عشر ألفا من أهل الشام وأمر حكام مصر وبرقة وطرابلس بإرسال الجنود معه فوصل الى أفريقية فى رمضان سنة ١٢٣ هـ فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفارى قاضى أفريقية وسار كلثوم بن عياض فى جيشه الذى بلغ ثلاثين ألفا^(٢٦) بعد أن انضم اليه جند أفريقية بقيادة حبيب بن أبى عبيدة والتقوا مع ثوار البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتى فدارت المعركة بينهما على وادى سبو بجنوب طنجة حيث انجلت عن قتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبى عبيدة وهزيمة العرب وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم فانسحب بقية الجيش ولجأ بعضه

(٢٤) المراجع السابقة فتوح ص ٣١٧ ، الرقيق ص ١١٠ ، ١١١ ،

البيان ص ٥٤

(٢٥) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١١ ، ابن عذارى البيان

المغرب ج ١ ص ٥٤

(٢٦) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٥ نقلا عن ابن القطان .

الى الأندلس والبعض الآخر الى القيروان^(٢٧) . وبعد هذه المعركة انفصل المغرب الأقصى والأوسط^(٢٨) عن سلطة القيروان وأصبح هم الولاية بعد ذلك هو المحافظة على أفريقية التي هي المغرب الأدنى وفيه مقر الولاية « مدينة القيروان » .

٩ - ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى :

بعد استشهاد كلثوم بن عياض ولى هشام بن عبد الملك على أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فوصل الى القيروان فى شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين ومائة وطلب منه أهل الأندلس أن يرسل اليهم واليا فأرسل اليهم أبا الخطار بن ضرار الكلبى الذى ركب البحر من تونس الى الأندلس واليا عليها فأدوا اليه الطاعة^(٢٩) ، ولم يمض على إقامة حنظلة بالقيروان وقت طويل حتى زحف اليه الخوارج الصفرية فالتقى بعكاشة بن أيوب الفزارى بالقرن قريبا من القيروان ودارت معركة حامية كان النصر فيها لحنظلة وفر عكاشة ثم قبض عليه فقتله حنظلة . وبعد ذلك أقبل عبد الواحد بن يزيد الهوارى فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام وكان فى جمع

(٢٧) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٥ ، حبيب الحنجاني القيروان عبر عصور الازدهار ص ٤٧ ، ديوز تاريخ المغرب الكبير ص ٢٦٩

(٢٨) أقسام المغرب : قسم العرب المغرب بحسب قربه وبعده عن مصر التى يسرون منها لفتحه الى ثلاثة أقسام :

أ - الأدنى : من السلوم فى غرب مصر الى بجاية ويشتمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينية .

ب - والى مغرب أوسط : وهو من بجاية شرقا الى وادى ملوية ويشتمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران الى ملوية .

ج - والى مغرب أقصى : من وادى ملوية الى المحيط الأطلسى .

انظر ديوز تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٣٨

(٢٩) الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١١٥

عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة ألف قاصدا القضاء على السلطة في القيروان فخرج اليه حنظلة باهل القيروان بعد أن جهزهم بكل الأسلحة العسكرية الموجودة لديه وقد بذل صفوان الأموال للمجاهدين فخرج أهل القيروان للدفاع عن مدينتهم وهم مستميتون لحماية مدينتهم . وشارك في هذه المعركة العلماء والقراء لتقوية الروح المعنوية كما شارك نساء القيروان حيث عقدن الألوية وخرجن بالسلاح عازمات على القتال ومشاركة الرجال في ميادين القتال وحلفن للأزواجهن لئن انهزم أحد منهم موليا عن العدو ليقتلنه وبذلك أقبل أهل القيروان بقيادة حنظلة على قتال العدو بروح مستميتة في طلب النصر أو الشهادة ودارت المعركة واشتد القتال وأنزل الله نصره وهزم الصفرية وولوا منهزمين وقتل عبد الواحد بن يزيد الهوارى وحملت رأسه الى حنظلة فخر لله ساجدا وبذلك حفظت القيروان من هذه الثورة العاتية . ولقد كان لهاتين الموقعتين وقع حسن في دمشق عندما علم الخليفة بالانتصار فيهما وحماية القيروان من شر الثائرين وكان الليث بن سعد يقول : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوة القرن والأصنام »^(٣٠) لما كان لها من أثر في تاريخ الاسلام في المغرب .

ولا شك أن حنظلة قد حفظ بحسن قيادته القيروان من هذه الثورة العاتية وتلك الأعداد الهائلة التي كانت تريد اجتياحها والقضاء على أي سلطة للأمويين فيها . ولكن في سنة سبع وعشرين ومائة ثار بتونس عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ودعا الناس الى نفسه فأجابوه فأقبل بجموعه الى القيروان طالبا من حنظلة مغادرتها وكره حنظلة سفك دماء المسلمين فغادر القيروان متجها الى

(٣٠) انظر : الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١٩ ، ١١٢ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٩٠ ، ٩١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن تغرى بررد النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩٤

المشرق في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة^(٣١) .

١٠ - ولاية عبد الرحمن حبيب الفهري :

ودخل عبد الرحمن الفيروان وتولى الامر فيها وصار هو الحاكم لأفريقية ويبدو أن الذي ساعد الفهري في حركته هو اضطراب امر الخلافة في المشرق الذي كان فرصة مكنت لعبد الرحمن من أن يظفر بشبه استقلال في الحكم وإن كان لم يعلن انفصاله عن الخلافة في المشرق فقد أرسل عبد الرحمن إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية هدايا وعلل خروجه على حنظلة بأشياء تقولها عليه فكتب إليه مروان بولايته على أفريقية^(٣٢) وقد استمر عبد الرحمن بحكم أفريقية عشر سنوات استطاع خلالها أن يقضى على كل الثورات التي قامت ضده وهزم كل ثائر حاول الانتفاض عليه ، وعندما اجتمع بتلمسان جمع كبير من البربر سار اليهم وفض جموعهم وظفر بهم وخافه المغرب ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية وقد بعث جيشا إلى صقلية وآخر إلى سردانية فانتصر على أهلها ثم صالحوه على الجزية^(٣٣) .

ولما قامت دولة بني العباس أرسل عبد الرحمن كتابا إلى أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس يعلن فيه طاعته فآخذه السفاح على أفريقية فلما توفي السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور أرسل إليه عبد الرحمن بهدية ومعها كتاب بين فيه قلة دخل أفريقية وأنها قد أصبحت إسلامية ويطلب منه ألا يسأله ماليين عنده فاستاء لذلك

(٣١) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٢٤ ، ابن الأبار الحلة السيرة

ج ٢ ص ٣٤٢ ، مبارك الميلي الجزائر في القديم والحديث ص ٤٠

(٣٢) الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٢٩ ، ابن عذارى البيان ج ١

ص ٦١ ، السلاوي الاستقصا ص ٥٢

(٣٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦١ ، ابن الأثير الكامل ج ٥

ص ١٤٨ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، مبارك الميلي الجزائر

في القديم والحديث ص ٤٠

أبو جعفر وكتب اليه يتوعده مما حمل عبد الرحمن على خلع
 ابي جعفر واعلان عدم تبعيته له ، وانتهاز أخوه الياس ذلك فثار عليه
 وقتله وتولى امر افريقية بعده وبعث بطاعته الى المنصور مع وفد منهم
 عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى افريقية^(١٤) ، ولكن افريقية لم تسكن
 لالياس اذ ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتمكن من القضاء عليه
 بعد سنة ونصف من توليه الأمر ودخل حبيب الفيروان وقام بأمر افريقية
 وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . الا ان افريقية لم تسلس
 قيادها له اذ اقبل عاصم بن جميل^(١٥) أمير ورفجومة من نفزة فهزم
 حبيباً ثم التقى عاصم مع خليفة حبيب على الفيروان القاضى أبو كريب
 فقتل أبو كريب بعد أن قاتل رمن معه من أهل القيروان بكل بسالة
 وجراة ودخلت ورفجومة القيروان فاستحلوا المحارم وانتهكوا الحرمات
 وولى عاصم على القيروان عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى الذى
 سام اهل القيروان سوء العذاب وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ،
 ثم التقى حبيب مع عاصم مرة اخرى فتمكن من قتل عاصم وأصحابه
 الا أن عبد الملك بن أبى الجعد تمكن بقبيلته ورفجومة من قتل حبيب
 فى شهر المحرم سنة مائة وأربعين هجرية وبذلك قضى على أسرة
 عبد الرحمن بن حبيب . وعاشت ورفجومة فى الفيروان فسادا وفر كثير
 من أهل القيروان الى المدن المجاورة وتساع ما حل بالقيروان بالآفاق .
 فاقبل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافرى الأباضى من طرابلس

(٣٤) الرقيق تاريخ ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ابن عذارى البيان ج ١

ص ٦٨ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٩

(٣٥) عاصم بن جميل الورفجومى : رئيس قبيلة ورفجومة
 البربرية من نفزة . ادعى النبوة والكهانة فبدل الدين وزاد فى الصلاة
 وأسقط ذكر النبى ﷺ من الأذان وقد قتله حبيب بن عبد الرحمن
 فقام بأمر ورفجومة من بعده عبد الملك بن أبى الجعد وهو من الخوارج
 الصفرية . انظر الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٤٩ وابن عذارى البيان
 ج ٥ ص ٧٠

قاصدا القيروان لقتال ورفجومة فالتقى معهم سنة ١٤١ هـ وهزمهم وشتت شملهم وتتبعهم حتى أخرجهم من القيروان وترك على القيروان نائبا عنه عبد الرحمن بن رستم وذلك في صفر سنة احدى وأربعين ومائة من الهجرة^(٣٦) .

وبذلك خرجت القيروان قاعدة أفريقية عن التبعية للخلافة المركزية في المشرق وصارت في يد الأباضية .

١١ - ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي :

ولذلك أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ليسترد القيروان من الأباضية ولتكون تابعة لمركز الخلافة خاصة بعد أن وفد على أبو جعفر المنصور رجال من أفريقية يشكون اليه ما نزل بهم من ورفجومة ويستصرخونه لانقاذ أفريقية . ولقد جهز المنصور محمد بن الأشعث بجيش بلغت عدته أربعين ألفا حيث التقى مع أبي الخطاب الاباضي الذي كان يعاضده قرابة مائتي ألف جندي عسكر بهم في سرت منتظرا ابن الأشعث . وعندما التقى الجيشان دارت معركة حامية قتل فيها أبا الخطاب وشتت جيشه وتوجه بعدها ابن الأشعث الى القيروان التي فر منها عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب فدخلها ابن الأشعث في صفر سنة ١٤٤ هـ وأقر فيها الأمن والهدوء ونشر الأمن في أفريقية كلها وظهر ودان وزويلة من الأباضية كما قام باحاطة القيروان بسور أتمه سنة ١٤٦ هـ وذلك لتأمين القيروان من الأعداء ولكن بعض الجند ثار عليه فغادر القيروان متوجها الى المشرق في ربيع الأول سنة ١٤٨ هـ^(٣٧) .

(٣٦) انظر الرقيق تاريخ أفريقية سنة ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٠

(٣٧) انظر تاريخ اليعقوبي ص ٤٦٤ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩١ ، السلاوي الاستقصا ص ٥٥ ، ٥٧

١٢ - ولاية الأغلب بن سالم التميمي :

واسند أبو جعفر المنصور ولاية إفريقية الى الأغلب بن سالم التميمي فوصله العهد في جمادى الآخرة سنة ١٤٨ واستقامت له الأمور وهذا الجند ويذكر ابن عذارى أن المنصور أوصاه « بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند وتحصين مدينة القيروان وخنـدـفـها وترتيب حرسها ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه وغير ذلك من أمورـه » (٣٨) .

وقد استقرت أمور إفريقية على يديه غير أن أبا قرّة البربري من الخوارج الصفرية جمع جيشا كثيفا من البربر لقتال الأغلب فلم ينتظره الأغلب بل سار اليه يريد فض جمعه وعندما قاربه (٣٩) الأغلب فر أبو قرّة وتفرق جمعه وأراد الأغلب مواصلة زحفه الى تلمسان وطنـجة الا أن بعض قادة الجند كرهوا ذلك وجعلوا يتسللون الى القيروان فاستغل الحسن بن حرب الكندي (٤٠) ذلك وثار على الأغلب ودخل القيروان اثناء غياب الأغلب عنها الا أن الأغلب رجع الى القيروان وتمكن من اخراجه منها والانتصار عليه فعاود الحسن جمع الجند وقدم الى القيروان فخرج اليه الأغلب فقاتله واثناء المعركة أصابه سهم فقتله وسمى الشهيد وتابع جنده المعركة حتى انتصروا على الحسن وقتلوه فولى الثائرون معه منهزمين (٤١) .

(٣٨) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٧٤

(٣٩) لم يذكر أحد من المؤرخين الذين رجعت اليهم أين اجتمع

أبو قرّة ومن معه .

(٤٠) كان الحسن بن حرب بتونس فكاتب جميع القواد فلحق

به بعضهم وأقبل معهم الى القيروان فدخلها . انظر البيان ابن عذارى

ج ١ ص ٧٤

(٤١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ٢٧٨ ابن عذارى البيان ج ١

ص ٧٥ ، السلاوي الاستقصا ص ٥٧

١٣ - ولاية عمر بن حفص :

وبعد استشهاد الأغلب ولى المنصور على إفريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب فقدم القيروان سنة ١٥١ هـ فمكث في ولايته ثلاث سنين والأمور مستقيمة والأحوال هادئة وعندما شرع في تسوير مدينة طنبنة^(٤٢) ثار عليه البربر في جموع غفيرة وأعداد كثيرة يذكر المؤرخون أن منهم أبا قررة في أربعين ألفا من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا من الأباضية والمسور الزناتى في عشرة آلاف من الأباضية وغيرهم من خوارج صنهاجة وزنانتة وهوارة في أعداد لا تحصى وحاصروه في طنبنة فحاول عمر صرف أبا قررة بتقديم الأموال الى بعض أنصاره الذين تخلوا عنه مما اضطر أبا قررة الى لحاقه بأنصاره الذين تخلوا عنه ، ثم أرسل عمر جيشا الى ابن رستم فهزمه حتى لحق بتيهت ، وعاد عمر بن حفص الى القيروان فاجتمعت عليه جموع البربر بقيادة أبى حاتم^(٤٣) الأباضى وضربوا الحصار حول القيروان فكان عمر يقاتلهم في كل يوم الى أن أجدهه ومن معه الحصار ونفذت المؤن فخرج للقتال فلم يزل يطعن ويضرب حتى استشهد للنصف من ذى القعدة سنة ١٥٤ هـ ودخلها أبو حاتم فأحرق أبواب القيروان وتلم سورها وأخرج أكثر الجند الى الزاب^(٤٤) . وبذلك تمكن الأباضية من أن يكون لهم حكم القيروان .

(٤٢) طنبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلى المغرب على ضفة

الزاب . شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١١١

(٤٣) هو يعقوب بن لبيب الملووزى الهوارى وكنيته أبو حاتم :

تاريخ الفتح العربى فى ليبيا جاهر الزاوى ص ١٤٣

(٤٤) انظر الرقيق تاريخ فتح إفريقية والمغرب ص ١٤٢ - ١٤٧ ،

ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٥ - ٧٨ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٣ ،

٢٨٤ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٢ . ومنتصف ذى القعدة ذكره

الرقيق وابن الأثير وابن عذارى يذكران أنه منتصف ذى الحجة .

١٤ - ولاية يزيد بن حاتم :

وفي سنة ١٥٥ هـ أسند أبو جعفر المنصور ولاية إفريقية الى يزيد بن حاتم وأمدّه بجيش بلغ ستين ألفا لاعادة السلام الى إفريقية والقضاء على الثورات فيها وطرد الأباضية من القيروان فقدمها يزيد والتقى مع أبى حاتم الأباضى فى ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ فتمكن من قتله والقضاء على جنده الثائرين معه . ويقال : « انه كان بين الجند - أى جند العرب - والبربر من لدن قاتلهم عمر بن حفص الى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة » وبعد أن قضى يزيد على أبى حاتم توجه الى القيروان فدخلها ونشر الأمن والسكينة فى إفريقية وقضى على الفتن بها كما جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان ورتب أسواقها وجعل لكل صناعة مكانا خاصا بها ومكث فى ولايته خمسة عشر عاما الى أن أدركته الوفاة فى رمضان سنة سبعين ومائة هجرية فى خلافة هارون الرشيد^(٢٥) .

وقام بأمر إفريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم ابنه داود الذى استخلفه أبوه فى مرضه فقام بأمر إفريقية ورد الثوار الذين حاولوا الخروج عليه من الأباضية فى جبال باجة وغيرها .

١٥ - ولاية روح بن حاتم :

ثم قدم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب واليا على إفريقية من قبل الرشيد سنة ١٧١ هـ ويذكر الرقيق أنه رغب فى موادة عبد الوهاب بن رستم الأباضى صاحب تيهرت فوادعه^(٤٦) . وكانت

(٤٥) انظر الرقيق تاريخ إفريقية ص ١٥٩ - ١٦٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٣ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ ويذكر ابن عذارى أنه توفى سنة ١٧١ هـ ، الاستقصا للسلوى ص ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٥ (٤٦) ويعتبر هذا عمل سياسى هام من روح وان كان فيه الاعتراف بانفصال تاهرت الأباضية عن سلطة الخلافة .

البلاد هادئة في أيامه والأمن منتشر في ربوعها والطرق آمنة وظل
واليا على أفريقية مقيما في القيروان عاصمتها الى أن ادركته الوفاة
في رمضان سنة ١٧٤ حيث دفن الى جوار أخيه يزيد بن حاتم^(٤٧) .

١٦ - ولاية نصر بن حبيب المهلبى :

وأُسند الرشيد أمر أفريقية بعد روح بن حاتم الى نصر بن حبيب
المهلبى الذى تولى أمرها في آخر رمضان سنة ١٧٤ هـ فقام بتيسير
شئون أفريقية خير قيام وذلك لحسن سيرته وعدله في أحكامه ولم تقم
بأفريقية فتن في أيام حكمه . الا أن الرشيد عزله في بداية سنة ١٧٧ هـ .

١٧ - ولاية الفضل بن روح :

وقد ولى الرشيد الفضل بن روح بن حاتم أمير أفريقية فقدم
القيروان في محرم سنة ١٧٧ هـ وقد استبشر الناس بقدوم الفضل
ونصبت له القباب من مسجد أم الأمير الى دار الامارة كما يقول
الرقيق . الا أن واليه على تونس - وكان ابن أخيه - أساء الى الجند
فيها مما جعلهم ينقمون عليه بالاضافة الى ما كان يتسم به الفضل
من استبداد برأيه دون اخذ رأى قادة الجند ، مما دعا الجند في
تونس الى الثورة على وليه واخراجه من تونس وقدم الجند الثائرون
بعد ذلك الى القيروان فاستولوا عليها بقيادة عبد الله بن الجارود -
ويعرف بعبدويه الأنبارى - الذى قتل الفضل بن روح في شعبان
سنة ١٧٨ هـ .

١٨ - ولاية هرثمة بن أعين :

وقد غضب الرشيد لقتل الفضل وأرسل هرثمة بن أعين واليا
على أفريقية ليقوم باصلاح أمرها فدخل القيروان في ربيع الأول

(٤٧) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٧١ - ١٧٣ ،
الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٦ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٣ ،
ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٤

سنة ١٧٩ هـ وتمكن من القضاء على الفتنة ونشر الأمن والسكينة بين الناس وأعطى جند طرابلس أرزاقهم المتأخر اعطاؤها لهم ، وأرسل ابن الجارود الخارج على الفضل الى الرشيد ، وينسب الى هرثمة بن أعين انه بنى القصر الكبير بالمستير لسنة من قدومه الى القيروان ، وبنى كذلك السور على طرابلس مما يلى البحر . وقد ثار عليه عياض بن وهب الهوارى وكليب بن جميع الكلبى^(٤٨) فتمكن من القضاء عليهما بقيادة يحيى بن موسى . وقد أدرك هرثمة كثرة الثورات بأفريقية وشدة الخلاف فيها مما دعاه الى أن يطلب من الرشيد اعفائه من حكم ولاية أفريقية فاستعفاه الرشيد فخرج من أفريقية فى رمضان سنة ١٨١ هـ فكانت ولايته سنتين ونصفا .

١٩ - ولاية محمد بن مقاتل العكى :

وقد ولى الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العكى الذى قدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨١ هـ ويقول المؤرخون عنه انه كان سىء السيرة ضعيف الراى مما ادى الى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه . وقد ارتكب خطأ واضحا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه ظلما وعدوانا وحبسه له مما تسبب عنه موت البهلول . كما « اقتطع من أرزاق الجند واساء معاملتهم ومعاملة الرعية »^(٤٩) وقد ادى ذلك الى قيام بعض الجند بثورة ضده تزعمها تمام بن تميم التميمى عامله على تونس الذى التقى بابن العكى خارج القيروان فانهزم ابن العكى ولجأ الى القيروان . وتمكن تمام من دخول القيروان وأمن ابن العكى الذى خرج الى طرابلس . ولكن ابراهيم بن الأغلب العامل على الزاب غضب لاختراج ابن العكى وقدم الى القيروان مما جعل تماما يغادرها فدخل ابراهيم القيروان واستدعى ابن العكى ليكون الحاكم فيها حسب عهد أمير المؤمنين . الا أن الرعية والجند كرهوا عودة ابن العكى ويذكر الرقيق أن الرجل كان يقوم فى الجماعة

(٤٨) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٤

(٤٩) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٥

فيقول : « قد كنا استرحنا من ابن العكى فجاء ابراهيم ، فغلب على الثغر وردّه فالموت خير من الحياة في سلطان ابن العكى »^(٥٠) مما جعل كثير من الناس يلجأ الى تمام الذى حاول أن يزيل الوئام بين ابراهيم وابن العكى الا أن هذه الواقعة لم تلق أذنا صاغية . فأقبل تمام من تونس فالتقى معه ابراهيم بن الأغلب فهزمه فمضى تمام الى تونس حيث لحق به ابراهيم بن الأغلب مستهل المحرم سنة ١٨٤ فاستأمن له تمام فأمنه وأقبل به الى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من المحرم سنة ١٨٤ هـ . وقد استشار الرشيد خاصته - بعد أن بلغه سوء تصرف ابن العكى - فيمن يصلح لولاية أفريقية فأشير عليه بتولية ابراهيم بن الأغلب فكتب اليه عهده في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ليقوم بأمر أفريقية^(٥١) .

وبولاية ابراهيم بن الأغلب أفريقية تبدأ صفحة جديدة في حياة القيروان وازدهارها حيث يبدأ حكم الأسرة الأغلبية التى استمرت فى الحكم أكثر من قرن من الزمن .

تلك هى الصورة التى نرى عليهما الوضع السياسى فى القيروان فى هذه الفترة من حكم ولاية أمية وبنى العباس ونلاحظ فيها كثرة الولاة وعزل بعضهم عند اسناد الخلافة الى خليفة جديد . مما أدى الى عدم الاستقرار . يضاف الى ذلك كثرة الثورات التى قام بها الخوارج من الصفرية والأباضية أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم أحيانا من فرض سلطته على القيروان الا أن سلطانهم كان لا يدوم

(٥٠) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٧

(٥١) انظر تاريخ أفريقية للرقيق ص ١٨٢ - ٢٠٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٥٤ - ٥٦ ، ٦٢ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ - ٩١ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٩٦ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٨٨ - ٩٠ ، ١١٠ ، الاستقصا للسلوى ص ٥٩ ، ٦٠

طويلا ليقظة الخلافة وحرصها على تبعية القيروان لها . فكانت الخلافة في دمشق وبغداد تتابع ارسال الجيوش اليها لتقضى على الثائرين وتسترد القيروان من قبضتهم .

والذى يبدو لى أن الثورات التى كان يتزعمها قواد من العرب انما كان يراد بها الوصول الى مركز السلطة والجلوس على كرسى الامارة . أما الثورات التى كان يقوم بها البربر وخاصة الصفرية فيظهر فيها ميلهم الى أن يكون لهم الاستقلال عن مركز الخلافة وتسيير أمور بلادهم . ولقد كان الصفرية يقسون في معاملتهم العرب المسلمين ويشتون في مذهبهم . . . أما الأباضية فان ما يظهر من معاملتهم لأهل القيروان اثناء تغلبهم عليها يدل على انقيادهم لتعاليم الدين وعدم انتهاك الحرمات وان كانوا خارجين على سلطان الخليفة ولا يعترفون به .

ولا شك أن هذه الثورات الكثيرة ذات الأهداف المتعددة كان لها تأثير قوى في الحياة الفكرية في القيروان ، سوف يظهر جلبا عند دراستنا للحياة الفكرية خاصة من الناحية العقائدية . كما يبدو لنا اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وذلك بارسال كبار رجال دولتهم ذوى الخبرة السياسية والقدرة العسكرية والحنكة الادارية ليقوموا بحكم امارة أفريقية من أمثال محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد ابن حاتم . وذلك خشية أن تنفصل امارة أفريقية عن التبعية للخلافة ، كما أنهم لم يولوا عليها أحدا من أهلها خشية محاولته الاستقلال بها . ولقد حدث هذا الاستقلال عند تولية ابراهيم بن الأغلب رأس اسرة الأغالبة . ولا شك أن كثرة تعداد الجيوش التى جاءت مع الولاة من المشرق كانت عبئا ثقيلا على ولاية أفريقية مما جعلنا نقرأ في المصادر فى الاعانة المالية من ولاية مصر الى أفريقية وان كان تتابع هذه الجيوش على أفريقية قد ساعد على تعريب البلاد وسيادة سلطان اللغة العربية فيها .

(ب) عصر الأغلبية :

١ - ابراهيم بن الأغلب :

كان لاسناد أمر أفريقية الى ابراهيم بن الأغلب أثر بعيد وعميق في التغير السيامى الذى طرأ على هذه الولاية وفي تمتع القيروان بشبه استقلال اعطاها الحرية فى التصرف مما ادى الى استقرار الأمن والطمانية فيها ومكنها بعد ذلك من استئناف نشاط الفتوح وتوسيع نطاق سلطة القيروان .

ولقد وصل العهد الى ابراهيم بن الأغلب من هارون الرشيد فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ويذكر المؤرخون أن أهل القيروان قد حملوا ابراهيم بن الأغلب على طلب الولاية من الرشيد كما أن ابراهيم قد تنازل عن مائة ألف دينار كانت تحمل الى أفريقية من مصر وتعهد بدفع أربعين ألف دينار الى الخلافة فى بغداد .

وكان الرشيد قد عقد مجلس شوره لبحث هذا الموضوع فأشار هرثمة بن أعين الذى تولى أمر أفريقية سابقا بولاية ابراهيم .

ويصف ابن عذارى ابراهيم بن الأغلب بأنه كان « فقيها أديبا شاعرا ذا رأى ونجدة ويأس وحزم وعلم بالحرب ومكايدها جرىء الجنان طويل اللسان^(٥٢) » لم يل أفريقية أحسن سيرة منه ولا أحسن سياسة ولا أراف برعيته ولا أوفى بعهد منه «^(٥٣) - وقد حاول ابراهيم بذل كل جهده فى استقرار الأمن ونشر السكينة والرقى بالبلاد الا أن ذلك لم يمنع من قيام ثورات ضده تمكن من القضاء عليها كما بنى مدينة قريبة من القيروان لتكون مقرا له ونقل اليها العتاد والرجال .

وكان من الثورات التى قامت ضده ثورة حمد يس من رجالات العرب بتونس فى سنة ١٨٦ الا أن ابن الأغلب تمكن من القضاء

(٥٢) لعله يقصد أنه فصيح اللسان .

(٥٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٢

عليها . وقد حاول بعد ذلك أن يوسع سلطانه الى المغرب الأقصى حيث تقيم دولة الادارسة الا أن ادريس حاكم الادارسة توسل اليه واستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه .

وكان أشد الثورات التي قامت ضد ابراهيم بن الأغلب هي ثورة عمران ابن مجالد الربيعي وقريش بن التونسي بتونس حيث تمكنا من هزيمة جيش ابن الأغلب ودخلوا القيروان الا أن الرشيد ساعد ابراهيم بالمال مما جعله يتمكن في النهاية من هزيمة عمران بن مجالد الذي فر الى الزاب . ويذكر الرقيق القيرواني أن ابراهيم قبض على رؤساء الجند الذين كانوا يتوثبون على الأمراء وبعث بهم الى المشرق لأن كل رئيس فرقة من الجند كان يرى أنه أحق بالأمر من الوالى الذى يسند اليه الخليفة الأمر كما يذكر أن عدم سداد الوالى للأرزاق الجند كان من أسباب قيام الجند بالثورات والانضمام الى المتمردين . وقد عهد ابراهيم قبل وفاته الى ابنه عبد الملك بتولى الامارة من بعده حيث أدركته الوفاة في شوال سنة ١٩٦ هـ (٥٤) .

٢ - عبد الله بن ابراهيم :

فتولى الأمر بعده ابنه عبد الله الذى كانت أيامه هادئة ساكنة لم تقم فيها ثورة ضده نتيجة لما قام به أبوه ابراهيم مما ترتب عليه نهوض البلاد . وان كان قد تخلل فترة حكمه أجحاف بالمزارعين بزيادة الضرائب مما أدى الى ضيقهم وشكواهم وقد دامت امارته خمسة أعوام حيث توفى في سنة ٢٠١ هـ .

٣ - زيادة الله بن ابراهيم :

قبض على مقاليد الحكم بعده فى القيروان اخوه زيادة الله الأول الذى وصله عقب توليه امارة أفريقية التقليد من المأمون والذى أمره

(٥٤) انظر البلاذرى فتوح ص ٢٧٦ ، الرقيق القيرواني تاريخ أفريقية ص ٢٢٢ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٢ - ٩٣ ، ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٦٣ ، ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٦

فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر على المنابر^(٥٥) ولم يرق ذلك لزيادة الله الذى أرسل الى المأمون دنانير من سكة الأدارسة معرضا بالتحول عن الدعوة العباسية . وفى ذلك ما يدل على ضعف تأثير بغداد على السلطة فى القيروان . وتمتد القيروان باستقلال واسع يمكنها من الانفصال عن الخلافة ان أرادت ذلك .

وقد قامت بعض الثورات ضد زيادة الله - والتي يعطها ابن عذارى بسوء سيرة زيادة الله فى الجند وسفكه لدمائهم - وقد كادت هذه الثورات أن تودى بالدولة حتى أنه لم يبق تحت سلطانه الا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس . ولكنه فى النهاية تغلب عليها .

وكان أشد تلك الثورات هى ثورة منصور الطنبذى بتونس سنة ٢٠٩ هـ الذى كثر جمعه وتغلب على جيش زيادة الله ، وسار الى القيروان، فملكها وحاصر زيادة الله فى مدينة القصر القديم أربعين يوما وعمر سور القيروان ووالاه أهل القيروان وحاربوا معه . غير أن زيادة الله تمكن فى النهاية من الانتصار عليه ودارت الدائرة على الطنبذى ودخل زيادة الله القيروان وعفا عن أهلها الا أنه هدم سور القيروان عقابا لأهلها على موالة الطنبذى .

وقد قام زيادة الله بكثير من الأعمال الإصلاحية منها ببناء المسجد الجامع بالقيروان مسجد عقبة وأنفق عليه ستة وثمانون ألف دينار ومنها بناء قنطرة أبى الربيع وبناء حصن سوسة كما. اهتم باسناد الوظائف الى من يحسن القيام بها فولى أبا محرز قضاء أفريقية .

وفى خلال حكمه قام جيش الأغالبة بالاغارة على جزيرة سردينية وفى سنة ٢١٢ هـ أرسل حملة بحرية لغزو صقلية فتمكنت من فتحها والاقامة فيها وضمها الى أملاك الأغالبة وأصبحت تابعة للقيروان . وكان ذلك ايذاناً بسيادة الأغالبة على هذه المنطقة من البحر المتوسط .

(٥٥) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٧

وفى سنة ٢٢٣ هـ توفى زيادة الله بعد أن مكث فى الحكم قرابة
اثنين وعشرين عاما^(٥٦) .

٤ - الأغلب ابن ابراهيم :

وقد خلفه على حكم إفريقية أخوه الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب
الذى قام باصلاحات أهمها تحسين حالة الجيش والرعية واهتم بإزالة
المظالم وزاد فى أرزاق العمال لكى يكف أيديهم عن الرعية كما عمل على
تحريم النبيذ والخمر من القيروان وعاقب على بيعه وشربه . وقضى على
فتنة قامت بها قبائل لواته ومكناسة وزواغة من البربر ، كما تابع
إرسال السرايا الى صقلية حيث تمكن المسلمون من الاستيلاء على حصن
البلوط وابلاطنون وقرلون ومرو ، والتقى الأسطول الأغلبى مع أسطول
البيزنطيين فهزمه مما ألجأه الى العودة الى القسطنطينية . وبذلك
كانت أيامه ذات استقرار داخلى وفتح خارجى وتوفى الأغلب فى ربيع
الآخر سنة ٢٢٦ هـ^(٥٧) .

٥ - محمد بن الأغلب بن ابراهيم :

تولى الأمر بعد وفاة الأغلب ابنه محمد بن الأغلب بن ابراهيم
وقد ساد الأمن والسكينة فى أول ولايته ودانت له إفريقية وأسس مدينة
بقرب تاهرت وسماها العباسية فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب صاحب
تاهرت وقد شجع أفلح على ذلك الأمويون فى الأندلس فكافئوه بمائة

(٥٦) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٩٦ - ١٠٦ ،
الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ابن خلدون العبر ج ٤
ص ١٩٧ ، أرض البطولة ليوسف الجزايرلى ص ١٧٤ - ١٧٦ ، القيروان
عبر عصور ازدهارها ، لحبيب الجبجبانى ص ٧١ - ٧٤ ، المكتبة
الصقلية لامارى ص ٥٤١

(٥٧) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٠٧ ، العبر لابن
خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ ، الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٢ .

الف درهم . مما يدل على محاربة الرستميين في تاهرت والامويين في
الأندلس لأسرة الأغالبة وسوء العلاقات السياسية بينهم .

وقد حاول أحمد أخو الأمير أن يستقل بالأمر دونه إلا أن الأمير
محمد تمكن من أخيه في النهاية ونفاه إلى المشرق واسترد كل سلطانه .
وقد حاول نشر العدل بين الرعية والأخذ على يد الظالمين ولو كانوا
من أهل بيته وقربائه ولذلك أعطى لقاضيه سحنون العهود والمواثيق
المغلظة أنه يطلق يديه على أهل بيته وقربائه وخدمه وحاشيته لينفذ
عليهم الحق أحبوا أو كرهوا .

ولا شك أن هذه الروح الطيبة قد مكنته من القضاء على الفتن
التي قام بها ضده سالم بن غلبون وإلى الزاب وعمر بن سالم المعروف
بالقويع^(٥٨) الذي ثار بتونس . وتمكن جيش محمد بن الأغلب من القضاء
عليهما ، كما تابع واليه على صقلية الغزو والفتح واستطاع محمد
أن يمد الجيش الإسلامي فيها بما يحتاجه من عدة وسلاح إلى أن
أدركته الوفاة في المحرم سنة ٢٤٢ هـ^(٥٩) .

٦ - أحمد بن محمد بن الأغلب :

وتولى أمر أفريقية بعد وفاته أحمد بن محمد بن الأغلب الذي
أحسن السيرة في الرعية وأكثر العطاء للجند وكان سمحا كريما مجتنباً
للظلم والعدوان ، كما كان يركب إلى المسجد الجامع بالقيروان في
ليالي شعبان ورمضان فيفريق الأموال على الفقراء والمحتاجين وقد ساد
الهدوء البلاد في أيامه واستقرت سياسيا مما ساعده على القيام بكثير
من المشروعات فحفر المواجهل وبنى المساجد والقناطر كما يذكر ابن
الأثير أنه بنى بأفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب

(٥٨) اشتهر بالقويع انظر البيان لابن عذارى ج ١ ص ١١٠

(٥٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٠٧ - ١١٢ ،

ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٠ الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢١٣

الحديد واشترى العبيد واتخذهم له جندا . وفتحت في فترة حكمه مدينة
قصرياته من مدن صقلية في سنة ٢٤٤ هـ وفي سنة ٢٤٩ هـ أدركته
الوفاة .

٧ - زيادة الله الثاني :

فتولى بعده ابنه زيادة الله الأصغر الذي كان يتسم بالعقل والحلم
والراى والنجدة والشجاعة وقد سار على سنة سلفه الا أن أيامه
لم تطل فتوفى سنة ٢٥٠ هـ لعام من ولايته .

٨ - أبو الغرائيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب :

فقام بأمر إفريقية بعده محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب
ويلقب بأبى الغرائيق لأنه كان يهوى صيدها حتى بنى قصرا يخرج اليه
لصيدها أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب . وكان مسرفا في
العتاء مع حسن سيرة في الرعية ثم غلب عليه اللهو واللعب والشراب
وقد أدى اسرافه الى أن ترك بيت المال خاويا بعد وفاته . وفي عهده
فتحت جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ ولكن الروم تغلبوا على مواقع من ارض
المسلمين في صقلية وقد بنى حصونا ومحارس على ساحل البحر على
مسيرة خمسة عشر يوما من برقة الى جهة المغرب . وفي سنة ٢٦٠ هـ كانت
المجاعة العامة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون وتوفى أبو الغرائيق
سنة ٢٦١ هـ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر ^(٦٠) .

٩ - ابراهيم بن أحمد :

وقبل أن تدرك الوفاة أبا الغرائيق عقد لابنه أباى عقال العهد
واستخلف أخاه ابراهيم بن أحمد - الذى كان يتولى أمر القيروان -
لئلا ينازع ابنه ، وأمره بأن يتولى شئونه ويكون نائبا عنه الى أن يكبر
ولده . فلما توفى أبو الغرائيق طالب أهل القيروان ابراهيم بن أحمد

(٦٠) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٢ - ١١٦ ،

الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢١٣ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١

بأن يتولى أمرهم وذلك لما لمسوه من حسن سيرته وعدله حيث كان هو
الوالى على القىروان ، وبعد أخذ ورد اجابهم الى مطلبهم وبايعه مشايخ
اهل افريقية ووجوها وبايعه جماعة بنى الأغلب ، وبأشر أمور الدولة
وبذل جهودا طيبه فى اصلاح أمورها ، وكان حازما عادلا فنشر الأمن
فى البلاد وقضى على أهل البغى والفساد ، وكان يجلس فى جامع
القيروان يومى الاثنين والخميس لسماع شكوى الخصوم والفصل بينهم
كما امن الطرق التجارية فكان التجار يسرون بقوافلهم وهم آمنون
مطمئنون ، واهتم بالدفاع عن الدولة فبنى الحصون والمحارس على
سواحل البحر فكانت النار توقد من سبته للندير فيصل الخبر الى الاسكندرية
فى الليلة الواحدة .

ونلاحظ هنا تدخل أهل القىروان ومشايخها وأهل الرأى من سكانها
فى تنصيب الأمير وان كان اختياره من بين أفراد الاسرة الحاكمة ممن
لمسوا فيه الصلاح والسهر على القيام بشئون ، الدولة .

وقد اهتم ابراهيم بالتجارة علاوة على اهتمامه بالناحية العمرانية
فبنى سور سوسة وفى سنة ٢٦٣ هـ ابتدا ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بناء
مدينة رقادة ، وفى السنة التالية كمل بناء الصقر المعروف بالفتح وانتقل
اليه .

كما تابع الفتوح فى صقلية على مدى فترة حكمه ففى سنة ٢٦٤ هـ
تم الاستيلاء على سرقوسة وفى سنة ٢٧٥ هـ زادت حملات المسلمين فيها
مما اضطر الروم الى اخلاء كثير من المدن والحصون التى تجاور
المسلمين ووصلت سرايا المسلمين الى الأرض الكبيرة فسبت وغنمت ثم
عادت .

وقد حاول العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر فى سنة
٢٦٧ هـ الاستيلاء بجيش من مصر على افريقية الا أنه لم يتمكن من ذلك
وعاد دون أن يحقق شيئا . ومن هنا نرى أن ابراهيم تمكن من المحافظة
على الدولة من المغيرين عليها وعمل على توسيع رفعتها بمواصلة الفتح فى
صقلية وإيطاليا .

ويذكر المؤرخون انه بعد فترة من حكمه تغيرت احواله في سياسة الدولة وصار مغرما بسفك دماء اقاربه وحجابه وخدمه وكذلك الرعية مما جعل القلوب تميل عنه وكان ذلك مما اضعف الدولة ، وكان من الاسباب المساعدة للدعوة الفاطمية التي ظهرت انذاك في افريقية للتمكن من القضاء على الاغلبة فيما بعد .

وكان ظهور الدعوة الفاطمية في بلاد كتامة مما حمل ابراهيم بن احمد على تغيير سلوكه في آخر ايامه محاولا ان يرضى العامة ويكسب قلوب الخاصة الى صعه فيقول ابن عذارى انه رد المظالم واسقط المقيالات واخذ العشر طعاما وترك لاهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل واعتق مماليكه ، واعطى فقهاء القيروان ووجوه اهلها اموالا ليفرقوها في الضعفاء والمساكين ، كما يذكر ابن الاثير انه اظهر الزهد والنسك وعزم على الحج وخرج الى جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد . وخاض كثيرا من المواقع في صقلية استسلم له فيها كثير من حصونها الى ان ادركته الوفاة وهو يقاتل في صقلية في ذى القعدة سنة ٢٨٩ « (٦١) » .

١٠ - عبد الله الثانى :

وعندما عزم ابراهيم على الخروج الى صقلية استدعى ابنه عبد الله وعهد اليه بالقيام بشئون الدولة ، وكان عبد الله اديبا شجاعا عاقلا وقد كتب الى العمال كتابا يقرأ على العامة يعدهم فيه بالاحسان والعدل والرفق والجهاد ، واستعان بجماعة من العلماء ليعينوه على تسيير شئون الرعية . ولقد اظهر التقشف وانصاف المظلوم وجالس اهل العلم ، وقد بلغه ان ولده ابا مضر زيادة الله والى صقلية معتكفا على اللهو وادمان الخمر فعزله عنها وحبسه . وقد تمكن زيادة الله وهو في سجنه من التآمر على ابيه وقتله في شعبان سنة ٢٩٠ هـ .

(٦١) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ - ١٣٢ ،
الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ١١٢ ، ١١٣ العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣

١١ - زيادة الله الثالث :

وقد تولى زيادة الله الثالث الامارة بعد قتل ابيه واجتمع اهل الدولة وبايعوا له ، فقتل الذين قتلوا اياه ، ولكنه لم يسلك سياسة حكيمة يحفظ بها الدولة من الضياع وانما تابع القتل فى اعمامه واخوته واستمر فى الانهماك فى ملذاته ولهوه واهمل شئون دولته ، مع ان ابا عبد الله الشيعى القائم بالدعوة الفاطمية كان يزداد خطره ويعلو شأنه . وقد حاول زيادة الله ان يستفيد من جهود الفقهاء فى حمل الناس على قتال الشيعى بتبيين ما فى دعوة عبد الله الشيعى من مخالفة للدين ، كما ورد كتاب المكتفى بالله يحث اهل افريقية على نصره زيادة الله ومحاربة الشيعى وقد قرئ كتابه على الناس . الا ان حالة الدولة كانت تنذر بالضياع خاصة فى مقابلة الدعوة الفاطمية التى تمكنت من نفوس القائمين بها . ولذلك لم تجد جيوش واستعدادات زيادة الله عنه شيئا ولحقت جيوشه الهزيمة بعد الهزيمة فسقطت المدن فى يد الشيعى الواحدة بعد الأخرى .

فسقطت مدينة طبنة ثم باغاية ثم قسطينية وفى سنة ٢٩٦ هـ تمكن عبد الله الشيعى من هزيمة ابراهيم بن ابي الاغلب الذى كان يقود عساكر افريقية وجنود اجنادها فى اليريس^(٦٢) ودخلها عنوة .

وعندما وصل خبر الاستيلاء على اليريس الى زيادة الله سقط فى يده وعلم انه خارج عن ملكه ، فجمع ما خف حمله وغلا ثمنه المال والجواهر ، وخرج من رقادة فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ متوجها الى مصر . وقد حاول ابراهيم بن ابي الاغلب القائد الذى هزم فى اليريس ان يستعين بأهل القيروان لمنازلة الشيعى الا ان اهل القيروان لم يوافقوا

(٦٢) مدينة بافريقية دارت حولها تلك الموقعة وهى من أعمال الكاف بتونس ، انظر : طاهر الزاوى ، تاريخ الفتح العربى ص ١٧٥

على ذلك فلحق بزيادة الله وبذلك انتهت دولة الأغالبة من افريقية بعد حكم دام ١١٢ عاما (٦٣) .

وفى نهاية حديثنا عن الحالة السياسية فى عصر الاغالبة يجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على الجهاز السياسى والدواوين والقوى التى كانت تساعد الأمير فى ادارة تلك الامارة المستقلة والمعترفة بالخلافة العباسية حيث نجد منصب الوزارة وهى تلى منصب الامارة أمسها الاغالبة ولقبوا متوليها (بالبديل) أى نائب الأمير وخليفته عند تغييه ، وكانت وظيفة الوزارة النظر فى دواوين الدولة ، وكانت الدواوين ثلاثة :

• (ا) ديوان الجيش

• (ب) ديوان الجباية

• (ج) ديوان الرسائل

ولكل منها اقسام وفروع :

(ا) فكان ديوان الجيش ينقسم الى :

١ - قيادة الجيوش البرية ورئيسه يسمى (بصاحب السيف) وكان الجيش يتألف من متطوعة ومرتزة وعبيد وقد يبلغ تعدادهم فى بعض الأحيان ثمانين ألف مقاتل ، وكان للجيش نظام خاص فى رتبه فمنها قائد المائة (يوزباشى) وقائد الألف (امباشى) وقائد الأعنة .

ويلحق بديوان الجيش الحرس وهم فرقة لها ترتيب عسكرى مكلفة بحراسة المدن وصيانتها من كل طارق ومقاومة ما يحدث من ثورات او قلاقل كما تقوم بتبليغ أوامر الأمير ودواوينه وكان الحرس يقيم فى المحارس والمعازل المشيدة لهم فى كل مدينة .

وكان هناك الشرطة وهم خاضعون لأوامر والى المدينة ومهمتهم السهر

(٦٣) انظر : ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٣٣ - ١٤٨ الكامل

لابن الاثير ج ٧ ص ٢٠٦ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٥ ، المغرب

الكبير للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٦٠٢ - ٤٠٦ .

على الراحة العمومية داخل العاصمة ليلا. ونهارا ومراقبة المفسدين . فاذا ما أقبل الليل ومضت العشاء الثانية أغلقت القيروان أبوابها وضرب البوق فى أطراف المدينة وعندئذ ينقطع المشى من الأزقة ولا يبقى الا الشرطة والعسس ويسمى كل مركز فيها (رابطة) وكان يعاون الشرطة فى الليل كلاب للحراسة يتخذون للأجل التنبيه . وكان يتبع ديوان الجيش البريد وقد استعمله أمراء أفريقية لحمل السجلات وأوامر الدولة من بلد الى آخر بأسرع الوسائل وأقرب الطرق .

٢ - والقسم الثانى من ديوان الجيش : هو قيادة البحر أو الاسطول . ويسمى قائده (ملندر) وهو يوازى لفظة (أميرال) وقد كان للقوات البحرية شأن خطير نظرا لموقع البلاد على البحر ومجاورتها للروم فى الشمال وقد أثنى حسان بن النعمان الميناء البحرى بتونس وحدث بنو الاغلب أواخر القرن الثانى دار الصناعة والميناء البحرى بسوسة التى توجه الاسطول الاغلبى منها لفتح صقلية . وكان لقوة الجند ولاعداد السفن البحرية والحربية المجهزة بالمقاتلين المتمرسين الفضل فى سيادة القيروان على الجزء الغربى من البحر المتوسط حيث تمكن ولايتها من بسط السيادة على جزره المتعددة .

وكان يرتبط بقيادة البحر مصلحة ولاية الثغور يتولاها قائد خبير ينظر فى عموم المحارس والقلاع المنشأة على ساحل البحر لحماية البلاد من المغيرين . وأول من ابتدأ بهذه المعازل هم أمراء ال المهلب وتبعهم الأغالبة خاصة الأمير ابراهيم بن احمد الذى بلغ عدد المحارس فى أيامه أكثر من عشرة آلاف حصن ، ولقد كانت هذه الحصون ضرورية لحماية السواحل من هجمات اعدائهم من الروم الذين كانت تتوالى على البلاد هجماتهم محاولين معاودة بسط نفوذهم على البلاد فلم يترك ولاية الامور مسافة تزيد على بضعة أميال الا ونصبوا فيها محرسا . وقد بقيت لنا من تلك الحصون الساحلية التى تسمى الرباط مرسى جراح ، ورادس والمنستير ، وملقطة والمحرس قرب صفاقس وغيرها وكانت تلك المحارس تتخابر

بطريقة مخصصة عندما يشعر بعضها باغارة بعض الأعداء عليها بحيث يكون الجميع فى حالة دفاع عن البلاد .

وقد كان الجنود يستعملون من انواع الاسلحة ، السيوف والرمح والحراب والسهام والنشاب والدروع والترس والمنجنيق وغير ذلك من الات الحرب ويذكر صاحب بساط العقيق ان بمكتبة جامع عقبة نموذجاً عتيقاً لشكل المنجنيق وقد شاهدت ذلك اثناء زيارتى لمتحف عقبة بالقىروان .

(ب) ديوان الجباية :

وهو لادارة دخل الدولة ونفقاتها : كقبض المكوس والاعشار والجزية وانفاقها فى المنافع العامة والعطايا مما تقتضيه مصالح الدولة وحاجة الأمة وكان من اقسام هذا الديوان دواوين : الصدقة او دخل الزكاة ، والغنيمة ، والخراج ، والجزية ، والاقطاعات : وهى توزيع موات الارض واستخلاص الاعشار المفروضة عليها فى مقابل استغلالها ثم قسم المحاسبات المخصص لمراقبة وتفقد أعمال الأقسام السابقة وكانت أموال بيت المال اما نقودا عينا او أوراقاً^(٦٤) مالية تقوم مقام الدراهم .

(ج) ديوان المراسلات :

ويختص بتحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير الى عمال الجهات وولاة الاقاليم والقواد وغيرهم وكان فيه بعض الكتاب البلغاء^(٦٥) .

(٦٤) يذكر الاستاذ حسن حسنى انه : عثر على رق عتيق ملصق بصفة كتاب يلوح من هيئته أنه من أوراق بعض محاسبات ديوان جباية افريقية ، فمن غريب ما يستنتج منه أن أموال بيت المال كانت أما نقودا عينا او أوراقا مالية تقوم مقام الدراهم . ولعلها ضرب من تذاكر البنوك الجارى بها التعامل اليوم ويذكر : انه سيعتنى بحوله تعالى بنشر نص هذا الرق لما جاء فيه من الارشادات المفيدة : انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٣٣ .

(٦٥) انظر بساط العقيق فى حضارة القىروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٢٧ - ٣٣ .

(ج) عصر الفاطميين :

قيام الدولة الفاطمية :

عندما عجز الفاطميون^(٦٦) وشيعتهم عن مقاومة الامويين والعباسيين فى المشرق والاستيلاء على مقاليد الخلافة وجهوا جهودهم الى المغرب مؤملين أن يتمكنوا من أن يقيموا ملكهم وخلافتهم فى المغرب ، وقد بثوا الدعاة لنشر دعوتهم وجمع الانصار لهم فى المغرب . وكان أول من حمل الدعوة الى الخلافة الفاطمية وقام بنشرها هناك هما الداعيان المسميان الحلوانى والسفيانى اللذان كان عليهما أن يحرثا الارض لأجل نجاح الدعوة الى أن يأتى صاحب البذر^(٦٧) . فذهب هذان الداعيان الى أرض كتامة بالمغرب وجدا فى نشرها حتى ذاعت الدعوة منهما فى

(٦٦) الفاطميون نسبة الى فاطمة الزهراء ويذكر ابن خلدون فى العبر ج ٣ ص ٣٦٠ « ان شيعتهم يزعمون ان النبى ﷺ أوصى الى على رضى الله عنه بالخلافة بالنصوص الجلية وعدل عنها الصحابة الى غيرهم فوجب البراءة ممن عدل عنها ثم أوصى على الى ابنه الحسن ثم الحسن الى أخيه الحسين ثم الحسين الى ابنه زين العابدين ثم زين العابدين الى ابنه محمد الباقر ثم محمد الباقر الى ابنه جعفر الصادق ثم جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل الامام ثم اسماعيل الامام الى ابنه محمد ويسمونه المكتوم لانهم كانوا يكتمون اسمه خذرا عليه ثم أوصى محمد المكتوم الى ابنه جعفر المصدق وجعفر المصدق الى ابنه محمد الحبيب ومحمد الحبيب الى ابنه عبيد الله المهدي الذى دعا له أبو عبد الله الشيعى . انتهى » .

ويطعن بعض المؤرخين فى نسب الفاطميين وينسبهم الى ميمون بن ديصان القداح الثنوى المذهب القائل بوجود الهين اله النور واله المظلمة . ولكن يبدو ان نسبهم الى فاطمة صحيح انظر حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧ - ٧٩ .

(٦٧) انظر ابن خلدون العبر ج ٣ ص ٣٦٠ .

كتامة وغيرها من سكان تلك النواحي وكانت الدعوة للرضا من آل محمد^(٦٨) ، فلما مات هذان الداعيان اسند القيام بالدعوة في المغرب بعدهما الى ابي عبد الله الشيعي الذي قدم الى ارض كتامة في المغرب في العقد التاسع من القرن الثالث الهجري حيث نزل في جبل ايكجان في ارض كتامة وفي هذا الجبل فج الاخبار الذي قال عنه ابو عبد الله لكتامة : « ان هذا فج الاخبار وما سمى الا بكم ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الاوطان ينصره فيها الاخبار من أهل ذلك الزمان قوم مشتق اسمهم من الكتمان فانهم كتامة ويخرجكم من هذا الفج يسمى فج الاخبار »^(٦٩) .

بهذا وغيره استطاع ابو عبد الله الشيعي أن يؤثر في كتامة وأن ينشر دعوة الشيعة فيهم ويملا بها قلوبهم وعقولهم ، ويبين لهم الآثار المترتبة على نصرتهم للدعوة الشيعية . ولقد كان عبد الله الشيعي متصفا بالذكاء والحنكة والعلم والمعرفة مع التزام حياة خشنة غير مرفهة متمسكا بدعوة الناس الى الخير والجد في العبادة .

وعندما بلغ خبر ابي عبد الله الشيعي الى ابراهيم بن احمد بن الاغلب أمير افريقية بالقيروان ارسل الى عامله على ميلة يماله عنه فحقر من شأنه الا أن عبد الله الشيعي استطاع أن يجمع كلمة كتامة وزحف بهم الى ميلة فملكها على الأمان بعد أن حاصرها فأرسل اليهم ابراهيم بن الاغلب ابنه الاحول في عشرين ألفا فهزم كتامة وامتنع أبو عبد الله بجبل ايكجان ، وأحرق الاحول مدينة ناصروت ومدينة ميلة ، وعاد الاحول الى افريقية

(٦٨) قال ابن خلدون : « وكانت شيعتهم منتشرين في الارض من اليمن الى الحجاز والبحرين وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من ارض حمص وكان دعائهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد ويرومون اظهار الدعوة » . ابن خلدون عبر ج ٣ ص ٣٦١

(٦٩) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٢ .

فبنى أبو عبد الله بجبل إيكجان مدينة سماها دار الهجرة حيث قصده أصحابه والتفوا حوله^(٧٠) .

وتوفي إبراهيم بن الأغلب وتولى الأمر بعده ابنه عبد الله فوجه أخاه الأحول بجيش التقى مع الجموع الملتفة حول أبي عبد الله فانهزم الأحول ، وأقام قريبا منه يقاتله ويمنعه من التقدم إلا أن أمر إفريقية أسند إلى زيادة الله بعد قتل أبيه عبد الله فاستدعى زيادة الله عمه الأحول الذي كان منازلًا لأبي عبد الله وقتله ، مما أوسع الطريق أمام أبي عبد الله الشيعي لاكتساح دولة الأغالبة والتغلب عليها .

وجعل أبو عبد الله يشيع بين أنصاره ما يشعل فيهم الحماس لدعوته والتفاني في سبيل نصرتها فيقول « المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض فيا طوبى لمن هاجر إلى واطاعني ويغري الناس بأبي مضر وبعيبي »^(٧١) .

والتقت جيوش أبي عبد الله الشيعي بجيوش زيادة الله في عدة مواقع كان آخرها موقعه الأريس التي انتصر فيها أبو عبد الله فازرع زيادة الله الهرب وحمل أثقاله ومتاعه ولحق بالمشرق . وعندما بلغ أبا عبد الله الشيعي هرب زيادة الله رحل قاصدا عاصمة الأغالبة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير في ألفه فارس إلى رقادة فوجدوا الناس ينهبون أمتعة الأغالبة فلم يتعرضوا لهم « وفرح أهل القيروان وخرج الفقهاء ووجوه البلد إلى لقاء أبي عبد الله فلقوه وسلموا عليه وهنئوه بالفتح فرد عليهم ردا حسنا وحدثهم وأعطاهم الأمان فأعجبهم ذلك وسرهم »^(٧٢) ودخل أبو عبد الله الشيعي رقادة مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ فنزل ببعض قصورها وأرسل العمال إلى البلاد وتعقب أهل الشر فقتلهم واستولى على ما تركه زيادة الله من الأموال والسلاح وفي

(٧٠) انظر الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٣ ، العبر لابن خلدون

ج ٣ ص ٣٦٢ .

(٧١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٣ ، وأبو مضر هو زيادة الله

آخر أمراء الأغالبة .

(٧٢) المرجع السابق ج ٨ ص ١٧ .

يوم الجمعة « أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ولم يذكروا احد » (٧٣) ويذكر ابن عذارى : انه ولى على السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ونقش فيها الحمد لله رب العالمين (وسميت السيدة) وكان نقش خاتم أبى عبد الله « فتوكل على الله انك على الحق المبين » وفى الخاتم الذى يطبع به السجلات « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » « ووسم فى افخاذ الخيل « الملك لله » وكتب فى بنوده سيهزم الجمع ويولون الدبر وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا . . وآيات كثيرة من القرآن فى هذا المعنى وأمر بالصلاة على (على بن أبى طالب) فى الخطب بأثر الصلاة على النبى ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين وأظهر التشيع فى على » (٧٤) .

وبذلك تم القضاء على دولة الأغالبة وكان ايدانا بقيام الدولة الفاطمية الى حين تنصيب الخليفة الفاطمى الذى كان مسجوناً فى سجن سلا .

١ - عبد الله المهدي :

وبعد أن استقر الوضع فى القيروان توجه أبو عبد الله الشيعى الى المغرب قاصدا سجن سلا فى رمضان من نفس العام فى جيوش عظيمة اوعيت كل القبائل فاقبلت تدخل فى طاعة أبى عبد الله . ولقد حاول أبو عبد الله الشيعى أن يتوحد الى أسير سجن سلا اليسع ابن مدرار ليتمكن من استنقاذ الامام الفاطمى (٧٥) . فأرسل الى اليسع رسلا مبينا له انه لم يقصده لقتاله . الا أن اليسع قتل الرسل الذين أرسلهم أبو عبد الله اليه مرة بعد أخرى (٧٦) ، فالتقى أبو عبد الله الشيعى بجيوشه معه فى معركة

(٧٣) المرجع السابق ج ٨ ص ١٧ .

(٧٤) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٥١ .

(٧٥) كان عبيد الله المهدي عندما قدم من المشرق ترك افريقية وقصد سجن سلا حيث احتجزه امير سجن سلا عندما دارت الشكوك حوله بأنه الامام الفاطمى .

(٧٦) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٨ .

استمرت سحابة النهار وفى الليل هرب اليسع تاركا سجلماسة . « فدخل
أبو عبد الله ومن معه البلد واتوا المكان الذى فيه المهدي فاستخرجوه
واستخرج ولده فكانت فى الناس مسرة عظيمة كادت تذهب بعقولهم
فأركبهما ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما وأبو عبد الله يقول للناس
هذا مولاكم وهو يبكى من شدة الفرح . ومكث المهدي بعد ذلك بسجلماسة
أربعين يوما ثم سار الى افريقية . . . فوصل الى رقادة فى العشر الأخير
من ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ ويتابع ابن الأثير وصف دخول المهدي
رقادة بأنه لما قرب منها « تلقاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ورؤساء
كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه فسلموا عليه فرد جميلا وأمرهم بالانصراف
ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة
فى البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين^(٧٧) .

وكان ذلك تمام قيام الخلافة الفاطمية فى افريقية حيث تولى عبيد
الله المهدي مقاليد الأمور وسير شئون الدولة فنقش فى خاتمة « أفمن يهدى
الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا لأن يهدى فمالكم كيف تحكمون »
واتخذ الحجاب والكتاب وولى على بيت المال أبا جعفر الخزرى
وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن القديم وعلى السكة أبا بكر بن الفيلسوف
المعروف بابن القمودى وعلى العطاء عبدون بن حباسة وعلى قضاء مدينة
رقادة أفلح بن هارون الملوسى وأقر على عمالة القيروان الحسن بن أبى
خنزير وعلى القضاء بها المروزى^(٧٨) .

وبهذا دانت لعبيد الله البلاد وولى العمال على ولايات افريقية
وأرسل الحسن بن أحمد بن أبى خنزير الى جزيرة صقلية حيث وصل
الى مازر عاشر ذى الحجة سنة ٢٩٧ هـ ومعه القاضى العلوى اسحاق
ابن أبى المنهال^(٧٩) .

وقد حاولت بعض قبائل البربر الخروج على عبيد الله الا انه تمكن

(٧٧) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٨ .

(٧٨) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٥٩ .

(٧٩) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٩ .

من القضاء عليها . كما تمكن فى سنة ٢٩٨ هـ من القضاء على الداعية ومؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب أبى عبد الله الشيعى الذى شـعر بضياـع سلطانه ونفوذه بعد تولى عبيد الله المهدي لمقاليـد الامور . فتآمر مع بعض رؤساء قبيلة كتامة على القضاء على عبيد الله المهدي وقال لهم : « ان افعاله قبيحه ليست تشبه افعال المهدي الذى كنت ادعو اليه واخشى ان اكون قد غلطت فيه »^(٨٠) وقد ثارت فتنة بسبب قتل مؤسس الدولة أبى عبد الله الشيعى الا ان المهدي تمكن من القضاء عليها ونشر السكينة والأمن . وقد اثار تمادى اتباعه فى حمل الناس على التشيع فتنة ثانية « بين كتامه وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير فخرج المهدي وسكن الفتنة وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة »^(٨١) كما تمكن من القضاء على فتنة قامت فى صقلية وأخرى فى تاهرت وبعد تمام استقرار الأمر للمهدي « جعل ولاية العهد لابنه أبى القاسم نزار »^(٨٢) .

محاولات فتح مصر فى أيام المهدي :

لم تكن آمال المهدي قاصرة على قيام الدولة الفاطمية فى افريقية وحدها وانما كان الهدف من قيامها ان تتولى قيادة الأمة الاسلامية كلها وكان دعاة الشيعة ينتشرون فى كافة أرجاء العالم الاسلامى لنشر الدعوة الفاطمية . فوجه المهدي نشاطه الى فتح مصر بعد ان استقر له الأمر فى افريقية ووصلته كتب انصاره فى مصر بالحالة القائمة فيها ويشير الكندي الى ذلك « بأن ذكا - والى مصر من قبل المقتدر - تتبع كل من يرمى اليه بمكاتبة صاحب افريقية فسجن كثيرا منهم وقطع أيدي قوم وأرجلهم وجلا أهل لوبيه ومراقية الى الاسكندرية فى شوال سنة أربع وثلاثمائة »^(٨٣)

(٨٠) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٦١ .

(٨١) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٩ ، العبر لابن خلدون ج ٤

ص ٣٧ .

(٨٢) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٣٧ .

(٨٣) القضاة والولاة للكندي ص ٢٧٤ .

ففى سنة ٣٠١ هـ وجه المهدي حملة لفتح مصر بقيادة ابنه ابي القاسم وكانت حملة برية وبحرية بلغ عدد قطع الاسطول فيها مائتى مركب مشحونة بالامداد والجنود واسندت قيادة الاسطول فيها الى حباصة بن يوسف . فتمكنت الحملة من الاستيلاء على الاسكندرية وتقدمت حتى استولت على الفيوم الا ان المقتدر العباسي ارسل مؤنسا الخادم فى جيش الى مصر فتمكن بعد مواقع حامية دارت على ارض مصر مع الحملة الفاطمية من هزيمتها مما اضطرها الى الانسحاب الى افريقية .

وقد حاول المهدي ثانيا فتح مصر فارسل جيشا كثيفا بقيادة ابنه ابي القاسم فى سنة ٣٠٧ هـ فاستولى على الاسكندرية والجزيرة وبعض مدن الصعيد وبعث الى مكة طالبا من اهلها ان يدينوا له بالطاعة فلم يجيبوه . وتحرك المقتدر للدفاع عن مصر فارسل اسطولا من طرسوس هزم اسطول المهدي فى رشيد واحرق سفنه واسر كثيرا من جنوده وقواده كما دارت معارك برية مع ابي القاسم لحقت الهزيمة فيها بجند افريقية . ووقع الوباء فى معسكر ابن المهدي واشتد الغلاء فادى كل ذلك الى موت كثير من الجند والخييل مما حمل ابا القاسم على الانسحاب بمن بقى من جنوده الى افريقية دون ان يتمكن من تثبيت اقدامه فيها ^(٨٤) .

وقد اهتم المهدي بانشاء مدينة تكون عاصمة لخلافته فخرج فى سنة ٣٠٠ هـ يرتاد الاماكن البحرية فشاهد تونس وقرطاجنة حتى وصل الى مكان « قد احاط به البحر من ثلاث جهات وانما يدخل اليه من الجانب الغربى » ^(٨٥) فاختره لى يقيم عليه مدينة المهدية وشرع فى البناء فيها فتم بناؤها سنة ٣٠٥ هـ وانتقل اليها فى شوال سنة ٣٠٨ هـ بعد ان حصنها بسور وجلب اليها المياه وبنى فيها المواجهل كما اقام فيها دارا للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب وبنى فيها قصرا له وقصرا لولى عهده

(٨٤) انظر الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٨ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٣٧
(٨٥) المغرب فى ذكر بلاد افريقية للبكرى ص ٢٩ .

وبانتقال المهدي بعياله وأمواله وثقله الى المهديّة اطمأن على عاصمة دولته من ان يتمكن اعداؤه من التغلب عليها أو النيل منها^(٨٦) .

وعندما عجز المهدي عن فتح مصر وتثبيت اقدامه فيها وجه جهوده نحو المغرب لبسط سلطانه عليه فأرسل قائده مصالة بين حبوس سنة ٣٠٨ هـ فى جيش الى بلاد المغرب فأوقع بملك فاس من الادارسة واستنزله عن سلطانه الى طاعة المهدي ثم اضطرب المغرب سنة ٣١٥ هـ فأرسل المهدي اليهم ابنه أبا القاسم فى جيش من كتامة ومن انضم اليهم ممن اعتنق المذهب التسيعي ففتح بلاد مزاته ومطماطة وهوارة وسائر اراضى الاباضية والصفيرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الاوسط الى ما وراءها ثم مال الى بلاد الريف ودوخ أقطار المغرب ورجع ولم يلق كيدا .

ولقد حاول المهدي السير على نهج الاغالبية فى الاغارة على بلاد الروم . وفى سنة ٣١٣ هـ أمر المهدي أبا أحمد جعفر بن عبيد الحاجب بغزو بلاد الروم من صقلية فافتتح اماكن كثيرة منها مدينة وارى وأسر بها بطريقا صالحه عن نفسه ومدينته بخمسة آلاف مئقال وانصرف الى صقلية . وفى سنة ٣١٥ ، ٣١٧ ارسل المهدي صابرا الفتى فى المراكب للاغارة على بلاد الروم فسبى وقتل وألقى الرعب فى قلوب الروم^(٨٧) .

وكان المهدي يطمح فى ان يبسط نفوذه على كل ارجاء المغرب الا ان فرح بن عفير قائد عبد الرحمن الناصر الأموى تمكن من الاستيلاء على سبتة سنة ٣١٩ هـ وبقيت معقلا للأمويين فى الشمال الافريقى ولم يتمكن الفاطميون من انتزاعها منهم حتى فى أوج صولتهم وقوتهم .

واستمر المهدي يدبر أمر دولته التى شملت افريقية والمغرب الأوسط

(٨٦) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن عذارى البيان المغرب

ج ١ ص ١٦٩ ، ١٨٤ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣٨ .

(٨٧) انظر العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٣٩ ، البيان المغرب لابن

عذارى ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٤ .

والاقصى وطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية بهمة وحكمة الى ان ادركته الوفاة
فى ربيع الاول سنة ٣٢٢ هـ .

٢ - القائم أبو القاسم محمد :

تولى الخلافة بعده ابنه أبو القاسم محمد الذى تلقب بالقائم بأمر
الله وقد عظم حزنه على أبيه الا انه وجه جهوده لنشر الاستقرار فى المغرب
فأرسل الجيوش الى المغرب بقيادة ميسور الفتى فتمكن من نشر الأمن
وبسط سلطان الفاطميين فيه . كما أعد اسطولا ضخما لغزو بلاد الروم
توجه الى جنوة فافتتحها وأثنى فى بلاد الروم ومر بسرذانية فأوقع
بأهلها . ولقد عاود القائم محاولة بسط نفوذ الدولة شرقا بالاستيلاء على
مصر فأرسل جيشا مع خادمه زيران فملكوا الاسكندرية فأخرج اليهم محمد
الاششىيد حاكم مصر الجيوش فقاتلوههم والجثوهم الى العودة الى
افريقية (٨٨) .

وقد قامت ثورة عارمة ضد القائم تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد
اليفرنى الزناتى الذى استطاع ان يجمع حوله البربر بجبل أوراس وتلب بشيخ
المؤمنين ودعا للناصر صاحب الاندلس من بنى أمية ، وهنا تتجلى محاولة
امويو الاندلس فى مساعدة الثوار ضد الفاطميين (٨٩) . ولقد كثرت جموع
يزيد فزحف الى الأريس والتقى مع جنود الفاطميين فيها فهزمهم واستولى
على الأريس ثم زحف الى باجة حيث التقى بجيش الفاطميين الذى يقوده
خادم القائم بشرى فهزمه ودخل باجة وكان أبو يزيد ينهب المدن التى
يستولى عليها ويقتل الأطفال ويسبى النساء .

(٨٨) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٨٩) يقول ابن خلدون : وبعث - أى أبو يزيد - رسالة فى وفد من
أهل القيروان الى الناصر الاموى صاحب قرطبة ملتزما لطاعته والقيام
لدعوته وطالبا المدد فرجع اليه بالقبول والوعد ولم يزل يردد ذلك سائر
ايام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب فى آخر سنة ٣٣٥ هـ فكان له اتصال
بالناصر سائر أيام فتنته العبر ج ٧ ص ١٥ .

وكانت انتصارات أبى يزيد داعية الى كثرة جموعه واتباعه الذين بلغوا كما يقول ابن خلدون مائتى ألف مقاتل^(٩٠) فزحف بهم الى القيروان ونزل على رقادة وبعد قتال مع جيوش الفاطميين تمكن من الاستيلاء على رقادة والقيروان فى صفر سنة ٣٣٣ هـ. ولقد استمر اتباع أبى يزيد فى سلب ونهب القيروان الى ان خرج اليه شيوخ اهل القيروان فامنهم ورفع السلب والنهب عنهم . وأرسل القائم جيشا آخر لمدافعة أبى يزيد بقيادة ميسور الفتى ولكن أبى يزيد تمكن من قهره والاستيلاء على معسكره واستولى بعد ذلك على سوسة واستباحها .

واستعان القائم برؤساء كتامة وأرسل الى زيرى بن مناد رئيس صنهاجة لى يعاونه فى القضاء على أبى يزيد الذى تمكن من الاستيلاء على معظم افريقية ومحاصرة القائم فى المهديّة . وقدمت الى القائم جنود من كتامة وصنهاجة ودارت معارك حامية بين جنود الفاطميين وجنود أبى يزيد . وقد تدخل فى سير المعارك ضد أبى يزيد عامل مهم وهو انتقاض البربر على أبى يزيد لتغير سلوكه ومجاهرته بالمحرمات . فانفض عنه كثير من البربر . مما حمله الى الرجوع الى القيروان سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ولكن أهل القيروان ثاروا عليه وخرجوا عن طاعته ورجعوا الى طاعة القائم فتوجه أبو يزيد بعساكره الى سوسة وحاصرها .

٢ - المنصور اسماعيل بن القائم :

وقد توفى القائم اثناء ذلك فى ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ بعد ان عهد لابنه اسماعيل أبى الطاهر بولاية العهد بعده فتلقب اسماعيل بالمنصور وكنى موت أبيه ولم يغير شيئا من السكة والبنود والخطبة الى أن يفرغ من القضاء على أبى يزيد واستمر فى قتال أبى يزيد فأرسل اسطولا الى سوسة مددا للقوة المقاتلة فيها مما اذى الى رفع الروح المعنوية بين الجنود فخرجوا لقتال أبى يزيد وتمكنوا من التغلب عليه ففر الى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وأخرجوا عامله وسر المنصور بهذه الانباء وأرسل

(٩٠) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٤١ .

الامان الى اهل القيروان . ورحل اليهم الا أن ابا يزيد عاد لقتال المنصور في القيروان ودارت بين الفريقين معارك متتالية كان النصر في ختامها للمنصور الذي كان يعلن تصميمه على القضاء على ابي يزيد بقوله: « ان لنا لم آخذ ابا يزيد واسلخه فلست بابن فاطمة ولست لكم بامام »^(٩١) وأمام الهزائم اللاحقة بأبي يزيد انسحب أبو يزيد محتفيا بالجبال فتنبعه المنصور الى الجهات التي يلجأ إليها حتى حصره في قلعة كتامة وتمكن المنصور من القبض عليه مثنى بجراحه حيث توفي متأثرا بجراحه في الحرم سنة ٣٣٦ هـ وبذلك قضى على تلك الفتنة التي كادت أن تذهب بالخلافة الفاطمية من المغرب .

وقد توج المنصور انتصاره على أبي يزيد ببناء مدينة صبرة على نصف ميل من القيروان وسماها المنصورية وانتقل إليها من المهديّة سنة ٣٣٧ هـ ونقل إليها اسواق القيروان .

ويذكر ابن خلدون^(٩٢) أن المنصور بلغه أن الافرنج يستعدون لغزو المسلمين فارسل اليهم سنة ٣٤٠ هـ حملة حربية بحرية أسند قيادتها الى مولاه فرج الصقلي ، والى عامله على صقلية الحسين ابن علي فنزلوا قلورية حيث لقيهم ملك الافرنج فهزموه وانتصروا عليه ورجعت الحملة بالغنائم سنة ٣٤٢ هـ^(٩٣) .

وفي المدة التي توجهت فيها تلك الحملة توفي المنصور اسماعيل ابن القائم سنة ٣٤١ هـ لسبع سنين من خلافته .

٤ - المعز لدين الله معد بن اسماعيل المنصور :
وتولى الخلافة الفاطمية بعده ابنه معد الذي تلقب بالمعز لدين الله

(٩١) الحلة السيرة لابن الأبار ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٩٢) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٤٥ .

(٩٣) انظر الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ ، ١٧٣ ، العبر

لابن خلدون ج ٤ ص ٤٠ - ٤٥ ، البيان المغرب لابن عذاري ج ١

ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، الخلاصة النقية للباقي ص ٣٩ ، ٤٠

أرض البطولة للجزايري ص ٢١٣ .

فأهتم بتدبير أمور الدولة ثم قام المعز بحملة الى جبل اوراس فنشر فيه الأمن والسلام وأسلم اليه القياد فبيلتا بنى كملان ومليلة فاحسن اليهما وكانا لم يدخلوا فى طاعة من تقدمه . وأمر المعز ولاية الأفاليم والمدن بحسن معاملة الرعية مما حمل عصاة البربر الى الاتيان اليه وطاعته . وكان المعز يحسن اليهم ويجزل العطاء لهم ومن هؤلاء محمد بن خزر أمير مغراوة الذى أقام بالقيروان مكرما الى ان توفى سنة ٣٤٨ هـ^(٩٤) وكان عامله على « تاهرت وايفان »^(٩٥) يعلى بن محمد اليفرنى ، وعلى اشير وأعمالها زيرى بن مناد الصنهاجى ، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن على الأندلسى ، وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصنلى وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبى سهل الجزامى وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناس «^(٩٦) .

وفى سنة ٣٤٤ هـ قامت مناوشات بحرية بين المعز لدين الله وبين الناصر الأموى صاحب الأندلس ، فقد بعث المعز لدين الله الى الحسين بن على عامل صقلية يأمره بالخروج بالأسطول الى ساحل المرية بالأندلس فخرج الى ساحل المرية وعاث فيه فسادا وغنم وسبى وعاد الى صقلية فأخرج الناصر الأموى أسطوله الى ساحل افريقية للاغارة عليها فمنعه الأسطول الفاطمى من تنفيذ أهدافه فعاود الأسطول الأموى الهجوم سنة ٣٤٥ هـ حيث تمكن من احراق مرسى الخزر وعاث فى جهات سوسة وطبرقة فسادا ثم عاد الى الأندلس . ومن هنا يتبين لنا الى أى حد وصلت علاقات العداء بين الفاطميين والأمويين من اغارة أساطيل كل منهما على الآخر كما هدد المعز بنقض الهدنة التى كانت معقودة مع الروم بعد هزيمته لهم عندما أغاروا على جزيرة اقريطش واحتج على الروم لهجومهم على المسلمين فى اقريطش^(٩٧) .

(٩٤) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٤٥ .

(٩٥) مدينة واقعة فيما وراء تاهرت .

(٩٦) العثر لابن خلدون ج ٤ ص ٤٥ .

(٩٧) انظر حسن ابراهيم المعز لدين الله ص ٥٠ .

وقد وجه المعز لدين الله جهودا مخلصا لبسط نفوذه فى المغرب وتدعيم سيادته عليه فأرسل فى سنة ٣٤٧ هـ قائده ووزيره جوهر الصفلى فى جيش كبير كان فيه معه كبار قادة البربر منهم زيرى بن مناد الصنهاجى أمير أشير ، وجعفر بن على الأندلسى أمير المسيلة وغيرهما . فاستولى جوهر على سجلماسة التى كان قد استبد بحكمها محمد بن واسول وقبض عليه واستمر جوهر فى سيره غربا حتى وصل الى البحر المحيط ثم عاد ادراجه وفى عودته تمكن من الاستيلاء على فاس بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها أولا . وبذلك خضع المغرب الأوسط والأقصى للمعز سوى سبتة وطنجة التى لم يتمكن جوهر من الاستيلاء عليهما^(٩٨) .

وبعد أن توطدت أقدام الفاطميين فى المغرب توجهت أنظار المعز الى المشرق لكى يحقق الحلم الذى كان يراود أسلافه منذ أن قامت دولتهم . ولقد ساعدته الظروف على تحقيق ما لم يستطع آبؤه انجازه . حيث قد ساعده على تحقيق أهدافه فى المشرق استقرار الأمر فى المغرب ، وسكون لهيب الثورات التى كانت تقوم ضد آبائه ونذرنها ، وقد أدى ذلك الى زيادة دخل الدولة الذى مكّنه من اعداد حملة كبيرة على مصر أنفق عليها كثيرا من الأموال وأمدّها كذلك بأموال أخرى طائلة قدرها صاحب المؤنس بأنها ألف حمل من المال^(٩٩) . كما اهتم المعز بهذه الحملة بتعبيد سبل الارتحال الى مصر حيث أمر بحفر الآبار فى طريق الحملة الى مصر حتى لا يرهق الجيش اللجب بالبحث عن الماء أثناء تلك الرحلة الطويلة الى مصر . وكان للدعاة الفاطميين فى مصر أثرهم الهام فى نشر الدعوة بين المصريين مما أدى الى ضعف المقاومة للحملة . وكان مما أدى الى نجاح حملة جوهر على مصر اضطراب الأحوال فى مصر بعد موت كافور الأخشيدي وكثرة الفتن وسوء الحالة الاقتصادية بالإضافة الى ضعف السلطة المركزية فى بغداد

(٩٨) انظر الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٧ ، المعز لدين الله

الفاطمى د . حسن ابراهيم د . طه شرف ص ٣١ - ٣٦ .

(٩٩) المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٤ .

فلم يمكنها وضعها من أن ترسل الجنود لدفاع الفاطميين كما حدث
فى الحملات التى قام بها المهدي من قبل .

وقد أسندت قيادة الحملة الى جوهر الصقلى فقاد هذا الجيش
الضخم الذى بذل المعز لاعداده كل طاقته وخرج المعز بنفسه لتوديعه
وأقام أياما مع الجنود فى المعسكر لتشجيعهم وتقوية الروح المعنوية فيهم
وحملهم على الصبر والاخلاص خاصة فى وقت التلاقى مع الأعداء .
وقد تحرك الجيش من افريقية فى ربيع الاول سنة ٣٥٨ هـ متوجها الى
مصر فوصلها فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

ولم يلق جوهر قتالا عنيفا فى دخوله الى مصر فقد تفرق معظم
جند الاخشيدية وهربوا من مصر قبل وصوله اليها وبذلك تمكن جوهر
من دخول مصر واقامة الدعوة الفاطمية فيها بدون قتال يذكر . وارسل
جوهر خبر الاستيلاء على مصر وقيام الأمر فيها للفاطميين الى
المعز لدين الله الذى سر بذلك غاية السرور . وتابع جوهر بسط النفوذ
الفاطمى على الشام والحجاز . وشرع ببناء مدينة القاهرة . وجد فى
مكاتبة المعز لدين الله يدعوه للرحيل الى مصر .

أزمع المعز لدين الله الرحيل الى مصر واخذ يمهّد أمر افريقية قبل
أن يرحل الى مصر فاستخلف على افريقية والمغرب بلكين بن زيرى
وانزله القيروان وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ، وأسند أمر طرابلس الى
عبد الله بن يخلف الكتامى وجعله غير تابع لبلكين وأسند ولاية صقلية
الى حسن بن على بن أبى الحسين الكلبى ولم يجعله تابعا لبلكين أيضا ،
وجعل جباية أموال افريقية الى زيادة الله بن القديم ، وعلى الخراج
عبد الجبار الخراسانى ، وحسين بن خلف الموصدى وأمرهم بالانقياد
ليوسف بن زيرى .

ويعد أن اطمأن المعز لدين الله الى اسناد ادارة افريقية والمغرب
الى من يثق فيهم خرج من المنصورية فى أواخر شوال ٣٦١ هـ الى قرية

قريبة من القيروان تسمى سردانية فيها بستين ومنتزهات وقصور للفاطميين فأقام فيها أربعة أشهر يستعد للرحيل عن افريقية الى أن تم اعداد القوة العسكرية التى تتحرك معه وحمل معه أهل بيته وجميع ما فى خزائنه من أموال وأمتعة وكذلك جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله .

وفى أول صفر سنة ٣٦٢ هـ (١٠٠) رحل المعز متوجها الى مصر حيث وصلها فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ .

وتم بذلك انتقال الخلافة الفاطمية من افريقية الى مصر وصارت افريقية بعد ذلك امانة تابعة لمصر بعد أن كانت مقر الخلافة الفاطمية . ومكث المعز خليفة يمتد سلطانه على الشمال الافريقى كله والشام والحجاز الى أن ادركته الوفاة فى ١٧ ربيع الأول سنة ٣٦٥ هـ . وبعد أن دامت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر قضى الفترة الأخيرة منها بمصر وهى سنتان وتسعة أشهر والفترة السابقة عليها بافريقية^(١٠١) .

ويحق لنا أن نشير فى نهاية الحديث عن الحالة السياسية فى العصر الفاطمى الى الجهاز الادارى الذى كان يساعد الخليفة على تنفيذ سياسته حيث نلاحظ أن الفاطميين اعتمدوا فى حكم ولاياتهم على انصارهم المواليين لهم ، وكانوا يأخذون المصء منهم بالشدة اذا اساء وبالترقية والتشجيع اذا احسن . كما كان الخليفة يستعين بجهاز سرى منظم يمدده بصورة صادقة عن رعاياه وعماله وكان الخليفة يشعر العامل

(١٠٠) المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٥ .

(١٠١) انظر الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٢ ، ٢٤٤٠ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٤٧ البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٢١ - ٢٣٣ ، ٢٢٨ ، المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٤ - ٦٦ ، تاريخ الدولة الفاطمية د. حسن ابراهيم ص ٩٣ - ٩٧ ، المعز لدين الله الفاطمى د. حسن ابراهيم د. طه شرف ص ٦٩ - ٨٠ .

دائما بأنه وليد نعمة الفاطميين ومترى فى افضالهم فعليه أن يبذل أقصى جهده فى خدمتهم والسهر على دولتهم .

وقد قسم الفاطميون بلاد المغرب الى قسمين رئيسيين اولهما افريقية (وهى بلاد تونس الحالية) والآخر البلاد الخاضعة للفاطميين وكانت مقسمة الى عدة ولايات أهمها : ولاية برقة وكان عليها فى أيام المعز غلامة أفلح وولاية طرابلس ومن أشهر ولايتها عبد الله بن يخلف الكتامى وولاية المغرب الأوسط والأقصى وكان مقرها تاهرت فى المغرب الأوسط. وقد تقلدها فى أيام المعز زيرى بن مناد الصنهاجى . وكان والى تاهرت يعين الولاة على اقليمى فاس وسجلماسة وسواهما ويقوم بالقضاء على الثورات التى تقوم فى قلب البلاد الشاسعة . ثم ولاية صقلية التى تولى أمرها والنهوض بها أسرة الحسين الكلبى وكانت تعتبر مركزا مهما للدفاع عن الخلافة الفاطمية خاصة من الناحية البحرية حيث كان يقيم فيها اسطول بحرى قوى على استعداد دائم للدفاع والهجوم . وكانت هذه الولايات تنقسم الى مدن وقرى تخضع لئوالى فى مقر ولايته ، وكان الخليفة يعين الولاة بنفسه والى جانب الوالى عامل الخراج والقاضى ، وصاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين .

وفى كثير من الأحيان كان الخليفة يعين عمال المدن فى الولايات ويتصل بهم ويشرف على أعمالهم عن طريق عمال البريد وغيرهم الذين كانوا يطلعونه على ما يجرى فى هذه المدن ^(١٠٢) .

وبانتقال المعز الى مصر نكون قد انتهينا من عرض الحالة السياسية للفترة التى سنقوم بدراسة الحياة الفكرية فيها وظهرت لنا التيارات السياسية المختلفة ومدى الاستقرار والاضطراب السياسى الذى كان ذا أثر بعيد فى الحياة الفكرية والتأثير فيها .
وبقى أن نتبع الحالة السياسية بعرض للحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية والله الموفق .



(١٠٢) انظر المعز لدين الله د . حسن ابراهيم د . طه شرف

بين ١٥١ - ١٥٥ .

الفصل الرابع

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

لما كانت الحياة الفكرية تؤثر وتتأثر الى حد كبير بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

لما كان هذا أمرا مسلما . . كان لا بد لنا بعد ذكر لمحة عن الحالة السياسية إن نذكر لمحة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية كمقدمة لا بد منها حتى تتضح الرؤية وتفهم الحياة الفكرية على حقيقتها .

١ - الحالة الاقتصادية

مما لا شك فيه أن القيروان بنيت لتكون قاعدة حربية لجيش المسلمين ولتكون منارة لنشر الاسلام في الشمال الافريقى ومركزا يستقر فيه المسلمين وتوجه منه سياستهم ولذلك لم تلبث أن صارت المقر الرئيسى للحكم الاسلامى في الشمال الافريقى وتوطدت الحياة فيها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وقد تحدثنا في الفصل السابق عن الحالة السياسية ، ونتحدث الآن عن الحالة الاقتصادية :

وقد بدأت الحياة الاقتصادية فيها بعد ان انتهت فترة الفتح. ونبت اقدم السيادة العربية في أيام حسان بن النعمان فبعد أن انتهى حسان من فتوحه عاد الى القيروان فرتب دواوينها ثم وجه عنايته الى الناحية الاقتصادية فوضع الخراج على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية^(١) والروم ، ثم ولى حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى على جمع الزكاة من المسلمين^(٢) ثم وجه همته منذ البداية الى الاهتمام بالصناعة فأنشأ دارا للصناعة وعمل المراكب واستقدم ألف قبطنى من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠١ تاريخ افريقية للرقيق القيروانى ص ٦٤ نص عبارة الرقيق « وكتب الخراج على عجم افريقية » .
(٢) انظر رياض النفوس للمالكى ص ٣٨ .

مصر بأسرهم الى افريقية فكان ذلك بداية لنشأة صناعة السفن بافريقية وتأسيس الأسطول البحرى والتجارى وصناعة الآلات الحربية^(٣) .

وقد شاهدت زردا من درع وقوسا من ذلك فى متحف عقبة فى القيروان ويذكر صاحب تاريخ المغرب الكبير نقلا عن محاضرة الشيخ الثعالبى أن حسان غير [] فى الدينار القرطاجنى فحذف منه الصليب ووضع صورتى عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزنطيين وولى عهده وبعد حين زاد حسان فى الكتابة اللاتينية بطريقة اختصار الأحرف على الوجه الأول ما تعريبه ، بسم الله الرحمن الرحيم وفى الوجه الثانى ما تعريبه : وحده لا شريك له . ضرب بافريقية فى العشرة الثالثة يساوى ٨٥ هجرية^(٤) وفى ولاية موسى بن نصير تدرج التغير فى ضرب النقود الى أن صارت الكتابة عليها بالعربية الخالصة وكانت دار ضرب النقود تقع بجوار دار الامارة بالقرب من المسجد الجامع وكان لها ناظر يشرف عليها يساعد عمال ماهرون باذابة المعادن وسبكها وبعمليات الوزن والنقش والطبع وقد بقيت هذه الدار تؤدى عملها فى القيروان مدة ولاية بنى أمية وبنى العباس ثم نقلت الى العباسية ورقادة أيام الاغلبة ثم الى المهديّة فالمنصورية أيام الفاطميين وكان يلحق بضرب النقد طبع الصنوج وهى قطعة مستديرة بقدر الدرهم أو أكبر منه أو اصغر تتخذ من الزجاج ويرسم على أحد وجهيها فقط كتابة بارزة تدل على أن مثقالها هو وزن الدرهم أو الدينار الرسمى الشرعى وغالبا ما يكتب عليها اسم الأمير أو الوالى الذى أمر بضربها^(٥) وبهذه الصنج يتمكن الصيرفى أو التاجر من معرفة النقص فى وزن الدرهم ، وقد شاهدت فى متحف

(٣) انظر تاريخ افريقية للرقيق القيروانى ص ٦٦ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك المبلى ص ٣٢ .

(٤) انظر تاريخ المغرب الكبير لدبوز ص ١١٩ وربما كان كتابة البسملة وكلمة التوحيد باللاتينية كدعاية للإسلام .

(٥) انظر الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب - القسم الأول ص ٤١٠ ، ٤١٤ و ٤١٩ .

عقبة بالقيروان صنوجا لعيار الدراهم والدنانير من زجاج مضروبة بالقيروان بعضها من أيام عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٦ هـ والأمير يزيد بن حاتم سنة ١٥٥ هـ وموسى بن عيسى سنة ١٧١ هـ والمعز لدين الله سنة ٣٥٠ هـ كما توجد أوزان من رصاص مضروبة برقادة .

كذلك رأيت قطعاً في وزن الدرهم الفاطمي من الفضة الخالصة كما يوجد نصف درهم وربع دينار ذهبي كذلك ولقد بدأت القيروان تتبوء مكانها الاقتصادي اللائق بها في مجال الزراعة والصناعة والتجارة :

(٢) ففي الزراعة :

كثرت محصولات القيروان وتنوعت وجلبت اليها أنواع لم تكن موجودة قبل ذلك وكانت زراعة الزيتون تدر دخلاً كبيراً للأهل افريقية تحدث عنه ابن عبد الحكم بأنه كان يوضع بين يديه . أى عبد الله بن سعد - الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا ، قال فجعل انسان منهم يدور كالذى يلتمس الشيء حتى وجد زيتونه فجاء بها اليه فقال من هذا نصيب الورق قال وكيف ؟ قال : ان الروم ليس عندهم زينون فكانوا يأتون فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم ^(٦) .

وقد عنى الولاة وخاصة بنى المهلب بتوزيع موات الأرض على من يستحقها وكانوا يخففون عن البادية الخراج ولا يثقلوا كواهلهم بالضرائب وفي أيام الأغالبة اقيمت مشاريع الري العام واقامت القناطر والجسور والسدود للانتفاع بالمياه في الزراعة فكانت أشجار الزيتون بالجهة الشرقية للقيروان (الساحل) وكانت زراعة الحبوب في الشمال حول وادي مجردة على طول مسيرة أيام وكان في الجهة الجنوبية (بلاد الجريد) واحات النخيل الكثيرة وهكذا كانت البلاد مخصصة حول القيروان حيث ترد اليها محصولاتها فكان الزيت يصل الى القيروان من الساحل حيث أشجار الزيتون وكانت الحنطة وأنواع الحبوب والزعفران يأتيها من

(٦) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٨٥ .

باجة وضواحيها . وكانت الحناء والكمون والكروياء والقطن والعصفر والحبّة الحلوة تأتيها من فابس كما ترسل اليها قفصة وقسطيلية العديد من القوافل المحملة تمرًا وفستقا ، أما بقية الفواكه والبقول كالانترج والتين وفصّب السكر وغير ذلك فكانت تأتيها من الضيعات حول القيروان وقد جلب الى أراضيها ماء الأودية في الجداول والقنوات المبنية بالحجارة حيث تسقى بساتينها من الآبار بالدواليب التي تديرها البغال والجمال^(٧) ويذكر البكري أن قابس^(٨) ، فيها جميع الثمار والموز بها كثير وهى تمد القيروان بأنصاف الفواكه وان بها شجر التوت الكثير الذى ساعد على انتاج اجود أنواع الحرير كما أن بها قصب السكر وكان دود الفز وشجر التوت والأرز قد جلب مع الجيش الخراسانى عندما جاء الى القيروان فى القرن الثانى الهجرى^(٩) ، وفى فحص القيروان كان يزرع الفول الذى يدر مالا كثيرا^(١٠) .

كما كان برقادة المدينة الملوكية الأغلبية القريبة من القيروان الحمضيات البرتقال والليم الحلو والليمون وقد نقلت اليها من الهند الصينية ويذكر الأستاذ الكعك لأنواعا من المزروعات الأخرى عدا ما ذكر كالقنب والزعرور^(١١) والخروب والقراصيا أو حب الملوك والمصع^(١٢) وغير ذلك

(٧) انظر بساط العقيق فى حضارة القيروان لحسن حسنى ص ١٧ ، ١٨ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ١١١ (٨) قابس : مدينة بالجنوب التونسى على خليج قابس المعروف بالسرت الصغير .

(٩) انظر المغرب للبكري ص ١٧ والحضارة العربية لعثمان الكعك ص ٧٦ .

(١٠) تاريخ افريقية للرقيق ص ١٥٧ ولافحص موضع يزرع فيه . (١١) الزعرور : شجرة من العائلة الوردية من فصيلة التفاح لها ثمرة ذهبية أو حمراء كالتفاحة الصغيرة لذيدة الطعم يتخذ منها المربى - الحضارة العربية للكعك ص ١٠٥ .

(١٢) المصع : فى تونس يسمى بوصاع : فاكهة تشبه المشمش صفراء اللون ملساء .

من أنواع المزروعات التى أدت الى رقى الزراعة فى القيروان وضواحيها والأقاليم التى تمدها بمنتجاتها^(١٣) .

كما يلحق بالزراعة اعتناء الفلاحين بتربية المواشى ولا سيما الغنم ويذكر الرقيق أن يزيد بن حاتم خرج من القيروان يوما منورها الى منية الخيل^(١٤) . فنظر فى طريقه الى غنم كثيرة فقال لمن هذه الغنم ؟ فقالوا لاسحاق ابنك فدعا به فقال : ألك هذه الغنم ؟ قال نعم قال « لم اردتها ؟ قال أكل من خرافها واشرب من لبنائها وانتفع بأصوافها » قال : « فاذا كنت انت تفعل هذا فما بينك وبين الغنمين والجزارين فرق وأمر بالغنم أن تذبح وتباح للناس فانتهبوها وذبحوها وأكلوا لحمها وجعلوا جلودها على كدية فهى تعرف من ذلك الوقت الى اليوم بكدية الجلود^(١٥) ويتحدث ابن خلدون عن مكاسب البربر بأنها « الشاه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاطعان فى نتاج الابل وظلال الرماح^(١٦) .

* * *

(ب) وفى الصناعة :

كان الاهتمام المبكر من الولاة بصناعة السفن الحربية والتجارية وآلات الحرب ويضرب النقود مما سبق ذكره ثم بدأت القيروان تتبوا

(١٣) انظر الحضارة العربية للكعاك ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ - ١٠٦

(١٤) منية الخيل : مكان خارج القيروان . جعل يزيد خيله هناك

فى اصطبلات أمر ببنائها فى هذه المنية فبذلك سميت « منية الخيل » تاريخ الرقيق ص ١٥٨ .

(١٥) تاريخ المغرب للرقيق ص ١٥٨ والكدية : مكان مرتفع من

الأرض يجعلون عليه الجلود لتجف .

(١٦) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ .

مكانتها الصناعية بعد ذلك وأهم الصناعات التى ازدهرت فى القيروان صناعة المنسوجات الصوفية : ونمثل فى السجاد العربى الذى يسمى بالزربية ويمتاز بالزخرف الهندسى وقد وجد فى القيروان بعد وصول الجيش الخرسانى فى القرن الثانى الهجرى ومعه السجاد العجمى الايرانى حيث نشأ عنه السجاد الفيروانى المشهور ودخله عنصر الحرير وأسلاك الذهب والفضة والتكليل بالجواهر والزخرف . كما تتمثل صناعة المنسوجات انصوفية فى الغطاء وأهم انواعه الففصى والتوزرى^(١٧) الممزوج بالحرير والجربى والكافى . ومن الصوفيات الأقمشة الصوفية الرفيفة ومنها الجوخ ويسمى بنونس الملف . والمنسوجات القطنية حيث كانت تصنع الأقمشة اننى كانت تطرز بالحرير وتشغل بالابرة أو تطبع بالألوان والزخارف . والمنسوجات الكتانية التى كانت تزرع بالوطن^(١٨) القبلى حيث تستخرج سلوك وتصبغ وتصنع منها الأقمشة اللازمة للثياب الداخلية أو للثياب الصيفية وتدخله زخارف كثيرة . كما كان للمنسوجات الحريرية شأن كبير وكانت سوسة مشهورة بذلك وكان بها غزل يباع زنة المئقال منه بمئقالين من ذهب وبها كانت تقصر ثياب القيروان الرقيقة^(١٩) .

ويذكر المقرئى أن المعز لدين الله الفاطمى عمل له مصور للعالم ووصفه بأنه « مقطع من الحرير الأزرق التسترى القرقوبى غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها .. وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب

(١٧) التوزرى : نمسبة الى مدينة توزر فى الجنوب الغربى بتونس حاليا .

(١٨) الوطن القبلى : رأس أدار . وهو أكبر رأس منطلق نحو المشرق بين خليج تونس شمالا وخليج الحمامات جنوبا ومساحة ٧٥٠٠ كم^٢ - انظر الكعك الحضارة العربية ص ٧٥ .

(١٩) انظر المغرب للبكرى ص ٣٦ .

أو بالفضة أو الحرير وفي آخره : مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله وأشهارا لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار^(٢٠) .

ولقد كان للامراء مصنع خاص يسمى دار الطراز تصنع فيه الأقمشة الملوكية ذات الزينات العجيبة والصور اللطيفة المحلاة بالخط الكوفي^(٢١) ويذكر الأستاذ الكعك أن من ابداع القطع الحريرية القابسية « العجار » التونسى وهو خمار للنساء التونسيات جامع للزخرف الهندسى والنباتى والحيوانى والخط الكوفى مع الوان بارعة واشكال لطيفة جامعة ومنها الأقمشة العجيبة من شاش ودمقس وغيرها^(٢٢) .

ومن الصناعات أيضا مدبوغات الجلد القيروانية التى تدبغ بشكل خاص للكتابة عليا ولا زال يوجد بجامع القيروان مجموعات من المصاحف وغيرها المكتوبة على هذه الرقوق الداعية للاعجاب والدهشة وخاصة مصحف الأتسة فضل ومصحف الحاضنة أم ملال ومصحف الرق الأزرق وغيرها^(٢٣) ومن أهم المصنوعات الجلدية « المروج » البسيطة والمطرزة بالحرير والمزركشة بالذهب والفضة كما اتخذت من الجلود أيضا الأحذية والمناطق وبعض الألبسة والمحافظ بالإضافة الى تجليد الكتب الذى ظهر بالقيروان على عهد الأغالبة أو قبل ذلك بقليل وتوجهت عناية الأغالبة الى زخرفة الجلد بالتطريز والنفخ والتكليل بالجواهر .

ومن الصناعات بالقيروان الصناعات الخشبية المتعلقة بالأبواب والنوافذ والشرفات وقد يكون الخشب مطعما مع بعضه مع فرز الألوان والأشكال ومنه ما يكون مركبا من قطع صغيرة مخروطة تلفق مع بعضها

· (٢٠) خطط ج ١ ص ٤١٧ نقلا عن كتاب المعز لدين الله لحسن

ابراهيم ص ٢٨١ .

(٢١) انظر بساتن العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ١٩

(٢٢) الحضارة العربية لعثمان الكعك ص ٧٦

(٢٣) انظر المرجع السابق ص ٧٧

وتسمى « فرخة » و « وعرناصة » ومن ذلك محراب جامع القيروان (٢٥٠) هـ الذى فيه مربعات واطارات من خشب الساج المجلوب من الهند الصينى ومن ذلك مقصورة جامع القيروان التى زخرفت بالخط الكوفى المزهر والمعقد والمتعانق والمرتبط مع بعضه بعريش من العنب منقوش على البارز فى صميم الخشب وهذا النوع من الكسو موجود كثيرا فى الفن الفاطمى^(٢٤) .

وكان فى القيروان أيضا صناعة الصدفيات والعاجيات وخاصة من سن الفيل وتوجهت الى ذلك عناية زائدة فى تلبيس أو ترصيع المربعات والمرايا والقباقيب والمناضد والخزائن وسفر الطعام والكراسى والمقاعد .

ومن الصناعات الشهيرة والراقية صناعة الزجاج والبللور ومنها تتخذ الأوانى والتحف اللطيفة الملونة والقنينات الكثيرة المزخرفة والمذهبه التى كان يستعملها الصيادلة كما استعمل الزجاج فى الشمسيات والقمريات . وهى كوى فى الجدران والشمسيات موجودة بجامع القيروان منذ القرن الثالث على عهد الأغالبة . وكان هناك سوق يسمى سوق الزجاج كان قريبا من الجامع الأعظم بالقيروان ، واتخذ الزجاج فى الثريات وتبليط أرضية البيوت والشوارع بطبقة زجاجية مخرمة ومزخرفة وذلك فى « أرضية المنصورية قرب القيروان »^(٢٥) وكان فى القيروان حى خاص بالزجاجين .

كذلك اشتهرت فى القيروان صناعة المعدنية من نحاس وفضة وذهب وكان للقيروان شهرة واسعة فى صنع المجوهرات والفضيات واتخذ من النحاس الأطباق والصوانى المنقوشة بزخارف هندسية وخطية ومطعمة بالفضة أو القصدير كما يذكر المسالك أن سكن الصائغ قال : « كنت

(٢٤) انظر المرجع السابق ص ٤٦ ، ٥٤

(٢٥) انظر المرجع السابق ص ٨٣ ، ٨٤ ، بساط العقيق لحسن

حسنى ص ١٩

اصنع السلاسل من نحاس وأطليها بماء الذهب الذى يجعل فى اللجم
وأبعث بها تباع ببلد السودان « (٢٦) .

كما شاعت فى القيروان صناعة الخزف المطفى والأبيض واتخذت
منه أوانى الماء شديدة البياض والرفة انتى تكاد تشف لطافة عما
فيها (٢٧) ، وقد شاهدت بعض الأوانى الخزفية من ذلك العهد فى متحف
عقبة فى القيروان .

وبجانب هذه الصناعات كانت توجد صناعة السكريات وصناعة
الصابون الذى وجد بالقيروان منذ العهد الفاطمى . كما كانت توجد
صناعة الورق التى انتشرت فى القيروان فى آخر أيام الأغالبة وكانت هذه
الصناعات منتشرة حتى عند النساء اللواتى يصنعن مدخر الكائد
السنوى لأزواجهن الكتاب (٢٨) .

كما كان هناك اهتمام بالتعدين والمناجم وخاصة لاستخراج
« الفضة والكحل والحديد والرصاص » (٢٩) .

ولقد أدت هذه النهضة الصناعية الى اهتمام الولاة بتخصيص مكان
لكل صناعة فى المدينة وكان ذلك فى وقت مبكر على يد يزيد بن حاتم
الذى قدم القيروان اميرا عليها سنة ١٥٥ هـ (٣٠) .



(٢٦) رياض النفوس للمالكى ص ١١٧

(٢٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٠

(٢٨) المرجع السابق ص ١٩ الحضارة العربية للكعك

ص ٨٧ ، ٨٨ ، المغرب الكبير للسيد عبد العزيز سالم ص ٤٠٩ ، ٤١٠

(٢٩) انظر المغرب الكبير ص ٤٠٩ نقلا عن اليعقوبى ص ٤٥٠ ،

وهذه تونس لحبيب تامر ص ١٢ .

(٣٠) انظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ص ١٤٩ ، البيان

المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٧٨ ، الخلاصة النقية للباغى ص ٢٠

(ج) وفى التجارة :

نتج عن النهضة الزراعية والصناعية التى كانت فى القيروان نشاط تجارى واسع داخلى وخارجى ساعد عليه استقرار الأمن وتسهيل سبل المواصلات بالاضافة الى كثرة الانتاج الزراعى والصناعى الذى ساعد على التقدم الاقتصادى فى القيروان .

وقد كانت المنتجات الزراعية فى سائر الافليم حول القيروان تحمل اليها كما كانت تحمل اليها المنتجات الصناعية فى الاقليم كله فكانت القيروان بذلك سوقا كبيرا للمنتجات الزراعية والصناعية ومقرا للتجارة الداخلية والخارجية ويصفها ابن حوقل بأنها « اعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجرا^(٣١) واموالا وأحسنها منازل وأسواقا وكان فيها ديوان جميع المغرب واليها تجبى أموالها وبها دار سلطانها »^(٣٢) وبذلك كان يقصدها التجار من داخل الاقليم ومن خارجه فكانت سوقا كبيرا للتجارة الداخلية والخارجية . وقد سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن تأسيس القيروان اسماء الأسواق وقلنا ان أهمها هو سماط القيروان ثم أسواق أخرى خاصة بالصيرفة والجوهرين والغزل والسراجين والبزازين والرهادرة^(٣٣) وسوق اليهود وغير ذلك من الأسواق^(٣٤) وقد قام يزيد بن حاتم بترتيب أسواق القيروان .

ويعطينا البكرى مثلا عن بعض ما كان يصل الى القيروان من المنتجات كل يوم من بعض الضواحي بقوله ومنها - أى جلواء على

(٣١) تجرا : أى تجارة تنتج عنها كثرة الأموال .

(٣٢) ابن حوقل صورة الأرض طبعة بيروت ص ٩٤ نقلا عن المغرب الكبير ص ٢٠٨

(٣٣) سوق الرهادرة : أى سوق المسافرين من أجل الاتجار أى التجار الأجانب .

(٣٤) راجع الفصل السابق من هذا البحث تأسيس القيروان المنافع العامة ص ٨٩ .

بعد أربعة وعشرين ميلا - كان يرد كل يوم الى القيروان من احمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة^(٣٥) وغير ذلك من الأنواع المختلفة من المنتجات التى تحمل يوميا الى أسواق القيروان ويذكر البكرى الطرق والمسافات وأنواع المنتجات التى كانت تحمل يوميا الى أسواق القيروان العامرة النافقة بما يدل على رواج التجارة بها^(٣٦) . وقد ساعد انتشار الأمن وتعبيد الطرق على سهولة نقل المنتجات الى القيروان .

كما أدت زيادة المنتجات على الاستهلاك المحلى الى قيام تجارة خارجية كانت تحمل الصادرات كما تاتى ببعض الواردات .

وذكر البكرى « أن تجارة الزيت كانت رائجة منذ القدم مع الروم ثم توسع فى تصديره الى مصر وصقلية^(٣٧) وقد أمدت القيروان مصر بالقمح عند حدوث المجاعة أثناء الفتح الفاطمى لمصر وصدر القمح منها الى الاسكندرية^(٣٨) .

كما كان للقيروان علاقات تجارية ببلاد السودان الغربى (مالى) وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مما ساعد على وجود الذهب المجلوب من تلك الأصقاع الى القيروان واستطاع تجار القيروان أن يتنقلوا الى ديار المثلثين وبلاد السودان حيث كانت القوافل تجلب الذهب والعبيد من الجنوب^(٣٩) .

(٣٥) البكرى - المغرب ص ٣٢.

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٩.

(٣٧) البكرى المغرب ص ٢٠ ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٥

(٣٨) انظر أرض البطولة للجزايرى ص ١٨٢ ، المعز لدين الله

لحسن ابراهيم ص ١٦٩

(٣٩) انظر الاسلام والثقافة العربية حسن محمود ص ٦٨ ،

والورقات لحسن حسنى ص ٤٣٥ ، الحضارة العربية لأدم مترج ١

ص ٢٧٨

وكذلك كانت التجارة راتجة بين القيروان والأندلس وكان هناك فنادق في القيروان للتجار الأندلسيين^(٤٠) .

ويتحدث الأستاذ الكعك عن هذه الفنادق بما يعطى صورة واضحة لرقى تجارى ملموس فيصفها بأنها : سقيفة بها شهود عدول لتحرير عقود البيع والايجار .

وعامة الاحالات والاشهاد على المتعاقدين وسمسار ليكون واسطة بين البائع والمشتري ومنادى لينادى على البضائع بالمزاد العلنى وامين لتسعير البضائع والتوثيق من سلامتها من الغش ومترجم ليتولى الترجمة بين الأطراف وداخل السقيفة برادعى أو سراج لاصلاح ادوات الدواب وصفائحي وبيطار ليعالج الدواب وينعلها ومستودعات للعربات والدواب والعلف والبضائع . وفى الدور الأول غرف ليستأجرها المسافرين للمبيت^(٤١) .

ولقد سن المعز لدين الله القوانين للتجار وشجع التجاره مما ادى الى رواجها^(٤٢) وبذلك أصبحت القيروان مقرا للتجارة العالمية بالمغرب يصل اليها التجار من كل الأنحاء ليستوردوا منها منتجاتها ويبيعوا فيها تجارتهم^(٤٣) .

ولقد ساعد القيروان على ذلك موقعها الجغرافى المتوسط تم كثرة مراسيها ومهارة تجارها ودرايتهم بانشاء السفن وخوض عباب البحار ومسالك الصحراء فكانت البضائع تخرج من العاصمة محمولة على القوافل او على طريق البحر الى مصر وصقلية والأندلس والسودان والمغرب^(٤٤) .

(٤٠) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٦٩

(٤١) الحضارة العربية لعثمان الكعك ص ٦٤ ، ٦٥

(٤٢) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٤٨٧

(٤٣) التمدن الاسلامى لجورج زيدان ج ٥ ص ٤٧

(٤٤) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٠

من كل ذلك يتبين لنا مدى التقدم التجارى الذى كانت تعيش فيه القيروان ويكفى دليلا على ذلك ما ذكره البكرى « أنه كان يدخل أحد أبواب القيروان من كل يوم ستة وعشرون ألف درهم »^(٤٥) .

تلك لمحة عن التقدم الاقتصادى المتمثل فى الزراعة والصناعة والتجارة ويكفى دليلا على ذلك كثرة الانفاق على المشروعات والهبات التى كانت تقوم بها السلطة الحاكمة فى القيروان .

ومن الأمثلة القليلة فى ذلك ما فامت به دولة الاغالبة والفاطميين من بناء المدن وتوسيع رقعة الدولة بالفتوح وزيادة العطاء للجند وبناء حوالى عشرة آلاف حصن بالحجارة والكس وأبواب الحديد وبناء الأسوار^(٤٦) وبناء المارستانات والمستشفيات لرعاية المصابين^(٤٧) .

ويذكر البكرى ما ذبح من البقر فى القيروان فى يوم عاشوراء بأنه تسعمائة وخمسين رأسا وهذا يدل على ارتفاع مستوى المعيشة التى كانت تعيش فيه القيروان . كما يذكر أن المهديّة كانت مرفا للسفن القادمة من الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وكانت جباية ساحل القيروان سوسة والمهديّة وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخرج الذى لغير بيت المال ثمانون ألف مئقال^(٤٨) .

كما يصور ابن عذارى ما كان يقوم به بعض أمراء الاغالبة من عطاء للفقراء بأنه كان يخرج فى رمضان ومعه دواب بالدرهم فكان يعطى الضعفاء والمساكين حتى ينتهى الى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس يدعون له^(٤٩) .

(٤٥) البكرى المغرب ص ٢٥

(٤٦) انظر العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٣

(٤٧) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٢٧٣

(٤٨) البكرى المغرب ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٦

(٤٩) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١١٢

كما يذكر القاضى النعمان الأموال الضخمة التى أنفقها المعز لدين الله فى سنة ٣٥١ هـ . حين عزم على ختان أبنائه فقد رأى أن يشرك رعيته فى أفراحه فأمر بالكتب الى العمال من لدن برقة الى سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته مملكة والى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس فى حضرويه وأن يتقدموا فى ظهور ابنائهم يوم الثلاثاء أول ربيع الأول من سنة احدى وخمسين وثلاثمائة الى انقضاء هذا الشهر وأمر أن يحمل الى كل بلد من هذه البلدان من الحضرة أموال وخلق تفرق على كل من طهر من أبناء المسلمين من خاص وعام فكان الذى رأيناه حمل الى صقلية من المال خمسين حملا سوى الخلع ومثل ذلك ونحوه الى كل عامل ليفرقه على أهل عمله^(٥٠) . وكان المعز يشفق على فقراء رعيته ويساعدهم على تزويج أبنائهم وادخال السرور عليهم بل كثيرا ما يأمر ببناء الدور للفقراء منهم .

وقد ذكر المقرئى أن ما حملة جوهر الى مصر من الأموال وحدها أربعة وعشرين مليوناً من الدينار أى ما يقرب من ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات وهو مقدار لا يستهان به فى ذلك العهد^(٥١) .

فاذا علمنا أن المعز عندما عزم على الرحيل الى مصر حمل معه أمواله وكانت كثيرة على ألف بعير وسبك الدينار على شكل الطواحين جعل على كل حمل قطعتين وجعل فى كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة الى الأخرى واستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون فى الطريق لرؤية بيت المال المحمول^(٥٢) .

(٥٠) النعمان المجالس والمسائرات ج ٢ ص ٦٥٤ نقلا عن كتاب

المعز لحسن ابراهيم ص ٢٧٤

(٥١) المقرئى : اتعاظ الحنفاء ص ٦١ ، ٦٢ نقلا عن كتاب المعز

لدين الله لحسن ابراهيم ص ٢٧٧

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٥ نقلا عن كتاب المعز لحسن ابراهيم

ص ٢٧٨

وهذا بلا شك يدل على وفرة الأموال وتقدم البلاد ورخائها
الواسع وازدهارها اقتصاديا . وليس معنى هذا التقدم الاقتصادي أن
القيروان لم تمر بأزمات اقتصادية حادة وإن كانت قد تغلبت عليها :
فمن ذلك ما حدث أثناء محاصرة الخوارج لعمر بن حفص فقد شدد
الحصار على القيروان حتى ضاق الحال بالناس واضطروا الى أكل
دوابهم وسنانيرهم وكلابهم وأخذ الناس في أكل لحوم الخيل وغلا ثمن
الاشياء حتى بلغ ثمن أوقية الملح بدرهم^(٥٣) . كما أنه قد توالى القحط
سنة ٢٥٣ هـ الى سنة ٢٦٥ حتى أنه عم سنة ٦٠ بلاد الأندلس
والمغرب ومصر والحجاز^(٥٤) .

ولا شك أن الاضطرابات السياسية التي كانت تحدث بين حين وآخر
كان لها آثار سيئة على التجارة في القيروان بل على الحياة الاقتصادية
كلها زراعيا وصناعيا ولولا ما كان يعترى القيروان من أزمات سياسية
ونكبات مالية لبلغ التقدم الحضارى فيها درجة لم تصلها أية مدينة
أخرى .

وفي سنة ٢٧٥ هـ حاول الأمير الأغلبى ادخال اصلاح فى العملة
وذلك بضرب دراهم صحاح خالصة العيار وجعل كل عترة منها تساوى
دينارا ذهبيا وقد سماها العشارية وأمر بقطع التعامل بالمقطع من
الدراهم التي كانت تتخذ قبل ذلك إلا أن السكان ثاروا عليه واضرب
التجار وأغلقوا حوانيتهم وكانت الثورة التي تعرف بثورة الدراهم إلا أن
الأمير تمكن من القضاء عليها وساعده ذلك على ادخال الاصلاح
النقدى فى القيروان وصارت الدينانير والدراهم تؤخذ صرفا لا وزنا وقد
عرف ذلك فى التاريخ بثورة الدراهم^(٥٥) .

(٥٣) انظر الرقيق تاريخ المغرب ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٥٤) انظر مبارك الميلى تاريخ الجزائر ص ١١١

(٥٥) انظر ابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ ،

والورقات لحسن حسنى ص ٤٣٢

ومع ذلك فان هذه الأزمات والثورات لم تمنع قوة وسلامة الحياة الاقتصادية من التغلب عليها والاستمرار في النمو والازدهار بما حقق للقيروان وضعاً اقتصادياً قوياً .

٢ - الحالة الاجتماعية

بدأت الحياة الاجتماعية في القيروان منذ تأسيسها وجعلها موطناً لجند المسلمين وأسرهم فكانت تتسم بطابع الجندية في بداية أمرها كمقر لجند المسلمين تتوجه منه الحملات لتوطيد السيادة الإسلامية وكمنازة هداية لنشر التعاليم الإسلامية السامية التي تدعو إلى إقامة مجتمع ناهض قوى الصلة بالله تعالى تسود بين أفرادها الحرية والمساواة والتعاون .

ولقد شارك المسلمون في مدينتهم منذ بداية تأسيسها الجند البربري وأسرهم الذين اعتنقوا الإسلام وحاربوا جنباً إلى جنب مع الجند العربي وقد كثر هذا الجند وازداد امتزاجه عند ما توطدت أقدام المسلمين في أفريقية وتمكن حسان بعد هزيمة الكاهنة من أن يكون في جيشه اثنا عشر ألف جندي من البربر يعيشون مع الجند العربي ويمتزجون بهم ويعيشون معهم حياة اجتماعية تسودها الحرية والمساواة . وكان من أثر ذلك أن عاشت أسر بربرية في القيروان واختلطت بأهلها وكان بينهم تعامل ومصاهرة ومشاركة في الحياة الاجتماعية^(٥٦) .

وقد استوطن القيروان وضواحيها من القبائل العربية : التميميون والأنصار الأوس والخزرج ، الأزد القيسيون ، تنوخ ، بنو جرير ، الكنديون ، كنانة وغير هؤلاء^(٥٧) .

(٥٦) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠١ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي ص ٣٩

(٥٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ١٦

وعند استقرار الفتح في افريقية غدت القيروان مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ومصدر التوجيه والادارة وقد كفل لها ذلك وضعا خاصا جذب السكان من حول القيروان ومن الأقاليم لكى يغدوا الى القيروان لقضاء حاجتهم في طمأنينة وسلام وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على تقدم الحياة الاجتماعية وتقوية الاتصال بين السكان ولم تحل صعوبة دون اختلاط العرب بالبربر الذين يجمعهم الاتفاق في البيئة التى ينتمى اليها كل منهم والتى يشيع فيها طابع صحراوى أدى الى نتائج متقاربة من حيث الاجتماع والعمران ونتج عن ذلك عادات وتقاليد متشابهة^(٥٨) .

ومع مطلع القرن الثانى للهجرة زحرت القيروان بالسكان من مختلف الأمصار الاسلامية فأصبحت بيئتها الاجتماعية تتألف من عناصر عربية وأفارقة وبربر وروم وبشير اليعقوبى الى ذلك بأن (فى مدينة القيروان أخلط من قرش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك^(٥٩) .

كما كانت الخلافة تبعث الى جانب الولاة بعض الأعوان الذين يسند الولاة اليهم ادارة مرافق الدولة وضمت الهيئة الاجتماعية فى القيروان بعض ذوى الشأن من رؤساء القبائل العربية الذين قصدوا افريقية ليكونوا بمنأى عن الخلافة أو لغير ذلك من الدواعى- والمرغبات^(٦٠) .

ومن ذلك يتبين لنا أن القيروان كانت تضم بطونا مختلفة تتألف من القبائل العربية التى قدمت مع عقبة حين تأسيس القيروان وجيش

(٥٨) انظر د . ابراهيم العدوى موسى بن نصير ص ٥٦ ، ٥٧

(٥٩) الورقات ص ٣٨١ نقلا عن اليعقوبى .

(٦٠) الورقات لحسن حسنى ص ٣٨١ أشار الى بعض الاعيان

الوافدين للإقامة فى القيروان ومنهم منصور بن عبد الله بن يزيد من ذرية احد ملوك اليمن قبل الاسلام .

حسان والجنود العرب الذين تركوا الجندية واقاموا في القيروان وبمرزور الزمن اقبل التجار العرب من كل مكان للاقامة فيها وكذلك المثقفون وأدى استقرار الحياة فيها الى أن اقام فيها عدد كبير من القبائل البربرية التي اعتنقت الاسلام كما يذكر المؤرخون اقامة اقلية اندلسية وأخرى مسيحية من بقايا البيزنطيين ومن سكان صقلية بعد فتحها كما كان في القيروان اقلية يهودية كانت تسكن في حى خاص بها^(٦١) .

وقد انقسم هذا الخليط من السكان حسب الأعمال التي يقومون بها في المجتمع القيروانى الى طبقات عدة أهمها :

(ا) طبقة الحكام والخواص من الولاة وكبار رجال الدولة وقادة الجيش والحرس الخاص الذى اتخذه الأمراء وكذلك انصار النظام السياسى الحاكم المتمثل في التميميين أيام الأغالبة وفي قبيلة كتامة أيام الفاطميين .

(ب) طبقة التجار : التي كان لها دور كبير في الحياة الاجتماعية في القيروان لا سيما بعد أن اتسع التبادل التجارى وتجاوز النطاق المحلى الى النطاق العالمى وازدهرت الحياة الاقتصادية وصار للتجار علاقات تجارية مع صقلية والاندلس ومصر والروم مما مر ذكره في الحياة الاقتصادية وأصبح في القيروان جاليات من تلك البلاد تضطلع بالأعباء التجارية .

(ج) طبقة المثقفين وخاصة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ قوى في حياة الشعب والحكام وتأثير قوى في الحياة السياسية وتوجيه الحياة الاجتماعية وللبت في كثير من المشاكل التي كانت تحدث في القيروان ولم يكن المثقفون من ذوى الثراء وانما كانوا من الناحية الاقتصادية متوسطى الحال .

(٦١) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٦٩ ، القيروان عبر عصور الازدهار الحبيب الجناحى ص ١٤٦ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٦

(د) الطبقة الشعبية : وتتألف من الجنود النظاميين أو المتطوعين المحترفين الذين كانوا يقبلون على الجندية عند استدعاء الأمير لهم للقيام بمهمة حربية .

ومن أصحاب الحرف اليدوية الصناعية الذين كانوا يعملون في الصناعات المختلفة الخشبية والزجاجية والمعدنية وغيرها من الصناعات التي مر ذكرها في الحياة الاقتصادية وعمال البناء الذين شاركوا في القيام بالمشروعات الضخمة الانشائية من مواجل وقصور وسدود وقناطر وحصون ومساجد وغيرها .

ومنهم الفلاحون الذين يعملون في الأرض بالكراء أو أصحاب الأراضي ذات المساحات الصغيرة الذين يعملون فيها بأيديهم والعبيد الذين كانوا يعملون بالزراعة لاسيادهم ولا شك أن هذه الطبقة كانت قليلة الدخل كثيرة العمل من أجل الحصول على مقومات حياتها ولكنها كانت ذات أثر كبير في الحياة الاجتماعية الناتجة عن الرقى الاقتصادي^(٦٢) ومع تعدد طبقات المجتمع في القيروان إلا أنه كان لها رأى عام جماعى كثيرا ما حمل الحكام على مراعاته وعلى أن يكون له أثر في تصرفاتهم فكان كثير من الحكام عند توليه السلطة يعد الرعية بسلوك سياسية خاصة يوضحها لهم ويبين فيها الخطوط العريضة المملوءة بالاستقامة والعدالة أو يقوم بتوزيع الأموال أو باعفاء الفلاحين من الضرائب كما حدث في السنة التي سميت بسنة العدل . وقد تدخل أهل القيروان في تولية بعض الولاة وفي حمل بعض الأمراء على القيام بثئون الدولة كما حدث في تعيين ابراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة ٢٦١ هـ^(٦٣) وكان ظهور هذا الرأى الجماعى في القيروان ناشئا عن التعاون المثمر بين طبقات

(٦٢) انظر القيروان عبر عصور الازدهار - للدكتور الحبيب

الجنحاني ص ١٤٦ - ١٤٩ بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٦ ، ١٧

(٦٣) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١١٢ ، ١١٦ ، ١٣١ ،

القيروان عبر عصور الازدهار ص ١٥ للدكتور الجنحاني .

السكان على اختلافهم من العرب والأفارقة والبربر وبقايا الرومان القدماء الذين يؤلفون مجموع سكان القيروان حيث كانوا يعيشون جنباً إلى جنب في تعاون وتآلف مستمر مكن الحكام من استغلال ثروة البلاد بما عاد عليها بالتقدم والازدهار^(٦٤) .

ويمكن الإشارة إلى المظاهر الاجتماعية في القيروان فيما يأتي :

١ - في السلوك الاجتماعي العام :

حيث كان يشيع العدل وترتفع راياته ويحارب الظلم ويعاقب مرتكبوه وخاصة في المعاملات فكان قاضي القيروان يعين المحتسب الذي كان يقوم بمحاربة المنكرات ويحمل الناس على احترام المصلحة العامة كمنع المضايقة في الطرقات والرفق بالحيوان وحمل أصحاب البيوت المتداعية على هدمها ومقاومة الغش والخداع في البيع والشراء^(٦٥) .

ويذكر أبو العرب أن أحد القائمين على أسواق القيروان من المحتسبين توفي فلم يوجد لديه ما يكفئ فيه حتى كفه بعض التجار^(٦٦) وهذا دليل واضح على أمانة هؤلاء المحتسبين وعدم أخذهم للرشوة وعند تولية الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب حاول تغيير الظلم الذي أحدثه العمال ومنعهم من الاستيلاء على أموال الرعية وقطع النبيذ من القيروان مما جعل الناس يحمدون له ذلك غير أن إبراهيم ابن أحمد لما بنى رقادة قطع النبيذ من القيروان وأباحة برقادة مما جعل بعض ظرفاء القيروان يسجل ذلك بشعر يرسله إلى الحاكم .

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن اليه الرقاب منكادة
ما حرم الشرب في مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة

(٦٤) حسن محمود الاسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ١٥٣

(٦٥) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٧

(٦٦) طبقات علماء أفريقية لأبي العرب ص ٢٥١

وهذا مظهر من النقد الاجتماعي للحكام حيث أحل محرما في مقره رقادة وحرمة في القيروان^(٦٧) .

٢ - وضع المرأة في القيروان :

وكان للمرأة وضع مشرف في القيروان يدل عليه موقفها حين هاجم الخوارج القيروان أيام حنظلة بن صفوان ومشاركة المرأة في الدفاع عن المدينة وحملها السلاح جنبا الى جنب لحراسة المدينة والدفاع عنها حين هجوم جيش المسلمين على الاعداء^(٦٨) .

بل كان للنساء تأثير قوى في الروح المعنوية للرجال وحملهم على مواصلة القتال وعدم الفرار عند مهاجمة الخوارج للقيروان ويعبر عن ذلك الرقيق القيرواني بانهم « عفتن الآلوية وأخذن معهن السلاح وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال وحلفن لأزواجهن : لأن انهزم احد منكم الينا موليا عن العدو لنقتلنه » . وعلمن ما يريد بهن الصفرية من السبى والعبودية ووطن النفس على الموت فهش الناس للقتال واشتدت نصرتهم^(٦٩) وقد خصص للمرأة في القيروان يوم خاص للقضاء حيث يفصل النقاضى فيه بين النساء وهو يوم الخميس فيجلس النقاضى فيه للنساء بعد أن يبعد الكتاب والشهود والحجاب^(٧٠) .

وكانت المرأة القيروانية تقوم بشئون بيتها المنزلية فاذا ما انتهت منها قضت اوقات الفراغ فى بيتها فى القيام بالأعمال اليدوية كغزل الصوف والقطن والتطريز بالحبر ونسج البسط أو حياكة ثياب الأسرة وربما يساعدها فى شئون المنزل بعض الخدم من الرقيق وذلك بالنسبة للأسر الغنية . وهى تتمتع بشخصية قوية وبالحرية خاصة فى شئون

(٦٧) انظر الحلة السيرة لابن الأبارص ١٦٨ ، ١٧٣

(٦٨) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٦٩) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق ص ١٢٠

(٧٠) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٦ .

الزواج ويدل على حرية المرأة وقوة شخصيتها ما كانت تشترط عند العقد فى الزواج من ان الزوج اذا تسرى عليها غيرها يكون امرها بيدها حيث تطلق نفسها ان شأئت وتلك عادة معمول بها فى القىروان منذ القرن الثانى الهجرى وتسمى فى احكام النكاح بالطريقة القىروانية ونتج عن ذلك فلة رغبة أهل القىروان فى تعدد الزوجات^(٧١) وفى نصيحة المعز لدين الله لشيوخ كتامة ما يحبذ الاكتفاء بالواحدة وعدم التعدد فى الزوجات لما ينتج عن التعدد من اثار « واقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهموا الى الكثير منهن والرغبة فيهن فينتقص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم ويضعف تمايزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة »^(٧٢) ومن هذا الوضع الخاص للمرأة يظهر لنا تماسك الأسرة وقوة بنيانها ومدى تأثير المرأة فى المجتمع القىروانى .

٣ - اللباس :

يذكر صاحب بساط العقيق ان لباس الرجل كان يتألف من قميص وسراويل وجبة صوف يتحزم عليها بازار ملون ويضع على رأسه عمامة وتسمى أيضا لفافة يوضع عليها الدوخلة التى تنزل على القفا ويلبس فى قدميه النعال فى الشتاء والخفاف فى الصيف ويلبس الأغنياء والعلماء الأسماط والشروف والفرو السامور ويلبسون القلنسوة عوضا عن العمامة وتكون صوفا أو قطنًا ويختلف شكلها من قصيرة الى طويلة^(٧٣) .

وبوضح لنا صاحب المدارك ما كان يتزى به الامام سحنون وكيف كان يتخذ لكل وقت لباسا عند الجلوس للسماع أو حضور الجمعة

(٧١) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٣ .

(٧٢) المقرئى اتعاظ الحنفا ص ٦٠ - ٦١ نقلا عن المعز لدين الله

ص ٣٨ نقلا عن الحسن ابراهيم .

(٧٣) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٤ .

وشهود الجنازة أو وقت المطر وذلك ليعطينا مثلا لما كان يسير عليه المجتمع فى لباسه يقول سليمان بن سالم : رأيت لسحنون ساجا كفليا وساجا أزرق ورداء وقلنسوة حبرة وقلنسوة زرقاء وشيا وقلنسوة تشبه الأغلب فاذا قعد للسماع لبس الرداء وقلنسوة الأغلب واذا شهد الجمعة لبس الساج وقلنسوة الحبر واذا حضر الجنازة لبس الأزرق والقلنسوة الزرقاء . . وكان له برنس أسود يلبسه فى المطر والبرد^(٧٤) . كما كان ابن غانم القاضى يلبس لباسا خاصا عندما يجلس للفصل بين النساء فهو يلبس من الثياب أرفعها ويجعل لخصومات النساء يوما يجلس فيه للنظر بينهن فيلبس يومئذ الفرو الخشن وخلق الثياب^(٧٥) وفى ذلك ما يوضح ادراكهم لأثر الثياب فى الحياة الاجتماعية .

اما المرأة فكانت تلبس رداء قطن أو حرير حسب رتبتها وتلبس فوقه غلالة تشدها بمئزر كما تتزى بالحلى المختلفة من اساور مرصعة وخلاخيل منقوشة ومعصفرات الى غير ذلك فاذا ما خرجت لبست الرداء وضربت على وجهها المعجز وتلبس برجليها خفا لطيفا وللنساء فى كل زمان ومكان تنوع فى لباسهن حسب ما يجد من أزياء . واذا كان المؤرخون قد حفظوا لنا أزياء مختلفة للرجال فلا شك ان القيروان كانت تزخر بأزياء أكثر بالنسبة للنساء . وقد شاهدت فى متحف باردو بتونس العاصمة ثوبا للمرأة يسمى « قمجة » يلبس فى اليوم السابع من حفلة الزفاف كما يوجد فى المتحف منزل يسمى منزل تميم .

٤ - الطعام :

عندما أقام العرب فى القيروان كانوا يتناولون طعامهم المعروف بالثريد والعصيد والبسيس ثم اقتبسوا من البربر المقيمين معهم «الكسكى» وهو الطعام الأساسى فى اكل البربر ويازدهار الحضارة فى القيروان وتعمق التجارب بين سكانها تنوعت الأطعمة وتحددت فصاروا يطبخون

(٧٤) المدارك للقاضى عياض ج ٢ ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ .

(٧٥) المرجع السابق ج ١ ص ٣١٩ .

من المرق منها « الكوكبية » ويدخل فيها السلق والحمص واللحم « النسابورية » و « الفستقية » وهما يصنعان باللحم والبقول و « الكنافة » ويتبل اللحم فيها بكيفية مخصوصة وينضج على البخار . ثم « الشرائح » وهو نوع من اللحم يطبخ شرائح ويؤكل بالخبز الرقاق^(٧٦) .

ويبدو انهم كانوا يتناولون كثيرا من اللحم فالبكري يذكر أنه في بعض أيام عاشوراء ذبح في القيروان تسعمائة رأس من البقر غير ما ذبح من أنواع الحيوانات الأخرى^(٧٧) . وبجانب هذه الأنواع الرئيسية في الطعام كان يوجد بجوارها أصناف مختلفة من الحلو (كالأسفنج) وكان يباع في الأسواق و (الزلابية) و (الكعك) و (الغسانية) وهي نوع من الحلوى يصنع من سمن وعسل وزعفران و (السمسمية) و (الملبس) وأنواع المريات والبسكوت الملبس بالسكر والمزخرف بالترقيم والتخريم كما كان يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين وبالورد والبنفسج^(٧٨) . ولا شك أن موائد الحكام والسراة كانت تزخر بهذه الأصناف وبغيرها من أنواع الأطعمة المختلفة .

٥ - المواكب :

أورد لنا الرقيق وصفا للموكب الذي استقبلت به القيروان الفضل ابن روح بن حاتم سنة سبع وسبعين ومائة عندما قدم واليا عليها من قبل الرشيد وكيف اقيمت السراذقات وزينت الشوارع وعلقت فيها الاعلانات وهو يوضح لنا مظهر المواكب في القيروان فقد نصبت له القباب من مسجد ام الأمير الى دار الامارة في رحبة التمر فزعموا أن قسطاس النصواني نصب له قرية ريحان في طريقه وعليها طومار قد كتب فيه بخط غليظ « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

(٧٦) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٥ .

(٧٧) البكري المغرب ص ٢٦ .

(٧٨) انظر البكري المغرب ص ٣٢ ، الحضارة العربية للكعك

ص ٨٥ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٥ .

وما تأخر « فنظر اليه الفضل فقال من فعل هذا قالوا : قسطاس قال احسن والله النصرانى فلما انتهى الى مسجد أبى نظر الى زير زجاج معلق وفيه ماء وفى الماء حيتان تعوم فقال : من فعل هذا فقالوا قسطاس فقال : أحسن والله^(٧٩) .

كما خصصت بعض المصليات ذات المساحة الواسعة المربعة المحاطة بجدار قصير رفيع من غير سقف للأجل الاجتماعات العامة كصلاة العيدين والاحتفال بالمواسم وبيعة الأمراء وغير ذلك من المواكب التى تحتاج الى مساحات متسعة لاستيعاب أفراد الشعب المشاركين فى الموكب وأشهر هذه المصليات (مصلى باب نافع) و (مصلى باب سلم)^(٨٠) .

٦ - الهبات والثروة والترف :

رغم عدم كثرة الأموال نوعا ما فى فترة حكم الولاة الا ان المؤرخين رووا لنا بعض الهبات والأموال التى كانت تدفع لمن يقصد الحكام والأموال التى كانت تباح لسكان القيروان . فهذا يزيد بن حاتم يقصده ربيعة بن ثابت الرقى فى القيروان . طالبا منه مساعدته على سداد ذيات وجبت على قومه فأعطاه عشر ديات ووصله وأحسن اليه احسانا عظيما^(٨١) .

ويعطى أبا اليعاقب خمسمائة دينار لأنه يحفظ قصيدة قيلت فى مدحه ، كما يبيع مزارعه لأهل القيروان لياكلوا ويتنزهوا فيها ويأمر بذبح قطيع الغنم التى يملكها ابنه لتكون مباحة للناس^(٨٢) .

كما يذكر ابن عذارى ان الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب عندما تولى الحكم أمن الناس وأحسن اليهم والى الجند وأجرى على العمال أرزاقا

(٧٩) تاريخ افريقية للرقيق ص ١٨٤ .

(٨٠) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٨ .

(٨١) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ٢٥٣ .

(٨٢) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب - انظر تفصيل ذلك

ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

واسعة وصلات جزلة ، وان أحمد بن محمد بن الأغلب كان يركب فى ليلالى شعبان ورمضان وبين يديه الشمع فيخرج من القصر القديم ويمشى حتى يدخل من باب أبى الربيع ومعه دواب بالدراهم فكان يعطى الضعفاء والمساكين حتى ينتهى الى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس اليه ويدعون له^(٨٣) . وفى أيام الفاطميين خلال فترة حكم المعز لدين الله واتساع سلطانه وازدهار الحياة الاقتصادية ونمو الثروة : كان المعطاء بكرم وسخاء والانفاق والبذل ، وخير مثال لذلك الاحتفال الذى قام به المعز عند ختان ابنائه سنة ٣٥١ هـ حيث أشرك رعيته معه فى أفراحه ودعاهم الى ختان ابنائهم فى كافة أنحاء الدولة وأرسل الهبات والهدايا لتعطى لأبناء الصغار المختتنين وقد بلغ ما انفق فى صقلية وحدها غير الكساء نصف مليون دينار . وكان هناك عند الختان من يقفون بالبخور وماء الورد على رعوسهم يرشونه على وجوههم لما يعترتهم من الروع والسناد بأصناف الملاعب قيام عليهم يلهونهم ويصحبون من طهر منهم يزفونه الى منزله . واستمر الاحتفال شهرا كله أعياد ومسرات وأفراح وهبات بكل وجه وفى كل جهة من بدو وحضر وعم فضله الأغنياء والفقراء ودخلت المسرة على أهل كل بيت وكان أثره جميلا لم يسبقه اليه أحد قبله . وبلغ من عناية المعز لدين الله برعيته وخاصة أتصاره انه كان يقدم الأموال الكثيرة اليهم ويشفق على فقرائهم ويساعدهم على تزويج ابنائهم بل فى كثير من الأحيان كان يبنى البيوت للفقراء منهم^(٨٤) . كما كانت قصور المعز آية فى الروعة والفخامة حتى ان سفير الروم بهت حين زاره فى المنصورة ونطق حين رآه جالسا فوق عرشه بقوله : « دخلت عليك فرايتك على سريرك فظننتك خالقا »^(٨٥) .

(٨٣) البيان المغرب ص ١٠٧ ، ١١٢ .

(٨٤) انظر المعز لدين الله لحسن ابراهيم طه شرف ص ٢٧٣ -

٢٧٦ .

(٨٥) المرجع السابق ص ٢٨٠ وابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٣٩ .

وذلك يصور لنا مقدار الثراء الواسع والدخل الكبير الذى كان يصل للدولة فيكون له تأثيره العميق فى الحياة الاجتماعية .

٧ - مظاهر التسلية والملاهى :

مع مرور الزمن وتحول القيروان الى مدينة فيها العمال الكادحون فى الزراعة والصناعة وفيها التجارة والاداريون والمثقفون والأثرياء وجد فى المدينة وسائل للتسلية فى ايام تعطل فيها الأعمال أو فى ايام الأفراح والأعياد ومع ذلك كانت القيروان حريصة على أن تكون وسائل التسلية فيها مما يبيحه الشرع الحنيف فكانت هناك ألعاب الفروسية مثل لعبة : الصولجان أو لعبة الكرة على الخيول ثم المبارزة على الخيول بين رجلين وتولد عن ذلك الصيد على الخيول بالبازى أو بالسوقى .

كما كان هناك من ألعاب الفروسية ما يسمى ملعب وهو ان يؤتى بطبال وصاحب ناي فينشأ عن ذلك توقيع خاص فترقص عليها الخيول اهتزازا وإيقاعا وتحريكا للاعناق ثم تجرى فى سباق وهجمة يسمى « المشاف » ويرقص أصحابه فوق ظهور الخيل وقوفا وجلوسا وامتدادا على أجنابها واختفاء تحت بطونها وهذه الألعاب متولدة من الجيش القيسى الذى نظمته الأغالبة بمدينة بلزمة غرب تونس لحماية القيروان من هجمات الخوارج وكان جيشا مؤلفا من ألفه فارس منتخبين يلبسون قبعات من ريش النعام الأسود يسمى العروج^(٨٦) ومنها اللعب بالحرب وسباق الخيل فى ملاعب خارج القيروان ولعب الشطرنج أو الفرند ومع تحفظ القيروان لم يمنع ذلك من ان يكون هناك رياض البقرية فى طرف القيروان الذى يجمع الشبان أصحاب الخلاعة يطربون بسماع آلات الطرب ورقص الغانيات^(٨٧) ويذكر بن عذارى : ان احد امراء بنى الأغلب أغرم بصيد الغرائيق حتى لقب بأبى الغرائيق وبنى قصرا يخرج اليه

(٨٦) انظر الحضارة العربية للكعاك ص ٨٠ - ٨٢ .

(٨٧) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٣ .

ليصيدها أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب^(٨٨) . كما كان هناك مركب يسمى بالزللاج فى ماجل القيروان يتخذ للتنزه فى القبة المئمة المبنية فى وسط المايل الكبير ، وكانت البساتين فى رقادة ذات الهواء العليل والنسيم الرقيق متنزها لطيفا لأهل القيروان^(٨٩) .

وفى قصور الأثرياء كان هناك حياة خاصة حيث يوجد الغلمان والجوارى من موالى البيزنطيين وأسرى الحرب من صقلية وجوارى جليهن التجار من المشرق ومن بلدان افريقية المختلفة حيث كان لذلك بعض الأثر فى نشر اللهو والمجون فى تلك القصور^(٩٠) بل كان من حكام الأقاليم من يحذق الغناء وكان ذلك داعيا الى أن يكون من ندماء الأمير فقد ذكر ابن الأبار أن مجبر بن ابراهيم بن سفيان كان من أهل الشرف والثروة وولاه ابراهيم ابن أحمد الارييس وغيرها وكان ينادمه لحذقه الغناء^(٩١) .

٨ - الصحة والنظافة :

من المظاهر الاجتماعية فى القيروان العناية بالشئون الصحية وبالنظافة فكان هناك عدد من الأطباء كما انشئت المستشفيات فى القيروان وكان أعظمها ما يسمى بالدمنة الذى خصص أيام الغالبة للمرضى والعجزة وكان قسم منه خاص بالمجزومين ويعرف بدار الجزماء وقسم آخر كان للأمراض العيون حيث كان يعالجهم أطباء ماهرون فى مختلف أنواع الأمراض^(٩٢) ، وكان هناك عناية ملحوظة بالنظافة يدل عليها كثرة مشاريع المياه بالقيروان والحمامات العامة المنتشرة هنا وهناك وقد وجد الصابون بالقيروان منذ العهد الفاطمى وهو قوام الحضارة الصحية ودليل

(٨٩) المغرب للبكرى ص ٢٦ .

(٩٠) انظر القيروان عبر عصور ازدهارها . للجنحاني ص ١٥٠ .

(٩١) الحلة السبراء ج ١ ص ١٨٥ .

(٩٢) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٠ والقزاز القيروانى

للمنجدى الكعبى ص ١٩ .

الرقى السلوكى فى نظافة البدن والثوب والمنزل والمساكن حيث تقاس حضارة المجتمع بمدى استهلاكه من المياه والصابون كما كانت شوارع القيروان تتسم بالاتساع والجمال وكان تنظيم أماكن الأسواق والصناعات والتجارات مما ساعد على نظافة المدينة وأدى إلى التقدم الصحى للسكان^(٩٣) .

٩ - الأمن والروح العسكرية :

لا شك أن اتساع المدينة وكثرة سبل الحياة فيها وتنوع سكانها واختلاف النشاطات فيها جعلها عرضة لحدوث بعض المخالفات سواء بين سكانها أو بينهم وبين القادمين اليهم من الأقاليم بقصد التجارة والتسوق أو العمل ولذلك كان هناك حراس للطرق يحفظون الأمن وينشرون السلام ويقبضون على من يحاول العبث بالأمن أو الاعتداء على السكان أو ممتلكاتهم كما كان هناك من هم مكلفون بمنع الغش والاحتيال أو التلاعب بالأسعار فى أسواق التجارة أو من يعطل الطرق أو يقسوا فى معاملة الحيوان^(٩٤) وكان للمدينة أربعة محارس خارجها وثلاثة داخلها علاوة على السور الذى يحيط بها وكل ذلك مما يساعد على نشر الأمن والاطمئنان بين السكان^(٩٥) .

ومع أن القيروان انشئت أصلاً لتكون مركزاً عسكرياً للمسلمين إلا أن مرور الزمن واستقرار المسلمين وازدهار الحضارة فيها جعل الصبغة المدنية تتغلب على الصبغة العسكرية وأدت إلى ضعفها أو تغلب الروح المدنية عليها . ولذلك عندما قامت الدولة الفاطمية فرض عبء الله المهدى الخدمة العسكرية الإجبارية على كل من دخلوا فى مذهب الشيعة

(٩٣) انظر البكرى المغرب ص ٢٦ ، الحضارة العربية للكعك

ص ٨٥ ، القيروان عبر عصور الازدهار للجنحاني ص ١٢٤ .

(٩٤) انظر تاريخ المغرب لدبور ج ٢ ص ١١٣ ، بساط العقيق

لحسن حسنى ص ٢٣ .

(٩٥) المغرب للبكرى ص ٢٤ .

وكان ذلك ايذانا بنهضة الروح العسكرية من جديد^(٩٦) وفى ايام المعز عمل على أن يكون مجتمعه وحدة قوية لا تفكك فيه خلقيا وعسكريا فكان يقول لرعيته أريد منكم ثلاثا واکره لكم ثلاثا أريد منكم الصدق واکره لكم الكذب وأريد منكم العفاف واکره لكم الخيانة وأريد منكم التواضع واکره لكم الكبر وهذا اخوف ما اتخوفه عليكم^(٩٧) .

وبمثل هذه الروح القوية توطدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشاع الأمن وظهرت الروح العسكرية وصارت الأمة قوية بحيث تمكنت من تحقيق سلامتها وأمنها ونشر سلطانها على الشمال الافريقى كله وجزر البحر المتوسط ثم التمكن بعد ذلك من فتح مصر وبسط النفوذ الفاطمى فيها .

* * *

(٩٦) أرض البطولة للجزايرلى ص ٢٠٨ .

(٩٧) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرفه ص ٢٢ ، ٢٣ .

الفصل الخامس

بداية الحياة الفكرية في القيروان

تمهيد :

بعد هذا العرض للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى القىروان والتى لمسنا مظاهرها واضحة جليلة بما يساعدنا على معرفة الاطار العام للحياة فى القىروان من هذه الجوانب . نصل الى لب بحثنا وهو الحياة الفكرية فى القىروان .

١ - فكيف بدأت ؟

٢ - ثم كيف نمت وتشعبت وازدهرت ؟

٣ - وما هى مراكز الفكر التى اتصلت بها أو المواطن التى امتدت اليها ؟

٤ - ثم ما هى المظاهر التى تتسم بها مع بيان مدى التأثير بغيرها وتأثيرها فيه ؟

٥ - وأخيرا ما هو الراى الذى يستخلص من عرضنا للحياة الفكرية فى القىروان ؟

وتسهيلا للملاحظة النمو الفكرى جعل البحث دور بدء الحياة الفكرية يبتدىء من تأسيس القىروان ويمتد الى نهاية عصر الولاة ، ودور الازدهار . يبتدىء بقيام الدولة الأغلبية ويمتد الى رحيل الفاطميين الى مصر وذلك لسهولة التقسيم والربط بين الحياة السياسية والحياة الفكرية ، وان كانت الحياة الفكرية ليست نظما سياسية أو أسرا تقوم أو تختفى وانما هى عملية تربية تعليمية فكرية ترتبط بحياة العلماء والمفكرين الذين يقضون حياتهم فى محراب الفكر الى أن تنمو البذور وتستوى قائمة فتمتد فروعها وتتشابك أغصانها وتتفتح أزهارها فتملأ الجو بالأريج والشذا بما يعود على الحياة عموما بالتقدم والازدهار .

١ - العلوم الشرعية : تعليم القرآن ، الحديث ، الفقه ، التفسير :

ابتدأت الحياة الفكرية فى القىروان بالعلوم الدينية وعلى قمته تعليم القرآن والحديث ثم الفقه والتفسير التى قدم بها صحابة رسول الله

صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتابعوهم . وقد ذكر مؤرخو الطبقات أن افريقية قد دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا من صحابة رسول الله خلال فترة فتحهم لافريقية منهم من شهد العقبة ومنهم من شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان وصلى الى القبلتين . وأن بعضهم مكث في افريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التي قدم فيها ، كما يذكرون ان عقبة بن نافع كان معه عندما عاد للمرة الثانية خمسة وعشرون صحابيا وانه جمع وجوه أصحابه وكبراء العسكر فدار معهم حول القيروان وهو يدعو لها ويقول « اللهم املاها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » (١) .

أسماء الصحابة وبعض التابعين الذين دخلوا القيروان :

وان بحثنا ليشرف بذكر أسماء هؤلاء الصحابة الذين حملوا راية الجهاد وراية الفكر وكان لهم الأثر الكبير في تأسيس القيروان المركز الفكري للإسلام وما منهم صحابي الا وقد روى له الدباغ حديثا عن رسول الله وهذا يدل على أن كلا منهم كان له أثر في وضع بذور الحركة الفكرية في القيروان وهم : أبو سعيد المقداد بن عمر البهراني القضاعي ، وأبو اليسر كعب بن عمر الأنصاري ، وعبد الله بن أنيس الجهني حليف الأنصاري ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو ذر الغفاري وأبو عبد الله عمرو بن عوف المزني ، وسلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي . وأبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي (٢) .

-
- (١) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٥٦ ، رياض النفوس للمالكي ص ٦ . ويذكر ابن عذاري ان عدد الصحابة كان ثمانية عشر ج ١ ص ٢٠ الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٦٠ .
- (٢) يذكر الدباغ في معالم الايمان ج ١ ص ٩٨ انه مات بالقيروان ودفن بها بالبقيعة التي تعرف الآن بالبلوية ودفن معه قلنسوته وفيها من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد زرت ضريحه العظيم في القيروان .

وأبو سعيد المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي ، وأبو عبد الرحمن جرهد بن خويلد الأسلمي ، وأبو محمد فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي ، وأبو العباس عبد الله بن عباس بن عتد المطلب بن هاشم ، وأبو بكر عبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي وعقبة بن عامر الجهني ورويف بن ثابت بن سكن بن عدى بن النجار الأنصاري وحمزة بن عمرو الأسلمي وأبو عبد الله عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وأبو عبد الرحمن بلال بن الحارث المزني وأبو عبد الرحمن المسور بن مخزومة بن نوفل القرشي الزهري^(٣) وجبله بن عمرو الأنصاري الساعدي وأبو يحيى عبد الله بن أبي سرح القرشي العامري ومعاوية بن حديج ، والمطلب بن أبي وداعة السهمي ، وربيعه بن عباد الدؤلي ، وزباد بن حارث الصدائي^(٤) وأبو اليمن سفيان بن وهب الخولاني^(٥) وأبيض بن حمال السبائي المأربي وأبو اليقظان^(٦) وأبو عبد الرحمن يسر بن أرطاة العامري^(٧) .

ويذكر الدباغ بعد ذلك اثني عشر صحابيا نزولوا أفريقية ويصفهم

(٣) يذكر المالكي في الرياض ص ٤٦ أنه الذي حرض عثمان على غزو أفريقية .

(٤) انفرد أهل أفريقية بحديثه المرجع السابق ص ٥٦ .

(٥) قال الدباغ ج ١ ص ١٥١ : روى غياث بن أبي شبيب قال كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه ذكر ذلك الدارقطني .

(٦) كنى بابي اليقظان جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر

ولا يعلم أيهم دخل أفريقية مغالم الدباغ ج ١ ص ١٥٦ .

(٧) انظر الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٧١ - ١٥٧ ، رياض النفوس المالكي ص ٤١ - ٦٢ ، طبقات علماء أفريقية لأبي العرب تميم ص ٧٣ - ٧٨ فقد ترجم لهؤلاء الصحابة في هذه المراجع وذكر الدباغ حديثا أو أكثر لكل واحد منهم .

بأنهم من صغار الصحابة^(٨) وهم : عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث القرشي وأبو عمر عاصم بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع بن عبد القيس^(٩) وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب وعبد الرحمن بن صبيحة الليثي ومروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي الشاعر ، وأبو منصور الفارسي مولى سعد بن أبي وقاص وكان فقيها قارئاً للقرآن ومفتياً متفناً في العلم سكن القيروان إلى أن مات بها^(١٠) - وأبو سعيد كيسان المقبري ومولى بني ليث وسكن القيروان أيضاً وروى عنه أهلها وأدخله ابن وهب في موطئه^(١١) .

وممن تولى غرس بذور الحياة الفكرية عدا كبار الصحابة وصغارهم التابعون للصحابة ومنهم : أبو عبد الله محمد بن أوس الأنصاري الذي اشتهر بالفقه والصلاح مع احاطته بالرواية والدراية^(١٢) وحنش بن عبد الله الصنعاني الذي سكن القيروان واختلط بها داراً ومسجداً وروى عن عدد من الصحابة منهم علي بن أبي طالب وابن عباس وروى عنه عبد الرحمن بن أنعم وقيس بن الحجاج^(١٣) .

-
- (٨) وذلك لأنهم ولدوا على عهد رسول الله ولم يروه أو لم يسمعوا منه وبعضهم كان مسلماً في حياته انظر الدباغ ج ١ ص ١٦١ .
- (٩) وهو الذي اختلط القيروان والجامع الأعظم ودار الإمارة المرجع السابق ص ١٦٦ .
- (١٠) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ ، المالكي الرياض ص ٨٥ ، أبو العرب طبقات إفريقية ص ٨٣ .
- (١١) انظر الرياض للمالكي ص ٨٠ .
- (١٢) انظر أبو العرب طبقات علماء إفريقية ص ٨٠ ، والدباغ الايمان ج ١ ص ١٨٩ .
- (١٣) انظر أبو العرب طبقات علماء إفريقية ص ٨٣ ، والدباغ الايمان ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

ومنهم على بن رباح اللخمي محدث قدم افريقية مجاهدا فى سبيل الله وكان عند أهل افريقية من حديثه ما ليس عند المصريين وقد سكن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وتفقه أهل القيروان على يديه وكان حسن الموعدة روى عنه عمرو بن العاص وابنه عبد الله وعائشة أم المؤمنين وروى له مسلم فى صحيحه وروى عنه ابنه موسى والحارث بن يزيد^(١٤) .

وأبو أيوب سليمان بن يسار محدث المدينة وفتيها الكبير يقال له الافريقى والمدنى قدم افريقية غازيا وأقام بها وكانت له بها آثار مشهورة ومقامات مذكورة تم رجع الى المدينة فأقام بها حتى توفى سنة ٩٤ هـ روى عن ابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وغيرهم وروى عنه ابن شهاب وهو أحد الفقهاء السبعة^(١٥) .

وأبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس وقد قيل ان أصله من بربر افريقية وكان كثير الرواية عن مولاه وعليه معتمده ، روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى هريرة وروى عنه خلق كثير وأدخله مالك فى موطنه وقد وثقه بعضهم وضعفه آخرون ولكنهم اتفقوا جميعا على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن الكريم وقد دخل افريقية وأقام بالقيروان حيث كان يجلس فى مؤخر المسجد غربى المنارة ليعلم سكان القيروان فبث فيها علما كثيرا وخاصة تفسير القرآن الكريم الذى تلقاه عن مولاه عبد الله بن عباس^(١٦) .

هؤلاء بعض التابعين الذين دخلوا القيروان وأقاموا فيها مددا مختلفة وعلموا خلالها أهل القيروان كتاب الله وسنة رسوله وما يعلمونه

(١٤) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٢ ، والدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠١ ، الرياض للمالكى ص ٧٧ .
(١٥) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٢ والرياض ص ٩٤ .

(١٦) أبو العرب طبقات ص ٨٢ ، ٨٣ ، المالكى رياض ص ٩٤ ، الورقات لحسن حسنى ص ١٠٦ .

من فقه في الدين ! أو تفسير لكتاب الله الكريم ، كما كانت أخلاقهم ومسيرتهم وحياتهم اسوة كريمة يقتدى بها سكان القيروان ويقتربوا من معيها .

فمن أولئك الصحابة وهؤلاء التابعين وغيرهم تلقى ناشئة العرب المولودون وإنشاء الأفارقة والبربر الذين شرح الله صدورهم للإسلام ونفزان الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية والتمسك بالحق والجهر به .

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجه عناية خاصة الى المركز الاسلامي في غرب الدولة الاسلامية فاختر عشرة من فقهاء التابعين اهل فضل وعلم والقي على عاتقهم مهمة القيام بنشر التعاليم الدينية وتثقيف المسلمين في افريقية فقدمت بعثة الفقهاء الى القيروان واستقرت فيها وكان لكل واحد منهم جهود موفقة ذات اثر عميق في تثقيف المسلمين كانت مقدمات لبزوغ فجر الحركة الفكرية في العلوم الدينية في مدينة القيروان .

وما من شك في ان هؤلاء القادمين من المشرق والذين قطعوا مسافات شاسعة كانوا يتنقلون في أنحاء المغرب لنشر التعاليم الاسلامية الا ان المقر الرئيسي لهم كان في مدينة القيروان حيث بنى كل منهم دارا ومسجدا وكتابا او مدرسة صغيرة ففي الكتاب يكون تعليم الصغار للقرآن فاذا ما نموا وكبروا كان حضورهم لحلقة العلم في المسجد حيث يتلقون الحديث والأحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول وغزواته (١٧) .

وهؤلاء الفقهاء العشرة أعضاء البعثة التعليمية الى القيروان هم :

١ - اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الخزومي :

وهو رئيس بعثة الفقهاء ولاء عمر بن عبد العزيز على افريقية سنة تسع وتسعين هجرية فحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وفقهم في الدين وعلمهم السنن وسار بينهم بالحق والعدل مما حمل كثيرا من البربر

(١٧) انظر طبقات علماء افريقية لأبي العرب ص ٨٤ ، ورياض النفوس ص ٦٥ ، ومعالم الايمان ص ١٨٧ ، والورقات لحسن حسنى ص ٨٧ ، والامام المازري لحسن حسنى ص ١١ .

على اعتناق الاسلام وكان مثالا طيبا للزهد والتواضع والتقشف ودعوة
البربر الى الاسلام وقارنه معن التنوخى فى الزهد بعمر بن عبد العزيز .
روى عن عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وعن غيرهما من
التابعين وروى عنه الآوزاعى بالمشرق وعبد الرحمن بن زياد وغيره
بالقيروان الى ان توفى بها سنة ١٣٢ هـ (١٨) .

٢ - اسماعيل بن عبيد الأنصارى : تاجر الله :

تلقى علمه ومعرفته وفقهه فى الدين عن جمع من الصحابة منهم
عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو عبد الله بن عمرو بن العاص
كما روى عنه من اهل افريقية عبد الرحمن بن زيادة بن أنعم وبكر بن
سودة الجذامى وكان معروفا بالفضل والعبادة والنسك والزهد والتقشف
وسمى تاجر الله لانه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه فى وجوه الخير
واليه تنسب السوق المعروفة ، بسوق اسماعيل وهو الذى بنى المسجد
الكبير بالقيروان وهو احد المساجد السبعة المشهورة بالقيروان الذى يعرف
الآن بمسجد الزيتونة وكان يعمره بالتعليم والعبادة وكان اهل القيروان
يجمعون فيه اذا كان بجامع عقبة فى القيروان ترميم وانتقال الجماعة
اليه عند توقفها فى المسجد الأعظم جامع عقبة دليل على ان مسجده
يعتبر المسجد الثانى بالقيروان وقد انتفع بعلمه وخلقه سكان القيروان
وغيرهم . ومع قيامه بالتعليم ونشر الاسلام وتعاليمه وضربه المثل فى
حب العمل بالاشتغال بالتجارة فقد خرج متطوعا بالجهاد فى غزوة
عطاء بن رافع الى صقلية فغرق فى البحر فمات وهو معانق للمصحف
سنة ١٠٧ هـ (١٩) .

-
- (١٨) انظر أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المالكى رياض ص ٧٥ ،
٧٦ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٥ وذكر وفاته سنة ١٢٣ هـ ،
الامام المازرى لحسن حسنى ص ١١ .
(١٩) أبو العرب طبقات ص ٨٥ ، المالكى رياض ص ٦٩ -
٧٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٨ ، ١٩١ - ١٩٥ ، حسن حسنى الامام
المازرى ص ١١ ، ١٢ .

٣ - عبد الله بن يزيد المعافري المعروف بالحلبى :

روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصارى وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعقبة بن عمار الجهنى وغيرهم كما روى عنه جماعة منهم يزيد بن عمرو وأبو هانىء الخولانى وعامر بن يحيى المعافري وأدخله المصنفون فى كتبهم وكان لجهوده العلمية اثر كبير فى نشر الدعوة الاسلامية وانتفع به كثير من اهل القيروان فى التفقه فى الدين وكان له طريقة خاصة فى الوعظ وذلك بضرب الامثال التى تقرب المعانى الى الأذهان وتضفى صورة مجسمة محسوسة لها أثرها القوى فى التأثير مما يؤدى الى تحقيق الهدف الذى يسعى اليه .

وقد اشترك فى الجهود العسكرية لفتح افريقية وشهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير واستوطن القيروان واختلط بها دارا ومسجدا وكتابا فى ناحية باب تونس وتوفى رحمه الله بعد هذه الجهود العلمية والعسكرية بالقيروان سنة مائة هجرية ودفن بباب تونس^(٢٠) .

٤ - أبو مسعود سعيد بن سعد التجيبى الكندى :

صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم منهم أبو الدرداء وغيره وقد روى عنه جماعة منهم عبد الرحمن بن زيادة بن انعم وعبيد الله بن زحر وأدخله عبد الله بن وهب فى جامعه . اشتهر بالدين والعقل وقلة الهيبة للملوك لا تأخذه فى الله لومة لائم وله كلمات ماثورة وحكم باللغة ذات تأثير قوى واثر فعال فى تلاميذه ومريديه . سئل عن علامة الحكيم فقال « من كان مصيبا فى قوله حلما فى غضبه ذا عفو فى قدرته راض فى منزلته غير مفتون بما ليس له قد استغنى بأمر آخرته عن دنياه » وقد سكن القيروان وبث فيها علما كثيرا واشترك مع غيره من الفقهاء

(٢٠) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكى رياض ص ٦٤ - ٦٦ ،
الدباغ معالم ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٣ ، حسن حسنى الامام المازرى
ص ١١ ، ١٢ .

فى معاونة حنظلة بن صفوان والى القيروان فى مقاومة الخوارج وهى
أورد المالكى له كتابا كتبه فقهاء البعثة ليرسله الى الخوارج وهو يبين
نظرتهم الى الكتاب والسنة وفيه « اما بعد فان اهل العلم بالله ويكتابه
وسنة نبيه محمد ﷺ قالوا : انه يرجع جميع ما انزل الله عز وجل الى
عشر آيات : أمرة وزاجرة ومبشرة ومنذرة ومخبرة ومحكمة ومستبهة
وحلال وحرام وامثال . فأمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر ومبشرة
بالجنة ومنذرة بالنار ومخبرة بخبر الأولين والآخرين ومحكمة يعمل بها
ومتشابهة يؤمن بها وحلال أمر ان يؤتى به وحرام أمر ان يجتنب وامثال
واعظة فمن يطع الأمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وانذرت
المنذرة ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويرد العلم فيما اختلف فيه
الناس الى الله مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فلاح وانجح وحيا حياة
الدنيا والآخرة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد توفى بالقيروان ودفن بها (٢١) .

ه - عبد الرحمن بن رافع التنوخى :

كان من التابعين الفضلاء يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص
وجماعة من الصحابة . روى عنه عبد الرحمن بن زياد وغيره وقد ولاه
القضاء بالقيروان موسى بن نصير وهو أول من تولى القضاء بها وكان
عادلا فى أحكامه ثقة فى نفسه ولا شك ان ذلك مكنه من نشر كثير من
العلم لا سيما وهو راوى حديث تفضيل العلم والتعلم على العبادة فقد
روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « ان رسول الله ﷺ مر بمجلس
فى مسجده يدعوون الله ويرغبون اليه ويقوم يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال
كلا المجلسين على خير واحدهما أفضل من صاحبه اما هؤلاء فيدعون
الله عز وجل ويرغبون اليه ان شاء أعطاهم وان شاء منعهم واما هؤلاء
فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل وانما بعثت معلما فجلس فيهم » .

(٢١) أبو العرب طبقات ص ٨٧ ، المالكى رياض ص ٦٦ - ٦٨ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٧ .

— ١٩٣ —

(١٣ - القيروان)

وقد توفى بالقيروان سنة ثلاث عشرة ومائة^(٢٢) .

٦ - موهب بن حى المعافى :

صحب ابن عباس وروى عنه وعن غيره من الصحابة وهو تابعى من أهل الفضل والدين روى عنه عبد الرحمن بن أنعم وعياش بن عباس القتباني وقد اشترك فى غزو المغرب ثم سكن القيروان لنشر العلم والتعليم الى أن أدركته الوفاة فيها^(٢٣) .

٧ - حيان (٢٤) بن أبى جبلة القرشى مولى بنى عبد الدار :

تلقى العلم على جماعة من الصحابة منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعبد الله بن عباس . وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وأبو شيبه عبد الرحمن بن يحيى الصدائى وعبيد الله بن زحر وهو من أهل الفقه والدين . وقد سكن القيروان وقام بالواجب عليه نحو نشر العلم والمعرفة فانتفع به أهل القيروان فى هذا المجال وتوفى بالقيروان سنة خمسة وعشرين ومائة^(٢٥) .

٨ - طلق بن جابان (٢٦) الفارسى :

تابعى فقيه عالم كان يفقه المصريين ثم وجهه عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل القيروان ولم يذكر أحد ممن رجعت اليهم عن روى من

(٢٢) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكى رياض ص ٧٢ ،
الدباغ معالم ج ١ ص ١٩٨ .

(٢٣) أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المالكى رياض ص ٧٣ ،
الدباغ معالم ج ١ ص ٢١٣ .

(٢٤) ورد فى رياض النفوس (حيان) وحيان فى أبى العرب
طبقات ص ٨٤ ، والدباغ معالم ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢٥) أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المالكى رياض ص ٧٣ ،
الدباغ معالم ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢٦) أبو العرب طبقات يذكره جابان بحاء مهملة .

الصحابة وقد روى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وموسى بن على ومن أهل مصر يزيد بن أيوب ولم يذكر أحد تاريخ وفاته^(٢٧) .

٩ - بكر بن سودة الجذامي :

من فقهاء التابعين روى عن جماعة من الصحابة منهم عقبة بن عامر وسهل بن سعد الساعدي وسفيان بن وهب الخولاني وأبو ثور الفهمي كما روى عن بعض التابعين منهم سعيد بن المسيب ومحمد بن شهاب الزهري وأبو سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم وثقه النسائي واستشهد به البخاري . وكان فقيها مفتيا سكن القيروان ونشر فيها العلم الذي تلقاه عن الصحابة وكبار التابعين عندما أرسله عمر بن عبد العزيز إلى القيروان معلما وتوفي بها سنة ثمان وعشرين ومائة وقيل أنه غرق في مجاز الأندلس^(٢٨) .

١٠ - أبو سعيد جعثل بن هامان بن عمير الرعيني :

من فقهاء التابعين يروى عن أبي تميم عبد الله بن مالك الجيشاني ولم يذكر المؤرخون عن روى من الصحابة وقد روى عنه بكر بن سودة وابن زحر وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم وأدخله النسائي في مسنده . وقد أرسله عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل القيروان وهو أحد القراء الذين كانوا يعلمون أهل القيروان . وفي أيام هشام بن عبد الملك ولاه القضاء بين الجند ليقيض فيما يحدث بينهم من المشاكل والأقضية ومن هنا نرى النشاطات التي قام بها في القيروان من تعليم القرآن والفقه والسنة والقضاء بين الجند . وتوفي في خلافة هشام بن عبد الملك حوالي سنة خمس عشرة ومائة هجرية^(٢٩) .

(٢٧) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكي رياض ص ٧٦ ،

الدباغ معالم ج ١ ص ٢١٥ .

(٢٨) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكي رياض ص ٧٤ ،

جذوة المقبس الحميدي ص ١٧٩ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢٩) أبو العرب طبقات ص ٢٤٠ ، المالكي رياض ص ٧٥ ،

الدباغ معالم ج ١ ص ١٠٢ .

وإذا تأملنا هذه البعثة العلمية التي أرسلت الى القيروان لنشر العلم والمعرفة فيها نلاحظ أنها تألفت من أبناء المهاجرين والأنصار ومن العرب والعجم فقد جمع بينهم صفة الفقه في الدين والتمسك بتعاليم الاسلام والسهر على نشرها وتعليمها فكانوا الآباء الروحانيين والغارسين الاصلاء للحركة الفكرية في القيروان كما نلاحظ انهم أرسلوا الى القيروان واستوطنوها وأقاموا فيها ولم يعودوا الى ديارهم ثانيا بل ظلوا يوقدون مشاعل الهداية الى أن ادركتهم الوفاة وبوجودهم انتشرت المساجد والمدارس الصغيرة (الكتاب) لتعليم « أبناء المسلمين وشاع تعلم القرآن والحديث والفقه والتفسير واتبع الناس التعاليم والآداب الشرعية وصار الذين يفدون الى القيروان من البربر لقضاء حاجاتهم أو للاتصال برجال الحكم والادارة فيها يعودون وقد تشبعوا بمثل عالية ومعلومات واضحة عن أحكام الاسلام ونظمه وآدابه فيصيرون دعاة لقبائلهم علاوة على المرشدين والمعلمين الذين كانوا يقضون بعض الوقت في التعلم والدراسة في القيروان ثم يرجعون الى بلادهم وقبائلهم حيث يتولون تعليم الناس أصول الاسلام ويقومون بوظائف الدين والقضاء (٣٠) .

علماء الشريعة من أبناء القيروان :

هذا العدد الكثير من الصحابة الذين آثرت ان أذكر أسماءهم ثم هؤلاء التابعون الذين حملوا حديث رسول الله ﷺ وفقه أصحابه وقد ذكرت منهم خمسة زيادة على بعثة الفقهاء العشرة وغيرهم كثير كانوا مصابيح الظلام في القيروان والمعلمين الأوائل لنشر علوم الشريعة من تعليم قرآن وحديث وفقه وتفسير وأحكام قضائية . وقد أشرنا الى أن بعضهم كان يتسم بالرواية والدراية مما يدل على وجود جذور الدراية منذ البداية . وقد قاد النور الذي بثه هؤلاء الهداة الأوائل عددا من أبناء القيروان الى الرحلة متوجهين الى المشرق لأجل الامتزادة من علوم الشريعة ثم عادوا ليكونوا الخلفاء لهؤلاء الهداة وسنكتفي بالحديث عن أربعة ممن رحلوا من القيروان الى المشرق ثم عادوا الى القيروان ليكونوا

(٣٠) مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

امتدادا لبعثة الفقهاء خلال فترة حكم الولاة وايدانا ببزوغ فجر ازدهار الحياة الفكرية فى القيروان وهم :

١ - عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى القاضى :

ولد عبد الرحمن بن زياد ببرقة والجند داخلون الى افريقيه سنة أربع وسبعين من الهجرة وقد بدأ الاسلام يستقر فى القلوب . وتسلم افريقية العنان للمسلمين ويقبل البربر على الاسلام وبذلك نشأ فى عهد خفت فيه حدة الاضطراب وقد تلقى العلم عن التابعين فهو يروى عن جميع أعضاء بعثة الفقهاء الى القيروان وعن غيرهم من التابعين كما يروى عن أبيه زياد بن أنعم عن أبى أيوب الأنصارى وبذلك صار من خيره حملة الحديث ودخل فى زمرة العلماء المتقدمين الموصوفين بالزهد والورع والصلاح وأضاف الى اتقانه للحديث تفننه فى علوم العربية والشعر^(١١) .

وقد روى عنه من فضلاء أهل المشرق سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك^(٣٢) كما سمع منه كبار اصحاب أبى حنيفة^(٣٣) . ومن أهل القيروان روى عنه عبد الله بن غانم القاضى ، والبهلول بن راشد ، وعبد الله بن أبى حسان ومعاوية الصمادحى وغيرهم^(٣٤) . ويذكر المالكى انه اثناء وجوده بمكة كان الطلبة يأتون اليه ليسمعوا منه وزاره فى حلقة سفيان الثورى الذى كان يعظمه ويعرف حقه حيث جرت بينهما مواعظ ومذاكرة^(٣٥) . ومع أخذ سفيان الثورى عنه وإعظامه له فقد قال عنه انه جاء بستة أحاديث يرفعها الى النبى ﷺ لم اسمع أحدا من أهل العلم يروونها^(٣٦) . وذكر الأحاديث مما جعل

(٣١) المالكى رياض ص ٩٦ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٠ ،

ابو العرب طبقات ص ٩٩ ، ١٠٣

(٣٢) ابو العرب طبقات ص ٩٩ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٠٣

(٣٣) المالكى رياض ص ١٠٢ .

(٣٤) الدباغ معالم ص ٢٣٠ .

(٣٥) المالكى رياض ص ٩٦ .

(٣٦) نفس المرجع ص ٩٧ .

العلماء يقومون نقله للأحاديث فقال عنه سحنون بن سعد : عبد الرحمن ثقة وقال أبو عيسى الترمذى هو مقارب الحديث وكان يقوى أمره . وقال أبو عمر بن عبد البر : أهل مصر وأفريقية والمغرب يثنون عليه بالفضل والدين والعقل وهم أعلم به من سواهم^(٣٧) .

ومع كثرة الرواة عن عبد الرحمن بن زياد فإن كثيرا من علمه قد بقى فى مكنون صدره لا ينتشر عنه لعدم وجود من يستخرجه بالسؤال وقد وجد له كما يقول أبو العرب كتابان فقط رواهما عنه عبد الله بن غانم وغيره^(٣٨) .

تولية القضاء :

وان مما يدل على صلاحه وتقواه وعلى سعة علمه اجماع أهل القيروان على ولايته لما يعرفونه من دينه وفضله وزهده فكان ذلك مما حمل الخلفاء على اسناد القضاء اليه سواء من الخليفة الأموى أو العباسى فى أيام بنى أمية ولأه القضاء فى القيروان مروان بن محمد المعروف بالجعدى وكتب اليه يقول : « وقد ولأك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين أهل إفريقية واسند اليك أمرا عظيما وبحملك خطبا جسيما فيه دماء المسلمين وأموالهم واقامة كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ . والذب عن ضعيفهم من قلوبهم وانصاف مظلومهم من ظالمهم والأخذ من شريفهم بالحق لخاملهم وقد رجائك أمير المؤمنين لذلك لفقهك وعدلك وخيرك وحسبك وعلمك وتجربتك فعليك باتقاء الله عز وجل وحده لا شريك له وإيثار الحق على ما سواه . وليكن جميع الناس قلوبهم وضعيفهم فى الحق عندك سواء »^(٣٩) .

واستمر فى القضاء الى زوال ملك بنى أمية فتولى بعده أبو كريب

(٣٧) الديباغ معالم ج ١ ص ٢٣٥ ومقارب الحديث : أى ان حديثه يقارب حديث غيره من المقبولين .

(٣٨) أبو العرب طبقات ص ١٠٠ ولم يذكر اسم الكتابين .

(٣٩) المالکى رياض ص ١٠١ .

القاضى - وعندما أرسل المنصور محمد بن الأشعث لاسترداد القيروان من البربر الصفرية أمره بأن يولى عبد الرحمن بن أنعم قضاء القيروان فلم يزل قاضيا على القيروان أيام محمد بن الأشعث والأغلب بن سالم وعمر بن حفص وصدرا من أمارة يزيد بن حاتم حيث تولى بنفسه عن القضاء (٤٠) . وكان خلال قضائه يقتفى سيرة أهل العدل ويقيم الكتاب والسنة ولا يحابى صغيرا ولا كبيرا يدل على ذلك ما حدث منه مع يزيد ابن حاتم أمير إفريقية وكان سببا لاعتزاله القضاء . فقد ذكر الدباغ « ان امرأة كانت تدخل على نساء يزيد بن حاتم وكانت لها خصومة عند القاضى فكتب لها كتاب حكم وختم عليه وأعطاه إياه فأخذته ودخلت به دار يزيد فقال لها يزيد : ما هذا ؟ فأعلمته فأخذته وفض خاتمه فصاحت المرأة فقال لها : لا عليك أنا أبعثه اليك مختتما فلما بعث اليه قال : لا اختمه حتى تعيد البيئة فبعث اليه مرة أخرى فقال : لا أفعل فلما ولى رسول يزيد أخذ عبد الرحمن خاتمه فكسره وقال والله لا حكمت بين اثنين أبدا » (٤١) .

وكان لا يقبل من أحد صلة ولا هدية ويقول : « اذا رأيت الهدية دخلت دار القاضى من باب الدار فأعلم ان الأمانة قد خرجت من كوة داره » (٤٢) .

صراحته مع الخليفة :

وعندما تغلب الخوارج الصفرية على القيروان وقتلوا قاضيا بها كريب وملكوها أرسل علماء القيروان وفدا منهم الى أبي جعفر المنصور يستغيثون به لاستنقاذ القيروان وكان رئيس الوفد عبد الرحمن بن

(٤٠) المالكي رياض ص ١٠٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤١) الدباغ معالم ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤٢) الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٤ ، المالكي رياض ص ١٠٠ ،

أبو العرب طبقات ص ٩٨ .

زياد وقد استجاب لهم أبو جعفر وأرسل معهم جيشا كبيرا بقيادة محمد ابن الأشعث استرجع به القيروان من أيدي الصفرية .

وقد سأل أبو جعفر عبد الرحمن عن حالة الدولة - لا سيما وقد كان عبد الرحمن يفد على هشام بن عبد الملك في بعض الشؤون الخاصة بالقيروان أيام دولة بني أمية - قال أبو جعفر لعبد الرحمن كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلما فاشيا وأمرأ قبيحا . قال عبد الرحمن فقال أبو جعفر : « لعله فيما بعد من بابي » قال فقلت له : « كلما قربت من بابك استفحل الأمر وغلظ فقال لي : « أنت لا تهوى الدخول في شيء من أمرنا »^(٤٣) ثم قال : كانك كرهت صحبتنا فقال عبد الرحمن ما يدرك المال والشرف الا في صحبتكم ولكن تركت عجوزا واتي أحب مطالعتها قال اذهب فاننا قد اذنا لك ثم ولاه قضاء القيروان^(٤٤) . فلما توجه عبد الرحمن الى افريقية كتب الى ولده وخاصته هذه الآيات :

ذكرت القيروان فهاج شوقي وابن القيروان من العراق ؟
مسيرة أشهر للعيس نصا وللخيل المضمرة العتاق
فأبلغ انعما وبنى أبيه ومن نرجو لنا وله التلاقي
بأن الله قد خلى سبيلي وجد بنا المسير الى مزاق^(٤٥)

وان هذه الصراحة مع أبي جعفر تبين لنا تمسكه بالحق وجهه به وانه لم تأخذه في الله لومة لائم في الجهر بالحق ولذلك ظل معظما في صدور الناس رفيع القدر والمنزلة لديهم الى ان أدركته الوفاة في رمضان سنة احدى وستين ومائة حيث خرجت القيروان لتودع فقيها وقاضيا والراوى عن تابعيها في مشهد جليل لتوسده الباب بباب نافع وكان على رأس المشيعين أمير القيروان يزيد بن حاتم حيث تمثل بببيت عبيد الأبرص :

(٤٣) أبو العرب طبقات ص ١٠٢ ، المالكي رياض ص ٩٨ .

(٤٤) الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤٥) مزاق / فحص القيروان شهر بذلك لأن السحاب يتمزق فيه .

ياكعب ما راح من قوم ولا ابتكروا الا وللموت فى آثارهم حادى^(٤٦)

٢ - عبد الله بن فروخ الفارسى :

أبوه من خراسان ثم قدم الى المغرب وولد له عبد الله بالأندلس سنة ١١٥ هـ ثم قدم عبد الله الى القيروان واستوطنها وتلقى العلم فيها ، فكان فقيها ورعا فاضلا يتسم بالتواضع وعدم الهيبة للملوك ولا يخشى الا الله سبحانه وتعالى وكان حافظا للحديث والفقه^(٤٧) وقد رحل الى المشرق فى طلب العلم فأخذ عن مالك بن أنس وسفيان الثورى وزكريا ابن زائدة أحد فقهاء التابعين كما حضر على الأعمش (سليمان بن مهران) التابعى وحمل عنه كثيرا من الحديث وقد صحب أبا حنيفة وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة يذكر انها عشرة آلاف مسألة . ويروى أنه ناظر زفر بن الهذيل فى مجلس أبى حنيفة فازدراه زفر لهيئته الافريقية ولباسه المغربى فلم يزل ابن فروخ يناظره حتى علا زفر وقطعه بالحجة والدليل وقد عاتب أبو حنيفة زفر لازدراؤه على ابن فروخ - كما اخذ ابن فروخ عن هشام بن حسان الأسدى من كبار محدثى البصرة .

وكان ابن فروخ مع أخذه عن مالك وغيره من كبار علماء الحديث متحرر الفكر يميل الى طريقة أهل النظر والاستدلال فريما مال الى قول أهل العراق اذا تبين له ان الضواب فى قولهم^(٤٨) و « عن ابن فروخ وعن تلاميذه انتشرت آراء أهل العراق فى افريقية وكان هو أول من أظهرها بها^(٤٩) .

(٤٦) المالکى رياض ص ٩٧ ، ١٠٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٤٧) عياض المدارك ج ٢ ص ٣٤٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٨ ، الامام المازرى حسن حسنى ص ٢٢ .

(٤٨) أبو العرب طبقات ص ١٠٧ ، المالکى رياض ص ١١٣ ، ١١٤ ، عياض ، لمدارك ص ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، الدباغ معالم ص ٢٣٩ .

(٤٩) الامام المازرى لحسن حسنى ص ٢٣ .

ويصفه العلماء بأنه ثقة فى حديثه وقد خرج له مسلم فى صحيحه وكان مالك يجله ويوسع له ليجلس الى جواره عندما زاره فى رحلته الثانية للحج ولم ترد مسألة الى مالك وعبد الله حاضر الا قال : اُجب يا أبا محمد فيجيب . ثم يقول مالك للسائل هو كما قال لك « ثم يلتفت مالك الى أصحابه فيقول هذا فقيه أهل المغرب^(٥٠) . وقد داوم ابن فروخ على صلته بمالك فكان يرسل اليه الأسئلة فى المسائل التى يختلف فيها مع ابن غانم وقد صوب مالك رأى ابن فروخ^(٥١) فى تولى القضاء . وبعد ان استتراد ابن فروخ من علماء المشرق السابق ذكرهم عاد الى القيروان وقام بتعليم الناس العلم وتحديثهم بسنة رسول الله ﷺ فانتفع به خلق كثير من أبناء البلاد وكان الناس يتبركون بصحبته ويجلسون له على طريقه اذا خرج من بيته فاذا مشى مشى الناس معه واغتنموا منه دعوة وذكرى وموعظة حتى الجامع حيث يدخلون ليستفيدوا منه العلم والمعرفة . وكان لا يتقاضى أجرا على تعليمه فقد كان الى جوار علمه يعمل بالتجارة وبلغ من ورعه انه كان يغلق حانوته عندما يأخذ الجند اعطياتهم حتى يذهب ما فى أيديهم^(٥٢) . ولم يكن تعظيم الناس له قاصرا على تلاميذه بل كان زملاؤه من العلماء يعظمونه أيضا « فقد كان البهلول بن راشد يعظم عبد الله بن فروخ ويكبر قدره ويقلده فى بعض ما ينزل به من أمور الديانة »^(٥٣) ولم يكن عظم قدر ابن فروخ قاصرا على أهل القيروان وحدها بل كان معروفا كما مر فى الكوفة والمدينة ولذلك عندما عزم على الإقامة فى مصر وقدم اليها سنة ست وسبعين ومائة بعد موت الليث بن سعد رجا أهل مصر أن يكون خلفا عن الليث بن سعد الا ان منيته ادركته فكان لوفاة فجعة عظيمة فى قلوب

٥٠) المالکى رياض ص ١١٥ ، عياض المدارک ص ٣٤١ .

٥١) الدباغ معالم ص ٢٤٥ ، عياض المدارک ص ٣٤٢ .

٥٢) المالکى رياض ص ١٢٠ ، ١٢٢ ، عياض المدارک ص ٣٤٢ ،

حسن حسنى الامام المازرى ص ٢٣ .

٥٣) المالکى رياض ص ١١٧ .

اهل العلم وقالوا طمعنا ان يكون خلفا عن الليث تعظيما له وتقديرا
لامامته (٥٤) .

ومع ورع ابن فروخ وتقواه وتمسكه بالكتاب والسنة الا ان اخذه
بالنظر والاستدلال جعل المعتزلة تدعى انه منها كما ان بعض اهل السنة
رماه بالاعتزال الى ان اتاه حبوس بن طارق ومعه ابو خارجة عنبسة
ابن الغافقى فقال له : « ما تقول فى المعتزلة ؟ فقال له : وما سؤالك
عن المعتزلة ؟ فعلى المعتزلة لعنة الله قبل يوم الدين وفى يوم الدين
وبعد يوم الدين وفى طول دهر الداهرين » فقال له حبوس بن طارق :
لا تفعل فان فيهم رجالا صالحين فقال : ويحك ! ما احسبك تخاف فى
نفسك فى قعود ولا فى قيام من الناس وهل فيهم رجل صالح ؟ (٥٥)
وكان اعراضه عن صلاة الجنازة على معتزلى ميت مما أدى الى تبرئته
من رميه بالاعتزال (٥٦) .

وقد عرض روح بن حاتم عليه تولى القضاء بالقيروان فابى فأمر
بأن يطرح من على سقف الجامع فلما صعد به قيل اتقبل القضاء ؟
قال : لا فاخذ ليطرح فلما رأى العزيمة عليه قال قبلت فجلس للناس
ومعه حرس فلما قعد فى الجامع تقدم اليه خصمان فلما صارا اليه نظر
اليهما ويكى ووطال بكاؤه ثم رفع راسه فقال لهما : سالتكما بالله
الا اعفيتمانى من انفسكما ولا تكونا أول مشئومين على فرحماء وقاما
من بين يديه ثم جعل الخصوم يكلمونه وهو يبكى ويقول ارحمونى
يرحمكم الله فاعلم الحرس روحا بذلك فقال : قولوا له اشر علينا بمن
تولى فقال : ان يكن أحد فعبد الله بن غانم فانى رأيت شابا له صيانة
فولى عبد الله بن غانم القضاء فكان ابن غانم يشاوره فى مسائل القضاء
فقال له يا ابن غانم لم اقبلها اميرا فاقبلها وزيرا فالح عليه ابن غانم

(٥٤) المالكى رياض ص ١١٤ .

(٥٥) المالكى رياض ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٥٦) أبو العرب طبقات ص ١٠٨ ، المالكى رياض ص ١٢١ .

وشدد عليه فخاف عبد الله بن فروخ ان يتقلد امور المسلمين وطلب
السلامة بأن يخرج من القيروان الى الحج فلما حج وعاد الى مصر
مات بها^(٥٧) .

ومع انه أبى ان يتولى القضاء ففد كان قليل الهيبة للملوك فى
حق يقوله وقد أرسل اليه يزيد بن حاتم يسأله عن دم البراغيث فى
الثوب هل تجوز الصلاة به فقال : « ما ارى به بأسا وقال بحضرة
الرسول : يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التى
تسفك » وهكذا يرى ابن فروخ ان تطبيق الاسلام يجب أن يكون شاملا
لكل قواعده وأحكامه فى الأمور الصغيرة والكبيرة على السواء^(٥٨) .

وكان عبد الله فى بداية أمره يرى الخروج على أئمة الجور اذا
كان الخارجون فى تعداد جيش المسلمين فى بدر ممن يأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر وذكر المؤرخون أنه تواعد مع أصحابه ان يوافوه
للخروج بباب تونس وليس آلات الحرب وأتى المكان فى الوقت المعلوم
فلم يوافه الا محمد بن يسوتا وأبو محرز القاضى من العراقيين فرجع
ولم يخرج وعندما خرج من القيروان متوجها الى المشرق وخرج الشيوخ
يودعونه قال لهم : انى كنت أقول بجواز الخروج على أئمة الجور
وأشهدكم انى رجعت عن ذلك وتائب الى الله منه^(٥٩) وبهذا يتجلى
احساس الفقيه الورع فى التنبيه على ما يجد له من الآراء .

ولا شك ان اخذ عبد الله بالنظر والاستدلال جعله واسع الأفق
فى أمور التربية فكان يمازح الطلبة الذين يتلقون عنه بما يخفف عنهم
عناء الدرس الا ان ذلك لم يرق سحنون عندما ذهب اليه مع أخيه الذى
كان يتلمذ عليه لينحضر مجلسه فمجه قلبه على حد تعبيره^(٦٠) .

(٥٧) الدباغ معالم ج ص ٢٤٢ .

(٥٨) المالكي رياض ص ١١٩ ، عياض المدارك ص ٣٤٤ .

(٥٩) لأبو العرب طبقات ص ١٠٩ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٤٧ ،

عياض المدارك ج ١ ص ٣٤٦ .

(٦٠) عياض المدارك ج ١ ص ٣٤٦ .

الا ان ذلك لا يمنعنا من أن نعجب لدقة نظر ابن فروخ بشئون التربية بأن يتخلل عملية التعلم بعض المرح بالاضافة الى التعمق فى فقهه ونظره واستدلالة .

وبعد هذا الجهاد العلمى فى تحصيله والرحلة اليه ونشره بين اهل القيروان توفى فقيه المغرب عبد الله بن فروخ بمصر بعد منصرفه من الحج سنة ست وسبعين ومائة ودفن بالمقطم .

٣ - البهلول بن راشد الرعينى الفقيه الزاهد :

ولد سنة ١٢٨ هجرية بالقيروان واشتهر بالعبادة والتقوى والصلاح والتمسك بالسنة والفقه فى الدين وكان ثقة مجتهدا ورعا .

وقد تلقى العلم أولا بافريقية من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وموسى بن على بن رباح وعلى بن زياد ثم رحل الى المشرق فسمع من مالك والثورى والليث بن سعد والحارث بن نبهان ويونس بن يزيد وحنظلة بن أبى سفيان القرشى الجمحى بمكة^(٦١) .

وعند عودته سمع منه جلة العلماء فى القيروان : سحنون بن سعيد ويحيى بن سلام وعون بن يوسف وأبو زكريا الحفرى وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيرهم كما روى عنه مسلم بن الحجاج فى سننه - وقد قام بالفتيا ألف ديوانا فى الفقه على مذهب مالك وربما مال الى قول الثورى وكان القعنبي يصفه بأنه وتد من أوتاد المغرب . ونظر مالك الى البهلول فقال : هذا عابد بلده وكان موصوفاً بالزهد مع تمسكه بهيئة حسنة كما كان لا يسلم ولا يرد السلام على أهل الآهواء ويأخذ تلاميذه بذلك ويقول : « ان هذا الذى نعرف به الحق من الباطل . وكان يعظم الجهاد وطلب العلم فيقول : « ما أعمال البر كلها عند

(٦١) أبو العرب طبقات ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، المسالكى رياض ص ١٣٢ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣٣٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٦٤ .

الجهاد الا كبصقة فى بحر وما اعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم الا كبصقة فى بحر» (٦٢) .

وكان يغلظ القول لتلاميذه عندما يحاولون الاستماع الى مناظرات المعتزلة فى القدر حتى لا يحملهم ذلك على الاعراض عن السنة والوقوع فى المعتزلة (٦٣) .

وللبهلول رأى فى الحجة الثانية ما اشد حاجة المسلمين الى ان يفقهوه فى هذه الايام فقد جاء مغيث بن رباح الى البهلول فاخبره بعزمه على الحج فقال له : اما كنت حججت ؟ قال : نعم ولكنى اشتقت الى بيت الله الحرام وقبر النبى ﷺ . فقال : كم عددت لخروجك ؟ فقال : مائة دينار فقال له البهلول : فهل لك ان تاتينى بها فاصرفها فى مواضع واضمن لك على الله عشر حجج مقبولة . فقام مغيث سريعا فأتى بالبصرة فأفرغها البهلول تحت جلد كان قاعدا عليه وقعد مغيث بن رباح فلم يزل يدخل الرجل فيعطيه البهلول خمسة وآخر يعطيه ثمانية وآخر يعطيه عشرة فواحد يقول له « تزوج منها وعش بالباقي » وآخر يقول له : « عد بها عيالك وصبيانك » وآخر يقول له « استر بها وجهك » فلم يقم حتى نفدت المائة (٦٤) .

ومع ورع البهلول وتقواه فقد كان حريصا على تقويم تلاميذه عندما يغويهم الشيطان بحكمة ولباقة فقد كان عند البهلول شاب يطلب العلم ثم أقبل على المجانة فأعلم بذلك البهلول فسأه ما بلغة فبينما هو يوما جالس اذ مر به الشاب وتحت ثوبه طنبور فقيل للبهلول انظر اصلحك

-
- (٦٢) أبو العرب طبقات ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المالكي ص ١٣٤ ،
عياض المدارك ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ - الدباغ معالم ج ١ ص ٢٦٥ ،
ابن فرحون الديباج المذهب ص ١٠٠ .
(٦٣) أبو العرب طبقات ص ١٢٩ .
(٦٤) المالكي رياض ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، عياض المدارك ج ١
ص ٣٣٤ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

اليه امرأة منها قد تابعت الى الله تعالى خطابا تطلب اليه ان يدعو الله
الله بأن يديم عليها توبتها^(٦٧) .

وكان البهلول شجاعا في الحق لا يخشى في الله لومة لائم مما حمله
على أن ينتقد أمير أفريقية محمد بن منافق العكي الذي كان يهادي
ملك الروم ويلاطفه فوجه ملك الروم الى العكي في سلاح وحديد ونحاس
فلما أراد العكي توجيه ذلك اليه عارضه البهلول ووعظه لتزول عنه
الحجة من الله عز وجل واستمر البهلول ينتقد العكي في تصرفاته وفي
سياسته فبعث اليه العكي ليعاقبه فتحاشد الناس عليه مما زاد في حنق
العكي فأخرج الى الناس اجناده ففرقوهم وأمر بتجريدده وضربه وقد
رمى بعض أتباعه أنفسهم عليه لحمايته فضربوا ثم ضرب البهلول اسواط
دون العشرين وحبسه بعد ضربه ثم أطلقه فإرا الضرب من جسمه الا اثر
سوط واحد نغل فكان سبب موته فكان استشهاده في سبيل قول الحق
وذلك سنة ثلاث وثمانين ومائة هجرية (٦٨) .

٤ - عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني القاضي :

مولده وثقافته :

ولد سنة ثمان وعشرين ومائة وكان والده موصوفا بالشجاعة
والقوة وكان على ساقطة الجيش في وقعة القرن والأصنام حين خرج
حظلة لمحاربة الخوارج الذين أرادوا استباحة القيروان فيقال ان والده
قتل منهم ثمانين ومائة - تلقى ثقافته الأولى بالقيروان فسمع من
عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وخالد بن أبي عمران ثم رحل الى المشرق
في طلب العلم فدخل الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وعليه
اعتماده كما روى عن سفيان الثوري وعن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة

(٦٧) انظر القصة في أبي العرب طبقات ص ١٣٠ ، ١٣١ ،

المالكي رياض ص ١٣٥ .

(٦٨) أبو العرب طبقات ص ١٣٥ ، المالكي رياض ص ١٤٢ ،

عياض المدارك ج ١ ص ٣٣٨ ، الدباغ معالم ص ٢٧٦

واسرائيل بن يونس الكوفى وداود بن قيس وعثمان بن الضحاك المدنى وغيرهم وكان ثبوتا ثقة فقيها مع فصاحة لسان وحسن بيان وبصر بالعربية ورواية للشعر ويذكر عن بصره بالعربية انه عندما دخل على سفيان الثورى مع صاحبيه عبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد قال لهم سفيان ليقرأ على فصحكم لسانا فانى اسمع اللحنة فيتغير لها قلبى فقرأ عليه شهورا كثيرة الى أن يارقه ما رد عليه حرفا . وقد كان متواضعا خاصة مع العلماء والزهاد من أمثال رياح بن يزيد والبهلول بن راشد^(١٩) .

جهوده فى التعليم :

وبعد تلقيه عن هؤلاء العلماء الأعلام عاد الى القيروان ليبحث فيه علم ومعرفة وقد روى عنه التعنبى وابن الفاسم كما تعلم فى حلقاته سحنون بن سعيد وداود بن يحيى وسعيد اخوه وغيرهم كثير ، وكان مالك يجلب ابن غانم ويقدره وقد أدرك بفراسته منزلته فقال عندما نظر اليه هذا قاضى بلده وكان اذا جاء مالكا وقت سماعه اجلسه الى جنبه ويسأله عن اخبار المغرب فيقول أصحابه شغله المغربى عنا وبلغ من حب مالك له ما يروى من أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده فامتنع من المقام وقال ان اخرجتها معى الى القيروان تزوجتها وقد روى سحنون عنه فى المدونة وأدخله ابن عبدوس فى المجموعة .

وقد جاء ابن طالوت اليحصبى الى أسد بن الفرات بوثيقة كتبها له ابن غانم فأخذها أسد وجعل يعرضها وينقدها فلما فرغ نقرأها بأصبعه ثم قال : ما كان أفقهه !

ومع اعتماد ابن غانم على مالك وميله اليه فقد ذكر أن ابن غانم كان يقرأ على تلاميذه كتب أبى حنيفة فى الجمعة يوما وعندما بلغت

(٦٩) أبو العرب طبقات ص ١١٦ ، المسالك رياض ص ١٤٣ .
الريق تاريخ إفريقية ص ١٧٥ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ ،
الدباغ معالم ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧

وفاته ابن وهب استرجع وترحم عليه وقال لقد كنت قائما بهذا الأمر
يعنى الفقه والعلم وقال عنه الشيرازى فى طبقات الفقهاء انه كان من
نظرأء عبد الحميد بن عبد العزيز أبو حازم قاضى البصرة ونظرأءه^(٧٠) .

ولايته القضاء :

وقد ولى قضاء القيروان فى رجب سنة احدى وسبعين ومائة وهو
ابن اثنتين وأربعين سنة وبذلك تحققت فيه فراسة مالك وقد كان دقيقا
وعادلا فى قضائه محافظا على كرامته وكرامة المهمة التى يقوم بها .
وقد خصص ابن غانم يوما للفصل فى خصومات النساء يجلس فيه للنظر
بينهن وكان يلبس فى ذلك اليوم الفرو الخشن وخلق الثباب ويجعل بصره
الى الأرض فلا يشك من لا يعرفه انه اعمى كما كان يزيل الحجاب والكتاب
عنه فى ذلك اليوم^(٧١) .

وكان ابن غانم متثبتا فى فضائه فاذا عرض له من نوازل الخصوم
ما لا يظهر له وجه الصواب فيه أرسل الى مالك فى هذه المسائل وكان
يكتب أيضا الى أبى يوسف يستشير فى قضائه كما كان يستشير ابن فروخ
مما جعل ابن فروخ يترك القيروان خوفا من المشاركة فى القضاء وقد
بلغ من دقة ابن غانم وشجاعته ما يروى من أن الأمير ابراهيم بن الأغلب
دعا ابن غانم يوما فقرا عليه كتاب الرشيد يأمر باحضار رجل
يقال له حاتم الابرارى ويقول ان لفرج مولى أمير المؤمنين عليه عشرة
آلاف دينار ويأمر ابراهيم بقبضها ويوجهها مع رسول له خراسانى .
ويقول فى آخر الكتاب : واحضر ابن غانم القاضى . وقد احضر المطلوب
ترعد فرائضه فلما اكمل ابراهيم قراءة الكتاب التفت الى ابن غانم

(٧٠) أبو العرب طبقات ص ١١٧ ، المالکى رياض ص ١٤٤ ،
الرقیق تاریخ إفريقية ص ١٨٠ ، عیاض المدارك ج ١ ص ٣١٧ ، الدباغ
معالم ج ١ ص ٢٩٠

(٧١) عیاض المدارك ج ١ ص ٣١٩ ، الدباغ معالم ج ١
ص ٢٩١ ، ٢٩٥

فقال : « يا أبا عبد الرحمن هل سمعت ما في الكتاب ؟ قال : نعم فلماذا
أحضرتني ؟ الى في هذا الكتاب محنمل ؟ فقال ابراهيم بلى لعمر الله
ولم أمر باحضارك » ؟ فقال له ابن غانم : « فأول ذلك ان أمر هذا
الرسول باحضار شاهدين عدلين على ان امير المؤمنين استخلفه على
قبض هذا المال ان صح له ويشهد غيرهما أو هما من أهل الثقة ان هذا
المال للأمير المؤمنين أو للفرج فتاه فقال الرسول : أو يكتب امير
المؤمنين بالباطل ؟ فقال ابن غانم : معاذ الله امير المؤمنين اصدق واحرم
من أن يأخذ مالا بغير حلة ولكن قد تخلق الأشياء دونه فقال
الخراساني لبراهيم : ما يقول الأمير ؟ فقال أقول ما قال القاضي
قال فقام القاضي ابن غانم وقال لحاتم : امضى أمأى فقال ابراهيم لله
دره من امرىء دحداح - يريد قصير القامة - ما أنفذ بصيرته
وامضى عزيمته (٧٢) .

وقد اكسبته دفته في قضائه واستقامته في سيرته منزلة سامية
عند الخليفة فكان الرشيد اذا كتب كتابا لبراهيم بن الأغلب يقول في
كتابه : « وأنا أعلمك أنى لا أفك لك كتابا حتى يكون مع كتابك الى
كتاب ابن غانم » وبذلك صارت ولايته من قبل الخليفة لا من قبل واليه
على افريقية . وكان يكتب في عنوانه : من هارون الهير المؤمنين الى
قاضى افريقية عبد الله بن عمر بن غانم . فأعلى ذلك من قدر ابن غانم
وجعل له منزلة لا يستطيع الأمير أن يعتدى عليها وقد حافظ ابن غانم
على هذه المنزلة فحفظ لنفسه عزتها وللقضاء حرمة . فقد حدث
أن راكب ابن غانم ابراهيم يوما فزادت دابة ابراهيم فى المشى فحول
ابن غانم دابته وعرج الى داره فعاتبه ابراهيم على ذلك فقال ابن غانم
أصلح الله الأمير انما نفوذ القاضي على قدر جأه ولو ساعدتك وحركت
دابتي سقطت قلنسوتي فلعب بها الصبيان . وقد حمل ذلك ابراهيم
على مداراة ابن غانم واکرامه وتعظيمه وكان ابراهيم بن الأغلب يصلى

(٧٢) المسالك رياض ص ١٤٩ ، ١٥٠ عياض المدارك ج ١

ص ٣١٨ ، ٣٢٠ ، الدباغ المعالم ج ١ ص ٣٩٣ ، ٣٩٤

بالجامع الاعظم المكتوبات كلها فخرج ليلة من الليالى من دار الامارة فدخل الجامع لصلاة العتمة وكان مشغول القلب فعثر على حصير قسقط فلما صلى بالناس وانصرف بعث فى طلب ابن غانم فاتاه الرسول وقال له : الأمير يدعوك فتغير لذلك ابن غانم وقال فى مثل هذه الساعة يواجه ورائى ثم لم يجد بدا ان قام اليه فلما دخل عليه قال يا أبا عبد الرحمن انى لم ابعت اليك الا لخير انى لما دخلت المسجد استغل قلبى عن حفظ نفسى فعثرت على حصير فسقطت فظننت بالناس انهم حسبوا انى منتبذ فأحببت ان تكون براءتى عندك ولا أبالى بغيرك فاستنكهنى^(٧٣) فاستنكهه ابن غانم فوجده بريثا قال فشكر له ذلك^(٧٤) .

وقد بلغ من جرأة ابن غانم وعدم خوفه من الأمير فى سبيل احقاق الحق ومراعاة مصالح المسلمين انه نظر يوما الى قارورة فى يد ابراهيم فيها دهن يسير فقال لابراهيم : ما هذا ؟ فقال له دهن ثم قال : كم تظن انه يساوى ؟ فقال له هذا تافه يسير . كم عسى ان يساوى ؟ فقال ان ثمنه كذا درهما وذكر ثمننا كثيرا فقال ابن غانم : ما هذا ؟ قال : السم القاتل . قال أرنيه فدفع اليه القارورة فلما أخذها ابن غانم ضرب بها عمودا كان فى المجلس فانكمرت وذهب ما فيها فقال له ابراهيم : ما صنعت ؟ قال : أفنترك معك ما تقتل به الناس اغتيالاً^(٧٥) .

وهذا يبين لنا السلطة المعنوية القوية التى كان يتمتع بها ابن غانم القاضى الفقيه بالنسبة للأمير وللرعية . وان هذه المنزلة التى اكتسبها ابن غانم سيكون لها تأثير فى العلماء خاصة فيمن يسند اليه القضاء

(٧٣) استنكهه : أى شم رائحة فمه ليرى هل شرب نبيذا أم لا .

(٧٤) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢٢٩ ، المالكى رياض ص ١٤٨ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٠٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

(٧٥) المالكى رياض ١٥٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

فيحاول أن يسير على مثل سيرته وكان ابن غانم يقظا دقيقا وخاصة مع من يعمل معه فقد كان له كاتب يعاونه وكان من عادته أن يتقدم الى مقعده في الجامع فيجلس حتى يأتي ابن غانم وكان من عادة القاضي أن يبعث بديوانه مختوما مع وصيف له . فيبقى بحاله الى أن يأتي ابن غانم فيركع ركعات ثم يجلس فاذا رأى طابعه بحاله فكه فتقدم الكاتب يوما كما كان يفعل فبينما هو جالس اذ أتاه كتاب ابنه من باديته فجاء وصيف ابن غانم بالديوان على عادته فناوله الكتاب فأخذه منه ثم فك كتاب نفسه ليقراه فوافق ذلك دخول القاضي فأبصر الكتاب في يده فبادر الكاتب بالكتاب فأدخله في كفه فأتى ابن غانم وما يبصر طريقا من شغل قلبه فركع ركعتين خفيفتين وعلى وجهه الكآبة والغضب ثم سكت وجلس فناوله الكاتب القمطر كما تقدمت عادته ليرى ابن غانم طابعه ويفكه . فصاح عليه ابن غانم كف ، فكف ثم طابأ ابن غانم ثم تنهد ثم رفع رأسه وهو يقول : الله احق أن يؤثر ليس في الحق من حشمة ما هذا الكتاب الذي في كحك ؟ فاستحى الكاتب واحمر لونه ودهش ثم قال : اصلحك الله كتاب اتانى من البادية أخبرونى فيه أن الزريعة قد فرغت فابعث الينا بالزريعة فقال له ابن غانم : لا بد من اخراجه فأخرجه له فقراه ابن غانم فأصابه كما قال فسرى عن وجه ابن غانم ما كان ظهر عليه من الكآبة ثم أمر بفك الطابع ففكه وأخذ في النظر بين الناس وهذا غاية في التوقى والاحتياط^(٧٦) .

وقد مكث ابن غانم يتولى القضاء والفصل فى الخصومات ونشر العلم والمعرفة الى أن وافاه أجله فى شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائة فصلى عليه ابراهيم بن الأغلب ودفن بباب نافع .

ومن هنا نرى بخورا لكل من المذهب الحنفى والمالكي قدوردت الى القيروان مع بدء الرحلة الى المشرق وان كان لاقامة الامام مالك فى المدينة الموطن الاصلى للاسلام ثم تمسكه بالوقوف عن القرآن والحديث دون اللجوء الى

(٧٦) المالكي رياض ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

الرائى اثر كبير فى حمل كثيرين ممن رحلوا من القيروان الى المشرق على الميل الى مذهب مالك لظهور السلامية فيه . وبذلك يتضح لنا عدم صحة الرأى الذى اخذ به الدكتور احسان عباس فى قوله « انه كان يغلب على افريقية فى القديم مذهب الكوفيين ومذهب الاحناف »^(٧٧) وما ذهب اليه الدكتور احمد بكير فى مقدمة المدارك « من انهم كانوا اوزاعيين مع اهل الشام النازحين فى العهد الاموى وحنفيين مع الاغالبية »^(٧٨) . كما يتبين لنا من العرض السابق ان بنهاية هذه الفترة كان علماء القيروان قد اضافوا الى ما كان عندهم من آراء وعلم الصحابة والتابعين فى القيروان علم الصحابة والتابعين فى المشرق من حديث وتفسير وفقه . ووصل مذهب مالك بن انس وصار له الانصار كما وصل كذلك مذهب أبى حنيفة النعمان . وكان هناك من العلماء من يأخذ برأى مالك . ومن يأخذ برأى أبى حنيفة ؛ ومن يفاضل بينهما .

فعبد الله بن فروخ مع اخذه بمذهب مالك ومعرفته له فانسه صاحب نظر واستدلال وميل الى قول اهل العراق اذا تبين له أن الصواب فى قولهم .

وعبد الله بن غانم يتمسك بمذهب مالك ويعتمد عليه ومع ذلك يقرأ فقه أبى حنيفة لتلاميذه يوما فى الاسبوع .

وبذلك أصبحت القيروان مستعدة لاستقبال ازدهار الحركة الفكرية فى مجال الحديث والتفسير والفقه التى قام بها تلاميذ هؤلاء العلماء الاعلام مع حرصهم على الرحلة والاستزادة من العلم فى المشرق حيث ظهر فقهاء مالكيون وآخرون حنفيون .

فكيف ازدهرت الحياة الفكرية ؟

هذا ما نبخته فى فصل ازدهار الحياة الفكرية .

(٧٧) الدكتور احسان عباس فى صقلية ص ٩٥ .

(٧٨) الدكتور احمد بكير محمود مقدمة المدارك ج ١ ص ٨ .

٢ - العلوم العربية :

الأدب واللغة :

القيروان منذ تاسيسها مدينة عربية ومصر اسلامى لحما ودما وسكانه الاولون هم العرب القادمون من المشرق بدينهم الاسلامى ولسانهم العربى فمع أن مدينة القيروان قد اقيمت فى افريقية الا أن سكانها الاصليون هم العرب ثم خالطهم وساكنهم من دخل فى الاسلام واعتنقه وأخذ عنهم اللغة العربية التى هى لغتهم ولغة الدين الاسلامى وكتابه المقدس فتحدث من سكن معهم القيروان بهذه اللغة وكانت له لغة أيضا .

وقد ساعد على اقبال البربر على اللغة العربية انها لغة الدين الذى آمنوا به والقرآن الذى يرددون بعض سوره وآياته فى عبادتهم ، ثم الجد والنشاط الذى ابداه العرب المسلمون فى تعليم اللغة العربية للبربر وفتح الكتاتيب حتى قبل أن يتم الفتح الاسلامى وجعلها لسان الدولة الرسمى بعد تمام الفتح فكانت دواوين الدولة منذ انشائها فى أيام حسان باللغة العربية فالمكاتبات والرسائل والشكاوى وخطب الجمع والاعياد وغير ذلك من المصالح الادارية أو المتعلقة بأمور الدولة كلها كانت باللغة العربية .

فاذا ما أضفنا الى ذلك المساواة التى بسطها الاسلام على من اعتنقه من البربر وغيرهم بحيث يكون العربى والبربرى متساويين فى الحقوق والواجبات فى الحرب والسلم فى الغنم والغرم حتى فى ادارة بعض فرق الجيش وتولى قيادتها تبين لنا ان كل ذلك جعل البربر يتفانون فى مخالطة العرب ومواصلة الفتح جنبا الى جنب عندما تمكن المسلمون من مواصلة فتحهم الى الاندلس وقد أدى ذلك الى حمل الكثير منهم الى المساومة لاعتناق الاسلام والتحدث بلغته العربية .

واذا ما لاحظنا ان اللغة العربية ذات صلة بلغة سامية سابقة وهى اللغة الفينيقية التى كان لها تأثير قوى فى لغة البربر خلال الحكم الفينيقى . كما أن لغتهم البربرية كانت فقيرة بالأدب والمعارف بالنسبة

للغة القادمة تحت ظل كتاب مقدس وحكم قوى يحمل المغلوب على تقليد الغالب خاصة وقد وجد فيه بعض الصفات والميزات التى يتصف بها من شجاعة وانفة ومن ميل الى حياة الخشونة والبداءة ظهر لنا ان كل ذلك قد حمل البربر على ان يهجروا لغتهم ويقبلوا على اللغة العربية لتكون لسانا لهم ضارين صفحا عن لغتهم السابقة .

ولقد كان لطول فترة الفتح التى استغرقت نصف قرن اثر كبير فى اعطاء الفرصة لتقبل البربر اللغة الفاتحين لا سيما بعد ان شرح الله صدورهم للاسلام .

واذا ما علمنا ان الجند العربى منذ الفتح الاول لم ينتقل من جزيرة العرب بمفرده بل كان مع الجنود كثير من قبائلهم التى انتقلت بنية الاستقرار والتمكن فى الارض واستصحبت القبيلة معها شعراءها ومؤدبيها ومعلميها تبين لنا الاثر الكبير لهذه الهجرة المبكرة فى نشر اللغة فى الاماكن المهاجر اليها لا سيما اذا كان المهاجرون يعتزون بدينهم ولغتهم وثقافتهم . كما تبين لنا سرعة اقبال البربر على اللغة العربية وتقبلهم لها بل شغفهم بتعلمها ونطقها والتحدث بها .

ولان قصد من ذكر ذلك ان نقول ان اهل تونس كانوا يتكلمون اللغة العربية قبل الفتح الاسلامى كما يذهب الى ذلك مؤلف تونس العربية^(٧٩) وانما نقصد ان هذه العوامل التى ذكرناها كانت من الاسباب التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى هذه البقاع وكانت سببا فى مرعة تحدث الناس بها .

وبذلك يظهر لنا بوضوح ان اللغة العربية كانت لغة القيروان منذ تأسيسها ثم مكنت لها كل هذه العوامل واعطتها القدرة لكى يتسع سلطانها وتمو منزلتها وتنفسح افاقها فى مجال الادب واللغة^(٨٠) .

(٧٩) احسان يحيى تونس العربية ص ١٩٤ .

(٨٠) شكرى فيصل المجتمعات الاسلامية ص ١٨٠ - ١٨٥ ، حين

١ - الادب - خطابة - شعر - كتابة :

(أ) الخطابة :

ان انشغال المسلمين بالفتح ومحاولة اقناع اهل البلاد المفتوحة من شأنه أن يفسح المجال لابراز الخطباء المفوهين ، وقد كانت الخطابة سليقة فى العرب . وكان لامراء الجيوش خاصة فصاحة طبيعية توارثوها عن الآباء والاجداد وقد زادها حفظ القرآن والحديث بلاغة وحكمة وكان لذلك اثره البعد فى استنهاض همم الجند عند اللقاء أو الزحف على الاعداء .

ويبدو أن معظم قادة الجيوش أيام الفتح ان لم نقل كلهم كانوا من الخطباء الفصحاء وكذلك الولاة الذين تولوا امارة القيروان بعد استقرار الفتح .

فهذا مؤسس القيروان عقبة بن نافع الفهري يجمع ابناءه قبل أن يغادر القيروان لمواصلة فتح المغرب فيقول لهم : يا بنى ابنى بعث نفسى من الله ولا أدرى ما يقضى على فى سفرى ، يا بنى ابنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها :

اياكم ان تملئوا صدوركم شعرا وتتركوا القرآن ، املأوا صدوركم من كتاب الله فانه دليل على الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهتدى به السنتكم ويدلكم على مكارم الاخلاق ثم انتهوا عما وراءه وأوصيكم الا تداينوا ولو لبستم الغباء فان الذين ذل بالنهار وهم بالليل فدعوه تسلم لكم أقداركم واعراضكم وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى

مؤسس فتح العرب للمغرب ص ٢٩٢ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب ص ١٨ ، عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ١٢ ، دبوز تاريخ المغرب الكبير ص ٢١٨ .

ولا تأخذوا ديننا الا من اهل الورع والاحتياط فهو اسلم لكم ومن احتاط سلم
ونجا وعليكم سلام الله وارانى لا ترونى بعد يومكم هذا ، اللهم تقبل
نفسى فى رضاك واجعل الجهاد رحمتى من دار كرامتى عندك^(٨١) .

فاذا ما توجه الى تاهرت وتجمع له البربر والروم قام فى الناس
خطيبا . فحمد الله واثنى عليه وقال :

ايها الناس ان اشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم
وانزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر
بالله الى يوم القيامة ، وهم اشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا
انفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة وانتم اليوم فى دار غربة وانما
بايعتم رب العالمين وقد نظر اليكم فى مكانكم هذا ولم تبلغوا هذه البلاد
الا طلبا لرضاه واعزازا لدينه ، فابشروا فكلما كثر العدو كان اخزى لهم
واذل ان شاء الله تعالى وريكم عز وجل لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة
فان الله عز وجل جعلكم باسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم
على بركة الله وعونه والله لا يرد باسه عن القوم المجرمين^(٨٢) .

فاذا ما استقر المسلمون فى القيروان وجاء دور الانتشار والتوسع
لتبليغ كلمة الله جاء موسى بن نصير واليا على القيروان وفى جامع القيروان
يخطب الناس فيقول :

« ايها الناس ، انما كان قبلى على افريقية احد رجلين : مسلم
يحب العافية ويرضى بالدون من العطية ويكره ان يكلم ويحب ان يسلم
او رجل قليل المعرفة راض بالهون . وليس اخو الحرب الا من اكتحل
السهر ، واحسن النظر وخاض الغمر وسمت به همته ولم يرض بالدون من

(٨١) المالكي رياض ص ٢٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٤٨ ، حسن
حصنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٥ .
(٨٢) المالكي رياض ص ٢٤ ، ٢٤ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٤٩ ،
٥٠ . (٨٣) الخرق : هو الحمق .

المغرم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير خرق^(٨٣). يريد ولا عنف يقاسيه متوكلا فى حزمه جازما فى عزمه متزايدا فى عمله مستشيرا لاهل الراى فى احكام رايه ، متحنكا بتجاربه ليس بالمتجانبن اقحاما ، ولا بالمتخاذل احجاما ، ان ظفر لم يزدده الظفر الا حذرا . وان نكب اظهر جلادة وصبرا راجيا من الله حسن العاقبة فذكر بها المؤمنين ورجاهم اياها لقول الله تعالى : (ان العاقبة للمتقين) اى الحذرين .

وبعد فان من كان قبلى كان يعمد الى العدو الاقصى ويترك عدوانه اذنى ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة ويكون عوننا عليه عند النكبة وايم الله لا اريم^(٨٤) هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى ارفعها وذل امنعها ويفتحها على المسلمين بعضها او جميعها او يحكم الله لى وهو خير الحاكمين «^(٨٥) .

وبذا يظهر لنا ان الخطابة كان لها شأن كبير وقد أدت دورها فى نشر الفكرة والدعوة الى الهدف المنشود .

(ب) الشعر :

احتفظ المؤرخون لنا ببعض الشعر الذى قيل فى هذه الفترة وهو يبين لنا الافكار التى كان يدور حولها من حث على الشجاعة فى مفاتلة البربر او الخارجين على الولاة فهو تحريض على القتال وفيه فت فى عضد الخارجين ثم مدح بالصفات الحميدة من الشجاعة والحنكة والجلود والكرم واصابة الراى .

فعندما عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن القيسى قدم الى القيروان سنة ١٠٩ هـ واخذ عمال بشر ابن صفوان الوالى السابق

.. (٨٤) لا اريم : اى لا اترك فيها شيئا .

(٨٥) حن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٦ ، ٢٧ .

بالشدة وتحامل عليهم وحبسهم وكان منهم الحسام بن ضرار الكلبى فقال مخاطبا الخليفة ومبينا له يدهم السابقة على الدولة لاجل حمايتها^(٨٦) .

افاتم بنى مروان قيسا دماغنا وفى الله ان لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل^(٨٧)
وقيناكم حد القنا بنحورنا وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم نيل ما قد أردتم وطاب لكم منا المشارب والاكل
تغافلتم عنا كان لم تكن لكم صديقا وانتم ما رعيتم لنا فعل
فلا تأمنوا ان دارت الحرب دورة وزلت ان رناة بالقدم النعل
فينتقض الحبل الذى قد فتلتهم الا ربما يلوى فينتقض الحبل

وفى سنة ١٤٨ هـ ولى أبو جعفر المنصور الاغلب بن سالم التميمي افريقية فقدم الى القيروان وحاول نشر الامن والسلام الا ان احد قواد الجند وهو الحسن بن حرب ثار عليه وكان بينهما مكاتبات ومخاطبات بالشعر وهى تبين لنا الافكار التى كان يصورها ذلك الشعر من دعوة الى الطاعة وبيان عاقبة العصيان ثم ما اجاب به الحسن بن حرب الخارج عن الطاعة . فقد ذيل الاغلب رسالته بقوله^(٨٨) .

الا من مبلغ غبى مقالا يسير به الى الحسن بن حرب
بان البغى أبعدده وبسال عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تتثنى لتنال سلمى وعفوى فادن من طعن وضرب

(٨٦) الرقيق تاريخ افريقية ص ١٠ ، ١٠٦ ، ابن عذارى البيان

ج ١ ص ٥٠ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٨ .

(٨٧) يشير الى يوم « مرج راهط » وما كان من بلاء قبيلة كلب فيه

مع مروان بن الحكم وقيام قبيلة مع عبد الله بن الزبير .

(٨٨) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٧٤ ، حسن حسنى مجمل

تاريخ الادب التونسى ص ٢٩ ، ٣٠ .

وقد جاوبه الحسن بن حرب بقوله :

ألا قولاً لأغلب غير ســــر مغلغلة عن الحسن بن حرب
بأن الموت بينكم وبينــــى وكأس الموت أكره كل شرب
رويدكم غيومكم قريــــب وان بعدا مصيرهما لقرب

وقد خرج الأغلب بن سالم لقتال الثائر وانتصر عليه فى تلك الموقعة
الا أن الحسن بن حرب عاود الكرة على القيروان وخرج الأغلب لقتاله
وتصاف الفريقان للقتال فبرز الأغلب وهو يقول :

ان يهونى الموت فانى أهــــواه كل امرئ يلقى يوماً هــــواه
ثم شد على الميمنة فى أصحابه فكشفها وانصرف الى موقعه وهو يقول :
اضرب فى القوم ومثلــــى يضرب فان يكن حرباً فانى الأغلب
لا أجزع اليوم ولا أكذب

ثم شد على الميسرة ففعل مثل فعله فى الميمنة وانصرف وهو يقول :
لم يبق الا القلب او امــــوت ان تحملى الحرب فقد حميت
وان توليت فما بقيت

ثم حمل على القلب فلم يثن حده الى ان اصابه سهم اصاب منه
مقتلاً فمات منه ولقب بالشهيد^(٨٩) . وقد حظيت القيروان ببعض الشعراء
البلغاء ورواة الادب الذين حملوا اليها أشعار الجاهليين والمخضمين وأيام
العرب واخبارها ووقائعها ومن هؤلاء :

١ - الحكم بن ثابت السعدى :

ولد سلامة بن جندل الذى دخل القيروان سنة ١٤٤ هـ وسكنها واتخذ

(٨٩) انظر الحلة السيرة لابن البار ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ .

بها دارا وهو من الشعراء البلغاء ورواة الادب وقد روى عنه ابنساء افريقية كثيرا من اشعار العرب الجاهليين والمخضرمين وقد التحق بخدمة الاغلب بن سالم اثناء ولايته وصار من قواده وشهد معه حروبه ضد الخارجين على الدولة ولما استشهد الاغلب رثاه بقوله^(٩٠) :

لقد افسد الموت الحياة بأغلب	عبيطا وبالخدين والنحر عندما ^(٩١)
تبديت له ام المنايا فأقصدت	وغادرت في ملتقى الخيل مسلما
اخا نزوات ما تزال جياده	تصبح عنه غارة حيث يممما
اتته المنايا في القنا فاختر منه	فان كان يلقي الموت في الحرب صمما
كان على اثوابه من دمائه	غداة غدا للموت في الحرب معلما
فبان شهيدا نال اكرم ميتة	ولم يبلغ عمرا أن يطول ويسقما

٢ - ربيعة بن ثابت الرقي الاسدي :

من مشاهير الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم بالقيروان وهو من كبار أدباء الدولة العباسية وممن احتج الاصمعي بشعره وقد مدح يزيد بقصائد كثيرة منها القصيدة التي فضله فيها على يزيد السلمي^(٩٢) ويقول فيها :

حلفت يمينا غير ذي مثنوية يمين امرئ آلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والاغرا بن حاتم
فهم الفتى الازدي اتلاف ماله وهم الفتى القيمي جمع الدراهم

(٩٠) حسن حسنى الورقات ص ١٣٥ ، مجمل تاريخ الادب التونسي

ص ٣٠ .

(٩١) العبيط هنا بمعنى الزعفران الطبرى ، والعندم هو صبغ احمر

قان ويسمى أيضا دم الاخوين وقيل هو البقم . والبقم ورق شجر كشجر اللوز ساقه احمر .

(٩٢) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٥٣ ، حسن حسنى الورقات

ص ١٤١ .

فلا يحسب التمام انى هنجوتـه
 فيا ايها الساعى الذى ليس مدركا
 سعيت لوم تدرك نوال ان حاتم
 كفالك بناء المكرمات ابن حاتم
 هو البحر ان كلفت نفسك خوضه
 تمنيت مجدا فى سليم سفاهة
 الا انما آل المهلب غـرة
 هم الانف فى الخرطوم والناس بعدهم
 قضيت لكم آل المهلب بالعدا
 لكم شيم ليمنت لخلق سواكم
 مهينون للاموال فيما ينوبكم

ولكننى فضلت اهل المكارم
 بمسعاته سعى البحور الخضارم
 لفك اسير واحتمال العظامم
 فتفرع ان ساميته سن نادم
 تهالكت فى آذية المتلاطم
 امانى خال أو امالى حالم
 وفى الحرب قادات لكم بالجزائم
 متاسم والخرطوم فوق المناسم
 وتفضيلكم حق على كل حاكم
 سماح وصدق الباس عند الملاحم
 مناعيش دفاعون عن كل حازم

ومنها :

ابا خالد انت المنوه باسمه
 كفيت امير الناس كل عزيمة
 اذا نزلت بالناس احدى العظامم
 وكنت من الاسلام خير مزاحم

وقد أعطى يزيد بن حاتم الشاعر عشر ديات ووصله واحسن اليه
 وبعد ان اقام ربعة مدة طويلة بالقيروان معززا فى ضيافة الامير عاد الى
 العراق .

٣ - عامر بن المعمر بن سنان التميمي :

مشهور بالنجدة واصابة الرأى والمعرفة والادب وقد سجل يشعره
 ما قام به ابراهيم ابن الاغلب من نصره محمد العكى عندما ثار ضده
 تمام بن تميم بقوله :

اذا كربة شدت خناق محمد
 اتاه بتمام على بأسه به
 وقد كان بالاسراف القى سواده
 فعاجله بالكيد حتى استعاده
 فليس لها الا ابن اغلب فارج
 يقاد وقد ضاقت عليه المخارج
 ولم تختلج فى الخلاف الخوالج
 وادركه من بعد ما قيل خارج

ولو انه ستودع الشمس نفسه اذا ولجت منه عليه اللواشح .

وقد اختاره ابراهيم بن الاغلب بعد ذلك عندما اسندت اليه الامارة لتولى شرطته فمكث في عمله الى ان توفي في القيروان (٩٣) .

٤ - المسهر التميمي :

وفد على يزيد بن حاتم واقام مدة طويلة بالقيروان في حاشية يزيد بن حاتم وقد انشده عندما قدم عليه (٩٤) :

اليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى ان يخيب رجائنا لديك ولكن اهنأ البر عاجله

ومن هنا يتبين لنا ان الشعر في هذه الفترة قد تحدث في فنون الشعر السياسي والحماسي والمدح والثناء .

* * *

(ح) الكتابة :

وكما كان من القادمين الى القيروان ليقيموا فيها وينشروا الاداب العربية في رحابها خطباء وشعراء ، فقد كان منهم ايضا الكتاب وقد روى المالكي ان :

١ - ابا ليلى دجين بن عامر الحجري :

وهو من التابعين الفضلاء الذين دخلوا افريقية واقاموا بها وروى عنه من اهل القيروان بكر بن سوادة الجذامي ويزيد بن منصتور وعبد الرحمن بن زياد بن انعم كما يذكر : انه كتب لعقبة بن نافع وشهد معه المشاهد كلها والحرب والفتوحات التي كانت بافريقية (٩٥) .

(٩٣) حسن حسنى الورقات ص ١٣٧ .

(٩٤) حسن حسنى الورقات ص ١٤٤ .

(٩٥) المالكي رياض ص ٩٥ .

ولا شك ان الدواوين التى أنشأها حسان بن النعمان كان فيها من يحسن الكتابة ويجيدها مما أدى الى رقيها ولقد كان أحد الولاة على القيروان فى أيام هشام بن عبد الملك كاتباً قبل ان يلى الامارة وهو عبيد الله بن الحبحاب وقد ذكر الرقيق^(٩٦) ان ابا حسان اليحصبى قال : رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر فى دفتر العطاء ويملى رسالة ويأمر بحاجات فى ناحية أخرى ويأمر فى خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين . وكان أوله كاتباً ثم تناهت به الحال الى ان ولى افريقية وذلك فى ربيع الأول سنة ست عشرة ومائة^(٩٦) .

واذا كان الوالى بليغا فصيحاً حافظاً لأيام العرب ووقائعها وأشعارها تخير للعمل معه من يتقن مهنة الكتابة وهذا مما يؤدى الى الاعتناء بها ورقياً واقبال الطلاب على النبوغ فيها لا سيما وهم يرون كاتباً يتولى الولاية فى القيروان فاذا ما كانت أيام عبد الرحمن بن حبيب وجدنا .

٢ - خالد بن ربيعة الافريقى :

من أبناء الأسر العربية التى توطنت فى افريقية وفى أوائل المائة الثانية رحل فى طلب العلم قاصدا الشام حيث درس على كبار اللغويين والنحاة والبارزين من الأدباء وفى أثناء طلبه العلم قامت صداقة والفة بينه وبين عبد الحميد بن يحيى الذى اشتهر أواخر الدولة الأموية بالكاتب وربما تولى بعض أعمال الدواوين فى الحكومة الأموية كما قد يفهم من عبارة ابن النديم « ونشأ خالد بن حبيب فى الدواوين » .

وعندما عاد الى القيروان فى العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى تولى الكتابة لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، لما أشم به من أدب وخبرة فى دواوين الكتاب ويذكر البلاذرى انه قد كتب الى صديقه عبد الرحمن بن يحيى الكاتب فى شأن الاعتراف بمخدومه عبد الرحمن

(٩٦) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٠٧ .

ابن حبيب الفهرى فأقر الخليفة مروان بن محمد عبد الرحمن على ولاية افريقية .

وقد وصف ابن النديم فى الفهرست خالدا بأنه « مترسل بليغ نشأ فى الدواوين وله رسائل مجموعة فى الأدب فى نحو مائتى ورقة » .

ويبدو ان الصلة كانت وثيقة بين عبد الحميد بن يحيى الكاتب وبين خالد بن ربيعة وكانت بينهما المراسلات التى يذكر عنها ابو القاسم البغدادى فى تأليفه « كتاب الكتاب » ان عبد الحميد الكاتب قال فى رسالة الى خالد بن ربيعة الافريقى يصف الكتاب : « ان الكتاب قليل والمتسمون بالكتاب كثير والعلم معين على نفسه من أخذه ، فمن أدخل نفسه فى الكتاب مصطبرا على ما ينويه فنه من العفاف عن المطامع ... الخ » (٩٧) .

وعندما قدم يزيد بن حاتم الى القيروان واليا عليها استصحب معه جماعة من الكتاب البلغاء والأدباء والنبهاء ومنهم :

٣ - أبو على الحسن بن سعيد البصرى :

وهو من كبار النحاة البصريين الذين اشتهروا فى دواوين الكتابة بالترسل وقد اتخذه يزيد بن حاتم كاتب سره ومباشر أمره وقد استفاد بعلمه الجم وأدبه الغزير كثير من شباب القيروان وخاصة امان بن الصمصامة وقد بقى يخدم أسرة المهالبة فى القيروان الى ان أدركته الوفاة بالقيروان فى حدود سنة ١٧٨ هـ (٩٨) .

وهكذا نرى ان الكتابة الأدبية قد ظهرت منذ وقت مبكر فى القيروان

(٩٧) البلاذرى فتوح ص ٢٧٤ ، حسن حسنى الورقات ص ١٥١ -
١٥٦ ، مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٣٨ ، ٣٩ ، الفهرست لابن النديم
ص ١٧٧ .

(٩٨) حسن حسنى الورقات ص ١٦٠ .

على يد أولئك الكتاب وغيرهم ، وإذا كان فقد الكتب والمصادر المحتوية على كتاباتهم لم يمكننا من الوقوف على نماذج من كتاباتهم . . فان هذا القدر من سيرة أولئك الخطباء والشعراء والكتاب يبين لنا ان مدينة القيروان فى هذه الفترة كانت تعيش بداية حياة أدبية متفتحة وتنضج فى خلال فترة الأغالية والفاطمين .

٢ - اللغة :

النحو ورواية الأدب واللغة :

مع أن الشعراء والكتاب الذين سبق ذكرهم كانوا يحيطون باللغة وآدابها وقوانينها الا ان هناك طائفة أخرى كانوا أكثر احاطة وميلا الى اللغة بنحوها ورواية اخبارها وقد قدموا الى القيروان واقاموا فيها بقصد التعليم والتثقيف وعنهم أخذ أبناء القيروان اصول اللغة وأشعارها وأيام العرب وأخبارها ووقائعها وبذلك أحاط أبناء القيروان باللغة وآدابها وعلى أيدى هؤلاء العلماء الأجلاء بدأت الحياة الفكرية فى اللغة . ومن هؤلاء العلماء الوافدين :

١ - المعمر بن سنان التيمى :

قدم القيروان مصاحباً يزيد بن حاتم المهلبى عندما تولى امانة افريقية وكان المعمر محيطاً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، وقد تعلم عليه أبناء القيروان وأخذوا عنه حرب غطفان وغيرها من أيام العرب . وكان يزيد بن حاتم يحبه ويجعله يركب معه فى عماريته لما كان يجد فى مصاحبته من انس وأدب .

وقد استوطن المعمر القيروان وبقى فيها معلماً للغة ومستشاراً للأمراء بنى المهلب فى المعضلات والملمات وبقى معززا فى القيروان الى ان توفى فى حدود سنة ١٧٧ هـ (٩٩) .

(٩٩) حسن حسنى الورقات ص ١٣٧ .

٢ - عياض بن عوانة بن الحكم اكلبى :

من أسرة معروفة فى الكوفة برواية اللغة والأدب وكان جده وأبوه من مشاهير علمائها وقد روى الأصمعى والهيثم بن عدى وكثير من أهل العلم عن أبيه عوانة الأخبار والآثار . وقد ولد عياض بالكوفة ونشأ بها وتلقى العلم عن أبيه فروى عنه كتبه التى ألفها وهى كتاب التاريخ وسيرة معاوية وبنى أمية كما تثقف على كبار علماء الكوفة .

واشتهر عياض بمعرفة النحو وكان أبوه يقول له : لا تتعمق فى النحو فإنه لم يتعمق فيه أحد الا صار معلما . ولقد قدم عياض الى القيروان واستقر بها سنة ١٥٥ هجرية أيام يزيد بن حاتم حيث تعلم على يديه النحو والعربية وآدابها أبناء القيروان وخاصة أبناء إمرائها المهالبة . ولقد صاحبه ولزمه أبو الوليد المهرى الذى تثقف بعلمه الغزير .

وبقى عياض فى القيروان ناشرا للغة والنحو والأدب الى أن أدرسته الوفاة فى حدود سنة ١٧٥ هـ^(١٠٠) وقد حظيت القيروان فى أيام يزيد بن حاتم بوفود عالمن كبيرين من علماء النحو واللغة اليها احدهما بصرى والآخر كوفى ولا شك ان شباب القيروان الحريصين على التعلم قد استفادوا منهما واغترفوا من علمهما لباب اللغة والأدب وهما :

٣ - يونس بن حبيب الضبى :

احد أبناء البصرة وكبار أئمة اللغة والنحو فيها وقد سمح من أبى عمرو بن العلاء وغيره كما سمح من العرب الأصلاء ، وقد تلقى العلم عنه الكسائى والفراء وروى عنه سيبويه كثيرا ، وكان صاحب حلقة بالبصرة يحضرها أهل العلم والأدب وفصحاء الأعراب من البادية .

وقد قدم يونس بن حبيب الى القيروان فى أيام يزيد بن حاتم ولا شك ان طالبى العلم فى القيروان قد اغتنموا فرصة وجود ذلك

(١٠٠) الزبيدى طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٤٥ ، حسن حسنى ورفقات ص ١٥٦ - ١٦٠ .

العالم الجهبذ بينهم فتخلقوا عليه ليقتبسوا من علمه الغزير وأدبه الجم وروايته الواسعة .

وقد شجع وفود يونس بن حبيب وامثاله الى القيروان أبناء القيروان على الاستزادة من علمهم ثم الحرص على مواصلة البحث فى هذه الفنون (١٠١) .

٤ - قتيبة الجعفى النحوى :

من علماء النحو المشهورين فى الكوفة ومن أصحاب الكسائى وكان عالما فى الحديث واللغة والشعر والنسب وإيام العرب واتصل بالمهدى العباسى فى بغداد .

وقد وفد على يزيد بن حاتم فى القيروان وأقام فى ضيافته مدة طويلة أخذ عنه خلالها جماعة من أبناء القيروان ورووا عنه الشعر ووقائع العرب واستفادوا منه فائدة جمّة ثم عاد الى المشرق حيث توفى هناك (١٠٢) .

وعلى أيدى هؤلاء العلماء تخرج امان بن الصمصامة باكورة أبناء القيروان فى اللغة والنحو والشعر كما داوم على الدراسة والتعلم غيره من أبناء القيروان الذين حملوا راية الفكر اللغوى فى عصر الازدهار .

٥ - امان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى :

ولد بالقيروان وتعلم فيها وعلى العلماء الوافدين اليها الى ان صار من علماء النحو واللغة وصفه الزبيدى ، : بأنه عالم باللغة والشعر وحافظ للقريض وشاعر مفوه .

(١٠١) السيوطى بغية الوعاة ج ٢ ص ٣٦٥ ، حسن حسنى الورقات ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٠٢) السيوطى بغية الوعاة ج ٢ ص ٢٦٥ ، حسن حسنى الورقات ص ١٤٨ ، جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٣٧٨ .

وقد استفاد من صحبة الحسين بن سعيد البصرى الذى قدم القيروان مع يزيد بن حاتم . وتولى الكتابة فى القيروان ليزيد - وقد انس الحسين الى امان بن الصمصامة وكانت بينهما مسامرات ومجالسات فى العلم والأدب تحصل منها على علم غزير ورفعت من منزلته وقدره عند المهالبة .

وقد اخذ شباب القيروان على امان النحو واللغة والأدب وتخرج عليه جماعة منهم عبد الملك بن قطن المهرى . وقد ألف امان بن الصمصامة جزءا فى النحو واللغة والشعر رواه عنه تلميذه عبد الملك المهرى . وكان امان معززا مكرما خلال حكم المهالبة فلما تولى ابراهيم بن الأغلب أمر القيروان أهمله ولم ينتفع بعلمه وخبرته وذلك لهجاء جده الطرماج بنى تميم قبيلة ابراهيم بن الأغلب^(١٠٣) .

وبهذا العرض يتبين لنا بذور الحركة الفكرية فى العلوم اللغوية التى نضجت فى عصر الازدهار . وانها قد قامت فى بدايتها على أيدي العلماء الوافدين الى القيروان من المشرق ولقد كان للكرم والسخاء والهبات التى كان يمنحها يزيد بن حاتم لمن يقصده من العلماء والأدباء والشعراء . مع طول فترة حكمه للقيروان وحبه للعلم والعلماء اثر كبير فى نمو الحياة الفكرية فى القيروان .

(٣) العلوم العقلية العقائدية :

لم يقتصر النشاط الفكرى فى بداية الحركة الفكرية فى القيروان على العلوم الشرعية والأدب وعلوم اللغة بل تناول العلوم العقلية التى تعنى فى تلك الفترة علم العقائد والمذاهب الكلامية وبعض هذه المذاهب كان كثير الانتصار قوى السلطان بينما البعض الآخر كان قليل من الأفراد يعتنقه ويقوم بتعليمه .

(١٠٣) الزبيدى طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٤٥ ، السيوطى بغية الوعاة ج ١ ص ٤٥٩ ، حسن حسنى الورقات ص ١٦٠ .

وأهم هذه المذاهب وأكثرها انصارا وأوسعها انتشارا بحيث يمثل
الغالبية العظمى من سكان القیروان هم :

١ - أهل السنة :

فلقد كان سكان القیروان وعلماءها الى نهاية القرن الأول وبداية
الثاني سنيين جميعا لأنهم تلقوا عقيدتهم عن الصحابة والتابعين الذين
أخذوا أصول اعتقادهم من الكتاب والسنة وهو مذهب السلف الصالح
الذى يأخذ بكل ما جاء به كتاب الله والامتناع عن اثاره أى نقاش
أو جدل حول آياته . وكان علماء السنة يبغضون كل من يميل الى
جدل أو مناقشة حول آيات الله وجميع العلماء الذين سبق ذكرهم
فى حديثنا عن العلوم الشرعية وكثير غيرهم يأخذون بكتاب الله وسنة
رسوله ولا يؤولون فيهما^(١٠٤) .

وفى مطلع القرن الثاني الهجرى انعكس على الحياة العقلية فى
القیروان بعض ما كان يدور فى المشرق من مناقشات اثارها الفرق
المختلفة من مرجئة ومعتزلة وقدرية وخوارج وذلك فى المسائل المعروفة
فى علم الكلام وأهمها مسألة الايمان وهل العمل جزء منه أم لا ؟
ومسألة علاقة صفات الله تعالى بذاته . وهل الصفات عين الذات
أو مغايرة لها ؟ ومسألة حرية الارادة الانسانية ، ثم مسألة الامامة التى
قام الجدل حولها بين الشيعة والخوارج وغير ذلك من مسائل علم الكلام .

وقد ذكر مؤرخو الطبقات بعض الحوادث التى وقعت فى تلك
الفترة وهى تبين موقف الأخذين بمذهب أهل السنة من هذه الفرق
وكيفية معاملتهم لمن يتحدث فى هذه المسائل أو من يأخذها عنهم ،
أو من يمر بحلقاتها من تلاميذهم وكان أهل السنة متشددین فى ذلك
الى درجة كبيرة .

(١٠٤) د . يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة

الافريقية ص ١٥٣ - ١٥٦ .

واننا كباحثين عن الحياة الفكرية فاننا نلاحظ هذه المواقف التي تبين وجود حركة فكرية فى العقائد نتجت عن مثلتها فى المشرق وان كانت فى حدود ضيقة فمن ذلك :

٢ - فى الاعتزال :

نرى انه كان يوجد ابن صخر المعتزلى وسقيفة العراقى وانه عندما توفى ابن صخر وقدمت جنازته لى صلى عليها وكان ابن فروخ والبهلول وابن غانم موجودين فقبل لكل منهم الجنازة فكانت اجابة كل منهم « كل حى ميت »^(١٠٥) ولم يصلوا عليها وذلك لانكارهم عليه اخذه بآراء المعتزلة .

ويذكر أبو العرب سقيفة العراقى كان يعقد حلقة يتناظر فيها الناس فى القدر فمر به احد تلاميذ البهلول فوقف ينصت الى ما يدور من جدال ومناظرة وعندما بلغ ذلك البهلول اغلظ الكلام لذلك التلميذ وهدده بان يمنعه من حضور حلقاته والتلقى عليه^(١٠٦) .

وقد سأل حبوس بن طارق عبد الله بن فروخ - وكانت المعتزلة تدعيه حتى رماه بعض أهل السنة بالاعتزال - فقال حبوس لابن فروخ : « ما تقول فى المعتزلة ؟ فقال له : وما سؤالك عن المعتزلة ؟ فعلى المعتزلة لعنة الله قبل يوم الدين وفى يوم الدين وبعد يوم الدين وفى طول دهر الداهرين » فقال له حبوس بن طارق : لا تفعل فان فيهم رجالا صالحين فقال : ويحك ! اما احسبك تخاف فى نفسك فى فعود ولا فى قيام من الناس وهل فيهم رجل صالح ؟^(١٠٧) وبذلك نفيت عن ابن فروخ التهمة التى كان يرمى بها من اخذه بآراء الاعتزال .

ومن هذه الحوادث نستطيع أن ندرك ان الاعتزال والاراء التى

(١٠٥) أبو العرب طبقات ص ١٠٨ ، المالكى رياض ص ١٢١ .

(١٠٦) أبو العرب طبقات ص ١٢٩ ، المالكى رياض ص ١٣٤ .

(١٠٧) المالكى رياض ص ١٢٠ ، ١٢١ .

يدور حولها قد وصلت الى القيروان وكانت هناك الحلقات التى تعتقد من أجل التناظر فيه وفى آرائه وان كانت تقابل من أهل السنة بهذا الإنكار الشديد . ولم يمدنا المؤرخون وأصحاب الطبقات الا بهذه الحوادث اليسيرة التى نستنتج منها ذلك .

٣ - وأما المرجئة :

فيذكر أبو العرب والمالكى والدباغ ان يحيى بن سلام - الذى قابل كثيرا من التابعين وأخذ عن كثير من العلماء بلغت عدتهم ثلاثمائة وستين عالما و ألف مصنفات كثيرة فى فنون العلم منها كتاب فى تفسير القرآن الكريم واختيارات فى الفقه - انه كان يرمى بالارجاء فيقول : « ان الايمان قول باللسان واقرار بالجنان أو القلب فقط » وعندما ذكر له عون بن يوسف ان الناس يرمونه بالارجاء أخذ لحيته بيده وقال : احرق الله هذه اللحية بالنار ان كنت دنت الله عز وجل قط بالارجاء . وقال كيف وقد حدثتكم انه بدعة^(١٠٨) . وهذا يبين ان الارجاء كان معروفا فى القيروان ولا شك انه كان يوجد من يعتقد به فى القيروان ولكن العلماء السنيين كانوا ينفونهم عن انفسهم عندما يرمون به .

٤ - الخوارج :

وفى بداية المائة الثانية الهجرية قدم الى افريقية والمغرب افراد من المشرق ممن يعتنقون مذهب الخوارج وكان بعضهم يعتنق مذهب الصفرية المتطرف والبعض الآخر يعتنق مذهب الابانية وقد كان لهاتين الفرقتين انتشارا واسع فى المغرب . . . وافريقية وقدر لاتباعهما ان يكون لهما قوة ثاروا بها على السلطة الشرعية فى القيروان التى يمثلها ويقوم بها أهل السنة .

(١٠٨) انظر : أبو العرب طبقات ص ١١٢ ، المالكى رياض ص ١٢٤ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٣٢٦ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام فى افريقية ص ١٧٥ ، ١٥٨ .

(١) الصفرية :

وهم من متطرفى الخوارج الذين يستحلون سفك دماء المسلمين وسبى وقتل أطفالهم ونسائهم وعندما اشتدت شوكتهم وكثر جمعهم قدموا من المغرب الأقصى بأعداد وفيرة للاستيلاء على القيروان إلا أن حنظلة بن صفوان تمكن من الانتصار عليهم ودحرهم فى موقعتى القرن والأصنام قريبا من القيروان .

وفى أيام جبيب بن عبد الرحمن الفهرى تمكن الخوارج الصفرية من التغلب عليه وقهره وقد خرج أبو كريب قاضى القيروان آنذاك فى جماعة من أهل القيروان لرد الصفرية والتقى معهم على الوادى المعروف اليوم بوادى أبو كريب فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل أبو كريب وجميع من معه ودخل الخوارج القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ وعاثوا فيها فسادا إلى أن طردهم منها الخوارج الإباضية .

ولا شك أن آراء الصفرية الهدامة كانت معروفة لأهل القيروان خاصة العلماء منهم إلا أن أحدا منهم لم يعتنق مذهب الصفرية^(١٠٩) .

(ب) الإباضية :

وهم من الخوارج المعتدلين الذين لا يحرمون الميراث والنكاح من المسلمين ويعدونهم منافقين ونادوا بجواز القيام بينهم وأول من أدخل مذهب الإباضية إلى إفريقية سلمة بن سعيد الذى قدم إلى إفريقية لنشر المذهب الإباضى والتقى فى إفريقية بعاصم السدراتى وإسماعيل بن درار الغدامسى وداود القبلى النفزاوى وعبد الرحمن بن رستم وقد رحل هؤلاء الأربعة إلى البصرة حيث تلقوا أصول المذهب على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة البصرى مولى بنى تميم وهو من علماء الإباضية

(١٠٩) انظر السلاوى الامتقضا ج ١ ص ٢٦٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، طاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ١٣٢ - ١٤٤ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ٣١ - ٣٥ .

المشهورين فى المذهب وقد انضم اليهم عبد الأعلى بن السمع أبو الخطاب الحميرى اليمنى ومكثوا عند أبى عبيدة خمسة أعوام يدرسون عليه المذهب الاباضى الى أن صاروا من اعلامه ثم عادوا الى افريقية فيما بين الخامسة والعشرين والأربعين من القرن الثانى حيث قاموا بنشر المذهب الاباضى ولذلك يسمون عند الاباضية حملة العلم وقد اثر انبائهم من حوارة ولماية ونفراوة ومغيلة وبنى يفرن من زناتة .

وعندما أفسد الخوارج الصفرية فى القيروان وانتهكوا حرمة الاعراض والمساجد خرج الى القيروان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع على رأس الخوارج الاباضية الذين يقيمون فى جبل نفوسة جنوب طرابلس حيث التقى بالخوارج الصفرية خارج القيروان ودارت بينهما معركة انهزم فيها الصفرية واستولى الاباضية على القيروان سنة ١٤١ هـ واستمروا يحكمونها الى أن هزمهم محمد بن الأشعث سنة ١٤٤ هـ واعاد سلطة الخلافة فى المشرق عليها .

وقد عاود الاباضية محاولة الاستيلاء على القيروان ثانيا أيام عمر بن حفص واستولوا عليها لمدة وجيزة الى أن أخرجهم منها يزيد ابن حاتم (١١٠) .

وبالرغم من استيلاء الخوارج على القيروان مرتين فى هذه الفترة فإن المؤرخين وأصحاب الطبقات لا يذكرون أن هناك من أهل القيروان من اعتنق مذهبهم وحتى أن خرجوا للقتال فى صفوفهم عند استيلاء الخوارج عليهم كما حدث مع ورفجومة الصفرية فانهم ينسحبون أثناء المعركة لكى ينهزم الخوارج مما يدل على أنهم كانوا يخرجون مكرهين .

ومع ن الخوارج أصحاب حركة فكرية ذات مبادئ فى العقائد

(١١٠) انظر الطاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ١٢٠ - ١٢٢ ، السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام فى افريقية ص ٣٦ - ٣٩ .

وقد تمكنوا من بسط نفوذهم على القيروان بعض الوقت الا انه يبدو ان احدا من اهل القيروان لم يمل اليهم . ولم يذكر لنا احد مؤرخى الطبقات انه كان لهم فى هذه الفترة حلقات يبتون فيها تعاليمهم فى القيروان ولم يكن لهم من الاتباع من ينشر مذهبهم بالمناظرة فيبقى فى القيروان لنشر هذه المبادئ .

واذا كنا قد رأينا انه كان للمعتزلة والمرجئة حلقات فمن الممكن ايضا أن يكون للخوارج كذلك حلقات فى القيروان لنشر مذهبهم وعقائدهم الا ان المؤرخين لم يذكروا لنا ذلك فى هذه الفترة ولعله اهمل ذكره عن تعمد كرها فى الخوارج .

واتماما لكلامنا فى بداية الحياة الفكرية نحب أن ننبه الى ابا العرب تميم اشار الى ما يفيد عن وجود بداية لحياة فكرية فى الطب فى القيروان وذلك عندما ذكر عرضا ان سبب وفاة عبد الرحمن بن أنعم انه اكل حيتانا وشرب لبنا على مائدة الأمير يزيد بن حاتم وكان يوحنا المتطبيب حاضرا وكان عبد الرحمن قد جاوز السبعين سنة فقال يوحنا ان كان الطب حقا فان الشيخ يهلك الليلة . فلما كانوا فى السحر سمعوا صيحة فليل ما هذه الصيحة قيل عبد الرحمن مات (١١١) .

وهذا يدل على انه كان هناك بعض الأطباء الذين يقومون بدراسة الطب وبمعالجة المرضى وذلك يشير الى وجود نواة طبية للحركة الطبية سوف تنمو وتتسع فى فترة ازدهار الحياة الفكرية .

كما نلاحظ وقد رأينا رحلة العلماء الى المشرق : مصر والشام ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد من أجل تحصيل العلم والمعرفة مع أداء فريضة الحج ، وقدوم بعض العلماء من هذه المدن الى القيروان - ان هذه الرحلات كانت المقدمة لظهور الحركة الفكرية فى تسجيل

(١١١) انظر ابو العرب طبقات ص ٩٩ ونقل هذا عنه المالكي

رياض ص ١٠٢ ونقل عن المالكي الدباغ ج ١ ص ٢٣٧ .

الرحلات وبيان المسافات بين المدن ، والحديث عن عوائد وطبائع سكان البلاد وما تتصف به كل بلدة أو مكان بما يعبر عنه بكتب المسالك والممالك أو كتب الرحلات .

ولا شك ان هؤلاء العلماء وهم من المفكرين قد تحدثوا عند عودتهم الى القىروان عن المسافة بين الأماكن التى حلوا فيها ووصفوا حالة البلاد التى مروا بها وان لم يكونوا قد سجلوا ذلك فى كتب كما حدث بعد ذلك عندما ازدهر هذا الفن خلال عصر الازدهار .

فكيف تم ذلك ؟

ذلك ما سنراه فى الفصل القادم

الفصل السادس

إزدهار الحياة الفكرية

تمهيد :

يواكب قيام الدولة الأغلبية نمو الحياة الفكرية فى القيروان وازدهارها خلال حكمها لتشمل معظم العلوم التى كانت موجودة آنذاك ان لم يكن كلها فكانت القيروان غاصة بالعلماء فى شتى العلوم والفنون والآداب الذين نشأوا فيها والذين سعوا الى المشرق ليغترفوا من العلوم هناك ثم قدموا بكل ذلك الى القيروان كما امتلأت القيروان بالعلماء الوافدين اليها لنشر علمهم فيها أو استقدمهم الحكام لنشر العلوم فيها وبذلك صارت القيروان مركزا علميا أصيلا . وقصدها الطلاب من شتى أنحاء المغرب والأندلس وصقلية وغيرها من الجزر التى بسط المسلمون سلطانهم عليها كما كانت القيروان تمتد هذه الأقاليم بالعلماء الذين تخرجوا فى حلقات الدرس التى كانت تعقد فيها .

وقد استمر ازدهار الحياة الفكرية بعد ذلك خلال فترة حكم الفاطميين . وان كان قدوم المذهب الشيعى واستيلاء معتنقيه على السلطة وعملهم على حمل العلماء المخالفين له على أن يأخذوا به . ويطبقوه فى حياتهم خاصة فى بداية الاستيلاء على السلطة كان له أثر كبير فى قيام وشيوع الاضطهاد للعلماء وخاصة للفقهاء المالكيين الديـر لم ينقادوا للمذهب الشيعى وأخذوا يدافعوه بالحجة ويردوه بالكتاب والسنة ولم يتراجع المالكيون عن مذهبهم رغم أن ذلك قد حمل بعضهم الى أن يلقى ربه شهيدا على أيدي الشيعة .

ولكن هذه الحوادث لم تمنع من أن يضطرد ازدهار الحياة الفكرية فى شتى العلوم والآداب ، وفيما يلى ما يوضح هذه الحقيقة .

العلوم الشرعية : الفقه

مع وجود العلماء الذين تحدثنا عن بعضهم فى بداية الحركة الفكرية فى مدينة القيروان وبثهم لعلومهم فيها الا أن الرحلة نحو المشرق قد استمرت وازدادت للاعتراف من العلوم وأخذ أبناء القيروان يجوبون

مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها لتحصيل العلوم وخاصة الشرعية منها وتبحر كثير من العلماء في الفقه والتفسير والحديث وقد مال كثير من الفقهاء الى مذهب الامام مالك واخذ البعض بمذهب ابي حنيفة وهما في بداية هذه الفترة خلال حكم الاغالبية يمثلان المذهبين السائدين في القيروان وان كانت الغالبية تميل الى مذهب الامام مالك ولكن ذلك لم يمنع من وجود المذاهب الأخرى واخذ بعض العلماء بأرائها ويذكر القاضي عياض أن « افريقية وهما وراءها من المغرب كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين - يعنى مذهب ابي حنيفة - الى ان دخل على بن زياد وابن اشريس والبهلول بن راشد وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفتشوا الى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي ودخلها شيء من مذهب داوود ولكن الغالب اذ ذاك مذهب المدينة والكوفة » (١) .

ويذكر صاحب جمهرة انساب العرب من فقهاء الشافعية محمد ابن الحسن الفقيه الشافعي بالقيروان (٢) . ويحدثنا القاضي عياض بأن أبا عبد الله محمد بن غلبون الصنهاجي كان فقيها بمذهب مالك . . . وله ميل الى مذهب الشافعي (٣) كما يحدثنا الدباغ بأن الفضل بن نصر الباهي المعروف بابن الرايس كان يميل الى المذهب الشافعي وقال عنه المالكي كان عالما بمذهب الشافعي (٤) .

وبذلك يظهر لنا خطأ ما ذهب اليه المقدسي أن « سائر المغرب

(١) المدارك لعياض ج ١ ص ٥٤ يقصد بمذهب الكوفيين مذهب الأحناف . ويمذهب المدينة مذهب مالك .

(٢) جمهرة انساب العرب لابن حزم الأندلسي ص ٤٣ ، ٤٤

(٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

(٤) الدباغ معالم ج ٣ ص ٦٨

الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعى^(٥) الا اذا قصد بذلك ميل العامة والشعب الى الآخذ بمذهب الشافعى .

ويذكر ناشر الرياض فى مقدمته « أن صاحب الرياض أو جده كان شافعيًا فكان يسمى بابن الشافعى ، فلما اتصل بالشيخ أبى الحسن القابسى لم يرض أن يسمى كبير تلاميذه بابن الشافعى فسماه المالكى ابن المالكى »^(٦) ويحدثنا ابن فرحون بأن عبد الله بن طالب القاضى ألف كتابا فى الرد على المخالفين من الكوفيين والشافعى^(٧) ورده على الشافعى يدل على معرفة مذهبه وان هناك من كان يتمذهب به .

كما وصل الى القيروان كذلك المذهب الحنبلى فيذكر عياض أن بعض أصحاب سحنون أعرس فدعا جماعة من أصحابه « وفيهم رجل من أهل المشرق من أصحاب ابن حنبل قدم علينا وكنا نسمع منه »^(٨) .

وبذلك نرى أن المذاهب الأربعة المشهورة قد وصلت الى القيروان وان كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الاتباع وبعضها كان لا يعتنقه الا أفراد قليلون وهذا دليل على أن كل الآراء التى كانت تدور حول التشريع الاسلامى فى أرجاء العالم الاسلامى كانت معروفة وتدرس فى القيروان .

ولقد ساعد على وصول هذه المذاهب بالاضافة الى رحلة علماء القيروان الى المشرق وفود العلماء من المشرق الى القيروان فيحدثنا أبو العرب أن من هؤلاء العلماء الذين قدموا الى القيروان ونشروا فيها العلم ... أبو محمد عبد العزيز بن يحيى المدنى الهاشمى الذى قدم القيروان سنة خمس وعشرين ومائتين وخرج أول سنة ست وعشرين

(٥) المقدمة أحسن التقاسيم - ص ٢٣٦

(٦) انظر مقدمة الرياض ص ٣٤

(٧) الديباج المذهب لابن فرحون ص ١٣٥

(٨) عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٣

وكان من الحفاظ سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير وكان معروفا بمدينة الرسول ﷺ^(٩) كما قدم من الكوفة عبد الله بن المغيرة الذي من سفيان الثوري ومن كبار الكوفيين وروى عنه من أهل إفريقية جماعة منهم سليمان بن عمران وكان يحدث عنه عبد الملك بن حبيب فقيه أهل الأندلس^(١٠) . ويذكر ابن فرحون أن أحمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد المؤمن سكن مكة وروى عنه الجلة ثم دخل العراق وأخذ عن الشيوخ بها وأخيرا سكن القيروان وأخذ عنه الناس بها^(١١) .

ولقد كان الأمراء يشجعون الحياة الفكرية ويعقدون المناظرات بين العلماء للوصول الى وجه الصواب فيذكر أبو العرب « أن عبد الله ابن أبي حسان قال : دخلت على زيادة الله بن إبراهيم فأصبت عنده أسد بن الفرات وأبا محرز وهما يتناظران في النبيذ المسكر وأبو محرز يذهب الى تحليله وأسد يذهب الى تحريمه فلما إن قعدت قال لي زيادة الله : ما تقول يا أبا محمد ؟ فقلت له قد علمت سوء رأيي فيه وقاضياك يتناظران فيه بين يديك فقال لي ناظرني أنت ودعهما . ثم قال لهما اسكنا فقال لي ما تقول ؟ فقلت : أصلح الله الأمير كم دية العقل ؟ فقال : وماذا من هذا ؟ فقلت بجوابك ينتظم سؤالي فقال لي : دية العقل ألف دينار فقلت له : أصلح الله الأمير فيعمد الرجل الى ما فيه ألف دينار فيبيعه بزجاجة تسوى نصف درهم ؟ فقال لي يا أبا محمد أنه يزول ويرجع فقلت له بعد ماذا أصلح الله الأمير ؟ بعد أن فاه في لحيته وكشف سوءته الى أهله وسب هذا وقتل هذا وضرب هذا فقال لي : صدقت والله صدقت »^(١٢) .

هذه الحرية الفكرية المتجلية في تلك المناظرات قد أدت الى تقدم الحياة الفكرية وازدهارها مما جعل علماء القيروان يقارنون بغيرهم

(٩) أبو العرب - طبقات ص ١٥٨

(١٠) المرجع السابق ص ١٦١

(١١) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٣٧ ، ٣٨

(١٢) أبو العرب طبقات ص ١٧١ ، ١٧٢

من علماء الامصار الأخرى ويتمنى علماء المراكز الاسلامية أن يكون بينهم
النابعون من علماء القيروان يقول عياض فى حديثه عن ابن محمد بن
ابراهيم بن عبدوسى هو رابع المحمدين الاربعة الذين اجتمعوا فى عصره
من أئمة مذهب مالك لم يجتمع فى زمان مثلهم اثنان مصريان ، محمد
ابن عبد الحكم وابن المواز واثنان قرويان ، ابن عبدوسى
وابن سحنون^(١٣) .

ويذكر الدباغ أن سليمان بن سالم قال فى مجالسه دخلت مصر
ورأيت العلماء فيها متوافرين والمدينة ومكة وبها ثلاثة عشر محرابا فما
رأيت فيهم مثل سحنون وابنه من بعده^(١٤) .

وفيندنا بعض المؤرخين أن الوثام والصفاء كان سائدا بين المالكيين
والاحناف فيخبر المقدسى أنه ما رأى فريقين احسن اتفاقا واقل
تعصبا منهم^(١٥) .

ولكن يبدو أن ذلك كان لفترات قصيرة فعندما أسند ابراهيم بن
أحمد القضاء الى ابن عبدون وكان من كبار الكوفيين المتعصبين امتحن
على يديه جماعة من فقهاء المالكية واهل السنة ضربهم واكل ببعضهم
واطلقهم وأخرى الأمير ببعضهم . فقتل منهم ابراهيم بن الدمنى
وأبا القاسم مولى مهريه وأحمد بن عبدون العطار وغيرهم^(١٦) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية لاقى العلماء المالكيون كثيرا من
العنت والاضطهاد والقتل والتشريد والتعذيب وقد أراد أبو العباس
أخو أبى عبد الله الشيعى أن ينفى من القيروان كل من يذهب من

(١٣) عياض المدارك ج ٣ ص ١١٩

(١٤) الدباغ معالم ج ٢ ص ٥٣

(١٥) المقدسى احسن التقاسيم ص ٢٣٦

(١٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٣ وذكر أن من امتحن كان من

اهل السنة : يدل على أنه امتحان فى العقيدة .

الفقهاء مذهب أهل المدينة فلم يجبه أخوه أبو عبد الله (١٧) إلى ذلك .

ولكنهم تتبّعوا من لم ينفذ أو أمرهم فعاقبوه « ففى سنة ٣٠٧ هـ قتل بالقيروان عروس المؤذن بمسجد ابن عياش الفقيه بعد أن ضرب بالسياط وقطع لسانه إذ شهد عليه قوم من المشاركة بأنه اذن ولم يقل : حى على خير العمل » (١٨) كما كان يضرب ويطاف به فى الأسواق من يفتى بقول مالك أو يطعن على السلطان ففى سنة ٣١١ هـ - ضرب محمد بن العباس الهذلى الفقيه بالدرّة فى الجامع عريانا وصفع قفاه حتى جرى الدم من رأسه ويرح عليه فى أسواق القيروان إذ شهد عليه جماعة من المشاركة بأنه يطعن على السلطان ويفتى بمذهب مالك (١٩) .

ويحدثنا الدباغ عن قتل الفاطميين لبعض العلماء الذين كانوا لا يأخذون بمذهبهم من تفضيل على بن أبى طالب على غيره من الصحابة فذهب ضحيّتهم فى ذلك إبراهيم بن محمد بن حسين الضبى الشهيد المعروف بابن البرذون وكان فقيها بارعا فى العلم لم يكن فى شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجّة على المخالفين منه فأمّر أبو العباس الشيعى عامل القيروان حسن بن أبى خنزير أن يقتله مع الفقيه أبى بكر بن هذيل فضرب رقابهما « وطيف بهما مسحوبين على وجههما قد ربطا إلى سندان بغل فجرهما من باب تونس إلى باب أبى الربيع فصلبا هنالك » (٢٠)

ولقد كان هذا الاضطهاد الذى حاق بعلماء مذهب مالك وعدم انصياعهم للشيعّة أو الأخذ بتعاليمهم مما حمى المذهب المالكي من الاندثار وجعل العامة يتمسكون به ولا يحيدون عنه ، كما أنهم اغتتموا لول

(١٧) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٥٠ ، ١٥١

(١٨) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣

(١٩) المرجع السابق ص ١٨٨

(٢٠) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٧٧

فرصة سنحت لهم للثورة على الفاطميين وذلك عندما انضموا الى الثائر البربرى أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى عندما اقبل فى قبائل زناته يقاتل الفاطميين سنة ٣٣٣ هـ وذلك لأن علماء المالكية كانوا يرون كفر الفاطميين الذين اضطهدوهم وناصبوهم العداء وبالغوا فى ايذائهم ويذكر عياض فى ذلك أمورا لا تدرى مدى صحتها^(٢١) .

لكل هذا اتفق فقهاء القيروان للخروج مع أبى يزيد لقتال الفاطميين فخرج معه « أبو الفضل المسمى وربيع بن سليمان القطان وأبو العرب بن تميم وأبو اسحاق السبائى وأبو عبد الملك بن مروان ابن منصور الزاهد وأبو حفص عمر بن محمد العسال وعبد الله بن محمد الشقيقى فى جماعة المدنيين وإبراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفى وغيرهم »^(٢٢) .

ولقد استطاع أبو يزيد بمساعدة من خرج معه من علماء القيروان وسكانها أن يتغلب على الفاطميين وحصرهم فى مدينة المهديّة إلا أنه أحب بعد ذلك أن يتخلص من علماء القيروان لعقيدته الخارجية فقال لأصحابه إذا لقيتم القوم فأنكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمكن أعداؤهم منهم . فقتلوا منهم من أراد الله سعادته ورزقه الشهادة فمنهم المسمى وربيع ومحمد بن على البقال فى خمسة وثلاثين رجلا من الفقهاء والصالحين وذلك فى رجب سنة ٣٣٣ هـ ففارق الناس أبا يزيد بالقيروان وأظهروا السنة وحلقوا بالجامع^(٢٣) .

والذى يبدو لى أن القاضى عياضا قد بالغ فى وصفه للأعمال التى قد قام بها الشيعة الفاطميون خاصة بالنسبة للنبي ﷺ والصحابه لانها أعمال لا تصدر عن مسلم بله من يدعى أنه خليفة المسلمين وأن

(٢١) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٨ وقد ذكر هناك أمثلة من ذلك الاضطهاد .

(٢٢) المرجع السابق ص ٣١٩

(٢٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٢١

القاضي عياض كان يتحدث عنها متأثرا بمالكيتها وكرهه للمذهب الشيعي وأن كنت لا أشك أنه من الممكن وقوع بعض الأخطاء الخطيرة خلال وقوع المصادمات الأهلية .

وإذا كان علماء المالكية خلال فترة حكم الفاطميين للقيروان قد لاقوا الاضطهاد والقتل والتعذيب إلا أن هذا الاحتكاك بين المذاهب في القيروان قد دفع الى بذل كل الطاقات في سبيل دفاع علماء كل مذهب عن مذهبهم مما أدى الى اثراء الحياء الفكرية بالأفكار والآراء وكانت مجالا لظهور علماء للشيعية كانوا يدرسون مذهبهم ويعلمونه مما أضاف الى الفكر التشريعي في القيروان عنصرا جديدا وفي حديثنا عن أشهر العلماء في عصر الازدهار سوف نتحدث عن فقيه الشيعة وقاضيه أبي حنيفة النعمان .

والحقيقة أنه قد نبغ خلال فترة الازدهار عدد كبير من الفقهاء في مختلف المذاهب وخاصة المذهب المالكي الذي نبغ فيه فقيهاً كذلك مثل خديجة بنت سحنون التي كانت من أحسن النساء وأعقلهن . ولا شك أنه كان هناك غيرها من المتفقهات في الدين^(٢٤) ولا يمكن دراسة حياة كل أولئك الأعلام لأن هذا البحث ليس مخصصا لدراستهم وإنما للحياة الفكرية في القيروان بجوانبها المختلفة ولذلك سنكتفى بالحديث عن بعض الأعلام الذين حملوا راية الحياة الفكرية الفقهية في القيروان والذين يمثلون نماذج كاملة للحياة الفكرية الفقهية في هذه الفترة .

١ - أسد بن الفرات :

أبو عبد الله أسد بن الفرات مولى بنى سليم ولد بحران من ديار بكر سنة ١٤٢ هـ وأصله من خراسان من نيسابور . وقدم الى القيروان مع أبيه سنة ١٤٤ هـ وهو ابن عامين حيث كان أبوه جنديا في جيش

(٢٤) انظر : عياض المدارك ج ٣ ص ١١٩ حسن حسنى بساط

العقيق ص ٣٦

ابن الأشعث وقد اقام في القيروان خمس سنين ثم رحل الى تونس
فاقام بها تسع سنين قد حفظ خلال ذلك القرآن . وقام بتعليم القرآن
في قرية على وادى بجردة . ثم عاد الى تونس ولازم على بن زياد
وسمع منه الموطأ وتعلم منه العلم ودرس عليه كتابه الذى وضعه في
الاحكام الفقهية وسماه « خير من زنته » (٢٥) .

وفي سنة ١٧٢ هـ رحل الى المشرق للاستزادة من العلم والاعتراف
من معينه الاصلى فقصد مالك بن أنس في المدينة وسمع منه الموطأ
وقد أبدى رغبة في طلب العلم جعلت مالكا يقول لأذنه ان يدخل أسدا
مع المصريين بعد ان كان يدخل مع عامة الناس (٢٦) وكان أسد نهما
في طلب العلم ميالا الى تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف
عن الأصول فبعد أن فرغ من سماعه منه قال له « زدنى يا أبا عبد الله
سماعاً منك » وكأنه استقل الموطأ واستبطأ الطريقة التى كان يسير
عليها مالك في درسه بأن يجيب اذا سئل عن مسألة فيكتبها لصحابه
فيصير لكل واحد منهم سماع مثل سماع ابن القاسم فعندما استزاده أسد
أجابه مالك : « حسبك ما للناس » ويذكر بعض المؤرخين أن أسدا
سأل مالكا يوماً عن مسألة فأجابه فيها ، فزاد أسد فى السؤال فأجابه ،
فزاد أسد فى السؤال فأجابه ثم زاد فقال له مالك : حسبك يا مغربى
ان أحببت الراى فعليك بالعراق .

ويذكر أنه قال له « سلسلة بنت سليطة : اذا كان كذا وكذا كان كذا
وكذا ان أردت هذا فعليك بالعراق » (٢٧) .

(٢٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٣ ، المالكي رياض
ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٥ ، الدباغ معالم ج ٢
ص ٣٢٢ ، الفاضل بن عاشور - اعلام الفكر الاسلامى ص ٢٦
(٢٦) كان اذن مالك يدخل اهل المدينة ثم المصريين ثم عامة
الناس .

(٢٧) انظر المالكي رياض ص ١٧٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٣ ،
عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٦

توجه أسد الى العراق والتقى بأصحاب أبي حنيفة النعمان في الكوفة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة الأكبر وأسد بن عمر ، ومحمد ابن الحسن وغيرهم كثير وكتب الحديث عن يحيى بن أبي زكريا بن أبي زائدة والمسيب بن شريك^(٢٨) وغيرهما .

ومع أن أسدا قد قصد العراق من أجل العلم الا أنه قد حصل على قدر كبير منه في المدينة بسماعه للموطأ على مالك بحيث استطاع أن يكون لما عنده من علم أثر في العراق فيذكر أن أسدا أتى الى أبي يوسف فوجده جالسا ومعه شاب يملأ عليه مسألة فلما فرغ منها قال ليت شعري ما يقول فيها مالك ؟ فقال أسد كذا وكذا يقول أسد فنظر الى فلما كان في اليوم الثاني كان مثل ذلك وفي الثالث مثله فلما افترق الناس دعاني وقال من اين أنت ومن اين آقبلت ؟ قال فاخبرته . قال وما تطلب ؟ قلت ما ينفعني الله به فعطف على الشاب الجالس فقال ضمه اليك لعل الله ينفعك به في الدنيا والآخرة فخرجت معه الى داره فاذا هو محمد بن الحسن فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه^(٢٩) .

وكما استقل أسد السماع من مالك اشتكى الى محمد بن الحسن قلة السماع منه فقال له محمد « اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك » قال : فكنت أبيت عنده وكنت في بيت في سقيفته - وكان يسكن العلو - فكان ينزل الى ويجعل بين يديه قدح فيه الماء ثم يأخذ في القراءة فاذا طال عليه الليل ورأى قد نعست ملاً يده ونضح به في وجهي فأنتبه وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت ما أريد من السماع على يديه^(٣٠) .

(٢٨) أبو العرب طبقات ص ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٩) أبو العرب طبقات ص ١٦٤ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٧ ،

ابن فرحون الديباج ص ١٩٨

(٣٠) المسالك رياض ص ١٧٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٧ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ٥

ومع هذه الرغبة الملحة من أسد في طلب العلم وتحصيله فقد نفذ ماله ولم يبق معه من المال ما يكفي لانفاقه على نفسه وعندما لاحظ استاذ محمد بن الحسن ذلك أرسل اليه ليلا بثمانين ديناراً مع اعتذار عن عدم علمه باحتياجه الى المال . ولما أزمع أسد العودة الى القيروان ولا مال معه ساعده استاذ به ذكر وضعه عنه ولى العهد الذى ساعده بالمال لينفق منه حتى يصل الى القيروان^(٣١) .

وبعد ان أدرك أسد بغيته من الفقه والحديث في العراق وكان مالك بن انس قد توفي اثناء اقامته في العراق عاد أسد الى مصر وبها كثير من أصحاب مالك فأحب أسد ان يحصل من أصحاب مالك ما فاتته ادراكه منه عندما غادر المدينة الى العراق وكان لأسد وجهة نظر فى ان يمزج بين مذهب أهل العراق ومذهب أهل المدينة لى أن يدعم الآراء بالاحاديث أو بأقوال صاحب المذهب الحديث .

وفى مصر اجتمع أسد مع عبد الله بن وهب فسأله عن مسألة فأجابه ابن وهب بالرواية فأراد ان يدخل عليه غير الرواية فقال ابن وهب : حسبك اذ أدينا اليك الرواية . ثم أتى أشهب فسأله فأجابه أشهب بقوله لا بقول أبى حنيفة أو مالك . فتركهما وأتى الى عبد الرحمن ابن القاسم فسأله عن مسألة فأجابه ثم أدخل عليه فأجابه حتى انقطع أسد فى السؤال فقال له ابن القاسم : يامغربى زد وقل لى من أين قلت حتى أبين لك قول مالك فعند ذلك قام أسد على قدميه فى المسجد فقال : « معاشر الناس ان كان مالك بن انس قد مات فهذا مالك بن انس » فكان يغدو اليه كل يوم فيسأله ويجيبه ابن القاسم حتى دون متين كتابا وسمها الاسدية^(٣٢) .

(٣١) المالكي رياض ص ١٧٦ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٧ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ٦٢٥

(٣٢) انظر المالكي رياض ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، الدباغ معالم

ج ٢ ص ٨

ويحدثنا عياض عن طريقة أسد مع ابن القاسم بأن أسدا قال :
« كنت أكتب الأسئلة بالليل في قنடைق من أسئلة العراقيين على قياس
قول مالك وأغدو عليه بها فأسأله عنها . فربما اختلفنا فتناظرنا على
قياس قول مالك فيها . فأرجع الى قوله أو يرجع الى قولي . قال :
وقال لي ابن القاسم كنت أختتم في اليوم والليلة ختمتين فقد نزلت لك
عن واحدة رغبة في احياء العلم^(٣٣) .

وبهذه الطريقة استطاع أسد أن يؤلف كتابه الأسدية المكونة من
ستين كتابا جمع فيه غالب مسائل مالك بهذه الطريقة من المراجعة
بينه وبين ابن القاسم وقد أمدّه ابن القاسم - لما لاحظته عنده من
الحرص على العلم - عند رجوعه الى افريقية بسماعه عن مالك وقال له :
ربعا أجبتك وأنا على شغل ولكن انظر في هذا الكتاب فما خالفه مما
أجبتك فيه فأسقطه^(٣٤) .

وبعد أن انتهى أسد من تدوين كتابه الأسدية رغب أهل مصر
في نسخها منه فأبى عليهم فرفعوا امره الى القاضي بمصر فأقر القاضي
حق أسد في ذلك وقال لأهل مصر : « اى سبيل لكم عليه » رجل
سأل رجلا فأجابه وهو بين أظهركم فأسألوه عما سأله . فرغبوا الى
القاضي في سؤاله أن يقضى حاجتهم فسأله القاضي فأجابه الى ذلك
فتسخوها حتى فرغوا منها^(٣٥) .

ومن هنا ندرك أن أسدا بتأليفه الأسدية قد ساهم في الحياة الفكرية
في مصر وبدل على ذلك حرص أهل مصر على نسخ الأسدية من أسد
كما ساهم من قبل بتبليغ رأى مالك الى أهل العراق في حلقة
أبى يوسف .

(٣٣) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٩

(٣٤) المرجع السابق ص ٤٧٠

(٣٥) المالكي رياض ص ١٧٩ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٧٠ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ٨

لقد شعر أسد بالرضا عما حصل من علم ومعرفة - انفق فيها نحو عشر سنوات من عمره مغترباً في طلب العلم والجد في تحصيله وحضر خلالها على مالك في المدينة وعلى علماء العراق وعلماء مصر وأخذ عنهم علمهم فازمعه العودة الى وطنه القيروان ليقوم برسالته في نشر العلم والمعرفة وبث روح جديدة في الحياة الفكرية فيها وليكون عاملاً جديداً يضاف الى ما قد نما في بداية الحركة الفكرية^(٣٦) . فعاد الى القيروان سنة ١٨١ هـ وبدأ يقوم بدوره للمساهمة في الحياة الفكرية فسمع منه خلق كثير وتفقهوا عليه منهم سحنون. بن سعيد وامثاله من المدنيين - أى من يقول بقول أهل المدينة كما سمع منه كل معروف بصحبته محمد بن وهب وسليمان بن عمران ومحمد بن قادم وأبى المنهال وسائر من يقول بقول الأحناف وكان أسد في تدريسه يأخذ من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق عنده يقول المالكي . ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم ويحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين^(٣٧) .

وبذلك استطاع أسد أن يجمع في حلقة من يأخذ بمذهب أهل المدينة ومن يميل الى رأى أهل العراق لانه درس وتعمق في المذهبين وقد قال أبو سنان زيد بن سنان الأسدي « كان أسد اذا سرد أقوال العراقيين يقول مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب الى مذهب أهل المدينة : لأوقد القنديل الثانى يا أبا عبد الله فيمره أقاويل المدنيين »^(٣٨) .

وقد اثارت طريقة أسد في الجمع والمزج بين المذهب المالكي

-
- (٣٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٤٧ ، الفاضل ابن عاشور اعلام الفكر الاسلامى ص ٢٧
(٣٧) انظر المالكي رياض ص ١٨١ ، ١٨٢ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٧٤
(٣٨) انظر المالكي رياض ص ١٨٣ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١١ ، المدارك عياض ج ٢ ص ٤٧٥

والحنفى وابداء الراى بعض العلماء والمتعبدى فى القىروان ومعظمهم كان يميل الى الآخذ بالآثار ومذهب السلف ومذهب مالك فبين لهم أسد وجهة نظره فيما يذهب اليه فقد أتى عبد الخالق المتعبد الى أسد فقال له : « يا أبا عبد الله جئتنا بالرأى وتركت الآثار وما كان عليه السلف » فقال له أسد « اما علمت يا عبد الخالق أن قول اصحاب النبى ﷺ هو رأى لهم وهو اثر لمن بعدهم وكذلك التابعين هو رأى لهم وهو اثر لمن بعدهم ؟ وأما ما فى كتبى من قول ابن القاسم « أرى وأظن » فلقد كنت أسأله عن المسألة فيجيبني فأقول له « هذا قول مالك » ؟ فيقول لى : « كذلك أحسب وكذلك أرى » وكان ابن القاسم ورعا وكان يكره أن يهجم على الجواب وهو يشك فيه ولقد دفع الى لما أردت الانصراف الى افريقية كتابا وقال لى : « كنت أجيبك بأجوبة وربما شككت فيها انها قول مالك ، وهذا سماعى من مالك فى هذا الكتاب فخذ . ليكون عندك وقابل بما فيه واصلح ما خالفه عليه » فسكت عبد الخالق « (٣٩) .

وكان أسد يعلم تلاميذه كيف يفتون عندما تتعدد الآراء وتختلف وهو الذى درس المذاهب وعرف اختلافها . فقد سئل عن الرجل يسأل عن المسألة وهو يعرف اختلاف الناس فى مثلها ، هل يفتى بالآقاويل او يستحسن . أحدهما فيفتى به ؟ فقال : « اذا كان المفتى من اهل النظر فلا يفتى بالقولين لانه يدع السائل فى حيرة ، ولكنه يفتى بأحسن الاقاويل عنده ، وان كان من غير اهل التمييز - فليخبر المستفتى بما روى عن العلماء ولا يتخير له « (٤٠) . وهذا يدل على فهمه وعدم تعصبه للآراء ما دام له رأى ثاقب يرى ما يطمئن اليه .

وقد ولى زيادة الله بن الأغلب أسد بن الفرات القضاء فى القىروان سنة ٢٠٣ هـ شريكا لابی محرز القاضى فكانا قاضيين فى وقت واحد وقد ظل قاضيا فى القىروان الى أن خرج الى صقلية غازيا سنة ٢١٢ هـ

(٣٩) المالکى رياض ص ١٨٢ ، ١٨٣

(٤٠) المالکى رياض ص ١٨٣ ، ١٨٤

وقبائدا للجيش، الذي أرسل لفتحها فكان قاضيا وأميرا للجيش وقد أبدى من ضروب البسالة والشجاعة ما جعله يفوز بالشهادة وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ هـ .

وقد كان أسد ثقة لم يكن فيه شيء من البدع ، شجاعا في مقاومة الباطل ثم في الجهاد في سبيل الله لاتأخذه في الحق لومة لائم . وقد حاول منصور الطنبيذى الثائر على زيادة الله بعد أن استولى على القيروان أن يستميل القاضيين اليه : فخرج اليه أسد وأبو محرز وهما جميعا قاضيان . فدخل على منصور. وعنده وجوه الاجناد وغيرهم فقال لهما منصور في كلام كان منه أخرجنا معنا أما تعلمان أن هذا اليأس ظلم المسلمين ؟ فأما أبو محرز فإنه خاف من منصور وإصحابه فقال نعم وظلم اليهود والنصارى وأما أسد فقال لهم : قد كنتم اخوانا له قبل هذا الوقت وأنتم وهو على مثل هذا الحال وكما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده^(٤١) .

وكان أسد شديدا على من يخالفه في حلقة درسه وخاصة في العقائد فقد حدث أسد يوما بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة وسليمان الفراء في مؤخر المجلس فتكلم الفراء وأنكر فسمعه أسد فقام اليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله فضربه ضربا شديدا حتى أدماه^(٤٢) .

وهذه الصراحة والشجاعة هي التي جعلت مالكا وقد لاحظ ذلك منه يقول له عندما ودعه « أوصيك بتقوى الله تعالى والقرآن والمناصحة لهذه الأمة »^(٤٣) وجعلت محمد بن الحسن يمدحه بمكة ويصفه بالمناظرة والدراسة والسماع^(٤٤) . وعندما ذهب أسد ليودع أستاذه ابن القاسم قبل

(٤١) المالكي رياض ص ١٨٦ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣ .

(٤٢) أبو العرب طبقات ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤٣) المالكي رياض ص ١٧٤ .

(٤٤) المالكي رياض ص ١٨٣ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٢ .

مغادرته مصر الى القيروان قال له ابن القاسم : « أوصيك بتقوى الله والقرآن ونشر هذا العلم » (٤٥) .

وقد حقق أسد ما توسمه أساتذته فيه فحضر عليه خلق كثير وسمعوا منه الأسدية والموطأ وغير ذلك من العلوم وانتشرت أمامته .

وقد وجد الباحث خلال رحلته الى تونس أنه يوجد بمكتبة القيروان العتيقة من الأسدية : كتاب السرقة وقطع الطريق رواية محمد ابن إبان المتوفى سنة ٢٨٠ هـ عن المعمر بن منصور عن أسد بن الفرات عن محمد بن الحسن الشيباني عن أبي يوسف عن أبي حنيفة وأرقامه المسلسلة بالمكتبة في سجل الصور من ١٠٣٥ الى ١٠٥٧ وهى مما وجد فى المكتبة من الفقه الحنفى الذى جاء به أسد من العراق ونشره فى القيروان . وتاليف هذه القطعة يجرى على طريقة السؤال : قلت أرايت والجواب قلت كذا . . وهى من الأسئلة الحنفية التى دخل بها أسد من العراق الى أصحاب مالك بمصر وأخذ الأجوبة عنها من عبد الرحمن ابن القاسم ودونها فى كتابه الذى سماه (الأسدية) فيما يظهر والقطعة فى حاجة لزيادة تمحيص .

وقد احضر أسد معه الى القيروان عدا الاسدية كتبا لا يزال يوجد منها بمكتبة القيروان العتيقة جزء مخطوط من كتاب المبسوط لمحمد ابن الحسن الشيبانى رواية لأسد بن الفرات القيروانى ورقمه المسلسل فى السجل من ٨١٠ الى ٨٥٧ (٤٦) .

وقد حث أسد الناس على طلب العلم والجهد فيه وبيان الخير الذى يعود على طالبه ماديا ومعنويا عندما قام خطيبا وهو يتوجه الى غزو صقلية وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ونشرت البنود فقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ماولى لى أب ولا جد

(٤٥) مجلة العربى عدد ١٠٤ ص ١٠٦

(٤٦) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

ولاية قط ولا رأى أحد من سلفى مثل هذا قط . وما رأيت ما ترونه
الا بالاقلام فأجهدوا أنفسكم واتبعوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه
وكاثروا عليه وأصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة^(٤٧) .

وكان أسد يتحدث عن نفسه بثقة واعتزاز المؤمن فيقول : « أنا أسد
وهو خير الوحوش وأبى فرات وهو خير المياه وجدى سنان وهو خير
السلح^(٤٨) » .

ان أسدا هو اللبنة الأولى فى صرح ازدهار الفقه فى القيروان رحمه
الله رحمة واسعة .

٢٠ - سحنون(٤٩) : أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى :

ولد فى القيروان سنة ١٦٠ هـ واصله شامى من حمص قدم أبوه سعيد
فى جند حمص فى القرن الثانى وقد نشأ فى القيروان وتعلم على مشايخها
فأخذ عن العباس بن أشرس والبهلول بن راشد وعبد الله بن عمر
ابن غانم ، ومعاوية الصمادحى . وذهب الى على بن زياد بمدينة تونس
وتلقى عليه الموطأ للإمام مالك بن أنس كما أخذ الاسدية عن أسد بن الفرات
بعد عودته من المشرق^(٥٠) .

وفى سنة ١٨٨ هـ رحل سحنون الى المشرق وتلقى العلم عن كثير من
علماء الامصار الاسلامية وقد أورد المالكى تفصيلاً للعلماء الذين التقى
بهم وأخذ عنهم والمدن التى ينتسبون اليها فقد سمع بمصر من ابن

(٤٧) المالكى رياض ص ١٨٨ ، عياض المدراك ج ٢ ص ٤٧٧

(٤٨) عياض المدراك ج ٢ ص ٤٨٠

(٤٩) سحنون : لقب له سمى باسم طائر حديد النظر لحدثه فى

المسائل . انظر المدراك لعياض ج ٢ ص ٥٨٦ .

(٥٠) المالكى رياض ص ٢٥٠ ، عياض المدراك ج ٢ ص ٥٨٦ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ٤٩ ، حسن حسنى : مجمل تاريخ تونس ص ٥٢ ،

الامام المازرى ص ٤٤

القاسم ، وأشهب ، وابن وهب ، وعبد الله بن طليب المراوى ، وعبد الله ابن عبد الحكم ، وسعيد بن الليث بن سعد ، ويوسف بن عمرو ، وسمع بالمدينة من عبد الله بن نافع الصائغ ومعن بن عيسى ، وأبى ضمرة أنس ابن عياض ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، وسمع من سفيان بن عيينة . وأصله من الكوفة . ثم نزل مكة وسمع من عبد الرحمن بن مهدي (بصرى) ووكيع بن الجراح (كوفى) وحفص ابن غياث (كوفى) ويزيد بن هارون (واسطى) ويحيى بن سليمان (طائفى) وأبى داود الطيالسى (بصرى) وأبى اسحاق الأزرق وغيرهم وقد عاد الى القيروان من رحلته سنة ١٩١هـ^(٥١) .

وقد حاول سحنون خلال رحلته أن يستقصى مذهب مالك فى كل البلاد التى زارها ومن كل العلماء الذين التقى بهم وأن يجمع كل المسائل التى أخذت عنه وقد عبر سحنون عن تتبعه لكل أقوال مالك بقوله لتلميذه سليمان ابن سالم لما أراد الخروج الى الحج : « انك تقدم طرابلس وقد كان فيها رجال مدنيون ومصريون ثم تقدم الى مصر وبها الرواة ثم تقدم المدينة عش مالك ثم تقدم مكة . فاجتهد مجهودك فان قدمت على بنفضة خرجت عن دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها فاعلم أن شيخك كان مفرطا يعنى نفسه »^(٥٢) .

وقد خرج سحنون من رحلته بالكتاب الذى حمل اسمه وخلده وتزعم به المذهب المالكى فى المغرب كله والمدونة التى هى استدراك على الاسدية وتصحيح لها فقد راجع سحنون ابن القاسم فى الاسدية مراجعة فقيه قد تفقه فى علم مالك فهذبها ابن القاسم مع سحنون واسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك وما أجاب فيه ابن القاسم أسدا بقوله : « وأظن

(٥١) المالكى رياض ص ٢٥٠ ، وانظر ابو العرب طبقات ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٥٨٧ ، ابن فرحين الديباج ص ١٦٠

(٥٢) المالكى رياض ص ٢٥٥

مالكا قال في هذه المسألة كذا واخال مالكا قال كذا وكذا»^(٥٣) وقد كتب ابن القاسم الى أسد ليعارض كتبه على كتب سحنون لانه يرجع عن أشياء مما رواها عنه ولكن أسدا لم يرجع عما اتفق عليه مع ابن القاسم مع رجوع ابن القاسم عنه لانه فيما يبدو كان يرى لنفسه منزلة الانجنيهاه والاختيار وكان اعراضه عن الرجوع الى قول ابن القاسم مما أدى الى اعراض الناس عن الاسدية وافصح الطريق أمام مدونة سحنون .

مال الناس الى التفقه بكتب سحنون التي عكف عليها سحنون بالتهذيب والتبويب والتنظيم . والحق بها بعض المسائل التي اختلف فيها كبار أصحاب مالك مما ظهر له فائدة في ذكره ثم ذيل مسائلها وأبوابها بالحديث والآثار . الا كتبها منها بقيت مفرقة على أصل اختلاطها في السماع ولذلك سميت كتب سحنون المدونة والمختلطة لاختلاط المسائل في الأبواب .

وقد خرج سحنون من رحلته بالكتاب الذي حمل اسمه وخلده وتزعم وذلك بالحق المسائل فيه بالأحاديث والآثار مع الحفاظ على ما أفاده أياه أسد من لقاح جديد بطريقة العراق وبذلك رجع فقه مالك الى الموطأ ووردت مسائله صحيحة لا تتسم بأخال وأظن^(٥٤) .

وصارت كتب سحنون أصل المذهب المرجح روايته على غيره عند المغاربة وانتشر ذكرها في الآفاق وعول عليها الناس واعرضوا عن الاسدية وغلب عليها اسم سحنون^(٥٥) . بل تسميت الاسدية فلا ذكر لها الآن^(٥٦) .

وقد اقبل علماء القيروان على مدونة سحنون بالاختصار والشرح

(٥٣) المرجع السابق ص ١٨٠

(٥٤) انظر عياض المدارك ج ٢ ص ٤٧١ ، ٤٧٢ ، تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة د . حسين مؤنس ص ١٦ ، اعلام الفكر الاسلامي للمفاضل ابن عاشور ص ٣٨

(٥٥) المالكي رياض ص ١٨١

(٥٦) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٧٢ .

والتعليق فاختصر ابن ابي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى «بالمختصر»
ولخصه ايضا أبو سعيد البرادعى من فقهاء القيروان في كتابه المسمى
« بالتهذيب » واعتمده المشيخة من أهل افريقية واخذوا به وتركوا
ما سواه^(٥٧) وبذلك كان للمدونة اثر كبير في توجيه الفقه في القيروان
وجميع بلاد المغرب .

وقد اشتغل سحنون منذ عودته الى القيروان بتدريس المدونة ونشر
مذهب الامام مالك وقد كثر تلاميذه واتباعه الذين اخذوا العلم عنه
وتأدبوا بأدبه وكانت حلقة غاصة بالطلاب والعلماء لا من القيروان وحدها
بل من جميع أنحاء المغرب وصقلية والاندلس ولا نقرأ عن تاريخ العلماء
فى أى بلد من المغرب الا ونجد منهم عددا كبيرا قد حمل الفقه عن سحنون
وحضر فى حلقة فى القيروان ويذكر لنا المالكى عددا كبيرا ممن ترجم لهم من
العلماء الافذاذ فى القيروان الذين اخذوا عن سحنون وكان لهم دور كبير منهم
محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس وعبد الجبار السرتى ، واحمد
ابن متعب وعبد الله بن احمد بن طالب وحمد يس القطان ويحيى بن عمر
وابن الحداد وغيرهم كثير^(٥٨) .

كما يذكر لنا ابن الفرضى فى ترجمته لعلماء الاندلس أسماء من سمع
من سحنون من أهل الاندلس وهم كثيرون جاوزوا السبعين عاما منهم
ابراهيم بن يزيد مولى عمر بن عبد العزيز وابراهيم بن شعيب الباهلى
من أهل البيرة وابراهيم بن خلاد وكان فى البيرة فى وقت واحد سبعة من
رواة سحنون والصباح بن عبد الرحمن بن الفضل من أهل مرسية ، وعميرة
ابن عبد الرحمن بن مروان العتقى ومحمد بن وضاح مولى عبد الرحمن
ابن معاوية من أهل قرطبة وعدد كثير ترجم لهم ابن الفرضى فى تاريخه
وكلهم قد لقوا سحنون وتلقوا عليه العلم^(٥٩) .

(٥٧) تاريخ الفكر الاندلسى ترجمة د. حسين مؤنس ص ٤١٦ ، ٤١٧

(٥٨) المالكى رياض ص ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٩٦ ، عياض

المدارك ج ٢ ص ٥٨٩

(٥٩) انظر ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس ص ٩ ، ١٠ ، ٢٠٢ ،

٣٢٨ ، وقسم ثان ص ١٥ الخ .

وبذلك يظهر لنا الأثر الكبير لسحنون في القيروان وغيرها وصدق ما ذكره الدباغ عن ابن حارث : « كان سحنون أيمن عالم دخل المغرب كان أصحابه مصاييح في كل بلد عد له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته »^(٦٠) . فكان سحنون هو حامل لواء الفقه في القيروان والناشر له عن طريق تلاميذه ومريديه في المغرب كله وفي الاندلس وصقلية .

ومن الكتب التي أحضرها سحنون ورواها تلاميذه عنه وتوجد بمكتبة القيروان العتيقة : الجزء الخامس والجزء الرابع من كتب الحج لأشهب ابن عبد العزيز المصري رواية أبي سعيد سحنون بن سعيد وأرقامها المسلسلة بالسجن من ١٠٨٣ الى ١١٢٤ وكتاب البيوع من موطأ مالك رواية سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم وأرقامه المسلسلة من ١٣٤٢ - ١٣٥٣

وكتاب العلم من جامع عبد الله بن وهب المصري رواية عيسى ابن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب وأرقامه المسلسلة من ١٦٠١ - ١٦٥٢

وقطعة من المدونة بها سماع مؤرخ في سنة ٣٠٦ هـ وبها تعداد كتب أشهب سماعات بخطوط أصحابها في آخر ورقة من كراس من جزء من المدونة وهو كتاب الايمان بالطلاق ورقمه المسلسل من ١٧٨٦ - ١٧٨٧

وكتاب الشعر والغناء من جامع عبد الله بن وهب رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب ورقمه المسلسل من ١٨١٧ - ١٨٣٨

كما يوجد كذلك الموطأ رواية سحنون بن سعيد القيرواني عن عبد الرحمن بن القاسم نسخة جيدة^(٦١) .

(٦٠) الدباغ معالم ج ٢ ص ٦٣

(٦١) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

وفي سنة ٢٣٤هـ أسند اليه الأمير محمد بن الاغلب قضاء افريقية
وسنه اذ ذاك أربع وسبعون عاما فلم يزل قاضيا الى أن توفي سنة ٢٤٠ هـ
ولم يقبل سحنون القضاء عندما عرض عليه الا عندما تبين له أنه لا مناص
من قبوله لاغلاظ الأمير عليه وحلفه بأشد الايمان أن يتولى سحنون
القضاء واجماع الفقهاء على تولية سحنون . ومع ذلك فلم يقبل القضاء
الا بعد أن اشترط على الأمير شروطا . قال سحنون : لم اكن أرى قبول
هذا الأمر حتى كان من الأمير ضمينان : احدهما أنه اعطاني كل
ما طلبت واطلق يدي في كل ما رغبت حتى اني قلت له : « أبدأ بأهل
بيتك وقربائك واعوانهم فان قبلهم ظلمات للناس وأموالا لهم
منذ زمان طويل اذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي فقال لي نعم لا
تبدأ الا بهم وأجر الحق على مفرق رأسي فقلت له « الله » قال لي :
« الله » ثلاثا . وجاعني من عزمه مع هذا ما يخاف المرء منه على نفسه
وفكرت فلم أجد احدا يستحق هذا الأمر ولم أجد لنفسى سعة في رده (٦٢)
عند ذلك قبل القضاء ودخل على ابنته والكاتبه بادية في وجهه وقال لها :
اليوم ذبح أبوك بغير مكين . وكان سحنون لا يأخذ على قضائه اجرا (٦٣)
ولكنه كان يأخذ لاعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب .

وقد أدخل سحنون على القضاء خلال ولايته كثيرا من الاصلاحات
والتنظيمات والتشريعات التي استنها لتطبيق الشريعة واصلاح الحياة
الاجتماعية .

١ - فكان في قضائه يكتب للناس أسماءهم في رقاع تجعل بين يديه
ويدعو بهم واحدا الا أن يأتي مضطر أو ملهوف فيقدم النظر في أمره .

٢ - وكان يجلس في بيت في الجامع بناه لنفسه اذ رأى كثرة الناس وكثرة
كلامهم فكان لا يحضر عنده غير الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما

(٦٢) المالكي رياض ص ٢٧٣ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٥٩٦

(٦٣) أبو العرب طبقات ص ١٨٥

وسائر الناس بمعزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغل باله أمرهم فصار الجلوس في ذلك البيت سنة لقضاة المالكية .

٣ - كان يضرب الخصوم اذا آذى بعضهم بعضا بكلام او تعرض للشهود وكان يقول : اذا تعرض للشهود كيف يشهدون ؟ وكان يؤدب الخصم اذا طعن على الشاهد بعيب او تجريح ويقول للخصم : « أنا اعنى بذلك منك وهو على دونك » .

٤ - وكان اذا دخل عليه الشاهد ورعب منه أعرض عنه حتى يستأنس ويذهب روعه فان طال ذلك به هون عليه وقال له : « ليس معى سوط ولا عصا ولا عليك بأس اد ما علمت ودع ما لم تعلم » .

٥ - قال جبلة : كان سحنون يؤدب الناس على الايمان التى لا تجوز من الطلاق والعتق - حتى لا يحلفوا بغير الله ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم وما نهى عنه ويأمرهم بحسن السيرة والقصد .

٦ - وهو أول القضاة : جعل في الجامع اماما يصلى بالناس وكان ذلك للامراء .

٧ - ونظر سحنون في أمر الاسواق : فنظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع وجعل الامناء على ذلك وادب على الغش ونفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة وأمر بتغيير المنكر .

٨ - وكان أول القضاة فرق اهل البدع من الجامع وشرد اهل الاهواء منه وكانوا فيه حلقة من الصفرية والاباضية والمعتزلة يتناظرون في المسجد ويظهرون زيفهم وعزلهم ان يكونوا ائمة للناس او معلمين لصبيانهم او مؤدبين وأمرهم الا يجتمعوا . وادب جماعة منهم بعد هذا خالفوا أمره .

٩ - كتب مرارا الى أعوانه يأمر بقتل الكلاب المنتشرة وسبب وراءها الاعوان بالحراب اتقاء انتشار داء الكلب وذلك ناشئ من معرفته

بالطب وهو ما عبر عنه أبو العرب « بأن سحنون كان جامعاً للعلم
فقيه البدن » .

١٠ - وكان سحنون مع تمسكه بمذهب مالك يولى قضاء الاقاليم
بعض الاحناف فقد ولى سليمان بن عمران قضاء بجاية وباجة والأريس
قال سليمان : ولانى سحنون القضاء . وقال : عليك يا أبا الربيع
بالحجازية فقلت : الفاضى مفت فما كنت أفتى به فيه أقضى فسكت عنى^(٦٤)

وكان سحنون مع علمه وفهمه ودقته يتأنى فى الفتوى ويزرى على
من يتعجل بالفتوى وينكر عليه ذلك وينقل ذلك عن المتقدمين من معلميه .
فقد ورد أن رجلاً من أهل صطفورة سال سحنون عن مسألة فأقام يتردد
عليه ثلاثة أيام فقال بعد ذلك « مسألتى أصلحك الله لى ثلاثة أيام »
فقال له : « وما اصنع بك يا خليلى مسألتك نازلة وهى معضلة وفيها
أقاويل وأنا متحير فى ذلك » فقال له الصطفورى : « وأنت أصلحك الله
لكل معضلة » . فقال له سحنون : « هيهات يا ابن أخى ليس بقولك أبذل
لك لحمى ودمى للنار » . ما أكثر مالا أعرف ان صبرت رجوت أن تنقلب
بحاجتك وأن أردت تمضى الى غيرى تجاب فى ساعة واحدة » فقال له :
« انما جئت اليك ولا أستفتى غيرك » فقال : « فاصبر عافاك الله ثم
اجابه بعد ذلك »^(٦٥) . ولذلك كان يقول : أجرا الناس على الفتيا اقلهم
علما يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أن الحق كله فيه وأنا
أحفظ مسائل سماها تبلغ ثمانية أقاويل من ثمانية أئمة فكيف ينبغي
لنى أن أعجل بالجواب حتى أتخير فلم الام فى حبس الجواب ؟^(٦٦) .

وقد اتسم سحنون بالشجاعة فى قضائه فكان لا يخشى فى الله لومة

(٦٤) انظر فيما سبق : المالكى رياض ص ٢٧٥ - ٢٧٨ ، عياض
المدارك ج ٢ ص ٥٩٨ - ٦٠١ ، أبو العرب طبقات ص ١٨٤ .
(٦٥) المالكى رياض ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، عياض المدارك ج ٢
ص ٦١٤

(٦٦) أبو العرب طبقات ص ١٨٧

لائم ولا يهاب سلطانا فى حق يقيمه عليه وقد أكثر فى رد الظلمات من رجال بن الأغلب والمصادر التى ترجمت له مليئة بالحوادث الكثيرة التى قامت بينه وبين أعوان الأمير ومحاولتهم استعداد الأمير عليه وثبوت سحنون لهم وللأمير وعدم تزحزحة عن الحق الذى يؤمن به ولو كان فى ذلك غضب الأمير وأعوان الأمير وقد حاول الأمير فى مرات عديدة أن يثنيه عما يقضى أو يتصرف به فى أعوانه وأرسل اليه يقول : انهم فيهم غلظة وقد شكوك ورايت معافاتك من شرهم فلا تنظر فى امرهم فقال سحنون للرسول « ليس هذا الذى بينى وبينه وقل له : خذلتنى خذلك الله » . فلما انتهى الرسول الرسالة الى الأمير قال له : « ما نعمل به ؟ انما اراد الله » (٦٧) .

واراد الأمير مرة نقض حكم قضى به سحنون فى بعض أعوانه وأرسل اليه فى ذلك فأرسل سحنون ابنه محمدا بسجله مع الفتى الى الأمير وقال له : قل له هذا سجلك وجعل الله « زوكاى » - المتضرر من حكمه شفيحك يوم القبامة . فوصلا اليه وأبلغاه ما قال فقال محمد له : « هذا سجلك بعث به لتولى أمور المسلمين من تراه » . فقال أبو العباس - الأمير - : اقرأ على أبيك السلام وقل له : جزاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيرا فقد أحسنت أولا وآخرا ونحن نرضى قائدنا من أموالنا وأمضى على أحسن نظرك . فبلغ ذلك سحنون واجتمع اليه وجوه الناس وأهل الخير وشكروا فعله فقال لهم : ان الله أحب الشكر من عباده فتقدموا الى باب الأمير واشكروه على تأييد الحق ففى ذلك صلاح الخاصة والعامة ففعلوا ذلك (٦٨) .

وكان بن الأغلب يقول فى قضيته مع سحنون : ان سحنون لم يركب لنا دابة ولا ثقل كفه بصرة فهو لا يخافنا (٦٩) .

(٦٧) المالکى رياض ص ٢٧٩

(٦٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، عياض المدارك

(٦٩) المالکى رياض ص ٢٨٢

وبذلك كان سحنون نزيها في حكمه عادلا في قضائه لا يخشى الا الله عز وجل فحصل الناس بتولية القضاء ائمة واستقرارا وعدالة بين الكبير والصغير .

ويعتبر سحنون من ائمة اهل السنة بالقيروان ولذلك كان يعارض من يقول بخلق القرآن ويحمل عليه في دروسه ولا يرى الصلاة خلفه . وحدث أن حضر جنازة وصلى عليها ابن ابي الجواد الذي كان يتولى القضاء قبله وكان يقول بخلق القرآن فلم يصل سحنون خلفه . ووصلت هذه الحادثة الى الأمير زيادة الله . فأمر بأن يوجه الى عامل القيروان بضرب سحنون خمسمائة صوت ويحلق رأسه ولحيته . الا أن وزيره على ابن حميد تدخل لمنع ذلك وذكر الأمير بما حدث للبهلول مع العكى فأوقف الأمير ما مر به .

وكان سحنون يرى أنه لم يبلغ الى درجة العلماء الذين يضربون من الامراء لتمسكهم بالسنة ولذلك قال لمن بلغه ما حدث « لم ابلغ انا مبلغ من يضرب انما يضرب مثل مالك وابن المسيب » (٧٠) .

وقد امتحن سحنون عندما ولى أحمد بن الاغلب الامارة واخذ الناس بالحنة بخلق القرآن وخطب به في القيروان فخرج سحنون فارا الى عبد الرحيم الزاهد بقصر زياد فوجه اليه لكي يمتحن في رأيه في القرآن فلما وصل جمع الأمير له قواده وقاضيه ابن ابي الجواد وغيره وسأله عن القرآن فقال له سحنون : اما شيء ابتدئته من نفسي فلا ولكنى سمعت من تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق « فقال ابن ابي الجواد : كفر فاقتله ودمه في عنقي . وقال غيره مثله ممن يرى رأيه وقال بعضهم : يقطع أرباعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا فقال الأمير لداود بن حمزة ما تقول انت؟ قال قتله بالسيف راحة ولكن اقتله قتل الحياة فتأخذ عليه الضمائم

(٧٠) المالكي رياض ص ٢٨٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٦٠٩ ،

وينادى عليه بسماط القيروان الا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره « (٧١) .

وهكذا منع سحنون من أن يعلم الناس لقوله بعدم خلق القرآن ولكن ذلك لم يدم طويلا لسرعة وفاة الأمير بعد ذلك بقليل .

وكانت أهم كتب سحنون التي ألفها هي المدونة التي ارتضاها الناس وأخذوا بها وتركوا ما عداها كما يذكر له عياض كتاب « الرجوع عن الشهادات » (٧٢) وكان بعض تلاميذه ينكرون ذلك الى أن أراهم ابنه محمد ذلك بخط أبيه .

ويذكر مؤرخو الطبقات من كلامه وحكمه الشيء الكثير الدال على تفكيره ونظره الى الامور فمن ذلك قوله بالنسبة للعلماء :

« ما أقبح بالعالم ان يؤتى الى مجلسه فلا يوجد فيه فيسأل عنه فيقال : هو عند الأمير - هو عند الوزير - هو عند القاضي » (٧٣) .

وقوله بالنسبة للتصرف السليم في شؤون الحياة وامور المعاش واختيار الزوجة : « ما أحب أن يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده ولا يتكلف الى أكثر من ذلك وان احتاج الى امرأة طلبها على قدر ذات يده في مؤنتها وقناعتها حتى يبقى في يده ما يستغنى به وان كان له مال صالح حلال - والحلال هو ما ارتضاه الله عز وجل لانبيائه حسين يقول : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) والطيب هو الحلال - اعتمد عليه وتفرغ للعبادة وان لم يكن عنده ، فعليه بكسب يده أولى به من ذل المال وهو مسألة الناس وان كان مسغنيا عن الزوجة فتركها أحب الى وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكلها بالعلم والقرآن اذا احتاج الى ذلك » (٧٤) .

(٧١) المالكي رياض ص ٢٨٦ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٠ ،

٦١١

(٧٢) عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٥

(٧٣) المالكي رياض ص ٢٥٢

(٧٤) المالكي رياض ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

ومن وصاياه فى الاخلاق والمعاملة قوله لابنه محمد : « يا بنى سلم
على الناس فان ذلك يزرع المودة . وسلم على عدوك وداره فان راس
الايمان بالله مداراة الناس » (٧٥) .

وفى التربية :

« العلم صيد والكتابة قيد » (٧٦) .

وفى عدم المبالغة فى الطاعة :

« كل دابة تعمل على الشبع الا ابن ادم اذا شبع رقد » (٧٧) .

وعندما تتأزم الأمور يقول : « ضيقى تنفرجى يامالك يوم الدين
اياك نعبد واياك نستعين » ويبين أن العلم لا تتحقق فائدته الا بالعمل :
« من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم » . « مثل العلم القليل فى الرجل
الصالح مثل العين العذبة فى الأرض العذبة يزرع عليها صاحبها ما ينتفع
به . ومثل العلم الكثير فى الرجل غير الصالح مثل العين الخراصة تهدر
بالليل والنهار ولا ينتفع بها » (٧٨) .

آراء العلماء فيه وصفاته :

هذا النشاط الفكرى والتعليمى الذى قام به سحنون خلال تعلمه
وتعليمه جعل اساتذته وتلاميذه يبينون مقدار ما يتسم به وما يتحلى به
مما يوضح لنا قدره بين أبناء عصره وبعد عصره فقال عنه ابن القاسم

(٧٥) عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٣

(٧٦) مجمل تاريخ الادب حسن حسنى ص ٥٦

(٧٧) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٢٠

(٧٨) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٢٠ ، حسن حسنى مجمل تاريخ

الادب ص ٥٦

استأذه : ما قدم اليها من افريقية أحد مثل سحنون لا ولا ابن غانم « (٧٩)
وقال عنه ابن وضاح « كان سحنون يروى تسعة وعشرين سماعا وما رأيت
في الفقه مثل سحنون في المشرق » (٨٠) وقال عنه سليمان بن سالم في
مجالسه : « دخلت مصر فرأيت فيها العلماء متوفرين : ابن عبد الحكم
والحارث بن مسكين وإبا الظاهر وإبا اسحاق البرقي وغيرهم ودخلت
المدينة وبها أبو المصعب والقروى ودخلت مكة وبها ثلاثة عشر محدثا
ودخلت غيرها من البلدان ولقيت علماءها ومحدثيها فما رأيت بعيني مثل
سحنون وابنه بعده » (٨١) .

وقال عنه الشيرازي مبينا منزلته في المغرب وتسلمه للرياسة فيه
ومقارنا بينه وبين غيره من أصحاب مالك مع كثرة من أخذ عنه : « اليه
انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب وعلى قوله المعول به . وصنفه المدونة
وعليها يعتمد أهل القيروان وحصل له من الاصحاب ما لم يحصل لأحد
من أصحاب مالك وعنه انتشر علم مالك في المغرب » (٨٢) .

وقارن سليمان بن عمران بينه وبين أسد بن الفرات بقوله : « اذا
سألت أسدا عن مسألة أجابني من بحر عميق ومعنى جوابه لا تزد .
واذا سألت سحنون أجابني من بحر عميق ومعنى جوابه زد في سؤالك .
وكان العلم في صدر سحنون كسورة من القرآن من حفظه » (٨٣) .

ويعبر سحنون عن تعمقه في الفقه وازافته اليه بأن يجعل من
المسائل كتباً فيقول عندي ستة أو أربعة وأربعون كتابا من البيوع منها
كتابان أو ثلاثة أصلها أربع مسائل في الموطأ (٨٤) .

(٧٩) المالكي رياض ص ٢٥٣

(٨٠) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩١ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٥٢

(٨١) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٢

(٨٢) نفس المرجع ص ٥٩٢

(٨٣) نفس المرجع ص ٥٩٠

(٨٤) نفس المرجع ص ٥٩٠

وصور محمد بن حارث اثر سحنون في افريقية بالنسبة لمن سبقه بقوله : « كانت افريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لانه رحل اليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه وكان الفقه والفتوى في قليل منهم كما كان ذلك في علماء البلاد ثم قدم سحنون بذلك المذهب واجتمع له من ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف، والانتقباض فبارك الله فيه للمسلمين . فمالت اليه الوجوه واحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدئ قد أمحى ما قبله فكان أصحابه سرج أهل القيروان » (٨٥) .

فهو عندهم كما قال أبو على البصري « سحنون فقيه أهل زمانه شيخ عصره وعالم وقته » (٨٦) وهو الذي قال ابن الاغلب في قضيته معه : « ان سحنون لم يركب لنا دابة ولا ثقل كنه بصرة فهو لا يخافنا » (٨٧) . ووصف أبو العرب سحنون بأنه كان ربيع القامة بين البياض والسمره حسن اللحية كثير الشعر أعين بعيد ما بين المنكبين . كثير الصمت قليل الكلام يتكلم كثيرا بالحكمة مهيبا جدا يأخذ من شاريه على المشط حسن اللباس وكان به فتق في جوفه فكان يعصبه بلبد . وكان له برذون يركبه وقلما رثى متطوعا في المسجد » (٨٨) .

وعن بزته وتواضعه قال سليمان بن سالم : « رأيت لسحنون رحمه الله ساجا كحليا وساجا أزرق وقلنسوة حبر وكان يركب بلجام حديد ليس فيه من الفضة شيء وكان له برنس أسود كثيرا ما يلبسه في المطر والبرد والريح وربما قعد للسمع وهو عليه وربما حمل حزم البصل من حانوت جامع العطار وغير ذلك الى داره تواضعا لله عز وجل » (٨٩) .

(٨٥) نفس المرجع ص ٥٩١ (٨٦) نفس المرجع ص ٥٩٢

(٨٧) المالكي رياض ص ٢٨٢

(٨٨) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٣

(٨٩) المالكي رياض ص ٢٦٤

ذلك هو الامام سحنون حامل لواء الفقه في القيروان في القرن الثالث الهجري والذي اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره من الفقه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهادة في الدنيا والتخشن في الملبس والمطعم والسماحة . وكان يصل اخوانه بالثلاثين دينارا ، ولا يقبل من احد شيئا سلطانا او غيره ولم يكن يهاب سلطانا في حق يقوله . مع سلامة صدره للمؤمنين وشدة على اهل البدع . انتشرت امامته بالشرق والمغرب وسلم له الامامة اهل عصره وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمته « (٩٠) .

بكل هذا كان سحنون ذا أثر قوى في ازدهار الحياة الفكرية ونضوجها لا في القيروان وحدها بل في المغرب كله . وذلك بما أبداه من آراء صائبة في الفقه والتشريع ، وبما بثه في تلاميذه من علم ومعرفة ، وما دونه في كتبه من حقائق فكره . ثم بسلوكه الشخصى الذى كان فيه خير قدوة لتلاميذه ومريديه رحمه الله تعالى .

* * *

٣ - سليمان بن عمران :

ولد سليمان بن عمران سنة ١٨٣ هـ . ولم يذكر أصحاب الطبقات أين ولد ولا شيئا عن نشأته الأولى بل أهملوا كثيرا من أخباره الا بعض أخبار عارضة .

ولذلك قد استقصيت سيرته من اضطلاعى على تراجم العلماء المعاصرين له وما ورد عنه في أثناء الحديث عن لاساتذته أو العلماء والقضاة الذين عمل معهم . وقد حرصت على أن أترجم له رغم الصعوبة في ذلك لانه يمثل المذهب الحنفى وكان الواسطة بين من أخذ عن أسد ابن الفرات المذهب الحنفى حيث كان أسد يمثل المذهبين المالكي والحنفى بينما سليمان يمثل المذهب الحنفى وتلقاه عنه أتباع المذهب الحنفى .

(٩٠) المالكي رياض ص ٢٤٩ نقلا عن أبى العرب .

ويبدو لى انه ولد فى القيروان وتلقى العلم بها الى ان ظهرت جدارته فكان قرينا لسحنون كما سيظهر لنا ذلك فيما بعد .

فقد تلقى سليمان العلم على أسد بن الفرات وسمع منه كتب أبى حنيفة^(٨١) ويذكر أبو العرب محدثا عن أحمد بن خلف وغيره من تلاميذ سليمان « انهم كانوا يسمعون من سليمان بن عمران فلما بلغ الى قوله تعالى « يا موسى انى انا الله لا اله الا أنا » وضع سليمان الكتاب من يده وقال سليمان هكذا صنع أسد^(٩٢) » ويح لاهل البدع هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاما يقول ذلك الكلام المخلوق « أنا الله لا اله الا أنا » وقد كان سليمان يسأل أسدا كما يسأل سحنون ويأخذ العلم عنهما ويذاكرهما ويقول : اذا سألت أسدا عن مسألة أجبني من بحر عميق ومعنى جوابه لا تزدد فى سؤالك واذا سألت سحنون أجبني من بحر عميق ومعنى جوابه زد فى سؤالك^(٩٣) .

وعبر ابن حارث عن ملازمة سليمان لاسد بن الفرات بأنه « كان لا يلقى أسد بن الفرات فى موضع الا ويلقى سليمان ماشيا وراءه »^(٩٤) .

كما تلقى سليمان العلم على بعض الأحناف القادمين الى القيروان وروى عنهم ومنهم عبد الله بن المغيرة الكوفي وقد علم سليمان تلاميذه ما أخذه عن هؤلاء العلماء الوافدين^(٩٥) .

ولا شك أن سليمان بن عمران قد تلقى العلم على هؤلاء وعلى غيرهم من العلماء الذين كانت تزخر بهم القيروان الى ان صار مضارعا

(٩١) انظر المالكي رياض ص ١٨٢ ، عياض المدارك ج ٢

ص ٤٧٤

(٩٢) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٥

(٩٣) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٠

(٩٤) المالكي رياض ص ٤٩٠ نقلا عن الطبقات .

(٩٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦١ ، ١٦٢

لسحنون مما حمل سحنون الى أن يشير هو وغيره من العلماء بأن يتولى سليمان بن عمران القضاء عندما استشار الأمير الفقهاء فيمن يوليه القضاء سليمان كان يجلس سحنون فقال : ما ظننت أنه يشاورني في سحنون . حجبت فرأيت أهل مصر يتمنون كونه بين أظهرهم وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي^(٩٦) .

وبذلك تتضح لنا المنزلة العلمية التي وصل اليها سليمان ولكنه مع ذلك كان يجلس سحنون ولا يرى أن يتقدم عليه مع اختلافه معه في المذهب .

وقد تلقى العلم على سليمان عدد من العلماء وتخرجوا على يديه منهم محمد بن عبدون الذي برع في العلوم الشرعية وتولى قضاء إفريقية بعد ذلك وله جملة مؤلفات في الفقه على مذهب أبي حنيفة منها كتاب الشروط وغير ذلك^(٩٧) . كما تلقى العلم عنه إبراهيم بن يزيد وأحمد ابن خلف وأحمد بن تميم والد أبي العرب صاحب الطبقات وغيرهم^(٩٨) .

وقد حافظ سليمان على تعليم العلم حتى بعد أن أسند اليه القضاء فقد كان له يوم في الأسبوع أو يومان يقرأ عليه فيه العلم : تفسير القرآن وغيره^(٩٩) .

وعندما تولى سحنون القضاء كان سليمان بن عمران يكتب له ثم قال له سحنون : ابتليتني . فوالله لأبتلينك وولاه قضاء بجاية وباجة والأربس وقال له عليك يا أبا الربيع بالحجازية فقال له سليمان القاصي مفتى فما كنت أفتى به فيه أقضى فسكت عنه^(١٠٠) .

(٩٦) انظر المالكي رياض ص ٢٧٢ .

(٩٧) انظر الورقات حسن حسنى ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

(٩٨) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٢ ، ١٦٥ ، عياض المدارك

ج ٣ ص ٥٩٨ .

(٩٩) المالكي رياض ص ٤٩١ نقلا عن الطبقات للخشنى .

(١٠٠) المالكي رياض ص ٢٧٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٨ ويقصد

بالحجازية مذهب مالك .

وذلك يوضح أنه كان يقضى حسب مذهبه الحنفى ويتضح لنا عدم صحة ما ذهب اليه ابن حارث الخشنى فى قوله : ولم يول سحنون سليمان بن عمران قضاء باجة حتى امتحنه فى مذهبه فإظهر له سليمان أن مذهبه مذهب المدنيين وأنه تارك لمذهب العراقيين^(١٠١) .

ويؤيد تمسكه بالمذهب الحنفى فى قضائه ما ذكره الدباع من أن أهل باجة اشتكوا به الى سحنون بن سعيد فقال ماتقولون فيه فقالوا أنه يحكم علينا بمذهب أبى حنيفة فقال ما قدمته عليكم الا وأنا أعلم أنه يحكم بمذهبه فأنصرفوا^(١٠٢) . ويمكن أن يحمل قوله : أن مذهبه مذهب المدنيين من ناحية العقائد وأنه ممن لا يقول بخلق القرآن وقد سبق ما ذكرناه من بيان رأى استاذة أسد فى قوله بعدم خلق القرآن وأخذ سليمان بذلك^(١٠٣) .

وما كان سليمان ليظهر رجوعه عن مذهبه الحنفى وهو الذى أهتم بالصراحة فيما تميل اليه نفسه بما تصوره الحادثة التى رويت من أن سحنون لما ولى سليمان القضاء دخل عليه من الغد فقال له سحنون : عزمت يا أبا الربيع فقال له : ان قلت لا كذبتك أنا أريد فقال سحنون لمن عنده انظروا : ان كان دخله رياء لا ظهر تمنعنا مثلك يا أبا الربيع يكون ناظرًا للمسلمين^(١٠٤) .

ومن ذلك نستطيع أن ندرك الصلة بين العلماء مع اختلاف المذهب وإن سحنون المالكى يولى سليمان الحنفى ويقدر كفاءته وصدقه ويقول له : منلك يكون ناظرًا للمسلمين .

(١٠١) المالكى رياض ص ٤٩٠ نقلا عن طبقات الخشنى .

(١٠٢) الدباع معالم ج ٢ ص ٩٩ .

(١٠٣) أبو العرب طبقات ص ١٦٥ .

(١٠٤) المالكى رياض ص ٢٧٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٨ ،

٥٩٩ .

وقد ولى سليمان قضاء القيروان بعد وفاة سحنون سنة ٢٤٠ هـ وكان حاضر الجواب لطيف المنطق حاد الذهن وكان يقول : لو شئت أن أقضى بين الخصمين بلا بينة لفعلت والله ما يفعد بين يدي الخصمان ويتناظران الا وأنا أعرف من له الحق منهما^(١٠٥) واستمر قاضيا الى سنة ٢٥٧ هـ حيث عزل وولى ابن طالب وفي سنة ٢٥٩ هـ رد سليمان ثانيا الى القضاء ومكث فيه الى أن شاخ وكبرت سنه فعزل عنه سنة ٢٦٩ هـ^(١٠٦) .

وقد عبر سليمان عن رأى الناس فيه عند توليه القضاء وعند عزله عنه أن رأى الناس كيف كان يقضى بينهم بقوله : وليت القضاء فى زمان فقال الناس : انا لله وانا اليه راجعون ولى سليمان لفد خسف الله بالنديا ثم عزلت فى زمان فقال الناس انا لله وانا اليه راجعون عزل سليمان عن القضاء واين مثل سليمان^(١٠٧) .

ومما يدل على لطفه فى قضائه ومعرفته كيف يصل الى الحقيقة عندما يحاول الخصم الاستعانة بشهاد الزور ما يروى من تخاصم رجلين اليه واقامة المدعى على خصمه شهداء اربعة فشهدوا عنده وقبل شهادتهم ثم أعذر الى المطلوب . فلما نظر المطلوب الى أنه أرف الحكم ولم يبق الا التنفيذ وهو برىء مما شهدوا عليه به قصد القاضى سليمان بعد صلاة المغرب واستأذن عليه فلم يأذن له ثم الح فى الاسنذان وقال : ان لم يأذن لى بت على باب داره حتى أكون أول من لقيه صباحا . فاذن له سليمان فدخل عليه فقال له : عزم القاضى على أن يسجل على وبقى فى قلبى شىء أخبره به واقوله له فقال له قل فأخرج الرجل مصحفا من كفه فحلف له به ثم اتبع ذلك بيمين الطلاق والعناق والمشى والصدقة أنه برىء من ذلك المطلوب وان الشهود الذين شهدوا عليه قصدوا بشهادتهم

(١٠٥) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٠٠ .

(١٠٦) المالكى رياض ص ٣٧٧ ، عياض المدارك ج ٣ ص ١٩٦ ،

الدباغ معالم ج ٢ ص ١٠٧ .

(١٠٧) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

الزور صراحا ثم خرج عنه ووقع بقلب سليمان انه صادق . فلما جلس سليمان من الغد فى مجلس القضاء فى الجامع اتاه الطالب يستنجزه التنفيذ قال له : اذهب آتنى بالشهود الذين شهدوا لك عندى فى أصل الحق حتى يحضروا تنفيذ الحكم لك فذهب الرجل فأتى بهم فلما نظر القاضى اليهم أعرض عنهم وتغافل بغيرهم طويلا . ثم قال لغلامه يا بشر اذهب الى صاحب سوق الجمال وقل له كى يبعث الى أربعة جما لحتى أطوف عليها رجالا شهدوا عندى بالزور . ثم اشتغل فلم يشك الشهود الأربعة انهم أصحاب المحنة فتسللوا من مجلسه ثم تقدم الطالب فقال له : نفذ لى الحكم فقال : بحضرة شهودك قال : قد أحضرتهم قال : قريبهم فقال هاهنا كانوا أذهب فيهم فلما مار اليهم امتنعوا عليه من السير الى القاضى فبقى الطالب مترددا بين توقف القاضى عن الحكم الا أن يحضر الشهود ويبين امتناع الشهود من الحضور حتى سل الطالب وترك طلبه . يقول ابن حارث وهذا وان لم يكن وجه القضاء على ظاهر الحق فهو من باب اللطف والسياسة (١٠٨) .

وكان سليمان مع تفهمه وعلمه يميل الى النوادر المضحكة وقد يدعوه ذلك الى أن يتعرض الى القاب الناس فقد دخل عليه رجل يلقب «بالفقوسة» فقال سليمان : « كنت أعرف لكم مقثاة فما صنع الله بها ؟ » فقال له الرجل : « كانت حسنة لولا خروفة دخلتها فأفسدتها » (١٠٩) .

ودخل عليه رجل من خاصته فقال له : « لقد أندر فيك اليوم على بن حميد بنادر فقال ما هو ؟ قال أبو طبابخة فأتاه فى سفرتة بصور قرأسك بقلنسوتك وجميع هيئتك . فجعل يأكله هو وأصحابه فأرسل سليمان الى على بن حميد : الناس ينتقلون من حال الى أشرف منها وأنت ترتكس .

(١٠٨) المالكى رياض ص ٤٩١ ، ٤٩٢ نقلا عن طبقات الخشنى .

(١٠٩) المرجع السابق ص ٤٩٣ وكان سليمان يلقب بخروفة لانه كان

لا يلقى الا ماشيا وراء أسد بن الفرات فشبه اتباعه له باتبباع الخروف لاهمه .

كنت عند الناس طبأخا فرضيت أن تصبح رواسا « وذلك لأنه باحكام دار
على بن حميد للطبخ يضر بالمثل بالقيروان (١١٠) .

ويبدو أنه مع اتصاف سليمان بالميل الى النادرة فقد كان متسامحا
مع من يخالفه فقد ترك جمد بن القطان الصلاة خلف القاضي سليمان
ابن عمران فى جنازة فجاء انسان فأخبر بذلك سليمان فقال سليمان له :
خل الناس على ما هم عليه (١١١) .

وقد طال العمر بسليمان بن عمران الى ان توفى عن سبعة وثمانين
سنة فى صفر سنة ٢٧٠ هـ وارسل الامير الى ابن اللباد ليصلى عليه
فوقف متفكرا ثم قال نفعل ، ثم عطف بن طالب على بن اللباد وقال :
ظلمنى والله بن عمران وحبسنى افترى ان صلاتى عليه اجلال له ؟ ماذا
اقول عليه من الدعاء وقد ظلمنى وكان معه قرآن واسلام فقرأ عليه
فى صلاته قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فأغفر للدين
تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (١١٢) .

قال بن ناجى : وقبره مزار وعند رأسه لوح مكتوب فيه هذا قبل
القاضي سليمان ابن عمران (١١٣) .



٤ - أبو عثمان سعيد بن محمد الغسانى المعروف بابن الحداد :
ولد فى سنة ٢١٩ هـ وتعلم فى أفريقية بالقيروان وتونس وطرابلس (١١٤)

(١١٠) المرجع السابق نفس الصفحة .

(١١١) عياض المدارك ج ٣ ص ١٥٧

(١١٢) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ٢٠٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص

١٠٣ .

(١١٣) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٠٤ .

(١١٤) المناهل بن عاشور اعلام الفكر الاسلامى ص ٤٢ ، الدباغ

معالم ج ٢ ص ٢١٥ .

ولم يرحل الى المصرى فقد تلقى العلم على سحنون بالقيروان وابى سنان زيد بن سنان وابى الحسن الكوفى بطرابلس^(١١٥) . وغيرهم من العلماء الاجلاء الذين كانت تزخر بهم القيروان . ويتحدث بن الحداد عن أساتذته فيقول : « جالست المتكلمين فكل من لقيت من اهل العلم فما رأيت منهم أصح غريزة من سحنون وكان وقورا فيها »^(١١٦) .

وقد داوم بن الحداد على تحصيل العلم والجهد فيه الى أن برع فى العلم ولم يتقيد بالمذهب المالكي بل درس المذهب الشافعى ومال اليه من غير تقليد له^(١١٧) وكان يميل الى المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه مع احاطة تامة بالنحو ونحو وعلوم اللغة فكان لا يلحن فى كلامه .

ويبدو أن ما اتسم به من ذكاء وتحرر قد دعاه الى دراسة كل المذاهب كما يفهم من مؤلفه الذى رد فيه على كل المذاهب . ويخيل الى أنه لم يكن متقيدا بمذهب^(١١٨) وانما كان يجتهد رايه مع تقديره للعلماء الذين تلقى عليهم العلم فهو دائما يذكرهم ويثنى عليهم بخير .

وقد تلقى العلم عنه ابنه عبد الله وابو العرب تميم واحمد بن موسى التمام ومحمد ابن محمد اللباد^(١١٩) وعند قراءتنا لطبقات أبى العرب نجد كثيرا من الاخبار قد أوردها أبو العرب رواية عن ابن الحداد كما يذكر القاضى عياض كثيرا من الاخبار عنه فى المدارك^(١٢٠) مما يبين لنا المنزلة التى بلغها ابن الحداد عند العلماء المعاصرين له ومن تلقوا عنه .

-
- (١١٥) أبو العرب طبقات ص ٢٠٢ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٢ .
 - (١١٦) المدارك عياض ج ٢ ص ٥٩٢ .
 - (١١٧) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٢ .
 - (١١٨) حسن حسنى المازرى ص ٢٩ .
 - (١١٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٢ .
 - (١٢٠) انظر طبقات أبى العرب ص ٩٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ - ١٤٤ ، المدارك عياض ص ١٤ ، ٢٨ ، ٢٢١ ، ٣٣١ - ٣٣٧ .

وقد ألف أبو عثمان الحداد كثيرا من الكتب منها كتاب ايضاح المشكل وكتاب الاستيعاب وكتاب الامالى وكتاب عصمة النبيين وكتاب العبادة الصغرى والكبرى وكتاب الاستواء وكتاب المقالات رد فيه على أهل المذاهب اجمعين ويذكر الدباغ أنه كان يسمى المدونة لسحنون المدودة^(١٢١) انتقدها نقدا جعل أصحاب سحنون يعرضون عنه واعتقد ان الدباغ قد غالى فى وصف ابن الحداد للمدوثة وأنه ان كان انتقدها الا انه لم يكن نقده بأن يصفها بالمدودة لا سيما وقد سبق ذكرنا اعجابه بسحنون فى العلم . ويذكر بن حارث أن ابن الحداد ألف كتابا رد به على الشافعى وبعث به المزنى وابن أبى سعيد فلما ورد على المزنى رآه وسكت فجعل رجل من البغداديين يحركه فى جوابه والمزنى يعرض عنه فلما أكثر عليه رمى اليه بالكتاب وقال أما أنا فقراته وسكت فمن كان عنده علم فليتكلم «^(١٢٢) . وذلك يدل على دقته فى نقده وتحريه الصواب بحيث لم يستطع صاحب الشافعى أن يرد عليه ويذكر المالكى أنه كان يسئ الرأى فى أبى حنيفة واصحابه وروى عنه أنه قال تذكرت بقلبي مسائل لأبى حنيفة ركب فيها المحال اضطرابا نحو من اربعمئة مسألة^(١٢٣) .

وكل ذلك يبين لنا الاطلاع الواسع لابن الحداد على كل مذهب بذهن يقظ وعقل ناقد يتحرى الصواب والدقة فى كل ما يقرأ وقد اكسبه كل ذلك نفاذ رأى فيما يعرض عليه من المسائل كما اكسبه اعتدادا بنفسه فقد ذكر الدباغ أن ابن الحداد سئل يوما عن مسألة مقفلة من كلام اشهب فبدا بتزليلها والنظر فيها شيئا فشيئا حتى بلغ فيها ما بلغ اشهب فقال له السائل يا أبا عثمان كذا قال فيها اشهب فقال ابن الحداد لعل اشهب ما وضعها حتى تدبرها أياما ونظر فيها حيناً^(١٢٤) .

(١٢١) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٢ .

(١٢٢) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٣ .

(١٢٣) نفس المرجع والصفحة .

(١٢٤) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة من كتب بن الحداد : قطعة من كتاب
فى الرد على الشافعى مبدؤها فتحرم الصلاة التى صلاحها فى الكعبة
وأخرها آخر الكتاب لأبى عثمان سعيد الحداد ورقمها المسلسل من ١١٥٦
- ١٢٢١ •

وكتاب الطلاق من أمالى أبى عثمان سعيد بن محمد على أجوبة
المدونة ورقمه المسلسل من ١٤٨٠ - ١٥١٨ •

كما يوجد الجزء الرابع من معانى الاخبار خرجته وشرح معانيه
أبو عثمان سعيد بن محمد ورقمه المسلسل من ١٥١٩ - ١٥٤٩ •

وكذلك توجد قطعة من تفسير فى قالب طويل يظهر أنه لأبى عثمان
سعيد الحداد أولها ولا يجوز فى الصفة • وأخرها : يدخلون عليهم
ورقمها المسلسل من ٨٧٧ - ٩٠٤ (١٢٥) •

وقد وجه أبو عثمان الحداد كل علمه ومعرفته ودقة فهمه للدفاع عن
السنة ورد شبه أهل البدع المخالفين للسنة حتى مثله أهل القيروان بأحمد
ابن حنبل أيا مالمحنة ولم يقصر أو يجبن عندما ملك الفاطميون القيروان
وأظهروا تبديل مذهب أهل القيروان وأجبروا الناس على مذهبهم الشيعى
بطريق المناظرة وإقامة الحجة ولم يكن علماء المالكية الآخذين بالآثار
والتمسكين بطريقة السلف فى الآخذ بظواهر النصوص بدون تأويل مع
التنزيه والامتناع عن الاستدلال بالمقدمات النظرية والاصول الجدلية -
عندهم المقدرة، الكافية للموقف والجدل مع الفاطميين الشيعيين فلجأ
أهل القيروان الى أبى سعيد فسألوه التقية فأبى من التقية وقال قد قاربت
التسعين ومالى فى العيش من حاجة ٠٠٠٠ ولا بد لى من المناظرة والمناضلة
عن الدين وأن أبلغ فى ذلك عذرا (١٣٦) • وقد خوفه ولده من مخالفته
للشيعى أول دخوله فقال له يابنى حسبى من غضبت له وعن دينه

(١٢٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة.

(١٢٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٤ •

ذبيت • وشمر للأمر وأخذ اهبطه ونازلهم وناظرهم مناظرة الند للند بدون خوف أو وجل : ومما يروى عما دار فى هذه المناظرات^(١٢٧) قوله لما اجتمع بأبى عبد الله الشيعى فى مجلس المناظرة وقال له أبو عبد الله : أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم يعنى بأصحاب الكساء محمدا صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين وعلياً وفاطمة ويعنى بغيرهم أبا بكر فقال أبو عثمان : ايما أفضل خمسة سادسهم جبريل أو اثنين الله ثالثهما فبهت الشيعى^(١٢٨) .

وذكر المالكي أن أبا عبيد الله الشيعى قال له من أين قلتم بالقياس فقال له أبو سعيد قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل قال : فأين تجد ذلك ؟ قلت قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » فالصيد معلومة عينه والجزاء الذى أمرنا أن نمثله بالصيد المعلوم ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد ومنه قوله عز وجل يحكم به ذوا عدل منكم فلم يكله الى حاكم واحد حتى جعلهما اثنين ليقيسا ويجتهدا^(١٢٩) .

وذكر الدباغ أن أبا عثمان دخل على أبى العباس أخى عبد الله الشيعى وهو يقول لرجل ممن ينتسب الى العراقيين أليس العالم أفضل من المتعلم أبدا والعراقى يقول له نعم قال أبو عثمان ففهمت مراده ومقصوده بذلك توكيد الطعن على أبى بكر رضى الله عنه فى سؤاله عليا رضى الله عنه عن فرض الجدة فقلت أنى أسمع كلا ما يجب لله على أن لا اسكت قال وما ذاك قلت له المتعلم يكون أعلم من المعلم أبدا ويكون

(١٢٧) هناك أربع مجالس مناظرات بين أبى عثمان والشيعى مروية

ذكرت فى ملاحق كتاب عبيد الله المهدي لحسن إبراهيم وطه شرف •

(١٢٨) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٤ •

(١٢٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ نقلا عن المالكي •

أفضل منه قال وما دليله قلت قال رسول الله ﷺ رب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه غير فقيه . وآخر ما هو متعارف وهو أن المعلم يعلم الصبيان القرآن فلا يزال يعلمهم حتى يكبر الصبي فيعطى الله عز وجل الصبي من الفهم بعلم القرآن وخواصه ويظهره وباطنه ما لم يقدر المعلم على علمه أبداً (١٣٠) .

وكان أبو عثمان فى دفاعه متمسكا بالحق لا يخشى الا الله تعالى مع شدة الشيعة على مخالفهم وكان لا يذهب الى الشيعى الا أن يوجه اليه ولما بعث فيه وفى أصحابه ودخل عليه قال أين أصحابك ؟ قال هم أولاء على أثرى وتكلم معه يوماً فغضب عليه من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبى موسى شيخ المشايخ وقام اليه بالرمح فمنعه أبو عبيد الله من ذلك ثم عطف على أبى عثمان وقال له ياشيخ لا تغضب أتدرى اذا غضب هذا الشيخ يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف فقال له عثمان ولكنى انا يغضب لغضبي الله الواحد القهار الذى هلك عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا (١٣١) .

ذلك طرف من بعض المناظرات التى خاضها أبو عثمان مع الشيعة وهى تؤيد ما وصفه به محمد بن حارث من انه لسان القيروان وفصيحتها (١٣٢) .

وكان أبو عثمان فقيرا ومتقللا من الدنيا فى ابتداء أمره حتى كان اذا باضت دجاجة فى داره فرحوا لذلك لانهم يشترون بها بقالا وكان مع ذلك يحافظ على مظهره وملبسه رغم فقره فكانت كسوته آنذاك تندر بعشرين دينارا وكانت له همة يتيه بها على أهل الدنيا ويلبس لباس الشرفاء للتيه فى أعين الاعداء يعنى عبيد الله وشيعته وكان متقللا فى طعامه ويقول : القناعة غنى (١٣٣) .

(١٣٠) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(١٣١) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢١٠ .

(١٣٢) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩١ .

(١٣٣) انظر الدباغ معالم ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

ومن حكمه الماثورة: (١٣٤) « تقديم من أخره الله وتأخير من قدمه
فتنة فى الأرض وفساد كبير » سل ربك العافية من بلاء يضطرك الى
معصية » .

« انما هو دين او مروءة فمن عرا منهما فقد عرا من كل خير » .
« القرب من السلاطين فى غير هذا الوقت حتف من الحتوف فكيف
به فى هذا الوقت » .

« ليس من كل ذنب يجب فيه العفو ولا كل حالة يجب فيها
الحلم » .

« القلب الحى كاللحم الحى اليسير يؤله والقلب الميت كاللحم
الميت الكثير لا يؤله » .

وقد ظل أبو عثمان ينشر علمه وفكره ومعرفته بين تلاميذه
ويدافع عن السنة ضد من يعتدى عليها الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٠٢ هـ
فكانت وفاته خسارة لأهل القيروان فى مقاومة الشيعة بالحجة والمنطق
ولذلك خرج البريد يبشر أمير الفاطميين بوفاة . وقد رثاه شعراء
القيروان بما يدل على شدة حزنهم وأسفهم لوفاته رحمه الله رحمة
واسعة (١٣٤) .

٥ - النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون يكنى أبا حنيفة
المغربى (١٣٥) :

لا نعرف متى ولد النعمان الا أن ما ذكر عنه من أنه كان مالكى
المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلى الشيعى فأخلص له (١٣٦) يمكن أن
يفهم منه أنه ولد وتمذهب بالمذهب المالكى قبل قيام دولة الفاطميين

(١٣٤) انظر الدباغ معالم ج ٢ ص ٢١٥ ، الفاضل بن عاشور
اعلام الفكر الاسلامى ص ٤٣ .

(١٣٥) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨٦ عن رفع الاصر ص ١٣٦ .

(١٣٦) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٤ .

سنة ٢٩٦ هـ وعند قيام الدولة الفاطمية ودراسته للآراء الشيعية مال إليها واعتنقها ودخل في خدمة عبيد الله الفاطمي سنة ٣١٣ هـ ولا شك أن الفاطميين لم يسندوا إليه عملا إلا وقد أنسوا منه فهما حقيقيا لمذهبهم واعتناقا له .

وقد وجه النعمان جهده العلمى أيام المهدي والقائم والمنصور الى الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الشيعى وقد عين قاضيا أيام المهدي^(١٣٧) كما تولى قضاء طرابلس أيام القائم وعندما تولى المنصور عينه قاضيا لقضاته ومنحه بعض النفوذ وكتب له عهدا « بالقضاء على المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن افريقية »^(١٣٨) .

وكان النعمان يقيم الحق على الشريف والمشروف ويحكم بالعدل بين القوى والضعيف وقد قدر المنصور وابنه المعز من بعده هذه الصفات فى النعمان وحثاه على الاستمرار فى التمسك بها .

كما كان من مهمته كقاضى للقضاة أن يخطب فى كثير من الأحيان فى المساجد الجامعة فى القيروان والمنصورية والمهدية ويعين من ينوب عنه فى الأقاليم ويعزل من يستحق العزل وكان يضع لقضاته فى الأقاليم الخطة التى يسيرون عليها فى القضاء بين الناس وما يستطيعون به أن يحتفظوا بهيبتكم أمام الناس وأخذ الحق للمظلومين .

وقد ذكر النعمان فى وصيته لبعض القضاة الخارجين الى الأقاليم ما يبين به وجوب تمسكهم بالحق وأدائهم للامانة وتمسكهم بالصواب « أن أحق ما نظرت فيه وعملت له الوفاء بالعهد وإداء الأمانة فيما قلدتموه وامتنال ما عهد أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) اليكم فيه لما يجب لله وله عليكم فى ذلك . ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم

(١٣٧) المعز لدين الله حن إبراهيم طه شرف ص ١٩٠ .

(١٣٨) المعز لدين الله حسن إبراهيم طه شرف ص ١٩٠، نقلا عن

المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٠٣ .

لكم به النعمة وإن تقتدو فى ذلك بما تشاهدونه من عوام الناس مثل
ضراب^(١٣٩) وصائح وخياط وقصار^(١٤٠) وأمثالهم من الصانع فقد ترون أن
أحدهم يسلم اليه العمل يساوى المال العظيم ، يعمل بالاجر التافه
اليسير ولا يشهد به عليه ولا يتوثق فيه منه وقد يكون فقيرا او غير ورع
ولا امين ولا ناظر فى علم ولا دين فيفى بأمانته ويصرف ما دفع الى من
استعمله فيه ويقبض تافها من الاجر عليه ولا يدعو الى ذلك الا انه يعلم أنه
أن احتبس مما دفع اليه وانكره تناذره^(١٤١) الناس فلم يستعملوه فيرى أن
ما يأخذه من الاجر شيئا بعد شئ أبجدى عليه وانفع له وأنتم تصيرون من
فضل الله ما أن استمدتموه بحفظ ما استحفظتم دام لكم مع حسن
الاحدوثة فيكم ورجاء الزيادة لكم ، وما ترجون من ثواب ربكم فمن سمع
من أولياء الله مثل ما قدمت ذكره فلينزله على ما نزلته^(١٤٢) ولا يذهب
به الى حيث ذهب من نطق الكتاب بذمه^(١٤٣) وبين الله عليه فساد ما توهمه
وذهب اليه . والله يهدى من تمسك بحبل أوليائه^(١٤٤) الى طاعته والعمل
بما يرضيه ويرضيهم قولاً وعملاً ونية وموافقة للصواب^(١٤٥) .

وقد ألف النعمان فى كثير من العلوم والفنون فألف فى الفقه
الشيعى وفى المناظرة والتأويل والعقائد والسير والتاريخ والوعظ وغير
ذلك ويذكر الدكتور حسن ابراهيم أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتاباً
بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتاباً وضاع الباقي^(١٤٦) .

-
- (١٣٩) الضراب : النجاد .
 - (١٤٠) القصار : الصناعة . فالقصار هو الصانع .
 - (١٤١) تناذره الناس : حذر بعضهم بعضاً من معاملته .
 - (١٤٢) أى يقدره ويعمل به ليكون مثالا .
 - (١٤٣) ذم الله من لم يطع ربه ورسوله وأولى الأمر .
 - (١٤٤) يقصد بالأولياء : انصار الدولة وأشيعاها .
 - (١٤٥) المعز لدين الله حسن ابراهيم وطه شرف ص ١٩٠ ، ١٩١
 - نقلا عن المجالس والمساربات للنعمان ج ١ ص ١٣ - ١٥ .
 - (١٤٦) تاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٤٧٥ .

ومن بين هذه الكتب كتاب « دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام » فى الفقه الشيعى ويعتز به البهرة فى اليمن والهند وجعله حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم فى فارس فى كتابه راحة العقل فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث^(١٤٧) . ومن كتب النعمان كتاب الينبوع وكتاب الايضاح وكتاب مختصر الآثار وكتاب الطهارة وكتاب كيفية الصلاة وكتاب منهاج الفرائض . ومن كتبه فى المناظرة التى ألفها : الرسالة المصرية فى الرد على الشافعى والرسالة ذات البيان فى الرد على ابن قتيبة وكتاب فى الرد على بن سريج البغدادى وكتاب اختلاف اصول المذاهب وقد ألف فى العقائد كتاب القصيدة المختارة وكتاب المهمة وكتاب الشروط وكتاب التعاقد والانتفاد .

وفى الأخبار والسير ألف كتاب شرح الأخبار ، وارجوزة تسمى « ذات المنن » وارجوزة تسمى « ذات المحن » وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة وكتاب مناقب بنى هاشم .

كما ألف فى الوعظ كتاب المجالس والمسائرات ، ومعالم الهدى^(١٤٨) وغير ذلك من الكتب التى تبحث فى كثير من الموضوعات والدالة على ما امتاز به النعمان من عقل حصيف وذهن وقاد .

وقد عرض النعمان كل هذه المؤلفات بأسلوب سهل بعيد عن الاغراق والشطط ومن عرضنا لأسماء هذه الكتب والموضوعات التى كتبت فيها يتبين لنا الأثر الكبير والمجهود العظيم الذى قام به النعمان فى الحياة الفكرية كما يعطينا صورة لبعض ما كانت عليه القيروان فى أيام الفاطميين وقد استمر النعمان يشغل منصبه كقاض للقضاة الى أن قدم مصر صعبة المعز وظل يتولى القضاء فى عسكر المعز الى أن ادركته الوفاة فى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ^(١٤٩) وصلى عليه المعز .

(١٤٧) المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(١٤٨) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٦ - ٤٧٨ ،

المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

(١٤٩) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨٦ نقلا عن رقع الامر ص ١٣٦

وهكذا نرى بعد هذا العرض أن القيروان مع ازدهارها بالعلماء الأجلاء الأفذاذ فى الفقه المالكي الذين تزعموا المدرسة المالكية وتخرج على أيديهم الأعداد الكثيرة التى انتشرت فى أرجاء المغرب والأندلس وصقلية فاننا مع كل هذا نرى علماء أجلاء قد درسوا المذهب الحنفى وحملوا الويته وعندما قامت الدولة الفاطمية لم نتخلف القيروان عن دراسة المذهب الشيعى مع معاداة معظم العلماء له بل انتجت القيروان الفقهاء والمفكرين فى المذهب الشيعى كذلك . كما كان هناك من العلماء من مال الى مذهب الشافعى أو درس المذهب الحنبلى .

وبذلك يتجلى لنا بوضوح أن الحركة الفكرية فى القيروان فى علوم الفقه والتشريع والقضاء لم تقصر أو تتأخر عن مثيلاتها فى مراكز الفكر الاسلامى الأخرى . وإنما تعددت مناحيها وتنوعت أغراضها وشملت معظم المذاهب الاسلامية الشريعية فى العالم الاسلامى . بما يعطى لهذا المركز الاسلامى مكانته الهامة فى الحياة الفكرية فى العالم الاسلامى ويدل على الدور العربى والأصيل الذى قام به فى نشر الثقافة الاسلامية فى الجزء الغربى من العالم الاسلامى ثم فى العمل على عبوره الى أوروبا عن طريق صقلية وسردينيا والأندلس وقبل ذلك ساعد على انتشاره فى وسط وغرب افريقيا .



القرآن والتفسير والحديث

ان اعتناء علما القيروان ومكانها بحفظ القرآن الكريم أمر مفروغ منه ومسلم ولكن الذى حدث فى فترة الازدهار هو الاقبال على تعرف القراءات وأحكامها والتأليف فيها وتعليمها للناس كما كان هناك من يعتنى بتحسين صوته بتلاوة القرآن وهذا دليل على وجود حركة فكرية فى فن القراءات وأحكامها .

ومع احاطة العلماء الفقهاء الذين تحدثنا عنهم بقراءة القرآن والتفسير والحديث الا أن هناك علماء قد وجهوا معظم اهتمامهم الى

قراءة القرآن أو اشتهروا بالتفسير أو الحديث وكان معظم جهدهم موجهة الى ذلك .

ومن أجل هذا أفرد البحث الحديث عنهم باعتبار أنهم يمثلون جانباً فكرياً من العلوم الشرعية ومالوا الى التبحر في هذه العلوم مع عدم توجيه كل اهتمامهم الى الفقه كما حدث بالنسبة للذين حملوا رأيه الفقه والقضاء الذين تحدثنا عن أهم اعلامهم .

وكان الغالب على أهل القيروان قراءة القرآن بحرف حمزة ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص^(١٥٠) ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أن ورشاً المقرئ امام القراء أصله من القيروان وإن شيخه نافع هو الذي لقبه ورشاً لشدة بياضه^(١٥١) ، وقد ظل الحال على ذلك أن قدم محمد بن خيرون الأندلسي الذي سكن القيروان ورحل الى المشرق وأخذ القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطي وأبى الحسن اسماعيل ابن يعقوب الأزرقى المدنى ودخل العراق وسمع من أصحاب على بن المنى ويحيى بن معين وعاد الى القيروان فأخذ يقرئ الناس بحرف نافع وكان اماماً فيها فاجتمع اليه أهل القيروان وأخذوا هذه القراءة عنه وكان ابن خيرون يحمل بشدة على مذهب المشيخة من أصحاب ورش فروى عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب قراءة نافع^(١٥٢) وتركوا ما عداها ولذلك يخبرنا المقدس « أما القراءات في جميع الأقاليم فقراءة نافع فحسب »^(١٥٣) وقد توفي ابن خيرون سنة ٣٠٦ هـ وهكذا سادت القراءة بحرف نافع حتى أن ابن طالب أيام توليه القضاء في القيروان

(١٥٠) نفح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٢٧١ .

(١٥١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ج ٢ ص ١٥٥ واسمه

عثمان بن سعيد ولد سنة ١١٠ هـ وتوفي سنة ١٩٧ هـ .

(١٥٢) انظر نفح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٢٧١ ، العرب في

صقلية لاحسان عباس ص ١٠٤ نقلاً عن المتفق للمقريزى .

(١٥٣) احسن التقاسيم للمقدس ص ٢٣٨ .

أمر ابن برغوث المغربي بجامع القيروان ألا يقرء الناس إلا بحرف
نافع (١٥٤) .

ويذكر لنا أصحاب الطبقات عددا ممن اشتغلوا بتعليم القرآن
أو بعلم الفراءات وبعضهم حاول أن يكون صوته حسنا بقراءة الفران
فأحمد بن يزيد القرشي الذي سمع من سحنون كان أول عمره يعلم
القرآن (١٥٥) ، وربيعة بن عطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٤ هـ كان
عالما بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانيه وعبد الله بن إسحاق التبان
كان من أحفظ الناس بالقرآن والتفنن في علومه (١٥٦) . وأبو بكر بن
بشير المتوفى سنة ٣٠٨ هـ كان معلما للقرآن ومتهجدا بقراءته (١٥٧) .
وإبراهيم بن الحسن بن محمد التميمي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ كان من
أهل العلم والقرآن وأعطى حسن الصوت بالقرآن (١٥٨) وإمام الجامع
بالقيروان محمد بن مسعود التميمي طلب العلم بالشرق والمغرب وجود
القراءات (١٥٩) . وأبو بكر محمد بن أبي الفتح المعروف بابن الصواف
المقرئ والذي أم الناس بجامع القيروان وتوفى سنة ٣٤٤ هـ كان مجودا
للقرآن حسن اللفظ به (١٦٠) .

وفي نهاية أيام الفاطميين بالقيروان كان أبو عبد الله محمد بن
سفيان المقرئ الذي تلقى علم القراءات على أبي الطيب بن غلبون
المقرئ وقد فاق أهل زمانه في الفراءات وأخذ عنه علم القراءات كثير
من الناس وقد ألف في فن القراءات كتابه «الهادي في القراءات» (١٦١) .

-
- (١٥٤) المالكي رياض ص ٣٧٨
 - (١٥٥) المالكي رياض ص ٣٧٤
 - (١٥٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٣٢ ، ٥١٧
 - (١٥٧) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٤٦
 - (١٥٨) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٨ ، ٤٩
 - (١٥٩) نفس المرجع السابق ص ٦٥
 - (١٦٠) المصدر السابق ص ٦٧
 - (١٦١) المصدر السابق ص ١٩٦ ، نفح الطيب للمقرئ ج ٣ ص ٣٩٨

هذا بالإضافة الى عدد كبير من العلماء والعباد كانوا مشتغلين بقراءة القرآن حتى أن أبا الحسن ابن دارس المتعبد عندما حضرته الوفاة قال : هذه الجبة الصوف والكساء ختمت فيهما الفران ثمانية آلاف ختمة ليلا ونهارا كفنوني فيهما^(١٦٢) . ومحمد بن نصر المتعبد كان يختم القرآن كل ليلة ثلاث ختم^(١٦٣) .

وهكذا يتبين لنا كيف كان يهتم اهل القيروان بالقرآن قراءة وحفظا وتجويدا .

ومع اهتمام العلماء فى القيروان بالقرآن فقد كان هناك اهتمام كذلك بالتفسير ومن اشهر المفسرين فى أيام الأغالبة يحيى بن سلام التميمي الذى ولد بالكوفة سنة ١٢٤ هـ وسكن القيروان وتوطنها مدة من الزمان ثم خرج الى المشرق فتوفى بمصر سنة ٢٠٠ هـ وله كتاب فى التفسير رتبته تلميذه أبو داود العطار^(١٦٤) .

وتوجد أجزاء وأوراق فى مكتبة القيروان العتيقة من هذا التفسير بعضها من تفسير الفاتحة والبقرة (فى كراس أوراقه عشرة لم يصور) والبعض من سورة الأنعام رقمه المسلسل من ٤٨٤ - ٥١٥ .

والموجود من الربع الثانى من القرآن البعض من سورة الأنفال والبعض من سورة التوبة (مصورا من ٧٠٩ - ٧٩٨ ومن ٥٨٢ الى ٦٠٩) والبعض من سورة يوسف والرعد والحجر من (٤٨٠ الى ٤٨٣ - ومن ٦٥١ الى ٦٨٩ ومن ٧٩٩ الى ٨٠٢) وجزء به تفسير آخر سورة الكهف (مصور من ٥٢٠ الى ٥٤٩) .

والموجود من الربع الثالث : جزء به تفسير بقية سورة طه وبعض

(١٦٢) المالكي رياض ص ٣٨٩ .

(١٦٣) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٤٢ .

(١٦٤) أبو العرب طبقات ص ١٦١ ، المالكي رياض ص ١٢٢ ،

الدباغ معالم ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، تقويم تونس سنة ١٩٤٦ ص ٤٨ .

الأنبياء (لم يصور) والبعض له صور من (٥٥٠ - الى ٥٦١) وهذا
الريح الثالث يوجد كاملا بالمكتبة العبدلية على الرق مكتوب بخط أندلسي
جميل فى سنة ٣٨٣ هـ ورقمه بالفهرس ١٣٤ .

والموجود من الريح الرابع من القرآن فى المكتبة العتيقة : البعض
من أول سورة الجاثية والأحقاف ومحمد والفتح (مصورا من ٤٧٢ الى
٤٧٩ ، ومن ٥٦٢ الى ٥٨١) ومن السور الآتية : الواقعة - الحديد -
المجادلة - الحشر - الممتحنة - الصف - الجمعة - المنافقون - التغابن -
الطلاق - التحريم - الملك - القلم - الحاقة - المعارج - نوح (مصور
من ٣٣٣ الى ٣٦٥ ومن ٤٠٣ الى ٤٨٦ ومن ٧٣١ الى ٧٣٣)^(١٦٥) .

وقد سبق أن ذكرنا فى الحديث عن أبى عثمان الحداد أن مذهبه
كان المناظرة وفهم القرآن ومعانيه وكان يقول : ما حرف من القرآن
الا واعدت له جوابا ولكن لم أجد له سائلا^(١٦٦) ، وكان محمد بن زرور
يقول : انى احفظ تفسير يحيى بن سلام كما احفظ القرآن^(١٦٧) .

وتمدنا المصادر بأسماء عدد ممن كان مهتما بالتفسير فى
القيروان منهم :

أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان الذى ألف فى أحكام
القرآن اثنى عشر جزءا وقد أعجب به أهل مصر عندما قدم عليهم وولى
قضاء طرابلس وتوفى سنة ٣٠٦ هـ^(١٦٨) .

وأبو بكر محمد بن محمد بن اللباد الذى ضرب بسهم وافر فى

(١٦٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

(١٦٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٣ .

(١٦٧) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(١٦٨) المصدر السابق ص ٢٣٣ ، البيان لابن عذارى ج ١ ص ١٨١ ،

الدباغ لابن فرحون ص ٣٤٢ .

علم القرآن قراءته واعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه^(١٦٩) ، وعبد الله ابن اسحق المعروف بابن التبان وكان متفننا فى علوم القرآن وأبو اسحاق الجبنيانى الذى كان حسن القراءة للقرآن يحسن تفسيره واعرابه وناسخه ومنسوخه^(١٧٠) . وغير هؤلاء كثير ممن كان مهتما بتفسير القرآن ومعرفة أحكامه والذين نجد لهم أخبارا متفرقة فى مختلف المصادر وذلك يعطينا فكرة عن اهتمامهم بالتفسير وأن لم يصل الى درجة اهتمامهم بالفقه كما تبين لنا أو بالحديث كما سيتبين بعد .

فقد كان لبعض العلماء فى القيروان اهتمام كبير بالنسبة للحديث جمعه وحفظه ومعرفة رجاله واسمائهم وكناهم وتقصى الضعفاء منهم والثقات والعلم بمعانى الحديث وعلله وغريبه .

وممن وجه عناية كبيرة الى الحديث وتلقيه من علماء القيروان والرحلة فى سبيل جمعه من الأمصار الأخرى المشرق فى بداية عصر الازدهار موسى بن معاوية الصمادحى الذى كان ثقة مأمونا عالما بالحديث كثير الاتخذ عن الرجال المدنيين والكوفيين والبصريين وغيرهم من أهل الأمصار^(١٧١) . فقد تلقى فى القيروان عن البهلول بن راشد ورباح بن زياد كما تفقه على على بن زياد فى تونس وعند رحلته الى المشرق تلقى الحديث عن وكيع بن الجراح وسفيان بن عيينة والفضل بن عياض وعبد الرحمن بن مهدي وزيد بن هارون وجريير بن عبد الحميد . قال موسى معبرا عن رحلته : رحلت من القيروان ولا اظن أنى أرى أحدا أخشع من البهلول بن راشد حتى لقيت وكيع بن الجراح ولم ألق أحدا أروى من وكيع كان يروى خمسة وثلاثين ألف حديث يقرأها علينا ظاهرا على تأليفها ما يشك فى حديث منها^(١٧٢) . وقد تجشم موسى فى جمع

(١٦٩) الدباغ معالم ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(١٧٠) عياض المدارك ج ٣ ص ٤٩٩ ، ٥١٧ .

(١٧١) أبو العرب طبقات ص ١٩٠ .

(١٧٢) المدارك عياض ج ٣ ص ٦ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٣٣ ،

المالكي رياض ص ٢٩١ .

الحديث عناء ومشقة كبيرة فقد سافر فى سبيل جمع الحديث الى أبعد من المدينة ومكة والشام والعراق حيث رحل ليلقى جرير بن عبد الحميد الضبى فى مدينة الرى فى أرض خراسان^(١٧٣) . وهذا يوضح لنا الجهد الذى بذله علماء القيروان فى البحث عن الحديث وجمعه وكانت رحلة موسى سنة ١٨٤ هـ وعاد الى القيروان سنة ١٨٩ هـ وقد سمع منه الحديث سحنون وابن وضاح وأحمد بن يزيد القرشى وأبو الفضل بن حميد وعامة أهل إفريقية^(١٧٤) . يقول أبو العرب أما رجاله الذين تلقى عنهم فكثر لا أحيط بهم لكثرتهم^(١٧٥) . قال عنه أبو الحسن الكوفى : لم يكن عندكم بأفريقية محدث إلا موسى بن معاوية وعباس بن الوليد بن الفارسى أى انهما أعظم المحدثين بأفريقية .

وقد ألف موسى بن معاوية كتاب الزهد وكتاب مواعظ الحسن محمد بن رشيد مولى عبد السلام ابن مفرج الربعى .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة كتاب فيه أحاديث فى السنة والنهى عن البدعة لما حدثنى به أحمد بن زيد المعلم عن موسى بن معاوية الصمادحى وغيره . رقمه المسلسل من ٩١٩ - ٩٣٦^(١٧٦) .

وقد توفى موسى بن معاوية سنة خمس وعشرين ومائتين عن خمس وستين سنة^(١٧٧) .

ومن العلماء بالآثار : محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وقد

(١٧٣) المالكى رياض ص ٢٩٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٣٦ .

(١٧٤) انظر أبو العرب طبقات ص ١٩٠ ، ١٩١ ، عياض المدارك

ج ٣ ص ٦ .

(١٧٥) المصدر السابق .

(١٧٦) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

(١٧٧) أبو العرب طبقات ص ١٩١ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٨ .

سمع من موسى بن معاوية الصمادحي^(١٧٨) ومنهم محمد بن يحيى بن سالم التميمي الذي كانت له عناية كاملة بالحديث ونقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله وحملته عارفا للسنن جامعاً لها اماماً فيها وقد توفي سنة ٢٦٢ هـ (١٧٩) .

وأبو عبد الله أحمد بن يزيد المعلم الذي يروى عن موسى بن معاوية الصمادحي وكان عالماً بالحديث وعلمه^(١٨٠) وتوفي سنة ٢٨٤ هـ ، ويحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي الذي حضر على علماء القيروان ورحل الى المشرق ثم سكن القيروان وسمع عليه عدد كبير من أهل القيروان في الجامع بها وله كتب كثيرة وكتب في أصول السنن ككتاب الميزان وكتاب الرؤية وكتاب الوسوسة وكتاب احمية الحصون وكتاب فضل الموضوع والصلاة^(١٨١) توفي سنة ٢٨٩ هـ ومنهم عيسى بن مسكين الذي تعلم في القيروان وسمع من علمائها ورحل الى المشرق وكان عالماً بالحديث وأسماء الرجال وكناهم وقويهم وضعيفهم وقد تولى القضاء في القيروان وتوفي سنة ٢٩٥ هـ^(١٨٢) . ومنهم أبو سليمان ربيع بن عطاء الله القطان كان حافظاً للحديث عالماً بمعانيه وعلمه ورجاله وغيره وخرج الى الحج مرتين الأولى سمع فيها الحديث وكانت له حلقة بجامع القيروان أيام أبي يزيد وسمع منه ابن أبي زاهر وأحمد بن زياد وابن اللباد وأبو العرب وأبو جعفر القصري والتمار وغيرهم . وقد قتل شهيداً في حصار المهديّة سنة ٣٣٤ هـ^(١٨٣) وأبو الحسن القابسي الذي صنف في

(١٧٨) المالكي رياض ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(١٧٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٨ .

(١٨٠) المصدر السابق ص ١٣٧ .

(١٨١) انظر الديباج لابن فرحون ص ٣٥١ .

(١٨٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٢١٣ ، الديباج لابن فرحون

ص ١٧٩ .

(١٨٣) نفس المرجع ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ، ٣٣٠ .

الحديث كتاب الملخص جمع فيه ما اتصل اسناده من حديث مالك بن
انس فى كتاب الموطأ^(١٨٤) .

وبهذا يتبين لنا مدى ما وصلت اليه القيروان من عناية بالحديث
وتصحيحه والبحث عن رجاله وعلمه بما يعطها وضعها بين غيرها من
مراكز الفكر الاسلامى .

* * *

٢ - العلوم العربية

تمهيد :

كما نمت العلوم الشرعية وازدهرت خلال حكم الاغالبة والفاطميين
فقد ازدهرت العلوم العربية خلال هذه الفترة بشتى فروعها الأدبية
واللغوية فكان هناك الشعراء والخطباء والكتاب وعلماء النحو واللغة
من أبناء القيروان الذين رحلوا الى المشرق أو تعلموا فى القيروان وعدد
آخر وفد من المشرق الى القيروان . وكثير من هؤلاء وهؤلاء كان يعقد
الحلقات التى تغص بالطلاب لتلقى العلوم العربية والاحاطة بقوانين
اللغة .

وقد شجع على كل ذلك تحلى كثير من الأمراء بالميل الى الآداب
والعلوم واتخاذ ذلك وسيلة لبسط سلطان الدولة واتساع نفوذها والدفاع
عنها ضد أعدائها . مما أدى الى ازدهار الكتابة والخطابة وقيام الشعر
بدور كبير فى كثير من أغراضه وأهدافه وخاصة فى تصوير الحياة وتجسيد
الآمال والزود والدفاع عن الدولة ونشر مبادئها ونلاحظ ذلك بصفة واضحة
خلال قيام الدولة الفاطمية .

(١٨٤) انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩ .

١ - الأدب :

خطابة - شعر - كتابة

(١) الخطابة :

ان قيام دولة من الدول أو مذهب من المذاهب يحتاج الى السنة ناطقة لشرح المبادئ والأهداف ثم بعد قيام الدولة أو المذهب يحتاج الى من يدافع عنه بالفكرة والبيان واللسان الذرب والمنطق الفصيح ، ولذلك كان قيام الدولة الأغلبية ثم الدولة الفاطمية بمذهبها الشيعي عاملا من عوامل رقى الخطابة وازدهارها وقد وصف المؤرخون رأس الدولة الأغلبية ابراهيم بن الأغلب بأنه خطيب مفوه ذو رأى وبأس وحزم ومعرفة بالحرب جرىء الجنان طويل اللسان حسن السيرة^(١٨٥) .

وقد خطب ابراهيم بن الأغلب فيمن نهض معه لاستخلاص القيروان من يد تمام بن تميم التميمي الذي طرد العكي منها ٠٠٠ فحمد الله واثنى عليه وتكلم بكلام كثير حرضهم به على قتال تمام وكان فيما قال لهم : « والله ما لكم من شام تلجئون اليه ولا عراق تستمدون منه ما لنا ملجأ الا السيوف ، ولا تذرع الا الصبر فمن عزم على غير هذا فقد أذنا له فى الانصراف » ولذلك قام عمرو بن معاوية فقال : « أصلح الله الأمير مانشك فى طاعتك وخلافه ولا فى حقك وباطله وانك اذا نهضت فى قلة من المال والفرسان بنفسك وأهل بيتك لوائق بأن ينصرك الله نصرا يكون مثلا فى الناس لأنك أهل لذلك بحسن نيتك وخلوص مريرتك وانك بقية أبرار وخلف أخيار ونحن نبلغ مبلغ الجهد فى مناصحتك وايثار هواك فى الحق على هوانا ولك الاجابة منا الى الدعوة اليه ان شاء الله . فقام عمران بن مجالد فقال : « أصلح الله الأمير فوالله أحصى ما شهدت من العساكر ما منها عسكر الا وطلائعه أكثر من عسكره والله لا يأتيك أمر من الموت بين تلك الجماعة ولكانى بك غدا على منبر القيروان وان

(١٨٥) انظر تاريخ افريقية للرقيق ص ٢١٢ الحلة السيرة

لابن البارط ص ٩٣ ، ٩٤ .

نفسى لتحدثنى من نصر الله عز وجل ما لو أرسلت رجلا واحدا لأخذها لك ان شاء الله « ولذلك وصف شاعر ، ابراهيم بن الأغلب فى هذا الموقف وقد جمع ابراهيم أهل بيته وبنى عمه وخاصته فكانوا سبعين فارسا فقال :

هاتوا لنا رجلا أردى بنجدته سبعين الفا بسبعين من الناس
ما مر يوم لابراهيم بعلمه الا وشيمته للجود والباس

وقد خطب ابراهيم بن الأغلب من على منبر القيروان عندما دخلها خطبة بين للناس فيها عواقب الخلاف وذكر الناس فيها بحالتهم وبين فيها الهدف من قدومه^(١٨٦) .

وقد كان من ابناء الأسرة الأغلبية الحاكمة بعض الأدباء والخطباء منهم محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب الذى كان عالما أدبيا شاعرا خطيبا مع حسن عشرة لآخوانه ولين لأخذانه لا ينادم الا أهل الأدب وقد ألف كتاب « راحة القلب » وكتاب « الزهر »^(١٨٧) .

ولقد ازدهرت الخطابة الدينية فى هذه الفترة وقد تفتحت أكمال العلوم الشرعية وشاع التعليم الدينى ، وقد أورد لنا المالكى وصاحب المدارك خطبة فى الاستسقاء القاها أبو خازجة عنبسة بن خازجة الغافقى المتوفى سنة ٢١٠ هـ وهى تبين لنا الفهم الدقيق للإسلام وسعة الأمل فى الله سبحانه وتعالى وتمكن الخطيب من ناصية اللغة مع سلاسة فى الأسلوب وأصابة للمعانى وتشبع بالروح الدينية ، فقد بسط يديه وقال : « انت مولانا ما لنا غيرك ولا سواك بك نالوا الدرجات الرفيعة والمواهب العالية ، ولولاك ما نالوها وأنت ذو رحمة واسعة وأنت العالم بأحوالنا وقبيح أعمالنا ومالنا غيرك ولا سواك وقد قامت آمالنا بك وقد جثونا بين يديك بهائمنا جائعة وأرضنا سوداء يابسة وقلوبنا خائفة وبيوتنا

(١٨٦) انظر ملحق الخطابة .

(١٨٧) ابن الأثير الحلة الميراء ج ١ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

فارغة وسماؤك عامرة وخزائنك واسعة فاسقنا سقية نافعة تجدد الايمان فى قلوبنا ولا نبرح من بين يدي كريم حتى يسقينا » ووسيلتنا اليك نبينا الذى جعلته رحمة لنا صلى الله عليه وسلم قال نصر بن خالد : فرأيت سحابة بيضاء رقيقة ثم رأيت السماء اندفقت بالغيث فرأيت إبا خارجة وهو يرفع ثيابه وهو يقول : « بهذا يعرف الكريم هذا فعلك فى من قصدك فبهذا تعرف وتوصف » (١٨٨) .

وقد ذكر الدباغ أن عبد الله بن أحمد به طالب التميمي القاضى كان فطنا فصيحاً فى خطابه وكان يخطب بمسجد القيروان وأن محمد ابن زرقون أقام اماماً وخطيباً بمسجد القيروان عشرين سنة وقد توفى سنة ٢٧٨ هـ (١٨٩) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية وهى سلطة جديدة ذات مذهب جديد كانت ذات اثر فى نهضة الخطابة لتثبيت أركانها ونشر مذهبها وقد كان أمراء هذه الأسرة جميعاً فى مرتبة عالية من المعارف فما منهم من لم يفرض الشعر وينطق بالخطبة الفصيحة ارتجالاً لا فرق بين متولى الحكم منهم ومجرد الأمير .

وكان الخليفة الثانى القائم بأمر الله خطيباً فصيحاً يلقي الخطبة ارتجالاً (١٩٠) وما من خليفة فاطمى الا كان مهتماً بالعلم والمعرفة وخاصة بالنسبة لمذهبه الشيعى وكان ذلك مما أدى الى نهضة الخطابة دفاعاً عن الدولة ومذهبها الذى قامت عليه ومن أجل نشره وتعميمه بين الناس .

(ب) الشعر :

ازدهر الشعر فى هذه الفترة ازدهاراً امتطاع خلاله ان يتحدث

-
- (١٨٨) المالكي رياض ص ١٦٤ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٨٩ .
 - (١٨٩) الدباغ معالم الايمان ج ٢ ص ٨٦ ، ١٢٢ .
 - (١٩٠) مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٧٧ ، ٨٢ .

عن معظم الأغراض التى طرقها الشعراء فكان هناك الشعر السياسى والمذهبى ، وقال الشعراء شعرا فى الغزل والرياء والفخر والزهد والحكمة ، كما كان هناك الشعر الوصفى والتاريخى والاجتماعى وقال بعض الشعراء القصائد فى العتاب وطلب العفو وغير ذلك من الأغراض التى عبر الشعراء عنها خلال هذه الفترة .

ولقد كان هناك عدد كبير يقول الشعر فى القيروان بلغ كما يقول الدباغ الى ثلاثمائة شاعر وقفوا وقالوا الشعر عند وفاة محمد بن سحنون رثاء له^(١٩١) . وكانوا يحتكمون الى الحكماء اللغويين من الأدباء لتقدير قصائدهم وبيان مدى ما تتمتع به من الجودة والاتقان ويذكر أنه لما اجتمعت المراثى فى محمد بن سحنون اتوا بها « المهرى » ليعرضوها عليه فقام شاب من اهل الساحل فأنشأ يقول :

خل المدامع كى تجول مجالها .. قطعت يمين العلم ثم شمالها
فقال له : حسبك يا هذا لا تزده فلو قلت ما عسى أن تقول ما قلت
مثل هذا البيت^(١٩٢) .

وقد بلغ من شدة اهتمام الأمراء بالشعر والشعراء أنهم كانوا يخصصون لهم وقتا يلقونهم فيه ويستمعون الى شعرهم وقصائدهم^(١٩٣) . ويغدقون عليهم الأموال الكثيرة والجوائز السنية بل بلغ الأمر بعبيد الله المهدى عند قيام الدولة الفاطمية أن أمر لابن سعدون الوريلى الشاعر الأغلبى المتشيع بعمله جزيلة كانت تجرى عليه كل عام وذلك لانشاده امام عبيد الله المهدى قوله :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقدمه أركان كل أمير
هذا الامام الفاطمى ومن به أمنت مضاربها من المحذور
يامن تخير من خيار دعاة أرجاهم للعمر والميسور^(١٩٤)

(١٩١) انظر معالم الايمان للدباغ ج ٢ ص ٨٨ .

(١٩٢) المالكى رياض ص ٣٦٠ .

(١٩٣) المدارك ج ١ ص ٣٢٣ .

(١٩٤) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن ابراهيم ص ٦٨) .

كما نجد من أمراء الأغالبة والفاطميين من يقول الشعر فى بعض

الأغراض ويجيد فى ذلك كل الاجادة .

فهذا ابراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة يصور سيرته مع
الثائرين وكيف قضى على رءوس الشر التى تثير الفتن وتعطل تقدم سير
الحضارة وتقضى على الأمن وكيف قتل بعضا ونفى بعضا آخر لى تسلم
له البلاد من الثائرين المشاغبين وهو من قبيل الشعر السياسى
حيث يقول :

ما سار كيدى الى قوم وان كثروا	الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا اقول اذا ما الأمر نازلنى	ياليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى أجليه عن قهر بمعتزم ^(١٩٥)	كما يجلى الدجى بدرا ذا طلعا
قوما قتلت وقوما قد نفيتهم	ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا
كلا جزيتهم صدعا بصدعهم	وكل ذى عمل يجرى بما صنعا ^(١٩٦)

وهذا عبيد الله المهدي مؤسس دولة الفاطميين يفتخر ويصف يقظته
واقترامه للحروب وهو يقود الجيوش الجرارة فيقول :

من كان مغتبطا يلين حشية	فحشيتى وأريكتى سرجى
من كان يعجبه ويبهجه	نقر الدفوف ورنه الصنج
فأنا الذى لا شىء يعجبني	الا اقتحامى لجة الوهج
سل عن جيوشى اذ طلعت بها	يوم الخميس ضحى من الفج ^(١٩٧)

وقال يحذر المخالفين ويعددهم ويتوعددهم :

(١٩٥) معتزم : فرس جامع لا ينثنى .

(١٩٦) ابن الأبار الحلة السيرا ج ١ ص ٩٧

(١٩٧) حسن حسنى يحمل تاريخ الأدب ص ٧٨ ، تاريخ الجزائر

فى القديم والحديث لـالك .

فان تستقيموا استقم لصلاحكم وان تعدلوا عنى ارى قتلكم عدلا
واعلو بسيفى قاطعا لسيوفكم وادخلها عنوا وأملؤها قتلا^(١٩٨)

وفد كان من الامراء من ينقد الشعر نقدا يدل على تذوقه للشعر
ودقة فهمه له فيذكر بن عذارى أن ابراهيم بن أحمد حبس كاتبه محمد
ابن حيون المعروف بالبريدى فكتب اليه من السجن :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم اذ قادننى نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي اليه أما ترثى لصبا نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مفتدر ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فلما قرأ ابراهيم بن أحمد أبياته قال : يكتب الى « هبنى أسأت »
وهو قد اساء .

اما انه لو قال :

ونحن الكاتبون وقد أسانا فهبنا للكرام الكاتبينـــــــــــــــــا
لعفوت عنه^(١٩٩) .

ولا شك أن كل ذلك قد أدى الى ازدهار الشعر ونموه والى اعتناء
الشعراء بالاجادة فى اشعارهم والتدقيق فى معانيهم وساعد على النضج
الأدبى فوجد من الشعراء والشاعرات من يقول الشعر الجيد .

(أ) ومن الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة خلال حكم الأغالبة :

١ - أبو عباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

تولى إمارة الأغالبة فى سنة ٢٢٦ هـ وتوفى سنة ٢٤٢ هـ وكان
موصوفا بالشجاعة والبصر بالحروب وقد وطد أركان الدولة وقضى
على الخارجين عليه بصبره وحزمه وتمكنت الجيوش الأغلبية فى أيامه

(١٩٨) نفس المرجع السابق والصفحة .

(١٩٩) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

من الاستيلاء على بعض القلاع فى صقلية ومن اهم غزواته استيلائه على مدينة رومة عاصمة المسيحية الكبرى حيث قصدها من البحر فى أساطيله وامتلكها بعض الوقت سنة ٣٢ ٢هـ وغنم ما فى كنائسها من الذخائر والتحف ولكن تكاثر النجداث المسيحية جعلته يجلو عنها .

وقد ازدهرت العلوم والآداب فى عهده وهو الذى أسند الى سحنون بن سعيد ولاية القضاء فى الفيروان والاشراف عليه فى افريقية وكان حليما جوادا يتذوق الأدب ويقول الشعر .

فمن قوله يفخر بحسبه ونسبه ويدل بشجاعته وحسن سياسته ومنائه للمكرمات^(٢٠٠) : وقيادته للجيوش بأسلوب قوى ومعان واضحة تدل على قوة شاعريته :

ليس أبى وجدى أو طآنى	وجد أبى وعمى الرقابا
ورثت الملك والسلطان عنهم	فصرت أعز من وطىء الترابا
أنا الملك الذى اسمو بنفسى	فأبلغ بالسمو بها السحابا
إذا نقبت عن كرمى ومجدى	وجدتنى المصاصة واللبابا ^(٢٠١)
أنا الملك الذى أيدت ملكى	بسيفى اذ كشفت به الضبابا
أفض إذا سروت الجفن عنه	فأغتصب النفوس به اغتصابا

ثم يقول :

أظل عشيروتى بجناح عزى	وأمنحها الكرامة والثوابا
وأصطنع الرجال وأصطفاهم	وأغفر للمسىء اذا أنابا

(٢٠٠) انظر الحلة السيرة لابن الأبار ج ١ ص ١٧٠ ، ١٧١ ،

حسن حسنى يحمل تاريخ الأدب ص ٥٨ ، ٥٩

(٢٠١) اللباب : المختار الخالص من كل شىء ، والمصاصة

والمصاص من الشىء خالصة يقال فلان مصاصة القوم .

واسموا بالخميس الى الاعادى فأكسر بالعقاب له العقابا (٢٢)
أنا ابن الحرب ربقتى وليدا الى ان صرت ممثلا شبابا
لعمر أبك ما ان عبت هومي وما أخشى بقومي أن اعابا
بنيت لهم مكارم باقيات اذا ما صارت الدنيا خرابا

٢ - مجبر بن ابراهيم بن سفيان (١٠٢) :

من افراد الأسرة الأغلبية وقد نولى عدة أعمال بافريقية ثم ولى
على صقلية فخرج فى شينى يريد ارض فلورية (٢٠٤) فأسرته الروم وحمل
الى القسطنطينية فمات بها أسيرا سنة ٢٨٥ هـ وقد قال قصيدة وهو
فى اسره عند الروم وبعث بها الى القيروان ورددها أكثر الناس أيام
بنى الأغلب وفيها يتعجب من اخواته بالقيروان لعدم اسراعهم الى
تخليصه من الأسر . وفيها كلمة طخطختنا متنافرة الحروف ، كما
يذكر فيها ما حدث للأنبياء السابقين ليتأس بهم ويدلنا ذلك على معرفته
بتاريخ الأنبياء .

الا ليت شعرى ما الذى فعل الدهر بأخواننا يا قيروان ويا قصر (٢٠٥)
ونحن فانا طخطختنا رضى النوى فلم يجتمع شمل لدينا ولا وفر (٢٠٦)
رأينا وجوه الدهر وهى عوابس بأعين خطب فى ملاحظها شرز

(٢٠٢) العقاب : من معانيه الحجر الذى يقوم عليه الساقى .
وسيل الماء الى الحوض .

(٢٠٣) انظر الحلة السراء لابن الأبار ط ج ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ،
حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٦ ، ٦٨ .

(٢٠٤) ارض قلورية : البلاد الكائنة بجنوب ايطاليا وتسمى
اليوم (كلابرية) .

(٢٠٥) يا قصر : يشير الى القصر القديم التى انشأها ابراهيم
ابن الأغلب سنة ١٨٥ وسكنها الأغالبة وتسمى أيضا العباسية .
(٢٠٦) ولا وفر : أى ولا مال وافر يستعين به فى اسره .

ويختم قصيدته بقوله :

لعل الذى نجى من الجب يوسف وفرج عن أيوب اذ مسه الضر
وخلص ابراهيم من نار قوميه واعلى عصا موسى فذل له السحر
يصبر اهل الأسر فى طول أسرهم على معضلات الأسر لاسلم الأسر

٣ - أحمد بن أبى سليمان داود الربعى المعروف بالصواف :

من ابناء القيروان وقد تعلم على ابيه وعلى سحنون وكان ثقة
كريم الأخلاق باراً بمن قصده . أكثر كلامه حكمه وكان له بالشعر عناية
فى أول أمره وأكثر قوله للشعر فى الحكم وطول العمر وذكر الجنة
ويوم القيامة وطلب رحمة الله ومغفرته مع تائر بالفاظ القرآن
ومعانيه ، وكان له نظيرة ناقبة فى نقد الشعر ، فقد تحدث اليه
بكر بن حماد وانشده قوله :

نهار مشرق وظلام ليل الحام بالبياض وبالسواد
هما هدماء دعائم عمر نوح ولقمان وشداد وعاد
فيا بكر بن حماد تعجب لقوم سافروا من غير راد
تبیت على فراشك مطمئناً كائنك قد أمنت من المعاد
فيا سيحان من أرمى الرواسى وأوتدها على السبع الشداد

فقال أحمد بن أبى سليمان : أمسك رفعت الجبال فوق السموات
وانزلت السموات تحت الجبال فقال له وكيف ؟ فقال له : اقرأ سورة
عم يتساءلون فقرأها حتى انتهى الى قوله تعالى (وبيننا فوقكم سبعاً
شداداً) فقال له : والله لقد انشدته بالعراق ومصر وتاهرت والقيروان
فما فهمه أحد وقد كسرت أنت فاصلحه فقال له : أفلا قلت : فأوتدها
مع السبع الشداد . فقال له قد أصلحت ما أفسدت . وقد تتلمذ
على أحمد كثير منهم عبد الله بن مسرور التجيبى وعلى بن محمد
الدباغ وأحمد بن نزار ومحمد بن محمد اللباد وأبو العرب محمد بن

أحمد بن تميم وحبيب بن الربيع ومحمد بن زرقون وعالم كثير . وقد ولد سنة ٢٠٤ هـ وتوفى سنة ٢٩١ هـ (٢٠٧) .

وقد قال أحمد بن أبي سليمان شعرا كثيرا فى الصبر والحكمة والزهد وفى طول العمر وتغير الدنيا بأهلها ، وعدم الركون اليها . ووصف الجنة والنار . والأمل فى عفو الله . بأسلوب رصين ومعان قوية وروح شعرية شفافه تظهر فيها صدق التجربة قوة الشعور بالمعانى التى يختارها . كما تتجلى فى شعره الروح الدينية المذكره بالتجلى والصبر وسعة الأمل فى الله تعالى . وقد ذكر البحث نماذج من شعره فى محلق نماذج من الشعر .

ومن قوله فى الصبر :

سألبس للصبر ثوبا جميلا وأقتل للضجر حبلا طويلا
وأصبر بالرغم لا بالرضا أخلص نفسى قليلا قليلا^(٢٠٨)

ومن قوله فى الحكمة :

- ١ - أرى البرق من نحو القريب توقدا
- ٢ - أغيب طورا لمعه وترددا
- ٣ - أفتق أيها الباكي المسائل منزلا
- ٤ - تشقت منه أهله متبردا
- ٥ - كفى عجبا أنا جهلنا ما خلا
- ٦ - ملاعب ولدان ونوما ومرقدا
- ٧ - وكان نساء الحى يهوين طلعتى
- ٨ - ليالى كان الشعر أرجل أسودا

(٢٠٧) انظر المالكي رياض ص ٤٠٧ - ٤٠٩ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٢٤٢ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، حسن حنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٠٨) حسن حنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٠ .

- ٧ - فلما اكتسيت الشيب صرت الى الضنى
وأصلحت من شأني الذي كان مفسداً
- ٨ - لبست به ثوب الوقار وكلما
بليت وأبليت الشباب تجددنا
- ٩ - جزى الله طول العمر خيراً فانه
هداني الى التقوى ودل وأرشدا
- ١٤ - أراني بحمد الله في المال زاهدا
وفي شرف الدنيا وفي العز ازهدا
- ١٥ - فخليت من دنياي الا ثلاثة
دفاتر من علم وبيتا ومسجدا
- ١٦ - غنيت بها عن كل شيء حويته
وصرت به أغنى وأقنى وأسعدا^(٢٠٩)



٤ - مهريّة الأغلبية :

وكما وجد الشعراء في القيروان وجدت الشاعرات كذلك وحصلن على حظ وافر من تلقى العلوم والآداب واستطاعت المرأة أن تأخذ بحظها من العلوم فكان هناك الفقيهة خديجة بنت سحنون والشاعرة مهريّة بنت الحسن بن غلبون الأغلبية التي نشأت في القرن الثالث الهجري وتلقّت العلوم والآداب واتقنت العربية وقالت الشعر .
الا أنه لم يصلنا من شعرها الا قطعة ذكرها المالكي والدباغ أثناء حديثهما عن أخيها الشاعر الزاهد أبي عقّال بن غلبون الذي ترك القيروان وأقبل الى مكة ليكون مجاوراً في بيت الله الحرام . وقد كتبت اليه أخته مهريّة من القيروان الى مكة كتبا كثيرة الا أنه لم يقرأ تلك الكتب فأوصت اليه بغير كتاب تقول : « بحق الثدى الذي رضعته معك الا أريتني وجهك قبل الموت وفراق الدنيا ! مالك ؟ في حين

(٢٠٩) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

صباك وجناياتك وكثرة ما كان يطرا علينا بسببك كنت عندنا وحين صرنا نفتخر بك ونتبرك برؤيتك فارقتنا ؟ فقال لرسولها : « قل لها ما كنت لأدع بلدا عرفت الله عز وجل فيه وأمضى الى بلد عصيت الله تعالى فيه وأخشى أن تقتضيني العوائد » ثم قدمت عليه أخته بعد ذلك من المغرب وأقامت بمكة حتى توفيت فى حدود سنة ٢٩٥ هـ وأبياتها الباقية الواصلة إلينا هى التى وجدت على قبر أخيها فى مكة ترثيه^(٢١٠) فيها وهى :

ليت شعرى ما الذى عاينته بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع نزوح النفس عن أوطانها من نعيم وحميم وسكن
يا وحيدا لى من وجدى به لوعة تمنعنى من أن أجن
فكما تبلى وجوه الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

ولا شك أنه كان يوجد فى القيروان كذلك عدد من الشاعرات اللاتى قلن الشعر واشتغلن وحرصن عليه وتحلين به خلال هذه الفترة الا أن المصادر التى بين أيدينا والتى وصلت إلينا لم تشر اليهن ولعل الأيام تسعدنا بالعثور على بعض المصادر التى تمدنا بشعر وأسماء الشاعرات فى القيروان فى هذه الفترة .

٥ - بكر بن حماد بن سهر الزناتى :

من مواليد مدينة تاهرت وتعلم وتثقف بالقيروان حيث تلقى العلم على سحنون وغيره وكان شاعرا فصيحاً ثم رحل الى المشرق سنة ٢١٧ هـ فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد وكان له عناية بالفقه والحديث وتمييز الرجال وقول الشعر واجادته . وقد أجمع فى المشرق بكثير من الأدباء والشعراء فى ذلك العصر فلقى دعبلا وحبيبا

(٢١٠) انظر المالكي رياض ص ٤٣٦ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٤٤ ، حسن حسنى بساط العقيق ص ٣٦ مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٧١ .

الطائي وصريع الغواني عليا بن الجهم وغيرهم من شعراء العراقي . وقد استطاع ان يزاحم شعراء العراق فمدح الخليفة العباسي المعتصم حيث وصله الخليفة بصلات جزيلة وله أبيات الى المعتصم يحرضه فيها على دعبل يقول فيها :

ايهجو امير المؤمنين ورهطه ويمشى على الأرض العريضة دعبل
أما والذي أرمى ثبرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تنزل
ولكن أمير المؤمنين بفضلهم بهم فيعفوا أو يقسول فيفعل

فعاتب حبيب الطائي بكرا وقال له : قتلت والله يا بكر فتابع
انشاده :

وعاتبني فيه حبيب وقال لى لسانك محذور وسمك قاتل
وانى وان صرفت فى الشعر منطقى لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

وهذا يدل على استطاعة بكر بن حماد من أن يتصدى لاحد شعراء العراق حتى بين يدي الخليفة وذلك لما يتمتع به شعره من اجادة وقوة .

وبعد أن مرضى بكر نهمه الى المعرفة فى المشرق عاد الى القيروان فاقام بها اكثر حياته حيث مدح كلا من الامراء ابراهيم الثانى وعبد الله وزيادة الله الأخير من أمراء الأغالبة وكانت قصائده ذائعة شائعة فى عصره وبعده وقد حمل عنه أبناء القيروان رواية الحديث ودواوين شعر المعاصرين الذين اجتمع بهم فى رحلته الى المشرق . وقد اكسبه ذلك منزلة رفيعة فى نقله الأدب الى المغرب .

وقد ذكر الرقيق أن بكر بن حماد غدا يوما الى ابراهيم الثانى ليمدحه بقصيدة فأخبر بانه مشغول مع جواريه فكتب فى رقعة أبياتا منها :

خلقن الغواني للرجال بليسة فهن موالينا ونحن عبيدها
إذا ما أردنا الورد فى غير حينه اقتنا به فى كل حين خدودها

وكتب تحت الأبيات :

فان تكن الوسائل اعوزتنى فان رسائلى ورد الخدود

ووصل الشعر الى ابراهيم فلما قرأه أمر الجوارى بانشاده وإيقاعه
على العود بمحضر مؤنس المغنى فأظهر الجوارى سرورا كبيرا بذلك
وتوسطن الى الأمير أن يبعث بصرة مختومة فيها مائة دينار ذهبيا
الى الأديب القائل وليس هذه أول صلة تصله منه .

وقرب نهاية دولة الأغالبة سعى بىكر الى الامير الأغلبى فخرج
هاربا من القيروان يريد بلدة تاهرت فتصدى له جماعة فى الطريق
فقتل ابنه عبد الرحمن وجرح بكر جراحات كانت سببا فى وفاته عند
وصوله الى بلده سنة ٢٩٦ هـ بعد أن عمر ستا وتسعين عاما .

ودخل عليه بعض محبيه قبيل وفاته فعجز عن القيام له فقال :

أحبو الى الموت كما يحبو الجمل قد جاعنى ما ليس فيه حيل

ومع مدح بكر بن حماد للخلفاء والأمراء قال كثيرا من الشعر
فى الزهد والمواعظ وذكر الموت وهو له (٢١١) ، فمن ذلك قوله :

زرنا منازل قوم لا يزورونا	انا لفى غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم	جدوا الرحيل فما يرجوا الملاقونا
الموت أصبح بالدنيا يخربها	وفعلنا فعل قوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم	فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها	لو كان جمع فيها مال قارونا (٢١٣)

(٢١١) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ،
الدباغ المعالم ج ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٤ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٥٥ -
٢٥٧ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٧٢ - ٧٤ .
(٢١٢) سوف نذكر له بعض النماذج فى ملحق نماذج الشعر
مما قاله فى الوصف وفى الموت وفى الرثاء .

(ب) ومن الشعراء الذين ظهروا خلال حكم الفاطميين :

١ - أبو القاسم محمد بن عبد الله الفزاري :

من أبناء القيروان وشعرائها المجيدين ولد فيها ونشأ وترعرع في رياضها وبرع في الأدب واشتهر بالشعر وكان في أول أمره مواليا لأراء علمان القيروان السنين يذم الفاطميين ويندد بمذهبهم الشيعي . وعندما استطاع أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي أن يستولى على القيروان من أيدي الفاطميين قال أبو القاسم قصيدة طويلة أنشدتها بين يديه بمحضر علماء القيروان السنين يذم الفاطميين ويندد بمذهبهم الشيعي . وعندما غيرها من المدن ويصف بنى عبيد وما هم عليه ويذمهم فيها فلما دخل اسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله الفاطمي الى القيروان بعد أن قتل أبا يزيد مخلد بن كيداد طلب أبا القاسم الفزاري فاخفى أبو القاسم ولجأ الى الشيخ أبي اسحاق السحائي وذكر ما يخافه على نفسه من القتل ؟ فقال له أبو اسحاق ما كان مقصد قصيدتك ؟ قال : وجه الله قال له : الله ؟ قال نعم قال اذهب فانه لا يلحقك منه مكروه فساروا به الى اسماعيل فلما مثل بين يديه قال له أنشدني قصيدتك تلك الرائية فأنشدتها اياه . فلما فرغ منها حرضه بعض أشياخه على قتله فأعرض عنه وأذن له بالانصراف ولم يعرض له بمكروه ويذكر الاستاذ حسن حسنى أن المنصور الفاطمي كان أمن أهل القيروان عندما استردها أمانا عاما فدخل عليه أبو القاسم الفزاري في جملة من استأمن وتقرب اليه بقصيدة فريدة أورد فيها أخبار مشاهير الجاهلية والاسلام ومدح الخليفة المنصور فيها فعفا عنه ولم يصب بسوء وقد توفى أبو القاسم في حدود عام ٣٤٥ هـ (٢١٣) .

ومن قوله في قصيدته عن القيروان مفاخرا بها بغداد ومتحدثا عما فيها من علم ومعرفة ومشيروا الى فضل من بناها من صحابة رسول الله ﷺ وما حدث عند بناء قبلة المسجد :

(٢١٣) انظر : عياض المدارك ج ٣ ص ٣٢٢ ، الدباغ المعالم ج ١

ص ٢٢ ، ٢٣ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٨٣ - ٨٧ .

فهل للقيروان وساكنيها
 بلاد حشوها علم وحلم
 عراق الشام بغداد وهذه
 ولست أقيس بغدادا اليها
 بلاد تقصف العظماء قصفا
 بلاد خطها أصحاب بدر
 بناها المستجاب وقد دعا في
 بناها كل بدرى كريم
 هم صلوا بمسجدها براحا
 هم وضعوا له أسسا وساسا
 وقادهم الأذان اليه حتى
 ولم يسبقهم ملك ظلوم
 وأصحاب النبی له بناءة
 أقاموا شطر قبلته سويا
 وإن عراضه لمقدسات
 عدیل حين يفتخر الفخـور
 واسلام ومعروف وخـير
 عراق الغرب بينهما كثير
 وكيف تقاس بالسنة الشهور ؟
 اذا ما رامها منهم غـدور
 وتلك اختط ساحتها أمير
 جوانبها دعاء لا يـور
 كأن صفاح أوجههم بدور
 وليس له جدار مستدير
 فقدست المواضع والصخور
 أضاء لهم من المحراب نور
 لتأسيس ولا ملك كـفور
 ولا عصيان ثم ولا فجور
 الى البيت العتيق فلم يجوروا
 مباركة وتريتـه طهور

وقال يرثى شيخه أبا الفضل المسمى الذى استشهد فى موقعة
 المهديـة مقاوما للفاطميين اثناء ثورة أبى يزيد :

عليك أبا الفضل استباق دموعى وشغلى بأنواع الآسى وولوعى

ومنها :

منوع من الفحشاء والاثم نفسه
 بنفسى صريع جالت الخيل حوله
 ولست له أبكى ولكن لمعشر
 وللـفقه والاسلام والدين والتقى
 مضى علم العلم الرفيع وطالما
 وليس لباغى فضله بمنوع
 بمعترك الأبطال أى صريع
 أصيب به من مفرد وجميع
 وطول اجتماع واصطناع منيع
 أصابت قناة الموت كل رفيع

وقد قال أبو القاسم الفزارى إمام المنصور الفاطمى قصيدة تبين
 لنا مقدار ما خصل من علم ومعرفة دقيقة واسعة بتاريخ العرب فى

الجاهلية والاسلام وهى توضح لنا مستوى الثقافة الأدبية التاريخية التى كانت تسود القيروان آنذاك . وسنذكر تلك القصيدة فى ملحق نماذج الشعر .

٢ - أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي :

شهر بابن هانىء الاندلسى وهو فى الاصل من افريقية فقد كان أبوه هانىء شاعرا فى بعض قرى المهديّة ويرجع نسبة الى يزيد بن حاتم المهلبى أمير افريقية . انتقل أبوه هانىء الى اشبيلية بالاندلس فولد له محمد سنة ٣٢٦ هـ ونشأ بها ومال الى الادب فحفظ اشعار العرب واخبارهم وقال الشعر وظهرت موهبته واتصل بصاحب اشبيلية ونال عنده حظوة ويذكر مؤرخو ابن هانىء أن اهل اشبيلية اتهموه بالاشتغال بالفلسفة . وإن ذلك سوف يؤدى الى اتهام أمير اشبيلية بالفلسفة مما جعل الأمير ينصحه بالتغيب عن اشبيلية حتى ينسى الناس ذلك .

ومن يدرى ؟ لعل طموح بن هانىء الى المجد الادبى جعله لا يكتفى بأن يوقف شعره على أمير اشبيلية وقد حمّله ذلك الى أن يبحث عن مقتبس لموهبته وشاعريته فانتقل الى افريقية وله من العمر سبع وعشرون سنة حيث مدح جوهرا القائد ثم ارتحل الى جعفر ويحيى ابنى أحمد بن حمدان أمير المسيلة واقليم الزاب فأحسننا اليه .

وعلم المعز لدين الله بالشاعر النابه فاستقدمه اليه فكان مصور أمجاد الفاطميين فى القيروان وانتصارهم فى معاركهم البحرية فى مياه البحر المتوسط فى قصائده الغر القوية . وقد أطلق عليه معاصروه لقب (متنبى المغرب) الذى سجل مفاخر المعز لدين الله فى مقاومته الخطر الخارجى الذى كان يتهدد البلاد الاسلامية وقد بين ابن هانىء فى قصائده كيف أن المعز وجيشه هو المدافع عن شواطئ افريقيا الشمالية كلها وجزر البحر المتوسط الاسلامية وفى مقدمتها صقلية . وقد رسم ابن هانىء كل ذلك بشاعريته الملهمة فى وصف انتصار القوة الاسلامية على الروم فى البر والبحر . ووصف الاسطول الضخم الذى استطاع أن

يكون سيد البحر المتوسط . وتمكن من فرض سلطان القيروان على كل
الاعداء الذين كانوا ييغون بها الدوائر .

وتتحرك شاعرية ابن هانئ فيتنغى بما حققه الاسطول من نصر
حاسم على الروم ويسجل بطولات الجنود المسلمين وشجاعتهم مما جعله
خليقا بأن يسمى متنبى المغرب كما سجل متنبى المشرق احمد بن الحسين
معارك سيف الدولة .

ومع اهتمام ابن هانئ بتسجيل مفاخر الانتصارات فقد تحدث
ايضا عن المذهب الشيعى معليا مآثر المعز ومشيدا باحقية الفاطميين للخلافة
وقد غلا فى ذلك بعض الغلو وجاوز حدود المألوف . ولعل كرم المعز
واغداقه عليه الاموال الطائلة قد دفعه الى أن يقوم بنصيبه كشاعر للخلافة
الفاطمية فى نشر مذهبهم .

وقد كان المعز يعتز به ويرجو أن يفاخر به اهل المشرق فى مصر
حين انتقله الى القاهرة وودع الشاعر المعز أثناء انتقاله الى القاهرة وعاد
ليصبح امرته ويلحق بالمعز الا أنه اغتيل فى برقة سنة ٣٦٢ هـ^(٢١٤) وحرّم
المعز من شاعره الذى كان يريد أن يفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر له
ذلك^(٢١٥) .

قال بن هانئ يمدح المعز وقيل انها أول ما انشده بالقيروان وأنه

(٢١٤) انظر مقدمة الديوان ص ٢ ، ٣ جرجى زيدان تاريخ آداب
اللغة العربية ص ٢٩٤ ، حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص
٤٣٩ - ٤٤٣ المعز لدين الله لحسن ابراهيم وطه شرف ، حسن حسنى مجمل
تاريخ الأدب التونسى ص ٩٠ - عدد العربى رقم ١١٨ ص ٦٠ - ٦٤ مقال
حسن الامين .

(٢١٥) يذكر الاستاذ حسن الامين أن حكام الاندلس ارسلوا اليه من
اغتاله وهو فى الطريق الى مصر عند برقة سنة ٣٦٢ هـ ولعله قد يكون محقا
فى ذلك انظر عدد العربى ١١٨ ص ٦٤ .

امر له بدست قيمة ستة آلاف دينار فقال له يا أمير المؤمنين مالى موضع
يسع الدست اذا بسط فأمر له ببناء قصر فغرم عليه ستة آلاف دينار وحمل
اليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار . وفى هذه القصيدة
يمدح المعز ويظهر فيها التشيع فيصفه بأنه ضمير النشأة الاولى وهو الغيب
المكنون كما يصفه بالكرم واللين وهو نور وكل نور دونه ظلمة وهو صائب
الرأى يعرف الشيء قبل ان يحدث .

ومن أبيات هذه القصيدة التى بلغت أبياتها ستا وثمانين بيتا قوله :

هذا المعز متوجا والدين	هذا معد والخلائق كلها
بدأ الاله وغيها المكنون	هذا ضمير النشأة الاولى التى
لا انه ورد ولا نسريــــــــــــن	الروض ما قد قيل فى أيامه
لا ان كل قرارة دارينــــــــــــن	والمسك ما لثم الثرى من ذكره
لم يلتقم ذا النون فيه النون	شيم لو ان اليم اعطى رفقها
مسحت على الانواء منك يمين	فى الغيث شبه من نذاك كانما
فكان جودك بالخلود رهين	أما الغنى فهو الذى أوليتنا
للنار فى حجر الزناد كمين	لو لم تكن حزما لئانك لم يكن
من كل مطلع وحان الحين	قد جاء امر الله واقترب المدى
ملك على سر الاله أمين	ورمى الى البلد الامين بطرفه
والفوق انت وكل قدر دون	النور انت وكل نور ظلمة
علموا بما سيكون قبل يكون	لو كان رايك شائعا فى أمة
يكسف لها عند الشروق جبين ^(٢١٦)	أو كان يشرك فى شعاع الشمس لم

وقال فى قصيدة يمدح فيها المعز ويذكر حال المسلمين وقد اعتدى
عليهم الروم فى المشرق واخذوا يستولون على مدينة بعد أخرى ويبين
أن المعز هو المدافع عن الدين وأنه أمل العرب فى كل مكان وأنه متقلد
سيفا من نصر الله وسيفا مرهفا يشنت به شمل الاعداء ويذب به عن أرض
الاسلام وكل ذلك بأسلوب فخم ضخمة .

(٢١٦) ديوان بن هانىء ص ١٩٦ - ١٩٩ .

اسفى على الاحرار قل حفاظهم
هلا استعان بأهل بيت محمد
يا ويلكم أفما لكم من صارخ
فمدينة من بعد أخرى تستبى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة
ان كان يغنى الحر ان يتأسفا
من لم يجد للدين عنكم مصرفا
الا بثغر ضاع أو دين عفا
وطريقة فى أثر أخرى تقتفى
وتزلزلت أرض العراق تخوفا

ويقول :

فتريصوا فالله منجز وعده
هذا المعز ابن النبى المصطفى
فى صدر هذا العام لا يلوى على
فالى العراق وذر لمن قدمته
متقلدا سيفين سيف الله من
قد آن للظلماء ان تتكشفوا
سيذب عن حرم النبى المصطفى
أحد تلفت خلفه وتوقفوا
مصرأ فهذا ملك مصر قد صفا
نصر وسيفك ذا الفقار المرقا (٢١٧)

وقد قال بن هانىء الشعر فى اغراض كثيرة منها ما قاله فى وصف
أسطول المعز وانتصاره على الروم فى المعارك . وفى فتح مصر وكيف
تم الفتح بدون سفك دماء . كما قال فى وصف الغيث والروض . وفى
الهمة والجد فى السعى .

وقد قال شعرا كثيرا فى التشيع وقد جاوز فى بعضه المألوف ، وقد
اقتصرنا هنا على النموذجين السابقين وذكرنا بعضا من شعره فى ملحق
الشعر .

وكل ذلك يوضح لنا المستوى الادبى الرفيع الذى وصل اليه الشعر
فى القيروان بحيث صارت بشاعرها ابن هانىء تضارع المشرق بشاعرها
أحمد بن الحسين .

ومن أراد المزيد من شعر بن هانىء ففى ديوانه المطبوع بالمطبعة
اللبنانية فى بيروت سنة ١٨٨٦ م يجد ما يشفى الغليل .

(٢١٧) ديوان بن هانىء ص ١٠٩ - ١١٠ .

٣ - على بن محمد الايادى :

نشأ وتثقف بمدينة تونس ولكنه التحق بخدمة الدولة الفاطمية بالقيروان والمهدية ، ويعتبر من أشهر الشعراء خلال خلافة القائم والمنصور وامتدت حياته الى أيام المعز لدين الله وكان مبعلا عند العامة والخاصة جيد الشعر يقرنوه بفحول الشعراء البلغاء المعاصرين له كمتنبى المشرق ومتنبى المغرب وقد وصف محمد بن شرف شعره بقوله : شعره المورد العذب ولفظه اللؤلؤ الرطب وهو بحترى الغرب يصف انحمام فيروق الانام ويشيب فيعشق ويحبب » .

ولا نعرف متى ولد اما وفاته فكانت سنة ٣٦٥ هـ (٢١٨) .

وقد ابدع الايادى فى وصف القصر الذى بناه المنصور بصبرة احدى ضواحي القيروان فكان قبة للملك فى وسط الساحات الحسنة - والبساتين الخضراء الغاصة بالطيور التى تشدوا بأعذب الالان . ثم الجدول الجارى الذى يصب فى بركة القصر الواسعة حيث يتوسطها مجلس للخليفة يحاكى قصر الخورنق عندما يفيض الفرات .

ولما استطال المجد واستولت العلا	على النجم وامتد الرواق المروق
بنى قبة للملك فى وسط جنوة	لها منظر يزهى به الطرف مونق
بممشوقة الساحات اما عراصها	فخضر واما طيرها فهى نطق
تحف بقصر ذى قصور كأنما	ترى البحر فى أرجائه يتدفق
له بركة للماء ملء فضائه	تخب بقطريها العيون وتعنق ^(٢١٩)
لها جدول ينصب فيها كأنه	حسام جلاه القين بالارض ملصق

(٢١٨) انظر حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٩٦ -

١٠١ ، بساط العقيق فى حضارة القيروان .

(٢١٩) تخب : أى تعدو عدوا فسيحا ، والعدو ضرب من السير دون

العنق .

لها مجلس قد قام فى وسط مائها	كما قام فى قبض الفرات الخورتق (٢٢٠)
كأن صفاء الماء فيها وحسنه	زجاج صفت أرجاؤه فهو ازرق
إذا بث فيها الليل أشخاص، نجمه	رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
وان صافحتها الشمس لاحت كأنها	فرند على تاج المعز ورونق (٢٢١)
كان شرافات المناصر حولها	عذارى عليهن الملاء المنطق
يذوب الجفاء الجعد عن وجه مائها	كما ذاب آل الصححان المرقق (٢٢٢)

وقال يصف فرسا للامير جعفر بن محمد وأنه فى سرعتة يشبه البازى الذى تساعده الريح على الوصول الى عشه ، عذب الصوت عند الصهيل كأنه حاد يغنى ، له نخوة وشهامة تجعله يفوق الاقران ومع سرعتة فهو رفيق سهل مع من يركبه ، يتحرك فى السهل والوعر كما تتحرك السفينة على سطح الماء . والفاظه فى القصيدة قوية وأسلوبه جزل ذو جرس قوى . ومعانيه مبتكرة متناسفة يأخذ بعضها بعناق بعض .

واقب من لحق الجياد كأنه	قصر تباعد ركنه عن ركنه (٢٢٣)
وكانما انفجر الصباح بوجهه	حسنا أو احتبس الظلام بمتنه
مستبطر بالراكبين كأنه	باز تروح به الجنوب لوكنه (٢٢٤)
حلو الصهيل تخال فى لهواته	حاد يصوغ بدائعا من لحنه
ذو نخوة شمخت به عن نده	وشهامة طمحت به عن قرنه

(٢٢٠) الخورتق : هو قصر عظيم مشهور فى التاريخ والادب عند العرب . تحدثه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بالعراق قبل الاسلام .
(٢٢١) الفرند : السيف وجوهره ووشيه والمقصود منه هنا ، السنا البراق وقد كان الخلفاء الفاطميون يلبسون فى المواكب تيجانا من الذهب مكلله باليواقيت والجواهر .

(٢٢٢) الجفاء . الجعد : هو المزيد المتراكم .
(٢٢٣) واقب : متواصل السير ولاج فى الهناة ، والقبب بالتحريك دقة الخصر وضمور البطن ، واللحق : الضامرة أو السريعة .
(٢٢٤) مستبطر : مسرع . ووكنه أى عشه . والوكن عش الطائر .

قد راح يحمل جعفر بن محمد حمل النسيم لوابل من مزنه
لبست قوائمه عصائب فضة رغدت بسمرصفا المسيل ودكنه (٢٧٥)
قيد العيون اذا بصرن بشخصه ورضا القلوب اذا اصطلين بضغنه
يستوقف اللحظات فى خطواته بكمال خلقة ودقة حسنه
متجبر ينبى بعثق نجاره اشراف كاهله ودقة اذنه
وكأنه فلك اذا حركته جار على سهل البلاد وحزنه

وقد وصف على بن محمد الايادى أسطول القائم الفاطمى وأبدع
فى ذلك بشاعريته العذبة المتفننة فى المعانى والاساليب كما قال الشعر
فى وصف الحداثق والبساتين والزهور والحمام .

وقد وجه بعض الشعراء شعرهم الى توحيد الله عز وجل والرد
على الزنادقة والملاحدين ، مثل محمد بن زرزر . وبعضهم قال الشعر
فى النقد الاجتماعى . وبعض آخر قال الارجيز مثل أحمد بن المروزى .
ونجد عيسى بن مكين يقول الشعر فى الشباب وبيان منزلته فى عمر
الانسان .

وفى ملحق الشعر نماذج تبين ذلك ذكرناها هناك خوف الاطالة .

(ج) الكتابة :

نهضت الكتابة وازدهرت فى هذا العصر وقد ساعدت النهضة
العلمية الواسعة والتقدم فى جميع فروع الحياة على ذلك وكانت الكتابة
فى بداية هذا العصر تذييل فيها الرسائل بالشعر وقد تشتمل على بعض
آيات القرآن التى تناسب المقام وذلك هو طابع العصر العام وكانت
الرسائل تتخذ فى الرد على الاعداء والخصوم ، وايراد الحجج القوية
لردع الخصوم والفت فى عضدهم .

وقد أورد لنا المؤرخون نماذج من تلك الكتابة توضح هذه المعانى

(٢٢٥) رغدت : اختلطت .

ومن ذلك ما دار من رسائل بين ابراهيم بن الاغلب مؤسس دولة الاغالبة وبعض الخارجين عليه وكيف كان يفند حجج الخصم فقد كتب خريش بن عبد الرحمن الكندي أحد وجوه الجند العربى الذى ثار سنة ١٨٦ هـ وخلع طاعة بنى العباس الى ابراهيم بن الاغلب فى القيروان يقول :

« من خريش القائم بالعدل الى ابراهيم بن الاغلب

أما بعد

فانى أقمت عن الخروج قبل يومى هذا لأنى كنت انتظر أن تفنيكم الحرب فلعمري لقد أرانا الله فيكم ما قوى به أهل دعوة الحق عليكم فلما وليت أنت وعلمت أنهم مقسومون بين خوف منك ورجاء لك ، عرفت قلة طمعهم فيك ، ولو كان أحد ممن ولى هذا الثغر ممن لا ترى طاعته يستحق أن يرضى بولايته لكنت أنت ذلك ، وقد كان على بن أبى طالب رحمة الله عليه يقول : اذا ولى عنكم عدوكم من أهل الملة فلا تتبعوهم . ولست اطلبك ان خرجت عن الثغر فلا ترد أن تصلى بحربى وليكن رأيك طلب سلمى والسلام » .

وكتب فى آخره :

قل جهرة لأبى اسحاق تنصحه هذا فراقكم للغرب قد حاننا
فلا يعود اليه منكم أحد حتى يعود من الاجداث موتانا
فأرجع من الغرب أو الق السواد به لا تخترمك المنايا حين تلقانا
وسوف تعلم أن الموت يسمع لى

إذا التقت بنواحى الفحص^(٢٢٦) خيلانا

وعندما وصل الكتاب الى ابراهيم أجابه بقوله :

« من ابراهيم بن الاغلب الى خريش رأس الضلالة .

أما بعد

سلام على من أتبع الهدى

(٢٢٦) الفحص : المراد فحص تونس وهو السهل المحيط بها .

فان مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة اذ سقطت عليها :
استمسكى فانى اريد أن اطير فقالت النخلة : ما شعرت بسقوطك فيكربنى
طيرانك ، فاما انتظارك فى الحرب فناء فلو لم يبق فى المغرب من أهل
الطاعة غيرى ، ما وصلت أنت فى من معك بخلافكم اليه ، ولرجوت أن
أظفر بكم بطاعتي ونصرة دولة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه . فكيف
وعندى من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أنى أرجوه أن ينتقم منك
على يدى .

وأما ما ذكرت عن على بن أبى طالب رضوان الله عليه فذاك أمر
غاب عنك وإن كان كما ذكرت فلست منهم ، لأن أهل الملة خلافهم خلاف
هوى فى نقمة على جور ، وخلافكم خلاف فرقه دين ، وشق عصا المسلمين
ونقمتهم ما هو لله رضا . وستعلم أنت وأصحابك ان لقيناكم غدا أنا
سنتبعكم وان صبرتم أنا سنفنيكم واما ذكرك الفحص فان تركتك حتى
تصير اليه فانا فى مثل جلدك» (٢٢٧) .

ثم ذيل كتابه بهذه الآيات :

بلغ خريشا بأنى سوف أصبحه	كأنا سيقرع منها سن حيرانا
نهدي الطعان له سمر مثقفة	تغرى اسنتها فى الحرب أعدانا
من كل أزرق يغتال النفوس به	يضحى به من دم الاجواف ملانا
وسوف تعلم هل القى السواد اذا	أرست اليك المنايا حين تلقانا
انى سأهدى اليك الموت فى عطب	فاشرب منيته من كف عمراننا

ومن الرسائل البليغة القوية الرسالة التى أرسلها عامر بن نافع بن
عبد الرحمن الى زيادة الله بن الاغلب وفيها يتجلى نقض الدعاوى
بالحقائق والاحداث وكان زيادة الله كتب اليه يدعو الى الطاعة ويعرفه
باشفاقه عليه وعلى حرمه ويحذره عاقبة أمره وهى دليل على رقى الكتابة
آنذاك (٢٢٨) .

(٢٢٧) انظر: الحلة السيرة ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٤ ، حسن حسنى

مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٤٢ - ٤٤ لابن الابار .

(٢٢٨) انظر : الرسالة فى ملحق نماذج الكتابة .

ومن الكتابات التي اشتملت على آيات من القرآن في مقام الاستشهاد مع تذكير بالموت وشدته والقبر وظلمته والتذكير بالله والنزاهة في الحكم والمحافظة على القرآن وتدبره .

ذلك الجزء من الرسالة التي ارسلها قاصي الفيروان عبد الله بن احمد بن طالب الى محمد بن حمود فاضى طرابلس :

« فلا تبق غاية من الخير الا بلغنها واتفيت الله فيما استرعت عليه بحسن الكفاية والاجتهاد وما بلغنى عنك الا الجميل فقد ربيتك وعلمتك وعرفتكم العلم فلو لم تحفظ الا اياى فكيف وقد عرفت ما عند الله عز وجل لمن سأل عنه ؟ ألا تراه عز وجهه الكريم يقول لنبيه داود عليه السلام : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » وأكثر ذكر الموت وشدته هولاه وظلمة القبر ووحشته وتضرع الى الله تعالى فى خلوانك ولا تنسك الجماعة حظك من القرآن وتدبره والوقوف عند عجائبه . وبالله توفيقك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (٢٣٩) .

واننا لنجد أن الكتابة فى القيروان قد اشتملت كذلك على الحكم النثرية التى حوت المعنى الكبير فى اللفظ القليل وان كانت لم تصل الى درجة كبيرة من التأثير . ومعظم الحكم التى وصلتنا يدور معناها حول التحلى بالمعانى النفسية والاستقامة فى السلوك ومعظمها يميل الى السجع ويظهر ذلك فيما روى عن عيسى بن مسكين وعبد الجبار بن خالد السرى وقد أورد البحث نماذج لهما فى الملحق (٢٣٠) .

ومن بين الكتاب الذين ذكرهم المؤرخون لنا واضطلعوا بالكتابة فى هذا العصر :

(٢٣٩) المالكي رياض ص ٣٨٣ .

(٢٣٠) انظر الملحق الخاص بنماذج الكتابة .

١ - أبو سليمان داود الكاتب القيروانى :

لا يعرف عنه أكثر من اسمه وكنيته ونسبته الى القيروان وهو من الأدباء المجيدين . ويبدو أنه رحل الى المشرق للتزود من العلم والأدب ، وعاد الى القيروان مع الأمير محمد بن مقاتل العكى حيث تولى ديوان رسائله واختص بخدمته سنة ١٨٠ هـ فلما عزل العكى وتقلد ابراهيم بن الأغلب الإمارة خشي داود على نفسه لأنه تمالأ مع محمد بن مقاتل فى آخر أيام امارته على ابراهيم بن الأغلب . فاخفى أياما ثم كتب رسالة الى الأمير ابراهيم يستعطفه فيها :

وقد أحسن المدخل فى استعطافه للأمير الغاضب عليه حيث أن الأمور تجرى على خلاف ما يهوى العباد فى أنفسهم . ثم يعترف بدنبه وأن الأمير أهل للعفو عنه . وهو أعرف به منه بنفسه وهو يذكر بعض الحكم فى اعتذاره ليتوصل بذلك الى ازالة الغضب من القلوب والأسلوب واضح المعنى نحو الهدف الذى يرمى اليه وذلك حيث يقول :

» أما بعد :

أعز الله الأمير فلو كان أحد يبلغ بحرصه رضاء بشر بصحة مودة وتفقد حق ، وإيثار نصيحة لرجوت أن أكون بما جبلنى الله عليه من تفقد ما يلزمنى من ذلك أكرم عند الأمير منزلة والطفهم لديه حالا ، وإيسطهم أملا ، ولكن الأمور تجرى على خلاف ما يهوى العباد فى أنفسهم ، وإن من ساعده الدهر حظى فى أموره كلها ، واستحسن القبيح منه ، وأظهرت محاسنه ، وسترت مساويه ، ومن خالفه القضاء ، وأعان عليه الدهر لم ينتفع بحرص ولم يسلم من بغى . وقد كنت اذا افتخر الناس بسادتهم ، للأمير ذاكرا ، وبيومه مسرورا ، ولغده راجيا ، الى أن أتانا الله من ذلك بما كنت أبسط له أملى ، وأعظم فيه رجائى ، وكان عنى فى أجهاد نفسى بالقيام بما يلزمنى من نصحية الأمير - أطال الله بقاءه - حسب الذى يحق علينا فبينما أنا مشرف على ادراك كل خير وبلوغ كل فضل اذ رمانى الدهر بفرقته ، ولزمنى من ذلك ما كنت

أشد الناس رزية به ، فوجد أهل البغى والفرية لى سبيلا ، وقد صرت -
أيد الله الأمير - لمكان الخوف الذى ملكنى نازع^(٢٣١) أمكنه ، وعرض
السنة ، فلو تحقق الأمير سىء حالى وكبت العدو^(٢٣٢) لأشفق على
ورثى لى ، وذنبى عظيم ، وخنافى ضيق ، وحجتى ضعيفة ، وعفو
الأمير وطوله^(٢٣٣) أعظم من ذلك كله ، فان تداركنى الأمير - أعزه الله -
بما أوئل فذلك الذى يشبهه وينسب اليه وأرجوه منه ، وان يعاقب
فبالذنب الذى اجترمته وهو أحق باننشالى من زلتى ، ورجاء ما يرجوه
مثله من أهل المنة والطول من مثل ما عظمت المنة عليه ، والأمير
أولى فى ، وانظر منى لنفسى ، وأعلى بما سألته ورغبت اليه فيه عينا
ويدا ، والله ولى توفيقه فيما عزم عليه من ذلك وعليه التوكل لا شريك له .
وأنا أرجو - أعزه الله - أن يكون ممن يتعظ بالتجربة ويقيس موارد
أموره بمصادرها ولا يدع تصحيح النظر لنفسه فيما يستقبل منها أن
شاء الله ، أتم الله على الأمير نعمه ، وهناه كرامته والبسه أمنه وعافيته
فى الدنيا والآخرة » .

فعفا الأمير عنه وقبل رجاءه ، وصار كاتباً له . الى أن أدركته
الوفاة حولى سنة ٢١٠ هـ^(٢٣٤) .

٢ - أبو اليسر إبراهيم بن محمد (٢٣٥) الشيبانى البغدادى :

يعرف بالرياضى من أهل بغداد وبها تعلم وتثقف وسمع من كبار
المحدثين والفقهاء ولقى كثيراً من النحويين والأدباء والشعراء والكتاب
فقد التقى بالجاحظ والمبرد وثلعبا وابن قتيبة وقابل من الشعراء أبا تمام
والبحتري ودعبلا وابن الجهم ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن
وهب وأحمد بن طاهر وغيرهم .

(٢٣١) نازع أمكنة : غريب .

(٢٣٢) كبت العدو : مذلتة واهانته .

(٢٣٣) الطول : الفضل والقدرة .

(٢٣٤) انظر حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥ ، ٤٦

(٢٣٥) فرنفح الطيب ابن أحمد ج ٤ ص ١٣٠

وكان أبو اليسر حسن الأخلاق كريم النفس . جول في البلاد شرقاً وغرباً من خراسان الى الأندلس ثم استوطن القيروان . وكان عالماً أدبياً ومرسلاً بليغاً وكان ذا أثر كبير في ادخال رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف اخبارهم الى القيروان . وقد تولى الكتابة في أواخر أيام الدولة الأغلبية فكتب لابراهيم بن أحمد بن الأغلب ثم لابنه عبد الله ثم لزيادة الله آخر امراء الأغلبية وكان أيام زيادة الله على بيت الحكمة .

وعند قيام الدولة الفاطمية تولى لعبيد الله الفاطمي الكتابة الى أن توفي بالقيروان سنة ٢٩٨ هـ وله من العمر خمس وسبعون سنة .

وقد ألف أبو اليسر عدة كتب منها مسد في الحديث ، وكتاب في القرآن ومشكلة واعرابه ومعانيه سماه « سراج الهدى » وكتاب « لقيط المرجان » في الأدب و « المرصعة » و « المدبجة » و « الوحيذة المؤنسة » و « قطب الأدب » وغير ذلك من المؤلفات^(٢٣٦) .

وقد أورد بن عذارى كتاباً لعبيد الله المهدي الفاطمي ويتسم بالاجاز وقد أرسل الكتاب الى الشيعة في المشرق بعد أن قتل عبد الله النسيعى وإخاه أبا العباس فقال فيه : « أما بعد فقد علمتم محل أبى عبد الله وأبى العباس من الاسلام . فاستزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف والسلام »^(٢٣٧) .

ومن الكتاب الذين ظهوروا في هذه الفترة وتولوا الكتابة في نهاية الدولة الأغلبية محمد بن حيون ومحمد بن محمد بن الفرغ البغدادي^(٢٣٨) ومحمد بن أحمد بن أحمد بن هارون البغدادي الذي تولى الكتابة لعبيد الله المهدي بعد موت أبى اليسر البغدادي^(٢٣٩) .

(٢٣٦) انظر بن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ،

المقرئ نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٠ ، ١٣١

(٢٣٧) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦٥

(٢٣٨) المرجع السابق ص ١٣٦

(٢٣٩) المرجع السابق ص ١٦٣

وكان للكتابة فى عهد الفاطميين منزلة رفيعة تلى منزلة الوزارة فى الرتبة وكان يسندها الخلفاء الى من ائسوا فيهم الكفاية والمقدرة على حل المشكلات ومعالجة الأمور ، فاذا رضى الخليفة عن الكاتب كان ذلك مرشحا له لتولى الوزارة فى أى وقت .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمى جوهر الصقلى كاتباً له سنة ٣٤١ هـ (٢٤٠) .

ومما يبين بجلاء ما كانت عليه الكتابة والنثر فى هذا العصر من القوة والرصانة خاصة فى نهاية الدولة الفاطمية بالمغرب . العهد الذى أعطاه جوهر الصقلى الكاتب لأهل مصر عند فتحها ، حيث يذكر الألقاب التى كانت تضافى على المعز لدين الله من أنه مولانا وسيدنا . وأمير المؤمنين صلوات الله عليه .

كما تبين الهدف من فتح مصر وأنه من أجل اعزاز أهل مصر وحمايتهم والدفاع عنهم ضد الدولة البيزنطية . والدفاع عن كل بلاد المسلمين فى المشرق ثم اقامة فريضة الحج الذى تعطل واهمل العباد فرضه وحقوقه . وبسط الأمن والعدل ونشره . واصلاح الطرق وضبط ضرب النقود ، والقضاء على الغش فيها وفى غيرها .

ثم اسقاط الضرائب والرسوم الجائرة واصلاح المساجد وتزيينها بالفرش والوقود والعناية بالقائمين عليها . كما يبين أنه مع أن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة فقد اجاب أهل مصر الى ما طلبوا تطميناً لنفوسهم باقامتهم على مذهبهم ودراسة العلوم فى المساجد حسب ما كان عليه سلف الأمة وفقهاء التنصار وما هم سائرون عليه فى تطبيقهم لأركان الاسلام وتعاليمه وأن تحفظ لأهل الذمة حقوقهم على ما هم عليه ولهم عليه فى كل ذلك الأمان التام العام الدائم المتصل ثم عليهم المحافظة على الطاعة والمثابرة عليها . كل ذلك وغيره يذكره جوهر فى

(٢٤٠) حس ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠

عبارة طلية جليلة وأسلوب سهل قوى جذاب يلمسه كل من يقرأ ذلك العهد كما أورده المقرئزى فى اتعاظ الحنفاء مما يدل على الازدهار الفكرى الذى وصلت اليه الكتابة فى نهاية الدولة الفاطمية بالمغرب^(٢٤١) .

٢ - اللغة :

النحو ورواية الأدب واللغة :

عظم الاهتمام باللغة والنحو وفروع العربية الأخرى فى هذه الفترة التى ازدهرت فيها الحياة الفكرية ، وبذل العلماء جهودا كبيرة فى تحصيل العلوم العربية والتبحر فيها وأقبل الطلاب على الأساتذة المتخصصين فى ذلك يتزودون من علمهم ومعرفتهم ويأخذون عنهم قوانين اللغة : النحوية والصرفية والبلاغية وقوانين الشعر العروضية فدرسوا مذاهب البصريين والكوفيين فى النحو والصرف . وعنوا بالاغتراف من معين اللغة برواية آدابها وأخبارها وسهلها وغريبها ، بل كان بعض المهتمين باللغة يحفظ كتب الأغاني الموصلى ويميل الى استعمال الغريب والأغراب فيه حتى يطبعه لسانه ، كما فعل أحمد بن أبى الأغلب^(٢٤٢) .

وقد استطاع بعض علماء القيروان أن يضيف الى دراسة علوم العربية التى كانت تدرس فى المشرق من نحو اللغة وصرفها ابتكار دراسة جديدة وهى دراسة النحو المقارن وكان ذلك بين اللغة العربية والعبرية والبربرية بما اثبت أن أصلها واحد وقد بدأ ذلك يهوذا بن قريش التاهرتى الذى كان يتقن اللغات الثلاث مع الفارسية والذى ألف كتابا لا يزال موجودا الى اليوم بمكتبة اكسفورد حيث يعتبر أول واضع لعلم النحو التنظيرى ، وفى أيام الفاطميين نبغ العلامة دونش بن تميم الفيلسوف اللغوى الذى سار على خطه يهوذا بن قريش وألف فى أصول

(٢٤١) انظر نص عهد جوهر فى ملحق نماذج من الكتابة .

(٢٤٢) انظر الحلة السيرة ج ٢ ص ٣٧٩

اللغتين العبرية والعربية^(٢٤٣) . وبذلك كان بداية ابتكار النحو التنظيري
فى تاهرت والقيروان فى هذه الفترة .

كما الفت معاجم فى اللغة العربية والبربرية معا واعتنى كذلك
اصحاب المعاجم النباتية مثل بن الجزار وغيره بايراد التسميات البربرية
للنباتات^(٢٤٤) مما يدل على وجود مقارنة حتى فى المعاجم اللغوية .

ولا شك أن ذلك مما ادى الى اقبال البربر وتشجيعهم على تعلم
العربية والتعمق فى فهمها تعمقا مبنيا على الدقة فى فهم المعانى
العربية .

ويذكر لنا المالكى وفود بعض العلماء النحويين من المشرق الى
القيروان منهم أبو سليمان النحوى صاحب الكسائى الصغير^(٢٤٥) . وكان
تتابع قدوم مثل هؤلاء العلماء مما ساعد على تمام ازدهار الحياة الفكرية .

وقد كان العلماء يجمعون خلال هذه الفترة بين الاحاطة بالنحو
والاشتغال باللغة ورواية الأدب الا ان بعضهم كان يغلب عليه الاشتغال
بالنحو بينما البعض الآخر يميل الى رواية الأدب واللغة مع الاحاطة
بالنحو .

(١) ومن غلب عليهم الاشتغال بالنحو :

١ - أبو الوليد عبد الملك بن قطن المهرى :

ولد بالقيروان ونشأ بها وكان سبب ميله الى دراسة النحو والتبحر
فى علوم اللغة أن أخاه ابراهيم كان يقرأ النحو ويهتم به فأخذ عبد الملك
يوما كتابا فى النحو من أخيه يقرأ فيه فنهره وقال له مالك ولهذا ؟ .

(٢٤٣) انظر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ص ٧٧ ، ٧٨ ،

عثمان الكعك البربر ص ١٠٥

(٢٤٤) عثمان الكعك البربر ص ١٠٠ - ١٠٢

(٢٤٥) المالكى رياض النفوس ص ٣٥٠

فغضب عبد الملك وبدأ يدرس النحو واللغة واتصل بأساتذتها فأخذ عن ابن الطرماح وعياض بن عوانه وأبو عبد الرحمن المقرئ الكوفى وقتيبة النحوى وكثير من الأعراب منهم أبو المتبع الأعرابى .

وكان ذا حافظة قوية فحفظ أنساب العرب وأشعارها ووقائعها وإيامها الى أن صار شيخ النحويين والمفويين والرواة بالقيروان . وكان الشعر الجاهلى يلقي عليه فيشرحه ويبين معانيه فلما قدمت الشروح من المشرق لم يجد من تلقى عنه خلافا بين شرحه وشرح المشاركة .

وقد تلقى عليه أبناء القيروان علوم العربية وأخذ عنه كثير من العلماء الذين اشتغلوا بعد ذلك بالنحو واللغة منهم حمدون النحوى وأبو محمد عبد الله المكفوف ، وأحمد بن أبى الأسود النحوى وغيرهم .

وله كتب كثيرة ألفها منها كتاب فى اشتقاق الأسماء مما لم يأت به قطرب وكتب تسمى الألفاظ وكتاب فى تفسير مغازى الواقدى .

وكان أبو الوليد مع ذلك شاعرا خطيبا بليغا متصفا بالجود والكرم وقد طال عمره الى أن أدركته الوفاة بالقيروان واختلف فى سنة وفاته بين ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٥٦ هـ (٢٤٦) .

٢ - أبو عبد الله بن اسماعيل :

اشتهر بحمدون النحوى ولقب بالنعجة وهو من كبار تلاميذ أبى الوليد المهرى وتلقى عليه علوم العربية وكان مقدما بعده فى النحو واللغة بل قيل انه كان أعلم منه بالنحو خاصة لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه .

وكان له مكتب بالقيروان يعقد فيه حلقة يستمع اليه فيها المهتمون

(٢٤٦) انظر المالكى رياض ص ٣١١ ، الزبيدى طبقات ص ٢٤٩ ، السيوطى بغية ج ٢ ص ١١٤ ، حسن حسنى ورقات ص ٩٥ ، مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٦٠ .

بالنحو واللغة من العلماء كما كان يقصده الطلاب للاستفادة من علمه
فى النحو واللغة ويتلقون عنه دواوين الشعر وأوضاع اللغة .

وذكر الزبيدى أن له كتباً فى النحو وأوضاعاً فى اللغة ولم يذكر
أسماءها وأنه قال شعراً متكلفاً ضعيفاً إلا أنه كان فى النحو والعربية
والغريب الغاية التى لا بعدها .

وقد توفى بعد وفاة أستاذه أبى الوليد المهرى قبيل انقراض الدولة
الأغلبية وربما فى حدود سنة ٢٨٥ هـ اذ لم يبين أحد من المؤرخين
تاريخ وفاته (٢٤٧) .

٣ - أبو العباس أحمد بن أبى الأسود النحوى :

ولد بالقيروان وتربى بها وتلقى العلوم فيها وكان من أصحاب
أبى الوليد المهرى وقد لازمه وتخرج عليه وهو يعد من أنبغ تلامذته
فى النحو واللغة .

وكان له حلقة يعقدها فى مسجد بالقيروان قرب منزله حيث كان
يتلقى عليه التلاميذ النحو واللغة وكان يقول الشعر الجيد وألف كتباً
قيمة فى النحو واللغة والغريب لم يذكر المؤرخون أسماءها إلا أن الزبيدى
وصفها بأنها مؤلفات حسان . وكانت وفاته فى نهاية القرن الثالث
الهجرى (٢٤٨) .

٤ - أبو القاسم إبراهيم بن عثمان بن الوزان النحوى :

من أبناء القيروان النابيين فى العلوم العربية مع اتسامه بالأخلاق
الكريمة والتواضع وخفض الجناح ، وقد تعلم على أستاذه القيروان فى

(٢٤٧) انظر : الزبيدى طبقات ص ٢٥٦ السيوطى بغية ج ١
ص ٥٦ حسن حسنى ورقات ص ١٦٧ - ١٦٩
(٢٤٨) الزبيدى طبقات ص ٢٦٥ السيوطى بغية ج ١ ص ٢٩٧
حسن حسنى ورقات ص ١٦٣ ، ١٦٤

العلوم العربية وبذل جهدا كبيرا فى تحصيلها فكان يحفظ كتاب سيبويه وكتب الفراء وكان يميل الى مذهب البصريين مع علمه بقول الكوفيين . وكان يفضل المازنى فى النحو ، وقد حفظ فى اللغة كتاب العين للخليل بن احمد الغريب المصنف لأبى عبيد وكتاب ابن السكيت وغير ذلك من كتب اللغة ، وكان يفضل ابن السكيت فى اللغة .

وقد بلغ بجده واجتهاده فى تحصيل العلوم الى منزلة عالية فى القيروان فكان اماما فى النحو واللغة والعروض وأقر له علماء القيروان بالتقدم فى ذلك فكان أبو محمد المكفوف اذا وردت عليه مسائل فى النحو سألها الاجابة عنها وقال عنه : لو قال قائل انه أعلم من المبرد وثعلب لصدقه من وقف على علمه ، كما كان يستخرج من مسائل النحو والعربية ما لا يستخرجه أحد وامره فى ذلك يفوق كل أمر .

وذكر السيوطى ان له تصانيف كثيرة فى النحو واللغة الا انه لم يذكر اسماءها وقد ادركته الوفاة يوم عاشوراء سنة ٣٤٦ هـ (٢٤٩) .

٥ - أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القزاز :

ولد فى العقد الثالث من القرن الرابع الهجرى بالقيروان ونشأ بها وتلقى العلوم على علمائها وشغف بالاقبال على دراسة النحو واللغة على علماء القيروان كابن الوزان والعنبرى وغيرهما وقد رحل الى العراق واخذ عن الأمدى صاحب الموازنة والتقى بغيره من كبار النحويين واللغويين وتلقى عنهم علومهم وآدابهم .

وقد اشتغل القزاز بالتدريس ولمع نجمه فى النحو واللغة خاصة ، وتخرج عليه كثير من نجباء التلاميذ كابن رشيق وابن شرف القيروانى والحسين بن محمد التميمى وأحمد بن مكى بن أبى طالب وعبد الرحمن ابن عبد الله المطرز وغيرهم كثيرون .

(٢٤٩) الزبيدى طبقات ص ٢٦٥ السيوطى بغية ج ١ ص ١

حسن حسنى ورقات ص ٩٦ ، القزاز القيروانى للمنجدى الكعبى .

وكانت طريقة القزاز فى درسه أن يلقى على تلاميذه مشكلات المسائل اللغوية وأبيات الشعر العويصة ويطلب منهم بيان معانيها وتفسير الفاظها وفهم أغراضها .

وقد ألف كتباً كثيرة قسمها المنجى الكعبى الى :

(أ) كتب النصوص :

١ - الحروف وكان نأليفه بطلب من المعز لدين الله الفاطمى وموضوعه شرح الحروف التى ذكر النحاة أنها جاءت لمعنى وهو يقع فى ألف ورقة وفرغ منه فى سنة ٣٦١ هـ بالقيروان وهو مفقود لا يعلم له اثر اليوم .

٢ - اعراب الدربديه وشرحها .

٣ - كتاب المعترض .

٤ - كتاب المفترق .

٥ - ما يجوز للشاعر فى الضرورة هذا الكتاب موجود وقد حققه المنجى الكعبى .

(ب) كتب اللغة :

١ - الجامع .

٢ - المثلث .

٣ - كتاب فيه ذكر شئ من الحلى وهو أول كتاب مطبوع للقزاز نشره الشيخ طاهر النعسانى وأحمد الكيلانى مطبعة العرفان صيدا بالشام سنة ١٩٢٢ (٢٥٠) .

٤ - العشرات وهذا الكتاب موجود وقد طبع بصيدا بالشام سنة ١٩٢٥ (٢٥١) .

٥ - المثات .

٦ - الضاد والظاء .

٧ - الكلمات المشاكلة الصور .

(٢٥٠) المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٦٤

(٢٥١) المرجع السابق ص ٦٧

(ج) كتب أدبية عامة :

- ١ - التعريض والنصريح .
- ٢ - شرح رسالة البلاغة فى عدة مجلدات .
- ٣ - ما اخذ على المتنبى من اللحن والغلط فى جزء .
- ٤ - ابیات معان فى شعر المتنبى فى جزء .
- ٥ - معانى الشعر .
- ٦ - شرح رسالة الشيخ جعفر العدوى .
- ٧ - أدب السلطان والتأدب له .

وبهذا المجهود الضخم كان القزاز اماما لدراسة النحو والمغة فى القيروان له هبة عند الملوك والعلماء محبوبا عند الخاصة والعامة وقد أمد الله فى عمره الى أن ادركته الوفاة بالقيروان سنة ٤١٢ هـ (٢٥٢) .

(ب) وممن غلب عليهم الاشتغال والميل الى اللغة :

- ١ - أبو محمد عبد الله بن محمد :

كان كفيفا وولد ونشأ بالقيروان وتلقى اللغة والنحو على علمائها وتتلذذ على أبى الوليد المهرى وفاق انداده فى دراسة العربية وتفسير الدواوين وأيام العرب وأخبارها الى أن صار من مشاهير رواة اللغة والأدب فى القيروان وخلف أستاذه المهرى فى دراسة اللغة وتفسير الدواوين وارتفعت منزلته وذاعت شهرته وأقبل الطلبة عليه لا من القيروان وحدها بل كانت الرحلة اليه من جميع افريقية والمغرب .

وكان ذكيا المعيا ومما يذكر فى سرعة حفظه وقوة ذاكرته : انه كان يجلس مع حمدون النعجة فى مكتبه فربما استعار بعض الصبيان كتاب فيه شعر أو غريب أو من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه فاذا الح

(٢٥٢) انظر : السيوطى بغية ج ١ ص ٧١ ، حسن حسنى ورقات ص ١٠٢ ، المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧

عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول : اقراه على فإذا فعل قال أعده
تانية ثم يقول رده على صاحبه ومتى شئت فتعال أملكه عليك .

وقد ذكر الزبيدي أن له كتباً كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب
وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه
لما بين فيه وقرب من الشرح والتوضيح .

وفد ظل يؤدي واجبه في نشر اللغة والمحافظة عليها الى أن أدركته
الوفاة سنة ٣٠٨ هـ (٢٥٣) .

٢ - أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي :

ولد بالقيروان في حدود عام سنة ٢٧٢ هـ ونشأ بها وحضر على
جهاذة العلماء وكبار اللغويين والأدباء فيها وفد لأرم أبا محمد المكفوف
وأخذ عنه اللغة والنحو وتفسير الدواوين الى أن صار من العلماء النقاد
في العربية والغريب والنحو . وفام بشرح أكثر دواوين العرب وكان ثقة
في علمه أميناً في بيانه ومعرفته يسال عنه من مسائل لغوية . وكان
يقول الشعر الجيد .

ومن ذلك قوله :

يا طلل الحى الذين نحملوا بوادى الفضا كيف الاحبة والحال
وكيف قضيت البان والعمر الذى بوجنته ماء الملاحه سيال
وفي أواخر أيامه ترك الشعر ومال الى الحديث والفقه ، وقد
الف كتاباً في اللغة بعنوان الظاء والضاد .

ولم يطل به العمر فقد توفى عن ست وأربعين عاماً في
سنة ٣١٨ هـ (٢٥٤) .

(٢٥٣) الزبيدي طبقات ٢٥٦ السيوطى بغية ج ٢ ص ٦٢ حسن

حسنى ورقات ص ٩٨ .

(٢٥٤) السيوطى بغية ج ١ ص ٢٩١ ، حسن حسنى ورقات

ص ١٦٦ المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٧٣ .

٣ - أبو محمد حسن بن محمد التميمي العنبري :

شهر بالداروينى نسبة الى (دارون) منزل كان لبنى تميم فى فحس القىروان وقد ولد ونشأ وتربى بالقىروان وتلقى العلم على أساتذتها ومال الى علوم اللغة والنحو فحصل منها على قسط كبير الى أن صار اماما فى اللغة والعلم بالشعر والنحو . ولأنه تميمى كان شديد الافتخار بهذا النسب مع اعجاب بعلمه وكان له حلفة يحضر عليه فيها الدارسون للغة استمرت مدة طويلة وابتدأت فى حياة أبى محمد المكفوف وكان أعلم الناس بديوان ذى الرمة ، شغوبا به كثير الشرح له ولغيره من دواوين الجاهلية .

وقد داوم على أداء واجبه العلمى الى أن أدركته الوفاة فى عام ٣٤٣ هـ (٢٥٥) .

٣ - العلوم العقلية العقائدية :

تمهيد :

كانت القىروان خلال فترة عصر الازدهار تزخر بالافكار العقائدية المختلفة ولم يمنع ميل أكثر الناس الى آراء أهل السنة والأخذ عنهم واعتقادهم أن ذلك هو الطريق الأسلم فى العقيدة ، من أن يحدث فى القىروان ما حدث فى المشرق وأن توجد المذاهب المختلفة الى جوار مذهب أهل السنة . ومع وجود الخوارج فى بداية الحركة الفكرية وتمكن أهل السنة من طردهم من القىروان الا أن ما ثار فى المشرق من آراء فى المسائل العقائدية والكلامية كان له وجود فى القىروان ، كمسألة خلق القرآن وحرية الارادة وصفة الله ورؤيته فى الآخرة .

ولقد دار النقاش والجدال بين علماء القىروان حول هذه الآراء وبلغ بهم الأمر الى أن كان أحدهم لا يصلى على الآخر عند وفاته لطعنه

(٢٥٥) الزبيدى طبقات ص ٢٦٧ ، السيوطى بغية ج ٢ ص ٤١
حسن حسنى ص ٩٨ المنجى الكعبى القزاز القىروان ص ٢٤ .

في عقيدته ورميه بالزندقة ويذكر المالكي : أن اصحاب أسد بن الفرات كانوا يقرعون عليه في تفسير المسيب بن شريك الى أن قرأ القارىء (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وكان سليمان بن حفص جالسا بين يديه فقال له : « يا أبا عبد الله من الانتظار » وكان الى جانب أسد نعل غليظ فأخذ أسد بتلابيبه وكان ايدا واخذ بيده الأخرى نعله وقال : « أى والله زنديق لتقولنها أو لابيض بها عينك » ! فقال : « نعم ننظره » (٢٥٦) .

وقد حدث بعد ذلك عندما تولى أحمد بن الأغلب الامارة أن أخذ الناس بالامتحان يخلق القرآن ونال المعتزلة من أهل السنة وامتنحونهم وسوف نشير الى ذلك عند حديثنا عن أهل السنة والمعتزلة وكان أغلب الذين يقولون بخلق القرآن يتمذهبون بالمذهب الحنفى .

وعندما تمكن أهل السنة المالكيون من ولاية القضاء في القيروان اثناء ولاية سحنون نجده قد طرد أهل البدع من الجامع وشرد أهل الأهواء منه وكانوا فيه حلقة من الصفرية والاباضية والمعتزلة (٢٥٧) . وليس معنى تفريقهم من المسجد الجامع بالقيروان مسجد عقبة بن نافع أنهم كانوا لا ينشرون آراءهم في بيوتهم ومجالسهم أو في غير ذلك من المساجد المتعددة في القيروان بل حاولوا ذلك ولكن ليس في المسجد الجامع .

وكان من أهل السنة من هو عارف بأصول الديانات (٢٥٨) ومن ألف كتباً في الرد على النصارى وأهل الشرك وأهل البدع (٢٥٩) مما يدل على دراسة الأديان في القيروان ولا شك أن ذلك مما مكن محمد بن سحنون

(٢٥٦) المالكي رياض ص ١٨٢ .

(٢٥٧) المالكي رياض ص ٢٧٦ .

(٢٥٨) الدباج المعالم ج ٢ ص ٢٥

(٢٥٩) عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٦

من الرد على أحد اليهود في مصر أثناء ذهابه الى الحج مما جعل اليهودي يعتنق الاسلام (٢٦٠) .

وخلال فترة حكم الأغلبية كان هناك من أهل السنة من يميل الى الزهد والتصوف وسلخوا الى ذلك طريقا عمليا بالرباط والدفاع عن ثغور الاسلام فهم زهاد مجاهدون لا يميلون الى الدنيا ولكنهم مع ذلك نذروا حياتهم لجهاد العدو الذي كان يحاول الاغارة على بلاد الاسلام .

فاذا ما قضى على الدولة الاغلبية وقامت الخلافة الفاطمية الشيعية ثار الخلاف والجدال والمناظرة بين أهل السنة والشيعية وعقدت المجالس للمناظرة في الامامة والتفضيل بين الصحابة ومفهوم بعض النصوص الدينية خاصة فيما يتصل بالامامة والتفضيل . وفي النهاية استعمل الشيعة القوة والايذاء بالنسبة لأهل السنة لحملهم على اعتناق المذهب الشيعي الا أن أهل السنة تصدوا لذلك وتحملوا الاضطهاد والتعذيب والتشريد والقتل .

وأثناء خلافة القائم ثار أبو يزيد مخلد بن كيداد وكان يتمذهب بمذهب الخوارج النكارية من الاباضية ويبطن رأى الصفرية واستطاع بمن تابعة أن يستولى على كثير من المدن ويدخل القيروان . واتفق أهل السنة في القيروان معه على قتال الشيعة وخرج العلماء معه أملا في الانتصار على الشيعة ولما رأى أبو يزيد الخارجى أن الغلبة ستكون لهم على الشيعة ، عرض أهل السنة من علماء القيروان لسيوف الشيعة تخلصا منهم فاستشهد منهم عدد كبير . ولكن في النهاية دارت الدائرة على أبى يزيد الخارجى واندحر وقتله الشيعة . وعاد الشيعة لبيسطوا سلطانهم على القيروان ويحاولوا نشر مذهبهم فيها بالحجة والاقناع .

وبعد هذا العرض السريع نتحدث عن هذه الفرق فنقول :

(٢٦٠) سيفصل ذلك عند الترجمة لمحمد بن سحنون .

١ - أهل السنة :

كان أهل السنة يأخذون برأى الصحابة في عدم التأويل ويرضون عن جميع الصحابة ويقولون كما قال سعيد بن المسيب وقد قيل له ما تقول في عثمان وطلحة والزبير ؟ أقول ما قولنيه الله عز وجل : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا^(٢٦١) .

وقد حمل أهل السنة لتمسكهم بمذهبهم لواء الرد والمعارضة على المخالفين من المعتزلة والشيعة والخوارج فنصدوا للفائلين بعدم رؤية الله في الآخرة وبخلق القرآن وعلى الشيعة في قولهم بالامامة والتفضيل وفي الاسماء والصفات .

وقد ذكر المالكي أن أسد بن الفرات تحدث بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة وسليمان العراقي آخر المسجد فتكلم وانكر فسمعه فقام إليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله فضربه ضربا شديدا حتى أدماه وعندما كان أسد يعرض التفسير تلا قوله تعالى : « فاستمع لما يوحى أننى أنا الله لا اله الا انا فاعبدنى » فقال أسد عند ذلك « ويل لاهل البدع هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلا ما يقول ذلك الكلام المخلوق لا اله الا انا »^(٢٦٢) .

ولذلك عندما ولى أحمد بن الأغلب الامارة وأخذ الناس بالحنة بخلق القرآن وخطب به في القيروان خرج سحنون وكان امام أهل السنة فارا الى عبد الرحيم الزاهد بقصر زياد فوجه الامير في طلبه فلما وصل الى الامير جمع له قواده وقاضيه ابن أبى الجواد وغيره وسأله عن القرآن فقال سحنون : أما شيء ابتدئه من نفسى فلا ولكنى سمعت من تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق فقال ابن أبى الجواد كفر فاقتله ودمه في عنقى وقال مثله غيره ممن

(٢٦١) مبارك الميلى - تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٤

(٢٦٢) المالكي - رياض ١٨٢

يرى رأيه وقال بعضهم يقطع أرباعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا فقال الأمير لداود بن حمزة : ما تقول أنت ؟ قال قتله بالسيف راحة ولكن أقتله قتل الحياة فناخذ عليه الضمنا وينادى عليه بسماط القيروان الا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره^(٢٦٣) .

وكان أهل السنة شديدي التمسك بمذهبهم ولا يتزحزون عنه قيد أنمله ولو أن السلطان كان مع مخالفهم فقد ذكر القاضي عياض أن ابن أبي الجواد فاضى القيروان وكان معتزليا امتحن موسى بن معاوية الصمادحي فسأله عن القرآن فقال موسى : سمعت فلانا وفلانا وذكر جماعة من أهل العلم يقولون لمن قال القرآن مخلوق فهو كافر . فقال له ابن أبي الجواد لقد أعمى الله قلبك كما أعمى بصرك وكان موسى إذ ذاك قد كف بصره^(٢٦٤) .

ولذلك عندما تولى سحنون القضاء شرد أهل الاهواء من المسجد الجامع وكانوا فيه حلقا للمصفرية والاباضية مظهرين لزيغهم^(٢٦٥) .

وبالغ المالكي فيما كان بين أهل السنة والمعتزلة وان كلا منهما كان يكفر الآخر فيذكر أنه عندما توفي سحنون استعفى رجال ابن الأغلب من الصلاة عليه وقالوا : قد علمت ما بيننا وبينه وأنه يكفرنا ونكفره لأن أكثرهم كانوا معتزلة - وانما خرجنا طاعة لك فان صلينا عليه رأى الناس أنا رضينا حاله فاعفاهم وتقدم وصلى في عبيده وعامة أهل السنة وجماعة المسلمين^(٢٦٦) وقد بلغ من شدة تمسك أهل السنة بمذهبهم أن كان الواحد منهم عندما تحضره الوفاة يوصى بأن يكتب على قبره : هذا قبر فلان بن فلان كان يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول

(٢٦٣) المالكي - رياض ص ١٨٥ ، ١٨٦

(٢٦٤) القاضي عياض المدارك ج ٣ ص ٨٢٧

(٢٦٥) أبو العرب طبقات ص ١٨٤

(٢٦٦) المالكي رياض ص ٢٨٨

الله وإن القرآن كلام الله غير مخلوق متحديا للاعتزال جهارا في حياته وبعد موته^(٢٦٧) .

وبعد وفاة سحنون نشأ بين أهل السنة خلاف في مسألة الايمان : وهى هل يجوز أن يقول الشخص أنا مؤمن أو لا بد من زيادة أن شاء الله فقال ابن سحنون ومن تابعه بالاول وقال بن عبدوس ومن تابعه بالثاني^(٢٦٨) وكان بن سحنون يقول المرء يعلم اعتقاده فكيف يعلم أنه يعتقد الايمان ثم يشك فيه . ويقى بينه هو وأصحابه بعده وبين أصحاب ابن عبدوس وغيرهم في المسألة تنازع مجادلات وكانوا يسمون من خالفهم الشوكية لاستثنائهم وقد علق القاضى عياض على ذلك بأنه خلاف الفاظ لا حقيقة فمن التفت الى مغيب الحال والخاتمة وما سبق به الفدر وقال بالاستثناء ومن التفت الى حال نفسه وصحة معتقده في وقته لم يقل به^(٢٦٩) وقد أيد محمد بن عبد الحكم في مصر رأى ابن سحنون فقد ذكر عبد الله بن غافق التونسي أن محمد بن عبد الحكم سألته عن مسألة الايمان وما وقع فيها من الاختلافات في القيروان فقال له : قال قوم نحن مؤمنون عند الله ، مذنبون . وقال قوم نحن مؤمنون ولا ندرى ما نحن عند الله فقال : ما قال فيها محمد بن سحنون فقال له : مؤمنون عند الله ، فقال : دعنى بهذين فبعث اليه فقال الصواب ما قال محمد بن سحنون^(٢٧٠) .

وكان أهل السنة يردون على القدرية بما روى عن عون بن يوسف : اذا أردت أن تكفر القدرى فقل له : ما أراد الله عز وجل من خلقه ؟ فان قال أراد منهم الطاعة فقد كفر لأن منهم من عصى وكل الله لا تتم طاعته فليس بآله وان قال : أراد منهم المعصية فقد كفر لان منهم من

(٢٦٧) عياض المدارك ج ١ ص ١١

(٢٦٨) معالم الايمان ج ٢ ص ٩٢

(٢٦٩) عياض المدارك ج ٣ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢٧٠) المرجع السابق ص ٢٧٣

اطاع وكل اله لا تتم ارادته فليس بالله قال : فان قال لك أمستول ما أراد منهم ؟ فقل أراد منهم الذى أراد لهم والذى كان لهم يريد ما سبق لهم عنده فى اللوح المحفوظ (٢٧١) .

وعند قيام الدولة الفاطمية اشتد النزاع بين اهل السنة وبين الشيعة وقد سبق شىء من ذلك عندما ترجمنا لابن الحداد فى العنوم الشرعية وكيف جادل الشيعة اهل السنة ويذكر عياض بعض هذه المناقشات أثناء ترجمته لعبد الله بن اسحق المعروف بابن التبان عندما وجه عبد الله الشيعى الى ابن التبان فاذا به داخل وعيناه تتواقدان كأنهما عينا شجاع فدخل وسلم فقال ابطأت عنا يا ابا محمد فقال فى شغلك كتاب الفقه فى فضائل اهل البيت الساعة اثنى به المجلد فقال يا ابا محمد ناظر هؤلاء الدعاة قال : فى ماذا ؟ فى فضائل اهل البيت فقال لهما ما تحفظان فى ذلك فقال ابو طالب انا أحفظ حديثين - ولحن - وسال الآخر فقال له وانا أحفظ حديثين فقال : فيما دان الحديثان اللذان تحفظ انت ؟ فقال له : هما يحفظان حديثين - ونطق بلحنهما - انا أحفظ فى ذلك تسعين حديثا فاولى بهما الرجوع الى ، ثم قال عبد الله يا ابا محمد من افضل ابو بكر او على ؟ قال ليس هذا موضعه فقال لا بد فقال : ابو بكر افضل من على فقال عبد الله : أياكون ابو بكر افضل من خمسة جبريل عليه السلام سادسهم ؟ فقال ابو محمد : أياكون على افضل من اثنين الله نالهما ؟ انى أقول لك ما بين الوجهين وأنت تأتىنى بأخبار الآحاد فضافى عبد الله وقال : فمن افضل عائشة او فاطمة ؟ فقال له : هذا آخر سؤالك الأول قال لابد قال عائشة رضى الله عنها وسائر أزواج النبى ﷺ افضل من فاطمة قال : من أين ؟ فقال له قال الله تعالى : يأنساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن . فيقال ان بعض الدعاة قال له فى هذه المسألة أيا افضل امرأة أبوها رسول الله ﷺ وأما خديجة الكبرى وزوجها على بن أبى طالب بن عم رسول الله ﷺ

وولداها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة أو امرأة أمها أم رومان وابوها عبد الله بن أبي قحافة ؟ فقال له أبو محمد : أيهما أفضل عندك امرأة إذا طلقها زوجها أو مات عنها تزوجها عشرون زوجا أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لأحد ؟ ويذكر الدباغ أنه قال له الجواب عن ذلك من عشرة أوجه أحدهما ما تقدم والثاني أن عائشة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في درجته وفاطمة مع علي بن أبي طالب في درجة ودرجة علي لا تساوي درجة النبي ﷺ وأنه سرد عليهم بقية الاجوية فيحكي أن أبا عبد الله قال له : يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنین ومن يوثق بك أدخل العهد وخذ البيعة فعطف عليه أبو محمد وقال له : شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا ؟ لو نشرت بين اثنين ما فارقت مذهب مالك فلم يعرض له ويقال : ان عبد الله ترك طلب بقية الشيوخ بعد ذلك المجلس (٢٧٢) .

وقد ألف إبراهيم بن عبد الله المعروف بالمقلانسي كتابا في الامامة والرد على الرافضة وامتنح على يدى عبيد الله المهدي وضربه سبعمائة سوط وحبسه في دار البحر أربعة أشهر بسبب تأليفه ذلك الكتاب (٢٧٣) .

ويذكر ابن فرحون أن يحيى بن عمر بن يوسف ألف كتابا في الرؤية وكتابا في الرد على الشوكية وكتاب الرد على المرجئة وغير ذلك من الكتب (٢٧٤) وكان من المتكلمين أحمد بن نصر بن زياد المتوفى سنة ٣١٧ هـ وكان عالما بالمناظرة مليئا بالشاهد صحيح المذهب سليم القلب يعقد حلقة للمناظرة في المسائل (٢٧٥) .

(٢٧٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ الدباغ معالم ج ٣

ص ١١٤ - ١١٦

(٢٧٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٥٢٤ - بن فرحون الديباج المذهب

ص ١٨٨

(٢٧٤) بن فرحون الديباج ص ٣٥١

(٢٧٥) انظر بن عذارى البيان ج ١ ص ١٩٥

وقد بلغ عدد المتكلمين من أهل السنة خلال القرن الثالث الهجرى
وبداية القرن الرابع ما يربو على الثلاثين عالماً^(٢٧٦) ومعظمهم قد ألف
في الرد على المخالفين لأهل السنة . ومن المؤلفين البارزين من علماء
أهل السنة عالمان هما :

١ - محمد بن سحنون :

ولد بالقيروان سنة ٢٠٢ هـ ونشأ بها وكان أبوه يقول لمعلمه :
لا تؤدبه الا بالكلام الطيب والمرح فليس هو من يؤدب بالضرب والتعنيف
وانى لأرجو أن يكون نسيج وحده وفريد أهل زمانه وعندما شب تلقى
العلم على أبيه وسمع من موسى بن معاوية الصمادحى وعبد العزيز
ابن يحيى المدنى وعبد الله بن أبى حسان اليعصبى وفى سنة خمس
وثلاثين رحل الى المشرق فلقى أبا مصعب الزهدى صاحب مالك ويعقوب
ابن حميد بن كاسب وشيبة بن شبيب النيسابورى وغيرهم^(٢٧٧) .

وقد بلغ منزلة عالية فى العلم والمعرفة الى أن صار اماماً فيه
ولم يكن فى عصره أحذق بفنون العلم منه وخاصة فى الفقه والنظر والرد
على أهل الأهواء والتأليف فى كثير من فروع العلم ويبلغ من ذكائه أنه
كان يناظر أباه وكان الطلبة يحلقون عليه بعد حلقة أبيه وجلس فى
حلقة أبيه بعد وفاته وكان يؤلف فى حياة أبيه .

وقد اثنى عليه العلماء لما رأوا من علمه فقال عنه يحيى بن همر :
كان من أكثر الناس حجة واتقنهم بها وقال عنه أبوه ما أشبهه الا بأشهب
ونزل فى مصر اثناء حجه على أبى رجاء بن أشهب عندما سأله النزول
عنده وأتى اليه العلماء وحلقوا عليه وسألوه وكان منهم المزنى
صاحب الشافعى فلما سئل عنه قال والله ما رأيت أعلم منه ولا أحد
ذهنا على حدائثه سنه .

(٢٧٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢١٨

(٢٧٧) انظر المالكى رياض ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، عياض المدارك

ج ٣ ص ١٠٤ ، الدباغ ج ٢ ص ٧٩

ويذكر المالكي أن صاحباً لابن سحنون قد بدأ مناظرة في مصر مع رجل يهودي استعلى فيها اليهودي على الرجل بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل لضعف الرجل وقلة معرفته بالمناظرة فدخل معهما محمد فيما هما فيه ورجعت المناظرة بين اليهودي ومحمد بن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر فأقام محمداً الصلاة وصلى ، وعاد الى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر فأقام محمد الصلاة وصلى العصر ثم عاد الى المناظرة حتى حضرت صلاة المغرب وقد اجتمع الناس اليهما من كل موضع وشاع ذلك بمصر وقال الناس بعضهم لبعض : ألسوا تسمع المناظرة بين الفقيه المغربي وبين اليهودي فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودي وانقطع وظهر عليه محمد بن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة البالغة فلما تبين اليهودي الحق بالبرهان وأراد الله عز وجل هدايته قال عند ذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأسلم وحسن إسلامه فكبر الناس عند ذلك وعلت أصواتهم بالتكبير وقالوا : أسلم اليهودي على يد الفقيه المغربي وقد لام محمد صاحبه أشد اللوم وقال له كاد أن يجرى على يدك فتنة عظيمة كيف تأتي الى رجل يهودي تناظره وأنت ضعيف المناظرة والجدال^(٢٧٨) .

وعندما وصل محمد بن سحنون مسجد النبي ﷺ بالمدينة وجد جماعة عظيمة محقة على شيخ متكئ لكبر سنه وهم يتنازعون في مسألة من مسائل أمهات الأولاد فنبههم على نكته فاستوى الشيخ جالسا وقررها فزاد ابن سحنون أخرى فقال الشيخ من أي البلاد أنت قال من أفريقية قال من أي بلدة منها قال من القيروان قال ينبغي أن تكون أحد رجلين أما محمد بن سحنون وأما محمد بن لبدة بن أخي سحنون فإن هذا التنكيت لا ينبغي أن يكون إلا من أهل دار سحنون فقال له أنا محمد ابن سحنون فقام اليه وصافحه وخرجوا من المسجد وجعل ابن سحنون يملأ على الشيخ بالطريق وهو يكتب المسألة^(٢٧٩) وهذا يبين لنا

(٢٧٨) المالكي رياض ص ٣٥١ ، ٣٥٢

(٢٧٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢

المنزلة الرفيعة السامية التى وصل اليها محمد بن سحنون. ومنزلته فى مصر والمدينة كما يبين لنا مستوى الحياة الفكرية فى القيروان وان علماءها كان لهم منزلة رفيعة فى مصر والمدينة . ومما يدل على علو منزلته فى الدفاع عن السنة المناقشة التى دارت عندما طلب منه على بن حميد الوزير فى القيروان ان يناظر احد المعتزلة فى خلق القرآن وهو أبو سليمان النحوى صاحب الكسائى الصغير وكان يقول تخلق القرآن ويذهب الى الاعتزال فقال محمد تقول ايها الشيخ أو تسمع ؟ فقال له الشيخ قل يابنى فقال محمد : ارايت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ فسكت الشيخ ولم يجد جوابا ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشئ فقال له محمد : كم سنة اتت عليك ايها الشيخ ؟ فقال له ثمانون سنة فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد قد اختلف اهل العلم فى الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته ٠٠٠٠ وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت فى عداد الموتى فقد سقطت الصلاة عليه باجماع : ثم قام فسر بذلك على بن حميد واهل المجلس فسئل ابن سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا فقال أن قال كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر لانه جعل القرآن ذليلا لانه يذهب الى انه مخلوق وقد قال الله عز وجل وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وان قال أنه لا يذل فقد رجع الى مذهب اهل السنة لانه لا يذهب فى هذه الحالة الى انه مخلوق الذى هو صفة من صفاته (٢٨٠) .

وقد ذكر المالكي أن أحمد بن مسعود سأل ابن عبدوس يوما فقال : ما تقول فى الايمان أصلحك الله انه مخلوق هو أم غير مخلوق فقال له ابن عبدوس : لا أدري ولكن سأل صاحب الكوفة وهو يريد ابن سحنون وكان ابن سحنون يجلس فى طاق فى مسجده فأتى الرجل ابن سحنون فقال له فاين صاحبك فقال قد سألته فلم يجبنى وأرسلنى اليك فقال له محمد : هذه مسألة تحتاج أن يختلف فيها سنة ثم قال له الايمان بضع وسبعون درجة ادناها أماطة الاذى عن الطريق

(٢٨٠) المالكي رياض ص ٣٥٠ ، ٣٥١

واعلاها شهادة أن لا اله الا الله فالإقرار غير مخلوق وما سوى ذلك من الأعمال مخلوقة (٢٨١) .

وذكر القاضي عياض أن ابن الأغلّب وجه الى ابن سحنون فسأله ما تقول في يزيد ؟ فقال : أصلح الله الأمير ما أقول ما قالت الاباضية ولا ما قالت المرجئة قال : وما قالت ؟ قال : قالت الاباضية ان من أذنب ذنباً فهو من أهل النار . وقالت المرجئة لا تضر الذنوب مع التوحيد . اما يزيد فكان ذنبه عظيماً جسيماً ويفعل الله في خلقه ما أحب (٢٨٢) .

وقد ألف ابن سحنون مؤلفات كثيرة في فروع كثيرة من العلم ذكر المالكي أنها نحو مائتي كتاب وأشار عياض وابن فرحون الى أن منها رسالة في أدب المناظرة جزءان وكتاب تفسير الموطأ أربعة أجزاء وكتاب الحجة على القدريّة وكتاب الحجة على النصاري وكتاب الاباحة وكتاب الرد على البكريّة وكتاب الورع وكتاب الايمان والرد على أهل الشرك وكتاب الرد على أهل البدع ثلاثة كتب وكتاب الامامة الذي كتب بماء الذهب عندما وصل الى بغداد وأهدى الى الخليفة ومنها كتاب في الرد على الشافعي وعلى أهل العراق وكتاب طبقات العلماء سبعة أجزاء وكتاب الاشربة ، وغريب الحديث وكتاب التاريخ ستة أجزاء وألف أحكام القرآن والمسند في الحديث والجامع في فنون العلم والفقه وكتابه في المعلمين ورسالة في السنة (٢٨٣) .

ومع توجيهه محمد بن سحنون كل جهده الى العلم والمعرفة الا انه لم يحرم نفسه من العبادة والمشاركة في الجهاد والرياط فقد روى أنه قصد قصر الطوب للعبادة والحرس على المسلمين فنزل بعض قطاع الروم بساحل ذلك البحر للاعتداء على المسلمين وسلبهم فتصايح الناس

(٢٨١) المرجع السابق ص ٣٥٥

(٢٨٢) عياض المدارك ج ٣ ص ١١٣

(٢٨٣) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٦ ، ابن فرحون الديباج

ولم يكن مع محمد بن سحنون الا بغل فتقلد بسيف وأخذ رمحا وركب ذلك البغل الذى معه واجتمع اليه الناس فى جماعة من المرابطين ومن يقرب من القصر من اهل البوادر وتمادى بمن معه الى الروم فوجدهم قد أشرفوا على نهم الاموال وسبى الحريم فكبر عليهم هو ومن معه وناشبوهم القتال فهزمهم الله على يديه وقتل منهم مقتلة عظيمة واتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هارين^(٣٨٤) وبذلك جمع ابن سحنون بين العلم والعمل وقد ظل ابن سحنون يؤدى واجبه فى الدفاع عن اهل السنة والرد على المخالفين الى ان أدركته الوفاة سنة ٢٥٦ هـ ودفن بباب نافع وكان لوفاته وقع عظيم فى القيروان فأقام الناس على قبره شهورا عدة حزنا عليه ورثاه كثير من الشعراء بمراث كثيرة وطويلة بلغ بعضها ثلاث مائة بيت من الشعر وقال فيه شاب من اهل الساحل :

خل المدام كى تجول مجالها قطعت يمين العلم ثم شمالها

وقال أحمد بن سليمان فى مرثيته :

وناظر اهل العلم أمرد يافعا ولما التحى بالعلم قام مناديا
ولما علاه الشيب أبصرت نوره لما كساه الله أزهر فاشبا
ويافبر سحنون وقبر محمد اظلكما الله الغمام الغوادية
توافى شريف الحلم والعلم فيكما ووافاكما التفضيل لما توافيا

٢ - أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزاوى المشهور بابن أبى يزيد القيروانى :

ولد بالقيروان سنة ٣١٠ هـ ونشأ بها وهو من قبيلة نفزة البربرية وشهد بداية الخلافة الفاطمية ولكنه كان سنيا واشترك مع شيوخ المذهب المالكى السنيين فى حركة أبى يزيد ضد الخلافة الفاطمية وقد تلقى العلم على شيوخ القيروان وخاصة أبا بكر بن اللباد وأبا الفضل

(٢٨٤) انظر المالكى رياض ص ٣٤٨

الممس ومحمد بن مسرور العسال وعبيد الله بن مسرور بن الحجام
والقطان والابيانى وزياى بن موسى وسعدون الخولانى وابى العرب واحمد
بن ابي سعيد كما تلقى على الاصيلى من شيوخ الاندلس ودراس بن
اسماعيل من شيوخ فاس وسمع من شيوخ مصر واخصهم ابن شعبان
صاحب الزاهى وشيوخ العراق وخاصة ابا بكر الابهري والقاضى احمد
ابن ابراهيم من آل حماد كما حج فسمع من ابن الاعرابى وابراهيم
ابن محمد بن المنذر .

وقد اكمبه ذلك علما واسعا اعانه عليه حافظة قوية وقريحة
المعية الى ان صار امام المالكية فى وقته فهو المدافع عن المذهب والبصير
بالرد على اهل الاهواء مع اتصافه بالصلاح والورع والعفة وفصاحة
القلم واللسان .

وقد ذاعت شهرته واقبل الطلاب عليه من ابناء القيروان ومن ابناء
ليبيا وصقلية ومن ابناء المغرب الاوسط والاقصى ومن الاندلس ليغترفوا
من علمه ومعرفته فمن اصحابه القرويين : ابو بكر بن عبد الرحمن
وابو القاسم البرادعى والليدى وابنا الاجدابى وابو عبد الله الخواص
وابو محمد مكى المقرئ . ومن الاندلس : ابو بكر بن موهب المقبرى وابن
عابد وابو عبد الله بن الحذاء وابو مروان القنازعى . ومن اهل سبتة :
ابو عبد الله بن العجوز وابو محمد ابن غالب وخلف بن ناصر ومن اهل
المغرب : ابن امدكنو السجلماسى وسمع منه خلق كثير غير هؤلاء .

ولقد عرفه معاصروه قدره فقال عنه ابو الحسن القابسى انه امام
موثوق به فى درايته وروايته واستجازه ابن مجاهد البغدادى وغيره من
اصحابه البغداديين ولقد لقبه علماء عصره بمالك الصغير لرجوعه بالفقه
الى صفائه العلمى وابعاده عن قيود الجدليات والعصبية كما رد على
المعتزلة والقدرية وكتب فى اصول التوحيد وبيان المعرفة واليقين الحق .
ومؤلفاته تربو على الثلاثين . ذكر عياض منها كتاب النوادر والزيادات
على المدونة وكتاب مختصر المدونة وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب

في التفقه . وكتاب الاقتداء بأهل السنة وكتاب الذب عن مذهب مالك وكتاب الرسالة وهو مشهور يدرس الى اليوم وكتاب القول في اولاد المرتدين ومسألة الحبس على ولد الاعيان وكتاب تفسير اوقات الصلاة وكتاب الثقة بالله والتوكل على الله سبحانه وكتاب المعرفة واليقين وكتاب المضمون من الرزق وكتاب المناسك ، ورسالة فيمن تأخذ عند قراءة القرآن والذكر حركة . وكتاب رد المسائل وكتاب حماية عرض المؤمن وكتاب البيان عن اعجاز القرآن وكتاب الوسوس ورسالة اعطاء القرابة من الزكاة ورسالة النهي عن الجدل ورسالة في الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادى المعتزلى وكتاب الاستظهار في الرد على الفكرية وكتاب كشف التلبيس في مثله ورسالة الموعظة والنصيحة ورسالة طلب العلم وكتاب فضل قيام رمضان ورسالة الموعظة الحسنة لاهل الصدق ورسالة الى اهل سجداسة في تلاوة القرآن ورسالة في اصول التوحيد .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة مجموعة من كتب ابن أبى يزيد حوالى اثنا عشر كتابا تشمل الاوراق من رقم ٥٤ الى ٣٣٢ (٢٨٥) .

وقد ألف ابن أبى يزيد كتاب الاستظهار للرد على عبد الرحيم الصقلى ورد كثيرا مما تقلده من خارق العادات وقد أدى ذلك الى أن شنع المتصوفة وكثير من أصحاب الحديث عليه واشاعوا أنه نفى الكرامات مع أن القاضى عياض يقول أن من طالع كتابه عرف مقصده وأنه لم ينف الكرامات وقد رد عليه جماعة من أهل الاندلس ومن أهل المشرق ككتاب أبى الحسن بن جهضم الهمذانى وكتاب أبى بكر الباقلانى وأبى عبد الله بن شق الليل وأبو عمر الطلمنكى (٢٨٦) .

(٢٨٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

(٢٨٦) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ٤٩٢ - ٤٩٥ ، ابن فرحون الديباج ص ١٣٦ - ١٣٧ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ١٠٦ - ١٠٧ ، الفاضل بن عاشور اعلام الفكر الاسلامى ص ٤٦ - ٤٨ ، احسان عباس العرب في صقلية ص ١١٤

وابن أبى زيد فى رسالته المذكورة فى مذهب مالك يذكر : ان قوله تعالى : « على العرش استوى » من المتشابه وقد منح مالك تاويله . لكن من الجائز تاويله تاويل ايضاح بمعنى ان استواءه على العرش اى انه استولى عليه استيلاء ملك قادر قاهر وهو هنا يخالف الامام مالك ويقول بالنسبة لاسماء الله وصفاته : ان مما يجب اعتقاده ان له تعالى الأسماء الحسنى وهو غير محصورة فى التسعة والتسعين الواردة فى الحديث وان له الصفات العلى ، اى المرتفعة عن كل نقص . وانه لم يزل بجميع صفاته وباسمائه . ومعنى لم يزل عبارة عن القدم . وفى هذا رد على المعتزلة والرافضة الزاعمين بأن الله تعالى كان فى ازله بلا اسم ولا صفة وان عباده هم الذين خلفوا له الأسماء والصفات . وصفات الأفعال كالخلق والرزق والاحياء والاماته قديمة كذلك . على عكس ما ذهب الأشعرى من أنها حادثة لانها متجددة من حيث أنها اضافات تعرض للقدرة وفرق بينها وبين صفات الذات القديمة وهى تمانية : القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام والبقاء .

ومما يجب اعتقاده ان الله كلم موسى بكلامه القديم الذى هو صفة ذاته وأن كلامه ليس بصوت ولا حرف يسمع من كل جهة بكل جارحة وان القرآن كلام الله الفائم بذاته الخ^(٢٨٧) .

وقد بقى ابن أبى زيد يؤدى واجبه فى العلم والتعليم والتأليف ويزود عن أهل السنة ويرد شبه أهل البدع الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٨٦ هـ .

٢ - الزهد والتصوف :

من أهل السنة فريق مال الى الزهد والتصوف وهم مع ذلك متمسكون بالكتاب والسنة مع البعد عن الدنيا وعن الاكثار منها وقد أمتاز التصوف فى القيروان بمزجه بالجهد والرباط للدفاع عن حوزة

(٢٨٧) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٧٨ ، ١٧٩

الاسلام . فهم أولا : فاهمون لكتاب الله وسنة رسوله وثانيا : لا يميلون الى متاع الدنيا ويتقللون منها . وثالثا : هم مرابطون على الثغور لدفاع الروم وصد هجومهم عندما يغيرون على الشواطىء الاسلامية القريبة من القيروان كالاربطة المنتشرة عند سوسة ولطة والمنستير ورباط قصر زياد وكلها على ساحل البحر .

وكان الزهاد والمتصوفة يرابطون فيها حيث يتجمع حولهم الناس والمريدون وقد وضعوا بحياتهم وسلوكهم قواعد الرباط والزهد والتعبد بصرب المثل الصالح والقدوة الحسنة التى يحتذى بها .

ومن الزهاد الذين ذاع صيتهم وتستجاب دعواتهم :

(١) أبو على شقران بن على :

وكان رجلا صالحا ضير البصر مع كثرة صلاة وصيام ورقة قلب وتخشع وكان عالما بالفرائض والف فيها كتابا وهو ينطق بالحكمة ويعظ الناس وقد انتفع به كثير من المريدين منهم ذو النون المصرى الاخميمى وغيره .

وقد روى عنه سحنون بن سعيد ، وعون بن يوسف الخزاعى وكان مؤاخيا للبهلول بن راشد^(٢٨٨) ومن وصاياه لذى النون فى الحث على العمل والتوكل على الله والاستعانة به :

« يافتى كل من كد يمينك مما عرق فيه جبينك ولا تاكل بدينك فان خفت ان يضعف يمينك فاستعن بالله يعنك . اعلم ان لى ولك غدا موقفا بين يدى الله عز وجل فاتق الله ولا تشك من يرحمك الى من لا يرحمك »^(٢٨٩) .

(٢٨٨) انظر ابو العرب الطبقات ص ١٣٩ ، المالکى رياض

ص ٢٢٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٠٩

(٢٨٩) المالکى رياض ص ٢٢٣

وهو يعرف الزهد وما يجب أن يتحلى ويتصف به في مسكنه وملبسه ومعرفته بالقرآن ومراقبته لله وذكره ثم المحاسبة للنفس فيقول : « اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته في الدنيا ما وجد ومسكنه حيث أدرك ولباسه ما يستر ، والخلوه مجلسه والقرآن حديثه والله العزيز الجبار أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والصمت محبته والخوف محبته والشوق مطيته والنصيحة نهمته والاعتبار فكرته والصبر وساده والتراب فراشه والصديقون اخوانه والحكمة كلامه والعقل دليله والحلم خليله والتوكل نسبة والجوع ادامة والله عون » قال ذو النون فقلت له : « يرحمك الله تعالى بم يتبين العبد الزيادة في هذا المكان ؟ قال بالمحاسبة للنفس والمناقشة لها حسبك الآن حسبك » (٢٩٠) .

وكان شقران صاحب كرامات . وكان أهل القيروان يقصدونه يستنزلون به القطر فقد قحط الناس بالقيروان فجاءة قوم فقالوا : يا أبا على ادع الله يسقينا فقد ترى ما الناس فيه من الجهد والغلاء « فشد أزراده على وسطه ورفع يديه بالدعاء والتضرع الى الله عز وجل وجعل يقول في دعائه : عزيمة منى عليك أسقنا الساعة الساعة فأرعدت السماء وأبرقت وأمطرت فخرجوا من عنده يخوضون في الماء الى أنصاف سوقهم » (٢٩١) .

وكان البهلول مع زهده وورعه يقصد شقران يطلب منه الدعوات فقد ذهب اليه مع رجل له ابن صغير أصابه الجدرى فهو لا يبصر فقال له البهلول « ان أخانا هذا ليس له غير ابنه الذي معه وقد ابتلى في بصره فادع الله تعالى أن يرد اليه بصره : فاستقبل شقران القبلة وهو على سريرته فحمد الله عز وجل وصلى على نبيه ﷺ ثم قال : اللهم ان أخانا هذا قد سألنا ما علمت فبسألك أن ترد ألى ولده بصره . فالتفت الصبي الى أبيه وقال يا أبت ما هذا » (٢٩٢) .

(٢٩٠) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٢٩١) المسالكى رياض ص ٢٢٨

(٢٩٢) المرجع السابق ص ٢٢٨

وقد توفي شقران سنة ١٨٦ هـ وقد جاوز السبعين سنة ودفن
بباب سلم (٢٩٣) .

(ب) أبو محمد عبد الرحمن بن عبد ربه الربيعي الزاهد :

من الزهاد الذين يستجاب دعاؤهم بالقيروان ولذلك يعرف
بعبد الرحيم المستجاب وقد نشأ بالقيروان وتلقى العلم على سحنون
واسد بن الفرات وجد في طلب العلم والعناية به وقد حبس كتباً كثيرة
بخطه وضبطه للانتفاع بها وكان سحنون يجله وقد قال لرجل فاته
بعض السماع منه : أين أنت من الشيخ ؟ يعنى عبد الرحيم أسمعها منه
فكانك سمعت منى وقد سمع منه عيسى بن مسكين وغيره (٢٩٤) . وكان
يعمل تاجراً في سوق البزازين في القيروان ثم ترك التجارة وأراد
الخروج مع أسد بن الفرات لغزو صقلية إلا أن سحنون قال له : أنك كنت
تريد بناء قصر زياد وبنيتك لهذا القصر ليكون حرساً للمسلمين وغوثاً
لهم يلجأون إليه ويرابطون فيه أفضل من مسيرك إلى صقلية وقد أقر
أسد رأى سحنون ودخل أسد على زيادة الله بن الأغلب الأمير فخرج
ومعه سجلان : سجل منهما بولايته على صقلية أميراً وقاضياً وسجل آخر
لعبد الرحيم في الأذن له في بناء قصر زياد وقد انفق عبد الرحيم
في بناء قصر زياد اثني عشر ألف دينار ستة آلاف من عنده وستة آلاف
من عند أخوانه .

ولم يكن زهد عبد الرحيم لعدم وجود الثروة فقد كانت له ضيعة
واسعة وكان عنده سبعة عشر ألف شجرة زيتون وكان مع ذلك ازهد
أهل زمانه كثير الصدقة والمعروف لم يكن للدنيا عنده قدر .

وقد لازم الرباط مع ما فيه من مشقة دفاعاً عن المسلمين والتزاماً
لسلوك خاص في الحياة والعبادة والطعام والشراب ولذلك نقد بعض

(٢٩٣) انظر الدباغ معالم ج ١ ص ٢١٣

(٢٩٤) أبو العرب طبقات ص ١٩٧ ، المالكي رياض ص ٣٢٧ ،

عياض المدارك ج ٣ ص ٩٥ . حبس : بمعنى أوقف .

المرابطين عندما لم يلتزموا بآداب الرباط فقد خرج سنة من السنين الى المنستير فنزل فى القصر الكبير فيما كان العنسى سمع حس مهريس فقال ما هذا ؟ ف قيل له المرابطون يدقون التوابل لقدورهم فاسترجع عند ذلك وقال ما هكذا أعرف حالة المنستير . قديما عند سكانها كان عند المرابطين شئ من دقيق الشعير فى القلة وشئ من زيت فاذا كان عند افطارهم لتوا ذلك الدقيق بشئ من الزيت فاطلوه . لله على الا ابيت فى شئ من المنستير . فخرج منها ذلك الوقت فغابت الشمس عند فصر لمطة . ولم يعد الى المنستير بعد ذلك .

ومن وصايا عبد الرحيم لمريديه « يابنى أوصيك أن تتقى الله وتجتنب محارم الله وتؤدى فرائض الله عز وجل وتحسن الى عباد الله وان زدت زادك الله » (٢٩٥) .

وقد قضى عبد الرحيم حياته أعزب لم يتزوج أو يتسر وظل ملازما للرباط مداوما على صيام النهار وفيه الليل وتلاوة كتاب الله عز وجل حتى أدركته الوفاة سنة ٢٤٧ هـ ودفن على شاطئ البحر شرقى فصر زياد وقد رثاه حاتم الجنبينانى المنعبد بقوله :

لهفى على عبد الرحيم وفضله	حتى الممات بكل قلب يستعر
ما كان اتقاه وأحسن أمره	فى الله يسعى قد تشمر واتزر
أما النهار فصائم متجد	والليل يهتف بالقرآن الى السحر
شرب الهدى فملا الرشاد فؤاده	وحوى الصلاح فما على ذنب عثر
طلب الخلود فباع دنياه بما	يبقى فقد ربح السعيد وما خسر
يامعشر العباد قوموا فأنصروا	دين النبى ووقروه كما نصر
وصلوا الرباط وجاهدوا فعساكم	أن تظفورا بالصالحات كما ظفر

(٢٩٥) المالكى رياض ص ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، عياض المدارك

ج ٣ ص ٩٧ .

٣ - الخـوارج :

لم تمدنا المصادر التى بين أيدينا بأسماء علماء الخوارج الذين كانوا يقومون بتدريس ونشر مذهبهم فى القيروان خلال حكم الأغالبة سوى ما ذكر فى ترجمة الامام سحنون من أنه « سرد أهل الاهواء من المسجد الجامع » وكانوا فيه حلقة للصفرية والاباضية والمعتزلة وكانوا فيه حلقة يتناطرون ويظهرون زيفهم «^(٢٩٦) وبهذه الاشارة العارضة يمكن أن يتصور ان عرف الخوارج من الصفرية والاباضية كانوا يدرسون مذهبهم ويعقدون الحلقات للنقاش حول مبادئه فى المسجد الجامع بالقيروان وانهم مع ركونهم الى عدم طلب السلطة او تطبيق مبادئهم التى أقاموها مثلا فى تاهرت اكفوا بتعليم ونشر مبادئهم فى القيروان الى أن تولى سحنون سلطة القضاء وفرق حلقاتهم من المسجد .

وليس معنى ذلك أنه قضى على الفكر الخارجى فى القيروان ولا يمنع ذلك من ان يكون اولئك العلماء من الخوارج قد لجئوا الى أماكن أخرى فى القيروان غير المسجد الجامع يدرسون فيها مذهبهم كما أن ذلك يدل أيضا على فلة العدد الذى كان يعتنق المذهب الخارجى فى القيروان .

وهناك اشارة أخرى يذكرها الدكتور يحيى هويدى وهى « أن الخلفاء الرسميين قد درجوا على دعوة الأئمة السنيين الى تاهرت لمناقشة الأئمة الاباضيين فى أمور الدين »^(٢٩٧) وإذا اعتمدنا صحة ذلك فانه يدل أيضا على وجود صلات أخرى أكثر وأعمق زيادة عما تفيدته الاشارة السابقة بالنسبة للمعرفة بالمذهب الخارجى وعلى استعداد بعض أهل السنة للنقاش حول مبادئ المذهب الخارجى الذى يتلخص أهمها فى :

١ - أن الخلافة تكون بالاستفتاء .

(٢٩٦) انظر أبو العرب طبقات ص ١٨٤ ، المالكي رياض ص ٢٧٦

(٢٩٧) دكتور يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة

الافريقية ص ٤٠

٢ - ان الخلافة ليست وقفا على القرشي .

٣ - ان العمل شرط للايمان مخالفين المرجئة وما يترتب على ذلك من ارتكاب المعاصي بالنسبة للايمان وللجنة والنار .

وقد وفدت من المشرق فرق الخوارج الثلاث التى انتشرت فى العراق وهى :

١ - الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق ومن اهم مبادئهم : البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض اى القتل من غير سؤال عن حال أحد وقتل الاطفال واستحلال الأمانة لأن نافع بن الأزرق يراهم كفارا وهذه الفرقة اقل فرق الخوارج انتشارا فى المغرب .

٢ - الصفرية : اتباع عبد الله بن صفار وهم يوافقون الأزارقة فى مبادئهم الا أنهم الين عريكة منهم وخاصة تجاه القعدة .

٣ - الاباضية : أصحاب عبد الله بن أباضى التميمى وهم لم يحرموا الموارثة والنكاح من المسلمين واكتفوا بان عدوهم منافقين .

ونادوا بجواز القيام بينهم لأنهم يهدفون الى كسب جماعة المسلمين الى مذهبهم لا أن يعدوهم مشركين كما ذهب الى ذلك الأزارقة ، والصفرية ، والاباضية هما الفرقتان اللتان انتشرتتا فى المغرب وقد وجدتا فى القيروان كما سبقت الاشارة الى ذلك (٢٩٨) .

وقد تمكن الاباضية من اقامة دولة لهم فى تاهرت الا أن الاباضية انقسمت بعد ذلك الى :

(١) النكارية : الذين أنكروا امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت وسموا نكاثا أيضا لأنكثهم بيعة الامام .

(ب) الخليفة : اتباع خلف بن السمع بن عبد الأعلى المعافرى الذى أنف من مبايعة أفلح بن عبد الوهاب وخرج عليه .

(٢٩٨) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ٣١ ، ٣٢

(ج ٧) النفاثية : أتباع نفاث بن نصر الذى قام ضد افلح بن عبد الوهاب ينكر عليه قلة محاربتة المسودة وما هو فيه من خفض العيش (٢٩٩) .

وكان الخوارج النكارية الاباضية بقيادة أبى يزيد مخلد بن كبداد اليفرنى هم الذين ثاروا على أبى القاسم الشيعى واستطاعوا أن يستولوا على كثير من المدن التى تحت حكم الخلافة الفاطمية وقد تمكن من الاستيلاء على القيروان . وقد انضم الخوارج فى الثورة على الشيعة علماء القيروان المنيون وراوا أن الخروج مع أبى يزيد الخارجى متعين لحكمهم بكفر الشيعة . بينما رأوا أبا يزيد الخارجى من أهل القبلة وكان أبو اسحاق السبائى يقول : ويشير بيده الى أصحاب أبى يزيد : هؤلاء من أهل القبلة ، وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة يريد بنى عبيد فعلينا أن نخرج مع هذا الذى من أهل القبلة لفتالهم ، فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبى يزيد والله يسلط عليهم اماما عادلا يخرجهم عنا (٣٠٠) .

وقد كان أبو يزيد الخارجى عندما دخل القيروان أظهر لأهلها خيرا وترحم على أبى بكر وعمر ودعا الناس الى جهاد الشيعة وأمر الناس بقراءة مذهب مالك (٣٠١) .

ولا شك أن هذه الروح التى أبقاها أبو يزيد قد جعلت علماء القيروان يميلون اليه ويقاتلون معه .

ولقد أبدى العلماء والصلحاء من أهل القيروان شجاعة عظيمة فى قتال الشيعة ولكن أبا يزيد الخارجى عندما أحس أن الأمر صائر اليه وقد أوْشك أن يقضى على الشيعة قال لجنوده اذا التقيتم مع القوم انكشفوا

(٢٩٩) المرجع السابق ص ٤٥ - ٤٧ . يقصد بالمسودة : أتباع العباسيين .

(٣٠٠) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٨ ، ٣١٩

(٣٠١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢١٧

عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم فيكونوا هم الذين قتلوهم
لا نحن فنستريح منهم^(٣٠٢) فقتل من الفقهاء والصالحين خمسة وثلاثون رجلا
منهم الممسي وربيعة القطان ومحمد بن علي البقال وغيرهم ممن أراد
الله سعادته بالشهادة^(٣٠٣) .

وكان أبو يزيد يظن أنه إذا قتل شيوخ القيروان وائمة الدين تمكن
من اتباعهم فيدعوهم الى عقيدته الخارجية فيجيبوه ولكن أهل القيروان
فارقوا أبا يزيد واشتد بغضهم له ولمذهبه الخارجي وجعل سكان القيروان
علماء وغيرهم لا يقبلون الخوارج منذ تلك الموقعة .

وقد تمكن المنصور الفاطمي في المحرم من سنة ٣٣٦ هـ من القضاء
على الثورة الخارجية وقتل أبي يزيد بعد قتال عنيف ضد أتباعه ومطاردة
شاقة لأبي يزيد الى أن تمكن منه .

٤ - المعتزلة :

في بداية القرن الثالث الهجري كانت مشكلة خلق القرآن التي
قال بها المعتزلة من أهم الأمور التي دعوا اليها وأخذوا يتصدون للدفاع
عنها ويستغلون كل فرصة لحمل الناس على الاعتقاد بها وقد كان
أبو محرز قاضي القيروان أثناء ولاية زيادة الله ممن يقول بخلق
القرآن^(٣٠٤) .

وقد رمى البعض أسد بن الفرات شريكه في القضاء بأنه يقول
بخلق القرآن وذكر ذلك لسحنون فنفاه عنه وقال : والله ما قاله^(٣٠٥) .

وكان علماء أهل السنة لا يصلون خلف المعتزلة وقد عرضهم ذلك
لغضب الأمير الأغلبى عندما كان يتولى المعتزلى منصبا من مناصب الأمير :

(٣٠٢) ابن عذاري البيان ج ١ ص ٢١٨

(٣٠٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٢١

(٣٠٤) لأبو العرب طبقات ص ١٦٤

(٣٠٥) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٧٣

فقد حدث أن حضر سحنون جنازة وتقدم ابن أبى الجواد الذى كان قاضيا قبله وكان يذهب الى رأى الأحناف ويقول بالملخوق فصلى عليها فرجع سحنون ولم يصل خلفه فبلغ ذلك الأمير زيادة الله فأمر بأن يوجه الى عامل القيروان أن يضرب سحنونا خمسمائة سوط ويحلق لحيته وراسه^(٣٠٦) وقد دخل وزيره على بن حميد فجعل الأمير يوقف العقوبة .

واشتدت المحنة بين أهل السنة والمعتزلة عندما ولى أحمد بن الأغلب الامارة وأخذ الناس بالمحنة بالقرآن وخطب به فى القيروان وقد سبق أن بينا عند حديثنا عن أهل السنة كيف امتحن سحنون والصمادحى فى المحنة بخلق القرآن وكان المعتزلة لا يصلون على أهل السنة أيضا كما قدمنا فقد استعفى رجال ابن الأغلب من الصلاة على سحنون وكان أكثرهم معتزلة وقالوا للأمير ان صلينا عليه رأى الناس اننا رضىنا حاله فأعفاهم^(٣٠٧) .

وفيه قول المالكى والدباغ أن كثيرا ممن يعمل مع الأمير كانوا معتزلة وان كان ذلك لم يؤد الى أن يعتنق كثير من سكان القيروان الاعتزال أو يقول بخلق القرآن أو بعدم رؤية الله يوم القيامة .

وكان المعتزلة يقولون بحدوث الأسماء والصفات ويتناظرون مع أهل السنة فيها . فقد قال سليمان بن حفص الفراء المعروف بابن أبى عصفور لمحمد بن سحنون يا أبا عبد الله الله سمى نفسه أراد بذلك أن يقول له نعم فثبت عليه الاقرار بحدوث الأسماء والصفات . فقال له ابن سحنون الله سمى نفسه لنا ولم يزل وله الأسماء الحسنى^(٣٠٨) : وكان سليمان يقول كذلك بخلق القرآن وقد دعا الناس اليه فهموا بقتله^(٣٠٩) .

(٣٠٦) المالكى رياض ص ٢٨٥

(٣٠٧) المرجع السابق ص ٢٨٨ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٦٧

(٣٠٨) المالكى رياض ص ٢٨٨ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٦٧

(٣٠٩) الرياض ص ٥٠٤ نقلا عن الطبقات لمحمد بن الحارث

الخشنى .

ويقال عنه ان له كتباً فى خلق القرآن^(٣١٠) ويذكر الخشنى ان سليمان الفراء سال سعيد بن محمد الحداد فقال : يا ابا عثمان أين كان ربنا اذ لا مكان ؟ فقال له : السؤال محال لأن قولك أين كان يقتضى المكان وقولك اذ لا مكان ينفى المكان فهذا نعم لا . قال فكيف كان ربنا اذ لا مكان ؟ قال له السؤال صحيح ثم أجابه بجواب لم أحفظه عن حياكه أى الخشنى^(٣١١) .

ومع هذه الخصومة بين المعتزلة وأهل السنة يذكر الشيخ الفاضل بن عاشور ان أهل السنة قد تتلمذوا على المعتزلة أولا لاقتباس أساليبهم ثم انقلبوا ينصرون بتلك الأساليب الحكيمة والمذاهب الكلامية عقيدة أهل السنة ويثبتون ما نفاه المعتزلة^(٣١٢) ولم يأخذوا برأيهم .

وعندما قامت الخلافة الفاطمية ناظر المعتزلة الشيعة فى مسألة الامامة الا ان بعضهم قد مال الى مذهب الشيعة ومنهم أبو بكر القمودى المشهور بالفيلسوف الذى تربى فى القيروان وتخصص فى الجدل والمناظرة وغلب عليه الاعتزال حتى لقب بالفيلسوف فصار لقبا له وكان مضادا للشيعة وناظر أبا العباس الشيعى برقادة مناظرة أفحمه فيها مما جعل أبو عبد الله الشيعى يقول له أنك لتنظر لأهل البيت ما ارى منك من البغضاء وتنصب فى توهين أمرهم ما أسمع من حجاجك فاضطر الى الاعتذار وخاف سفك دمه . فانضم الى دعوة الشيعة وأسند اليه الاشراف على دار الضرب لسك النقود^(٣١٣) .

وقد بلغ عدد العلماء من المعتزلة فى عصر الازدهار حوالى عشرين

(٣١٠) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١١٩ .

(٣١١) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٦١ عن

الخشنى .

(٣١٢) اعلام الفكر الاسلامى للفاضل بن عاشور ص ٤٢

(٣١٣) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٥٩ ، حسن حسنى

الورقات ص ٢٥١

عالما متكلماً من أشهرهم القاضى أبو محرز وابن أبى الجواد وسليمان الفراء وأبى اسحاق العمشاء الذى كان يناظر بشدة فى خلق القرآن وله اصحاب وأتباع يحلقون عليه ومحمد بن الأسود المعروف بالصدنى بن حبيب الصدنى ومحمد الكلاعى الذى رد على أبى سعيد الحداد فى احد مؤلفاته وأبو الفضل المعروف بابن ظفر ومحمد المسحى وأحمد بن المعروف بابن شهر^(٣١٤) .

٥ - الشيعة :

لم يحدثنا المؤرخون عن ظهور الأفكار الشيعية فى القيروان خلال القرن الأول والثانى ومنتصف الثالث الهجرى ومع اتصال علماء القيروان بالمشرق الا أنه لم يذكر المؤرخون ان أحدا منهم قد اعتنق التشيع ولكن عندما قدم دعاة الفاطميين الى المغرب وأقاموا فى ارض كتامة حاولوا بث افكارهم فى القيروان قبل التغلب عليها فالتشيع لم يظهر بالمغرب الا على يد العلويين العبيديين وأما دولة الادارسة التى قامت فى فاس فى المغرب الأقصى فانها ليست دولة شيعية بل حكمت البلاد حكما سنيا^(٣١٥) .

وفى أواخر دولة الأغالبة وصلت الأفكار الشيعية الى القيروان حتى ان وزراء زيادة الله بن الأغلب آخر امراء الأغالبة كانوا لا يبالون الا بنجاح المذهب الشيعى الذى قد اعتنقه معظمهم^(٣١٦) وقد ولى أبو عبد الله الشيعى عند دخوله القيروان محمد بن عمر المروزى فى منصب القضاء فأمر باسقاط صلاة الاشفاع فى شهر رمضان واحتج على الفقهاء وانكر الاقتداء بفعل عمر بن الخطاب وتركهم الاقتداء بفعل على بن أبى طالب

(٣١٤) انظر المالكى رياض ص ٥٠١ ، ٥٠٢ ، الحبيب الجنحانى القيروانى عبر عصور الازدهار ص ١٦١ ، ١٦٢ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٥٩ ، ١٦٠

(٣١٥) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٤٩

(٣١٦) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠

فى زيادة حى على خير العمل فى الآذان وقال لهم : اعملوا بمذهب
اهل البيت واتركوا الفضول^(٣١٧) وهذا يدل على انه كان من انصار
المذهب الشيعى القليلين الذين مالوا اليه فى القيروان قبل انتصار
أبى عبد الله الشيعى واذا ثبتت صحة هذه الآراء فهو يدلنا على أن
المذهب الشيعى كان قد عرف بالقيروان وقد اعتنقه ومال اليه البعض
قرب قيام الدولة الفاطمية ولا شك أن ذلك مما مكن الفاطميين من
القضاء على الأغالبة .

ولكن علماء الطبقات لا يذكرون الا تشريق بعض العلماء من المعتزلة
والأحناف وقد تشرق بعض المالكية كما حدث بالنسبة للنعمان المغربى
الذى كان مالكا وتشرق أى صار شيعيا وكان ذلك عند قيام الدولة
الفاطمية^(٣١٨) . ويذكر بن عذارى أن أبى عبد الله الشيعى أمر وجوه
كتامة بدعوة الناس الى مذهبهم من التفضيل لآل على والبراءة ممن
سواه فدخل فى ذلك معهم كثير من الناس فلذلك سميت دعوتهم التشريق
لاتباعهم رجلا من اهل المشرق^(٣١٩) .

مبادئ الشيعة :

وقد كان انتصار الفاطميين على الأغالبة ودخولهم رقادة والقيروان
بداية رسمية عملية للدعوة الى المبادئ الشيعة التى يعتقد فيها الشيعة
وهى تنزيه ذات الله تعالى تنزيها مطلقا فهو واحد لا شريك له وانه ليس
كمثله شئ . يقول القاضى النعمان بن محمد فى الرسالة المذهبية
« أكبر درجات الشرك من جعل لله شريكا فى ملكه أو معينا على قدرته
أو مشيرا فى أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . وقال ليس
كمثله شئ وهو السميع البصير . وقال قل هو الله احد الله
الصمد »^(٣٢٠) .

(٣١٧) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٥١ ، ١٥٢

(٣١٨) انظر المالكى رياض ص ٤٢٠ ، ٥٠١

(٣١٩) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٥٢

(٣٢٠) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٠٥

ولا يوصف الله عند الشيعة الفاطميين بأى صفة من الصفات لأنه متعال لا ينال بصفة ما . ووجوده من ذلك النوع الذى يقول عنه الكرمانى فى راحة العقل « لا يوجد فى اللغات ما يمكن الاعراب عنه » ويذهب الدكتور يحيى هويدى الى أن مذهب الشيعة الفاطميين فى مسألة صفات الله لا ينطوى على نفى لها كما لا ينطوى على اثبات . قاله لا يوصف بالنفى ولا بالاثبات ومعنى هذا انهم نزهوا الدات الالهية عن الحكم بالاثبات المطلق لأن الاثبات المطلق يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات من الجهة التى اطلقت الصفة عليه . ونزهوها ايضا عن النفى لأن فى النفى سلب صفات عن الله ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب وهذا يرجح القول بأن الشيعة الفاطميين ليسوا معطلة بل الآحرى أن يقال أنهم منزّهة (٣٢١) .

والشيعة يذهبون الى أن الايمان هو الباطن وأن الاسلام هو الظاهر وهم يخالفون المرجئة الذين يقولون بأنه قول فقط وغيرهم الذين يقولون بأنه قول وعمل فهو عندهم قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالآركان يقول القاضى النعمان بن محمد فى دعائم الاسلام « الايمان لا كما زعمت المرجئة أنه قول بلا عمل ولا كالذى قالت الجماعة من العامة أن الايمان قول وعمل فقط . وقول الجماعة أن الايمان قول وعمل بعد اعتقاد نية محال لأنهم قد أجمعوا على أن رجلا لو أمسك عن الطعام والشراب يومه الى ليلد وهو لا ينوى على الصوم لم يكن صائما ولو قام وركع وسجد وهو لا ينوى الصلاة لم يكن مصليا (٣٢٢) .

والايمان الذى هو الباطن عندهم قائم على المعرفة والتصديق بالقلب والمعرفة قائمة على التأويل الباطنى لايات الكتاب وهو وقف على الأئمة من أهل بيت الرسول ﷺ أى أن المعرفة التى هى شرط للايمان وقف على الأئمة وهذا يؤدى الى وجوب الاتباع للأئمة فالمؤمن يتلقى العلم

(٣٢١) يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٠٧ ، ١١٥

(٣٢٢) يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٢٥

والمعرفة من مصدرها الوحيد العارف بحقيقة التأويل الباطنى وهو الامام
وبهذا اتباع الأئمة والانقياد التام لهم يقول القاضى النعمان بن محمد فى
اساس التأويل « جعل عز وجل ظاهره (أى ظاهر الكتاب) معجزة
رسوله وباطنه معجزة الأئمة من أهل بيته لا يوجد الا عندهم ولا يستطيع
أحد ان يأتى بظاهر الكتاب غير رسوله ﷺ جدهم ولا أن يأتى بباطنه
غير الأئمة من ذريته وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم (٣٢٣) » .

ولجأ الشيعة الى آيات من القرآن وأحاديث من سنة الرسول ﷺ
ليتخذوها وسيلة الى ضرورة التأويل الباطنى كقوله تعالى : « وذروا
ظاهر الاثم وباطنه » وقوله « واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »
وقوله « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » وقول
رسول الله « ما نزلت على من القرآن آية الا ولها ظهر وبطن » .

ومن أمثلة تأويلاتهم فى فهم القرآن قولهم : فى فهم المقصود من
الشیطان فى قوله تعالى : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر »
هو عمر بن الخطاب وأن الانسان هو أبو بكر . وأن معنى اكفر :
لا تقل بامامة على بن أبى طالب (٣٢٤) . وغير ذلك من التأويلات التى
استخدمت لصالحهم . وهذه المبالغة من الشيعة بأن الأئمة هم المسئولون
وحدهم عن التأويل الباطنى مما أثار عليهم أهل السنة الذين يعتقدون
بأن كتاب الله وسنة رسوله هى المصدر الوحيد للدين وهم بذلك ينفون
أن هناك مصدرا ثالثا وهم الأئمة .

وكان الأئمة يهتمون بتعليم اولياء عهودهم وتعريفهم بالتفسير
الباطنى ومعرفتهم لكتب الباطن يقول المهدي للمنصور وقد أعطاه كتابا
من كتب الباطن . « يابنى ذلك هو الطب الحقيقى وهو طب الأرواح
فى الدار الآخرة به يعالج من ألها ويداوى ممن سقمها انظر فيه

(٣٢٣) المرجع السابق ص ١٢٦

(٣٢٤) انظر عبيد الله المهدي طه شرف وحسن ابراهيم ص ٢٦١

واعرف معانيه ، واحفظ أصوله فان فيه اصولا من العلم الشريف فاذا انت حفظت ذلك واتقنت معرفته فاصرفه لاعطيك غيره « (٣٢٥) .

تلك هي مبادئ الشيعة في الله وصفاته وفي الامام وعصمته والتفسير الباطني ومع ذلك فقد ذكر بعض المؤرخين امور نرى انها مبالغ فيها من ذلك قول ابن عذارى ان « ايمان كتامة اول دخولهم افريقية كانت : وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي ، الذي برقادة » حتى كتب بعض احداث القيروان (٣٣٦) :

الجور قد رضينا لا الكفر والحماسة
يا مدعى الغيوبا من كاتب البطالة

ويضيف ابن عذارى انه في سنة ٣٠٩ هـ حبس عبيد الله المهدي نحو مائتي رجل اظهروا التشريق بالقيروان وباجة وتونس وجاهروا بتحليل المحرم واكلوا الخنزير وشربوا الخمر في رمضان جهارا فكتب عبيد الله الى عماله بهذه المواضع بان يرفعوهم اليه مقيدين ثم حبسوا فمات اكثرهم بالسجن (٣٣٧) اى ان اتباع الشيعة بالغوا في تشيعهم فعاقبهم عبيد الله .

وعند دخول الشيعة الى القيروان وفرضهم لسلطانهم عليها حاولوا نشر آرائهم ومعتقداتهم بالاقناع والمناظرة وعقدوا المجالس مرة في كل اسبوع للمناظرة بين علماء القيروان السنيين وبين الشيعة وقد عقدوا حوالى اربعين مجلسا وكان يدور الجدل والمناقشة حول مفهوم بعض النصوص الدينية في العقائد وخاصة فيما يدعوا اليه الشيعة من الامامة والتفضيل ، وقد ذكرنا بعض المناقشات والحجج التي كانت تدور في

(٣٢٥) المعز لدين الله لطفه شرف وحسن ابراهيم ص ١٥ عن المجالس والمسائرات ج ٢ ص ٥٤٢

(٣٢٦) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٦٠

(٣٢٧) المرجع السابق ص ١٨٦

الحداد وابن التيان مواقف قوية فى الدفاع عن السنة (٣٢٨) .
هذه المجالس عند حديثنا عن أهل السنة وقد كان لأبى عثمان سعيد
وقد ذكرت أربعة من هذه المناظرات فى ملاحق كتاب عبيد الله
المهدى التى دارت بين ابن الحداد وأبى العباس المخطوم^(٣٢٩) نقلا عن
أبى العرب تميم .

ولا شك أن الدولة الفاطمية انى تميزت بصبغة خاصة فى العقيدة
والتشريع قد قامت بعد أن كان معظم سكان القيروان قد أشربت هلوبهم
آراء أهل السنة فى المسائل المختلفة فيها من الامامة والتفضيل وعصمة
الائمة . ولذلك وجد الشيعة خصوما عارفين بمعتقداتهم مطمئنين الى
هذه المعتقدات مستعدين للدفاع عنها والتصد ، لمعارضيتها ولو ادى ذلك
الى الاضطهاد والتشريد والقتل ومصادرة الأموال والفصل من الوظائف .

فقد كان محمد بن حفص يتولى صلاة جامع رقادة وكان يرتزق كل
شهر عشرة مثاقيل ، فأحضره محمد بن عمر المروزى قاضى الشيعة وقال
له لا يؤم بنا الا ولى من اولياء أمير المؤمنين فأدخل الى بعض الدعاة يأخذ
عليك الصحة وتبقى على خطتك فقال له انظرنى اليوم أشاور نفسى فأنظره
ثم أتاه من الغد وقد كره الدخول معهم فى شئ مما هم عليه فعزل
عن الصلاة^(٣٣٠) .

كما كان يعذب من العلماء من كان يعرض عن الافتاء بفقه الشيعة
الى فقه الامام مالك فيذكر القاضى عياض أن النفطى قاضى الشيعة ضرب
محمد بن العباس الذهلى فى القيروان عريانا وصفع قفاه حتى سال الدم
من رأسه وبرح عليه فى الاسواق واطافه عريانا على حمار لأنه كان يفتى
بمذهب مالك ويطعن على السلطان وقد توفى سنة ٣٢٩ هـ^(٣٣١) .

-
- (٣٢٨) حسن حسنى الورقات ص ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
(٣٢٩) عبيد الله المهدى حسن ابراهيم ، طه شرف ص ٣٣٣ - ٣٤٢ .
(٣٣٠) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٩ .
(٣٣١) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٥ .

ويذكر الدباغ تعذيب الشيعة واضطهادهم لمن يدافع عن أهل السنة بالحجة القوية خاصة أبى العباس المحظوم كما حدث لابراهيم بن محمد الضبى المعروف بابن البرذون ، كما يشير الى نهب الشيعة لأموال أهل السنة والاستيلاء على ثرواتهم كما حدث لمحمد بن خيرون^(٣٣٢) ويذكر ابن عذارى ايذاء الشيعة بعض المؤذنين لعدم اضافة حى على خير العمل فى الأذان^(٣٣٣) .

ومع هذه القسوة والاضهاد فاننا نرى أن علماء الطبقات قد بلغوا فى رمى الشيعة بالخروج عن دين الاسلام من مثل ما ذكر عياض من تعليق رؤوس الاكباش والحرر على أبواب الحوانيت عليها قراطيس معلقة ومكتوب فيها اسماء الصحابة^(٣٣٤) وفيما ذكره الدباغ رواية عن المالكى من ان عبيد الله لما وصل الى رقادة أرسل الى القيروان من اتاه بابن البرذون وابن هذيل فلما وصلا اليه وجداه على سرير ملكه جالسا وعن يمينه أبو عبيد الله الشيعى وعن يساره أبو العباس أخوه فلما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس اشهد أن هذا رسول الله وأشار الى عبيد الله فقالا جميعا بلفظ واحد والله الذى لا اله الا هو لو جاعنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان أنه رسول الله ما قلنا أنه رسول الله^(٣٣٥) .

ولكن هذه الشدة التى سار عليها الشيعة مع رعيتههم ورغبة مؤسس الدولة الفاطمية فى أن يجعل رعاياه شيعة لم تؤد الى أن يأخذ جميع الرعايا بالأراء - الشيعة - ولذلك استمرت الدعوة الشيعية التى أنشئت قبل قيام الدولة الفاطمية حين كانت الدولة التى قامت على أسس مذهبية بحتة حتى تتكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشياعه لا بينه وبين رعاياه عامة .

(٣٣٢) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٨ .

(٣٣٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٢ .

(٣٣٤) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٨ .

(٣٣٥) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٧٨ .

ولم يدخر كل الخلفاء الفاطميين جهدا مدة اقامتهم فى القيروان او المهدية او المنصورية فى نشر تعاليم الشيعة وتوصيحها املا منهم فى ان يعتنقها الناس ويدينوا بها . وكانت المحاضرات والمنشورات تلقى بعد صلاة الجمعة والعديد فى المنصورية فى ايام المعز ويلقى فاض القضاة النعمان بن محمد العظائم فى تلك الاحتفالات والاجتماعات كما كانت تلقى المحاضرات فى قصر الخليفة فى المنصورية وبذلك كانت قصور الخلافة والمساجد مدارس لنشر عقائد الشيعة . وكان الخلفاء انفسهم هم القدوة فى ذلك فكان المنصور يعلم المعز ويقول له « انه لا ياتى امام الا اعطاه الله فضل الامام الذى مضى وعلمه وحكمته وزاده مثل ستة اسابيع ذلك »^(٢٣٦) ويذكر المعز أن ابيه المنصور كان يشرح له بعض كتب الباطن الرمزية الخاصة بشرح معانى الحروف الابدجية والكتب التى ورثها عن المهدي وكان يهتم بتدريس هذه الكتب له اهتماما بالغاً فكان يقول له : « كنت احب ان اعيش لك أكثر مما عشت لافيدك وازيدك »^(٢٣٧) وكان المعز نفسه مثلاً أعلى فى شرح هذه الكتب وكان يؤلف الرسائل والمحاضرات ليسهل فهمها على المستمعين لها من الشيعة أو السنيين ويوقعها ثم يعطيها لقاضى قضاة ليلقيها على المستجيبين فكثير المستجيبون لذلك وقد أعد المعز مكاناً فى قصره خصه للنعمان قاضى قضاة ليقوم بشرح كتب الشيعة التى امد به المعز ويذكر النعمان كثرة ازدحام الناس على سماع هذه المجالس حتى غص المكان بهم وخرج احتفالهم عن حد السماع وملئوا المجلس الذى أمر باجتماعهم فيه ومساحة من رحبة القصر وصاروا الى حيث لا ينتهى الصوت الى اخرهم^(٢٣٨) . وكان المعز بخصيص وقتاً لاخذ العهود على المستجيبين للدعوة الشيعية بنفسه ويرمى من وراء ذلك الى اثاره حماسة أتباعه نحو الدعوة والدولة وكان المستجيبون يقدمون من مشارق الارض ومغاربها ليحظوا باخذ العهد عليه وكان المعز ينتهز فرصة اجتماع

(٢٣٦) المعز لدين الله لطفه شرف ص ١٩ عن المجالس والمساربات

ج ١ ص ٧٥ .

(٢٣٧) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٢٣٨) المرجع السابق ص ٢٣٤ .

المستجيبين وخاصة الغرباء فيلقنهم مبادئ الدعوة التي لقيت بفضل هذا
المجهود رواجاً في أرجاء العالم الاسلامي وساعدت على اتصال مدينة
المنصورية بغيرها من المدن الاسلامية .

وكان الشيعة خلال حكمهم في المغرب يهتمون باختيار الدعاة لنشر
مذهبهم الشيعي وكانت كتب الدعوة تزخر بالنصائح التي توجه الى
الدعاة ليسيروا على هديها ويترسموا خطاها بحيث يستطيعون التمييز بين
المستجيبين ويشرحوا لكل واحد منهم بقدر ذكائه واستعداده وكان لا يؤذن
بالدعوة الا للعلماء الافوياء الذين يتقون بهم ويرتضونهم .

وينصح ابو حنيفة النعمان المغربي الدعاة عندما يكون من يحتاجونه
افوى منهم بالحجة وابتين في المنطق بأن يستتر الداعي بالباطن فيقول :
«متى ناظرك من ترى انه الحن بالحجة منك فاستتر بالباطن يعنى أن
يقطع كلامه ويومى الى أن في ذلك باطنا لا يتهى ذكره ولا يتمادى في
الكلام الى أن يظهر مخاصمه فيكون ذلك فتنة وداعيا الى الاصرار على
ما هو عليه ولكن يقيه على شبهة من أمره . ان كان قد وجل في مناظرته
وان علم انه الحن منه قبل المناظره لم يناظره واستتر كذلك بالباطن
منه ما أمكه لأن احتجاج المبطلين ربما نبهوا به وخيلو للسامعين انه
الحق» (٣٣٩) .

ويبين القاضى النعمان ما يجب أن يتخذه الداعية بالنسبة للدعوة
من دراسة حال ووضع من يدعوه وكيف يسير بتؤدة في تلقينه المبادئ
فيقول : فينبغى للداعى اختبار أمر من يدعوه وتعرف أحوالهم رجلا رجلا
وتمييز كل أمرىء منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى اليه ويحملة عليه
من أمر الله وأمر اوليائه ومقدار ما يحمله من ذلك ومدى قوته وطاقته
ومتى يوصل ذلك اليه وكيف يغذوه به وامتحان الرجال وتعرف الاموال
ومقدار القوى ومبلغ الطاقات وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج اليه الدعاة
في باب السياسات والرياضيات (٣٤٠) .

ثم يستمر النعمان في بيان ما يجب أن يتحلى به الداعية الى المذهب الشيعى في نفسه من سلوك حسن وجلال ووقار وأن يكون مصدر ذلك : حسن الصمت وخفض الجناح ولين الجانب وحسن العشرة وجميل المخالفة من غير تجبر ولا تكبر عليهم بل يكون التواضع سيماه والوقار همته^(٣٤١) . وقد قسمت الدعوة الى دعوة ثقافية ودعوة دينية أو سياسية وتذرعوا بالفلسفة لاقناع بعض العقول وبالتصوف لافناع بعض العقول الاخرى^(٣٤٢) .

وبهذا المنهج القويم الذى وضع للدعوة والداعية سارت الدعوة الشيعية سيرا صحيحا في داخل البلاد وخارجها فكان الدعاة يلفون مبادئ المذهب الشيعى فى صورة محاضرات او منشورات فى اوقات معينة على الرعايا تارة وعلى الاتباع تارة اخرى وكانت تلقى المحاضرات فى المساجد أحيانا وفى قصر الخليفة بالمنصورية أحيانا أخرى .

وقد ألف القاضى النعمان فى العقائد الشيعية فى المنصورية كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة وأساس التأويل والمجالس والمسائرات وكتاب دعائم الإسلام .

كما ألف جعفر بن منصور اليمى كتب سرائر النطقاء وكتاب أسرار النطقاء وكتاب الشواهد والبيان^(٣٤٣) .

ومع هذا الصراع العنيف بين أهل السنة ودعاة التشيع فى القيروان ومحاولة الشيعة مصادرة حرية أهل السنة فى الاعتقاد فمما لا شك فيه أن هذا الصراع قد أدى الى ثروة عظيمة فى توضيح عقائد أهل السنة والشيعة كما كان مع ماصاحبه من مشقات ومصادرات للأراء والحريات والاموال وفصل من الوظائف عاملا من عوامل ازدهار الحياة الفكرية العقائدية فى القيروان .

(٣٤١) المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٣٤٢) أثر العرب فى الحضارة الاوروبية . عباس العقاد ، ١٩٧١ .

(٣٤٣) حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٤ .

٤ - العلوم الاجتماعية والتربوية :

هدفنا في هذا الموضوع أن نستجلى حقيقة الوضع في القيروان . هل كان هناك فكر تاريخي وجغرافي واجتماعي وتربوي ؟ وما مداه ؟ وما مظاهره ؟ ام انها كانت حلوا منه وافتصر الفكر على العلوم الشرعية والعربية والعقلية ؟ والحقيقة أن المصادر قد امدتنا ببعض الاسماء التي عملت بالفكر التاريخي والجغرافي وأشارت اشارات عابرة الى الوعي الاجتماعي والتربوي .

وقد ففدت معظم مؤلفات المؤرخين القدامى ولا نعرف الا اسماءها . الا ان من جاء بعدهم من المؤرخين قد روى عنها باعتبار أنها كانت موجودة في زمنهم ثم تعدت بعد ذلك . وبحثنا في المصادر التي بين أيدينا نستطيع ان نقول :

١ - التاريخ :

ان من اقدم المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ افريقية ولم تصلنا كتبهم عيسى ابن محمد بن أبي المهاجر وجده أبو المهاجر هو الذي ولى افريقية بعد ولاية عقبه في المرة الاولى وقد ألف كتابا في فتوح افريقية وقد توفي في نهاية القرن الثاني الهجري^(٣٤٤) . وعبد الله بن أبي حسان اليحصبي الذي كان عالما بالتاريخ وانساب العرب وقال عنه الدباغ أنه من أعلم الناس بالتاريخ ويذكر المنجى الكعبي أن له كتابا في التاريخ مفقود أيضا وقد توفي سنة ٢٢٧ هـ عن سبع وثمانين سنة^(٣٤٥) .

ولقد كان هناك من اهتم بمعرفة أخبار الانبياء السابقين والامم السابقة وكان الامراء يستمعون الى هذه الاخبار « فعبد الملك الملشوني

(٣٤٤) انظر أبو العرب طبقات ص ٢٠٦ ، مقدمة تاريخ افريقية للرقيق ص ١٥ .

(٣٤٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٥٥ ، مقدمة الرقيق تاريخ افريقية للرقيق ص ١٥ الدباغ معالم ج ٢ ص ٣٧ .

وابنه اسحاق كان صاحب اخبار ومغاز وله كتاب كبير فى اخبار الانبياء صلوات الله عليهم . وقد دخل سحنون بن سعيد على الامير محمد بن الاغلب اول يوم من شهر رمضان فالى الامير خاليا فقال له اراك ايها الامير خاليا فقال نعم انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلصنا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل فقال سحنون فاين انت ايها الامير من اسحق الملقب بـ «الملك» ياخبر الامم السالفة والاعوام الماضية فامر محمد بن الاغلب باحضاره وكان يحضر عند محمد بن الاغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان وينفل البكرى عن اسحق بن عبد الملك الملقب بـ «الملك» انه لم يدخل افرقية نبي من الانبياء^(٣٤٧) كما يذكر المالكى ايضا ان مغازى الجهاد لابن وهب^(٣٤٧) كانت تفرا على سحنون بن القيروان مما يدل على العناية بسير الحروب والغزوات فى أيام الرسول ﷺ .

ولعل مما يدخل فى تاريخ الانبياء ما يذكره الدباغ من أن فرات بن محمد العبدى كان يقرأ عليه الزبور^(٣٤٨) كما يذكر عياض أن محمد بن سحنون قد ألف كتابا فى التاريخ ستة أجزاء^(٣٤٩) وان كتابه فى الامامة الذى يمثل الفكر التاريخى العقائدى قد كتب بماء الذهب وقدم للخليفة فى بغداد^(٣٥٠) وقد ألف محمد بن زيادة الله بن الاغلب كتابا فى تاريخ بنى الاغلب دون فيه اخبار أسرته الى ما قبل وفاته سنة ٢٨٣ هـ^(٣٥١) .

كما أن من المؤرخين الذين فقدت كتبهم محمد بن يوسف الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ وهو حجة فى تاريخ افرقية والمغرب وفد نقل عنه البكرى كثيرا فى كتاب المسالك والممالك .

(٣٤٦) المالكى رياض ص ٣١٠ ، البكرى المغرب ص ٤٥ .

(٣٤٧) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

(٣٤٨) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣٤٩) عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٦ .

(٣٥٠) المالكى رياض ص ٣٤٦ .

(٣٥١) انظر الحلة السيرة لابن الاغلب ج ١ ص ١٧٩ .

ومن المؤرخين الذين حفظت لنا الايام بعض كتبهم الفترة التى نبحتها
ابو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي رافع لواء التاريخ بالقيروان
وصاحب طبقات علماء افريقية وتونس وهو من مصادر هذا البحث ولابى
العرب كتب اخرى منها كتاب التاريخ سبعة عشر جزءا وكتاب مناقب بنى
تميم وكتاب عباد افريقية وكتاب فضائل مالك وكتاب فضائل سحنون^(٣٥٢)
وغير ذلك .

ويوجد له بمكتبة القيروان العتيقة ورقتان بظاهر اولهما : الكتاب
الثالث من البيوع عن يحيى بن سلام بخط أبى العرب محمد بن أحمد
بن تميم^(٣٥٣) ورقمها المسلسل من ١٨٨٣ - ١٨٨٥ .

وقد استشهد ابو العرب فى الثورة ضد الشيعة سنة ٣٣٣ هـ .

وكذلك من المؤرخين الذين عثر على جزء من تاريخهم أبو اسحاق
ابراهيم بن القاسم الذى اشتهر بالرقيق القيروانى والذى نشر له المنجى
الكعبى جزءا من كتاب تاريخ افريقية والمغرب من أواسط القرن الاول
الى أواخر القرن الثانى الهجرى . وهو ايضا من مراجع هذا البحث^(٣٥٠).
وقد صور لنا جانبا سياسيا من الحياة فى القيروان مع ذكر المكاتبات
والاشعار التى كانت تدور بين الحكام والخارجين عليهم .

وخلال فترة حكم الفاطميين وجه أبو حنيفة النعمان المغربى جانبا
من فكره الى الناحية التاريخية فالف كتاب شرح الأخبار وارجوزة تسمى
ذات المنن واخرى تسمى ذات المحن وقد فقدتا اما كتابه (افتتاح
الدعوة الزاهرة فهو من أشهر كتبه التاريخية وهو مخطوط محفوظ
بجامعة القاهرة وله كتاب مناقب بنى هاشم ولم يعثر له على اثر^(٣٥٥) .

(٣٥٢) انظر عياض المدارك ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣٥٣) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

(٣٥٤) انظر مقدمة تاريخ افريقية والمغرب ص ٢١

(٣٥٥) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٧

وقد كان العرب قبائل تعتنى كل قبيلة بنسبها وتاريخها وتاريخ العلماء والأفذاذ فيها من الخطباء والشعراء والفرسان وجميع النبغاء فيها . وقد أدى ذلك الى أن البربر فى العصر الاسلامى وصاروا يعتنون كذلك بضبط أنسابهم وحاولوا الحاقها بحمير وقد اهتم بذلك القبائل البربرية التى شاركت مشاركة فعالة فى تاريخ الاسلام كقبيلة كتامة وزواوة وعمارة ومقلاطة وهوارة وصنهاجة ومعظم النسابين ينتمون الى قبيلة مظمطة التى يوجد لها جناح بالجنوب التونسى .

وكان بداية الاهتمام بتسجيل النسب البربرى منذ عهد الأغالبة ومن أشهر النسابة المؤرخين للنسب البربرى أبو سهل الفارسى النفوس حفيد الامام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرسمية وقد ألف ديوان شعر باللغة البربرية ضمنه تاريخ البربر وحروب الاباضية والمسنين ولكن هذا الديوان أحرق بعضه النكاريون وربما كان موجودا فى عصر ابن خلدون وعنه أخذ أنساب البربر . ومن النسابة خالد بن خدش المظمطى وخليفة بن خياط المظمطى وقد ذكرهما ابن خلدون واعتمد عليهما فيما يتعلق باستيلاء أبى قررة الخارجى على القيروان سنة ١٥٠ هـ .

اما فى العصر الفاطمى فمن أشهر النسابة أبو أيوب بن أبى يزيد مخلد بن كيداد وقد نشأ نشأة مؤرخ نسابة وقد اتصل بأبى يوسف الوراق اكبر مؤرخى العصر الفاطمى وأعطاه نسب أبيه الذى ينتسب الى قبيلة يفرن ومن النسابة فى هذا العصر أبو محمد بن يغنى البرزالى الاباضى وكان فقيها عالما بأنساب البربر وروى عنه ابن حزم فى جمهرته أنساب البربر ومن كان منهم من الاباضية والمسنية .

ويذكر الأستاذ الكعك أن هؤلاء النسابة والمؤرخين فى عصر الأغالبة قد دونوا كتبهم باللغة البربرية وفى العصر الفاطمى جمع الكتاب بين اللغة العربية والبربرية فى مؤلفاتهم وقد ضاعت كتبهم الا أنه قد انتفع بها من أتى بعدهم قبل فقدها^(٣٥٦) .

(٣٥٦) انظر عثمان الكعك : ابربر ص ٥٧ - ٥٩

ومن هنا نرى الفكر التاريخى فى القيروان قد اهتم بسيرة الرسول ﷺ وقصص الأنبياء وتاريخ الأمم السالفة ومغازى الفتح وتسجيل حياة العلماء كما كان هناك المؤرخون الذين اهتموا بأنساب البربر .

٢ - الجغرافيا :

فى بداية عصر الازدهار لم تكن كتب الجغرافيا الواسعة للبلاد والطرق وخاصة المسالك والممالك قد دونت وان كانت الرحلات الى المشرق للحج والتعلم والتجارة أو الى أرجاء افريقيا التى تربطها بها صلات تجارية وكذلك الرحلات الى جزر البحر المتوسط والاندلس وجنوب أوروبا كل هذه الرحلات كانت مستمرة ودائمة ولا تنقطع ولم يذكر لنا علماء الطبقات فى بداية عصر الازدهار من ألف فى المسالك والممالك والمسافات والعادات ووصف أحوال البلاد وطبيعتها الجغرافية من أنهار وأشجار ومطاعم وملبوسات وان لم يكن هناك شك بأن هذه الأمور والأحوال والصفات كانت معروفة لهم لأنهم لا يدرسونها وانما يمارسونها ويلاحظونها أثناء رحلاتهم . كما اننا لا نشك أنهم كانوا يروونها ويتحدثون بها عند عودتهم أو الى من يرافقهم فى رحلاتهم المتكررة .

وقد سبق أن رأينا كثيرا من العلماء قد قصد الى اقطار كثيرة فى المشرق مصر والشام والحجاز والعراق بل أن موسى بن معاوية الصمادحى القيروانى المتوفى سنة ٢٢٥ هـ وصل فى رحلته الى خراسان ثم قصد جريرا فى الرى ويسأله جرير أين بلدكم فيقول افريقية فقال افريقية يستعظم ذلك^(٣٥٧) . وربما قد كتب هؤلاء الرحالون فى وصف البلاد التى زاروها الا أن كتبهم قد فقدت أو أنهم اكتفوا فى هذه الفترة بالرواية عما يشاهدونه .

ولكننا نلاحظ فى العصر الفاطمى فى القيروان فى القرن الرابع أن هناك بعض العلماء الذين ألفوا فى المسالك والممالك الا أن كتبهم قد فقدت بعد أن استفاد منها من أتى بعدهم فقد ألف محمد بن يوسف

(٣٥٧) المالكى زياض ص ٢٩٤ ، ٢٩٦

الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها وعنه ينقل البكرى كثيرا فى المسالك والممالك وما ينقله بين كيف كان الوراق دقيقا فى وصفه مع ملاحظاته للظواهر مثل تعدد الأدوار للبناء وكيفية بنائه ومرابطة النساء وتخصيص اماكن لهن ثم الحمامات والملاحات فقد قال محمد بن يوسف فى وصف محرس المنستير بسوسة « هو قصر كبير عال داخله ربض واسع وفى وسط الربض حصن ثان كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض وفى القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة ينزل حولها النساء المرباطات تعرف بقباب جامع وبها جامع متقن البناء وهو أزاج معقودة كلها واقباء لا خشب فيها ولها حمامات كثيرة وكان أهل القيروان يخرجون اليهم بالأموال والصدقات الجزلة ويقرب المنستير ملاحه عظيمة تشحن فيها السفن بالملح الى البلاد ويقربه محارس خمسة متقنة البناء معمورة بالصالحين » (٣٥٨) .

وينقل البكرى أيضا فى كتابه عن محمد بن يوسف فى ذكر الساحل من طبرقة الى تونس قوله « مرسى القبة عليه مدينة بنزرت وهى مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع فى البحر وعليها سور ضخيم وبها جامع وأسواق وحمامات وبساتين وهى أرخص البلاد حوتا » (٣٥٩) وهذا وصف دقيق للموقع والمنتجات والأسعار والأسوار ثم لا ينسى أن يذكر الحمامات والبساتين مما يدلنا على الفكر الجغرافى الوصفى عند الوراق القيروانى .

كما اتنا نفهم من الخريطة التى عملت للمعز فى المنصورية معان كثيرة تتعلق بالتقدم فى الفكر الجغرافى فقد بين عليها كافة اقطار العالم ثم الجبال والبحار والانهار والطرق والمدن .

واذا كانت هذه الخريطة تبين ذلك فان هذا يعطينا المعنى الوصفى

(٣٥٨) البكرى المغرب ص ٣٦ ، ٥٣

(٣٥٩) البكرى المغرب ص ٥٧ ، ٥٨

الذى كان يستمد منه صانع الخريطة المعانى الجغرافية التى تتعلق بالأقطار وحدودها والطرق إليها ثم ما فيها من جبال وأنهار ومراسى ثم المدن وما يدور فيها من سكان ومزروعات ومصنوعات وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بالجغرافيا يقول المقرئى : « ان الخليفة المعز الفاطمى أمر فى سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التسترى والقرقوبى المنسوج بالذهب كان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة » (٣٦٠) .

وقد نشك فى قوله كافة أقطار العالم الا اذا حددنا ذلك بالعالم المعروف لهم أو ان الكتب التى ألفت فى المشرق حول المسالك والممالك تكون قد وصلت اليهم فى القيروان ككتاب المسالك والممالك لابن خردادبة الموجود فى القرن الثالث الهجرى وكتاب البلدان للمعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ والذى زار ارمينية وايران والهند ومصر والمغرب ودون نتائج رحلاته فى كتابه . وأبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ وهو من كبار الرحالة المسلمين وقد زار بلاد الفرس والهند وسرنديب وصحب التجار الى بحار الصين كما زار زنجبار وسواحل افريقية الشرقية والسودان وبحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وزار مصر سنة ٣٣٠ هـ (٣٦١) ويذكر ابن النديم انه ألف كتاب ذخائر العلوم وما كان فى سائر الدهور وكتاب التاريخ فى اخبار الأمم من العرب والعجم وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣٦٢) . وكذلك كتاب أحسن التقاسيم للمقدس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

عند ذلك نصدق قول المقرئى ان الخريطة التى عملت للمعز فى

(٣٦٠) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٤
(٣٦١) انظر زكى محمد حسن الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

(٣٦٢) ابن النديم الفهرست ص ٢٢٥

القيروان كانت تحتوى على كافة اقطار العالم ثم نتبين المدى البعيد الذى وصل اليه الفكر الجغرافى فى القيروان .

٣ - اجتماع او الوعى الاجتماعى :

عندما نتحدث عن الاجتماع فى القيروان انما نقصد بعض المظاهر الاجتماعية والاشارة اليها على انها تمثل نوعا من الفكر الاجتماعى والوعى الاجتماعى . وقد اشرنا الى بعض المظاهر الاجتماعية اثناء حديثنا عن الحالة الاجتماعية الا اننا ونحن نتحدث عن الفكر الاجتماعى نشير الى انه كان هناك تسجيل لبعض المظاهر الاجتماعية وتفكير فيها مما يدل على عناية بالفكر الاجتماعى وان لم يصل الى درجة التفنن والتعقيد .

فنالاحظ على سبيل المثال ما حدث اثناء عدم انقياد سحنون القاضى فى تصرفه لأوامر الأمير وتفضيله العزل من القضاء على تنفيذ أوامر الأمير ثم عدول الأمير عما أراده وقوله لابن سحنون الذى جاء يطلب الاستعفاء لأبيه . « اقرأ على أبيك السلام وقل له : جزاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيرا فقد أحسنت أولا وأخيرا » وما ترتب عليه عندما بلغ هذا القول سحنون وجاء وجوه الناس وأهل الخير يشكرون سحنون على فعله فقال لهم سحنون موجها لهم الى عمل جماعى يكون له أثر فى سياسة الأمير نفسه ثم فى بيان اجتماع الناس ايضا . وليكون ذلك محركا لهم الى الجمع دائما وبيان موقفهم بالنسبة للأمير قال سحنون لهم : « ان الله قد أحب الشكر من عبادته فتقدموا الى باب الأمير واشكروه على تأييد الحق ففى ذلك صلاح الخاصة والعامة ففعلوا ذلك » (٣٦٣) .

ومما يدل على مراعاة الآداب الاجتماعية بحيث لا يجتمع الشخص بمن لا يحب عند زيارة انسان او عيادته ما حدث عندما مرض محمد بن سحنون وأراد أبو محمد عبد الله المهري زيارته الا انه خاف أن يرى

(٣٦٣) انظر المالكي رياض ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

ما يغتم به عنده فقال له سليمان بن سالم : انا احمل عنك المؤونة فمضيا لزيارته فلما كان بالقرب من دار محمد بن سحنون قال سليمان لعبد الله انتظر ثم دخل على محمد بن سحنون فوجد عنده جماعة فقال له فيما بينه وبينه : ان ابا محمد يريد الدخول وانت تعرف احواله فقال له واين هو ؟ قال قد اقعده في القرب فالتفت محمد بن سحنون الى من كان في البيت فقال لهم : انصرفوا في عافية . وامر غلامه ان يقف بالباب فلا يدخل احدا . قال سليمان فذهبت الى ابي محمد وصحبته فجاء ودخل ودخلت معه فقعده ما شاء الله ثم انصرف (٣٦٤) .

ويذكر لنا المالكى حادثة تدل على معاكسة الشباب للبنات ثم الحكمة في التوجيه السليم لهم من الشيوخ بما يؤدي الى صلاح الشباب ونقاء المجتمع من هذا العبث فقد خرج عبد الجبار السرتى من داره يوم الجمعة لصلاة الجمعة فاذا شاب جميل له هيئة ولباس جميل قد انبع صبية يمشى خلفها فلما رآه عبد الجبار شق عليه ذلك فاتكا برجله على رجله الاخرى فقطع شسع نعله ثم صاح ياشاب فالتفت الشاب اليه فمشى اليه عبد الجبار قد كبرت سنى وضعف بصرى وقد انقطع شسع نعلى فاصلحه لى فاصلحه له ثم نظر عبد الجبار الى الصبية وقد امسكت فى مشيتها فأخذ النعل من الشاب وأدخله فى رجله وتمادى الشاب فى اثر الصبية واتكا عبد الجبار على نعله ثانية فقطعه ثم صاح ياشاب ياشاب وكانت لعبد الجبار هيئة عظيمة فعاد اليه الشاب فقال له : اصلح النعل يا مبارك ما اصلحته جيدا اظنك اصلحته وانت مستعجل فأخذه الشاب واصلحه فعطف عليه عبد الجبار وقال ياشاب انا قطعت النعل فى المرة الاولى والثانية وانما فعلت ذلك اشفافا عليك ورحمة لك وخفت يابنى على هذا الشباب الصبيح من لفح النار ويكى عبد الجبار ويكى الشاب ثم قال له : جزاك الله خيرا فوالله لا اعود الى ما كان منى ابدا ثم صحب عبد الجبار الى الجامع وتاب وحسنت توبته وانابته وكان من

(٣٦٤) انظر أبو العرب طبقات ص ٢١٠

فضلاء أهل وقته ونفعه الله عز وجل بنية عبد الجبار وبتلطفه وترفقه (٣٦٥) .

ونفهم من للحادثة التي وقعت لعبد الله بن طالب القاضي أن طلبة العلم كان لهم زى خاص وسمت خاص يتسمون به فقد قال : كنت يقيما لا اب لى وكنت آتى مع معلمى الخميس والجمعة أحضر حلقة العلم وأنا اذ ذاك صغير ذو جمة فقريء يوما على سحنون فى الموطأ اسم عمر ابن حسين فى كتاب الزكاة فقال سحنون : هذا كان يشاور فى القضاء أيام مالك ثم قرأ القارىء فبعد قليل قال سحنون : كيف سميت لكم الرجل الذى كان يشاور فى القضاء أيام مالك فقد نسيت اسمه فسكت الناس فقلت له أنا من موضعى : هو عمر بن حسين اصلحك الله فقال : بارك الله عليك . أحسنت يا غلام . من هذا الغلام ؟ فعرف بى . قال : أحب أن أرى عليك زى المعلم ما ينبغى أن يمنح هذا العلم من أحد فما اتيت الموعد الآخر الا وقد حلق راسى وكسيت ثياب العلماء (٣٦٦) .

ولقد كان الأمير يشاور وجوه القيروان فيمن يوليه القضاء على القيروان مما يدل على فكر شورى جماعى (٣٦٧) ثم مما يبين ميل الناس واحتفاءهم بمن يولى منصبا دنيويا ما ذكره ابن طالب من أنه دخل مرتين على الأمير وهو يراجع فى توليته القضاء ولا اهتمام هناك من أحد به ثم رجع الأمير وقبل القضاء وكتب له عهده وأمر له بكسوة وصلة وحملين . قال ابن طالب « وكنت لما دخلت اليه المرتين ما رفع لى أحد راسا فلما وليت وخرجت وجدت أهل الأرض وقوفا ينتظروننى على الباب فعلمت هوى الناس للدنيا » (٣٦٨) .

واذا صح ما يذكره المالكى فى تفويض الأمير ابراهيم بن أحمد

(٣٦٥) المالكى رياض ص ٣٦٥

(٣٦٦) انظر المالكى رياض ص ٣٧٧

(٣٦٧) انظر المالكى رياض ص ٣٧٧

(٣٦٨) . انظر المالكى رياض ص ٣٧٧ ، ٣٧٨

الى القاضى عبد الله بن طالب النظر فى الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية وأمره بقطع المنكر والملاهى من القيروان . فجعل على اكتاف اليهود والنصارى رقاعا بيضاء فى كل رقعة منها قرد وخنزير وجعل على أبواب دورهم الواحا مسمرة فى الأبواب مصور فيها قردة وضيق على أهل القيروان فى ملاهيهم وملاعبهم (٣٦٩) .

إذا صح هذا ولم يكن هناك بعض المبالغة منه فأننا بهذا النص يمكن أن نتصور معاملة القاضى لليهود والنصارى وتمييزهم وهو مظهر اجتماعى ، ثم انه كان فيها الملاهى والملاعب وهناك الاهتمام بمنع المنكر منها ، كما نلاحظ الاهتمام بتسجيل هذه المظاهر الاجتماعية .

ولعل اليهود والنصارى كانوا يشيعون المنكرات ويحاولون نشر ذلك بين المسلمين فأراد القاضى تمييزهم فى ملابسهم وبيوتهم اشارة الى مخالفتهم للمسلمين فى العقيدة حتى لا يغتر بهم المسلمون فيقلدونهم فيما يقومون به من اعمال تخالف الشرع الحنيف .

ومن المظاهر الاجتماعية التى مارسوها وسجلوها : جمع العلماء بين العلم والمراپطة والجهاد كآسد بن الفرات الذى تولى قيادة الحملة لفتح صقلية وكثير من العلماء الزهاد الصالحين كان يميل الى المراپطة والدفاع عن حوزة البلاد فى المحارس التى كانت تنتشر على الساحل بل تعدى الأمر الى مشاركة النساء للرجال فى الرباط وإذا كانت المرأة تشارك الرجل فى هذا الميدان فهو دليل على المشاركة الفعلية فى كافة ميادين الحياة العملية وقد سبق أن ذكرنا أثناء حديثنا عن الحالة الاجتماعية ان بينا مشاركة المرأة للرجل فى العمل وذلك بالغزل فى المنازل وعمل الكافد (٣٧٠) . كما أن من المظاهر الاجتماعية التى يمكن ملاحظتها مقاومتهم للظلم اذا صدر من الوالى أو أعوانه وعدم رضوخهم لهذا الظلم ومحاولتهم رفعه سواء بالشكاوى الجماعية أو بالتذمر فقد

(٣٦٩) المرجع السابق ص ٣٨١

(٣٧٠) المرجع السابق ص ٣٤٨ ، البكرى المغرب ص ٣٦

تصدى جماعة من أهل القيروان بالنساء والذرية لأبى القاسم الفاطمى وشكوا اليه سر جور أبى سعيد وأصحاب المحارس ووصفوا أفسادهم واغارتهم على أموالهم فاستأذن لهم على أبيه فأدخلوا كافة وشكوا اليه بما شكوا به الى أبى القاسم وأبو سعيد جالس عنده فحلف لهم عبيد الله أنه ما علم بظلمهم وأمرهم بالانصراف ووعدهم بالانصاف وأمر أبا سعيد برفع كاتبه وقوم من أصحاب المحارس اليه فحبسهم عبيد الله وأطلق كاتبه (٣٧١) .

كما يذكر لنا ابن عذارى غلاء سعر الحاجيات فى القيروان فى سنة ٣١٦ هـ فاذا كانت السنة التالية زاد غلاء سعر الأشياء حتى كان قفيز القمح بالكيل القرطبي بمثقال من الذهب كما حدث وباء عظيم ويبدو أن ذلك كان ناتجا عن قحط حل بالقيروان فعندما نزلت الأمطار فى العام التالى سنة ٣١٨ هـ صلحت الأحوال ورخصت الأسعار وذهب الوباء وحل الرخاء (٣٧٢) .

وهكذا نرى علماء القيروان وإن لم يكن لهم تقنين للفكر الاجتماعى كما حدث بعد ذلك عند ابن خلدون فى مقدمته إلا أن المظاهر الاجتماعية التى سجلوها تدل على وعى بالفكر الاجتماعى فى القيروان كما بدا لنا من هذا العرف .

٤ - التربيــــــــة :

نقصد بالتربية هنا النظرات التربوية التى يمكن أن نتلمسها من الحياة التعليمية والارشادات التى كانت توجه فى حقل الحياة التعليمية فيتضح لنا مستوى الفكر التربوى فى القيروان ومدى ما وصل اليه .

ولا شك أننا قد لمسنا فى مدارس الدعاة للمذهب الشيعى بعض المبادئ التربوية التى كانت يجب أن يتحلى بها الدعاة والوصايا التى

(٣٧١) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٦

(٣٧٢) انظر المرجع السابق ص ١٩٣ - ١٩٥

كان يطلب منهم أن يتصفوا بها ويلتزموا نهجها في نشرهم لمبادئهم وفي قراءتنا لكاتب الطبقات نلمس بعض الآراء التربوية فمن ذلك :

ملاحظة سحنون بأن من الأطفال من يؤدب بالقول الجميل وبالمدح لا بالذم وان منهم من يؤدب بالضرب والتعنيف وان ابنه من النوع الذي يؤدب بلطف الكلام يقول لمعلمه لا تؤدبه الا بالمدح ولطف الكلام ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف فاني أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد اهله وانركه على نحتلى واخاف أن يكون عمره نصيرا^(٣٧٣) .

وكان من الآراء التربوية التي يسيرون عليها أن يراعى حال السامع فلا يقال له شيء لا يستطيع أن يدركه خاصة اذا كان في العقائد فان ذلك يؤدي الى فتنة فقد حدث ان كان عند البهلول رجل عليه لباس حسن وهيئة فقال له البهلول : احب ان تذكر لى ما يحتمل به القدرية فسكت الرجل حتى تفرق الناس ثم قال له : يا أبا عمرو انك سألتنى عما تحتج به القدرية وهو كلام تصحبه الشياطين لأنه سلاح من سلاحهم فذكره بمزيته فى قلوب العامة وفى مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك فلا آمن ان يحلو بقلبه منه شيء فيقول سمعت هذا الكلام فى مجلس البهلول فقال له : والله لأقبلن رأسك أحييتنى أحياءك الله^(٣٧٤) ويبدو أن محمد بن سحنون عندما ألف « كتابه فى المعلمين »^(٣٧٥) لم يراع هذه النظرية وذلك قال ابو اسحاق الجبنيانى وكان يعلم القرآن للصبية فى نقد كتاب محمد بن سحنون رحم الله محمد بن سحنون لو علم لرفق بالمتعلمين يريد لأنه هدد عليهم فى كتابه^(٣٧٦) . وهو يريد تعليم الأولاد لأن محمدا قد جلس فى حلقة أبيه بعد وفاته وكان يعلم فى حياته الا انه لم يشتغل بتعليم الصبية الذين تظهر فيهم هذه الفروق بوضوح .

(٣٧٣) المالكي رياض ص ٣٤٥

(٣٧٤) المرجع السابق ص ١٣٤

(٣٧٥) عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٦

(٣٧٦) المرجع السابق ص ٥١٥ ، ٥١٦

وممن ألف فى التربية من أهل القيروان أبو الحسن على بن محمد
ابن خلف المعافى المعروف بابن القابسى القيروانى ألف رسالة مفصلة
لأحوال المعلمين والمتعلمين وقد راعى فيها المعلم والمتعلم (٢٧٧) .

وكان الجنينى يوصى باختيار المعلم الصالح أو بمعنى آخر أن
يكون المعلم حسن الاعتقاد حسن الأخلاق متسما بالعفاف ويضرب لذلك
المثل فى النتائج فيقول : لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين
فدين الصبى على دين معلمه فلقد عرفت معلما كان يخفى القول بخلق
القرآن ففطن له فلما علم أنه يطرد وقف بين يدى مكتبته وقال لصبيانه :
ما تقولون فى القرآن ؟ قالوا لا علم لنا . فقال هو مخلوق ولا تزالون
عن هذا القول لو فتلتم فماتوا كلهم على هذا الاعتقاد . قال وبلغنا
عن معلم عفيف رضى وهو يدعو حول الكعبة ويقول : اللهم ايما غلام علمته
فاجعله فى عبادك الصالحين فبلغنى أنه تخرج على يديه نحو من
نسعين عالم وصالح (٢٧٨) .

ومن هذه النظرية كانوا يرون مسئولية الأستاذ عن تلميذه عندما
تعتبره مشكلة نفسية أو نازع شهوانى يجعله يلهو أو يغصر فى الدراسة
أو ينقطع عنها فيحاول الأسناذ معالجة ذلك وإصلاح ما أعوج من التلميذ .
فقد كان عند البهلول شاب يطلب عليه العلم ثم أقبل على المجانة فاعلم
البهلول بذلك فساءه ما بلغه فبينما هو جالس يوما إذ خطر به الشاب
وتحت ثوبه طنبور فقيل للبهلول : انظر أصلحك الله اليه والى ما تحت
ثوبه فتامله البهلول فعرف تصديق ما قالوا فقال للقائل لعله انما ذهب
ليكسره فلما كان بعد ذلك بقريب مضى البهلول بنفسه الى دار الشاب
فقرع الباب فقالت له أمه : من هذا ؟ فقال لها : بهلول . فقالت له
ما تريد ؟ قال : ولدك . فلم يزل به حتى خرج عليه الشاب فسلم البهلول
عليه وقال له : يا ابن أخى مالك انشغلت عنا ؟ أكل هذا زهادة منك

(٢٧٧) انظر الدباغ معالم ج ٣ ص ١٧٠

(٢٧٨) عياض المدارك ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٦

فى الخير ؟ وأخذ يعظه ويرفق به ويتعاهده بذلك حتى رجع الفتى عما كان عليه من المجانة وعاود مجلس البهلول وكان له شأن نفعه الله تعالى ببهلول وصحيته^(٣٧٩) .

وكانوا لا يرون الحياة بالنمبة للصبيان دراسة كلها بل اللعب حق لهم أيضا وهو دليل على صحتهم فقد سأل عبد الله بن محمد البغدادي معتب بن أبى الأزهر قائلا ما حال صبيانكم ؟ قال : ولع كثير . قال : ان لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمايم . يريد أنه لا يكسرهم من اللعب الا المرض^(٣٨٠) وان كان المنجى الكعبى فى حديثه عن حياة الفزاز القيروانى يذكر الجد الذى كان يؤخذ به عندما يستيقظ عند الفجر ليتوجه الى المكتب القريب من بيته ليمضى شطرا من النهار بين يدى المعلم الذى يحفظه القرآن ويعلمه الخط والكتابة ومبادئ الحساب فاذا ما حان وقت الزوال عاد الى منزله وقد أخذ منه الاعياء مأخذه فيتناول طعامه ويأخذ قسطا من الراحة واللعب ليمسك الدراسة بعد الظهيرة الى قريب من الغروب ثم يأخذ عطلة الاسبوعية ظهر الخميس ليستأنف الدراسة يوم السبت فاذا ما حفظ القرآن اقيمت له حفلة بهيجة لختم القرآن يسر بها أسرة التلميذ ومعلمه^(٣٨١) .

وقد كان الآباء أيضا يهتمون بمعرفة أحوال الأبناء ويسألونهم عن مستواهم الدراسى وينافشونهم خاصة اذا كانوا من العلماء . وكانوا يكافئون معلمى أبنائهم مكافآت جزيلة فقد دخل على عبد الله بن غانم ابنه وقد انصرف من المكتب فسأله عن سورته فقال الصبى حولنى المعلم من سورة « الحمد » فقال له اقراها فقرأها فقال له تهجها قال فتهجها فأعطاه ما يقارب عشرين دينارا فحملها الى معلمه فأنكر المعلم ذلك وأتى بها الى ابن غانم وأخبره أن الصبى أتاه بها فقال له ابن غانم

(٣٧٩) انظر المالكي رياض ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٣٨٠) انظر عياض المدارك ج ٣ ص ١٢٧

(٣٨١) الفزاز القيروانى المنجى الكعبى ص ١٦

كالمعتذر. « لم يحضرني غيرها يا معلم » أتدرى ما علمته ؟ علمته « الحمد لله رب العالمين » لحرف واحد مما علمته خير من الدنيا وما فيها (٣٨٢) .

وبعد أن ينتهى الصبى من ختم القرآن يواصل الدراسة بعد ذلك في حلقات المسجد حول سنوارى الجامع الكبير بالقيروان حيث التخصصات في الشريعة أو اللغة والأدب وغيرها من العلوم .

وكان مما يسلكونه في طرق التدريس القاء الأسئلة للإجابة عنها فإذا ما أشكلت المسألة على الطلبة بينها لهم الأستاذ ذكر عياض أن حماسا القاضى قال : كان ابن عبدوس يلقي علينا المسائل . فإذا أشكلت شرحها فلا يزال يفسرها حتى نفهمها قيسر بذلك وأن لم يرثا فهمنا غمه (٣٨٣) .

وكان أبو محمد بن أبى زيد يفتتح مجلسه بجواب سؤال السائلين عن غوامض المسائل ودقائقها وربما قال حدثتني نفسى أن فى هذا المجلس كذا وكذا سؤالا فأيكم صاحب سؤال كذا فيقول بعض الحاضرين أنا فيجيب (٣٨٤) .

ولا شك أن هذا من طرق التدريس الناجحة التى كان يطبقها ذلك الشيخ فى درسه. ويوضح بعض الطرق التربوية التى كان يسير عليها العلماء فى القيروان .

وكان من رأيهم فى التربية أن يتلقى الطالب العلم على أستاذ ولذلك كانوا يهتمون بذكر الأساتذة الذين تلقوا عليهم ويرون من يتفقه أو يتعلم بنفسه من غير التلقى على أستاذ يعد عيبا فيه ولذلك عندما أنكر أحمد بن نصر الداودى على معاصريه من علماء القيروان سكتابهم فى مملكة

(٣٨٢) انظر المالكى رياض ص ١٤٥ ، ١٤٦

(٣٨٣) عياض المدارك ج ٣ ص ١٣٠

(٣٨٤) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٤٤

بنى عبيد وبقاءهم بين أظهرهم وأنه كتب اليهم مرة بذلك فأجابوه :
اسكت لا شيخ لك . اى لأن درسه كان وحده ولم يتفقه فى أكثر علمه
عند امام مشهور وانما وصل الى ما وصل بادراكه يشيرون الى
انه لو كان له شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك
من عامة المسلمين تثبتت لهم على الاسلام ولو خرج العلماء من
القيروان لاعتنق مذهب الشيعة الالاف فرجعوا خير الشرين (٢٨٥) .

كما تتسم الحركة التربوية بأنها لم تكن قاصرة على الكتابات
والحلقات فى المساجد بل كان الاثرياء والامراء يحضرون المعلمين لابنائهم
فى منازلهم حيث يحيطون بالعلوم السائدة فى ذلك العصر وكانوا
يجزلون الاموال لأولئك المعلمين حتى أنه روى عن يحيى بن عمر أنه أنفق
فى طلب العلم ستة آلاف دينار (٢٨٦) .

كما ان نظرتهم التربوية لم تكن تقصر التعليم على الذكور بل كان
الاناث أيضا يتعلمون وقد برع من النساء خديجة بنت سحنون التى
برعت فى الفقه وتلقته من أبيها كما كان هناك الشاعرات كمهرية بنت
الحسن بن غلبون (٢٨٧) .

ومن نظراتهم التربوية اباحة التعليم لكل راغب فى العلم دون التقيد
بسن أو بتسجيل للتلاميذ فالتعليم للجميع وليست المحاضرات والدروس
قاصرة على الطلبة المنتظمين بل الحلقات مباحة الحضور لجميع
من يودون الاستماع اليها من الشباب أو الشيوخ .

وكان من نظراتهم التربوية توفير الجو الملائم للطلاب الغريباء وهم
بعيدون عن ديارهم وأهلهم فكانوا يعدون بجوار الاماكن التى خصصت

(٢٨٥) المدارك عياض ج ٤ ص ٦٢٣

(٢٨٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٥٨

(٢٨٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٣٦

لتلقى الدروس أماكن أخرى يسكن فيها الطلاب الغرباء ليكون ذلك
أعون لهم على دراستهم^(٣٨٨) .

ومما يلفت انتصارنا عنايتهم بالتربية الجنسية أو بتعبير آخر
المحافظة على الطائفة من الناحية الجنسية ورعاية حاجته من هذه
الناحية بطريق شرعى ولا شك أن ذلك يعتبر تقدما تربويا لم نصل
نحن بعد اليه وأذكر هذه الحادثة التى يرويها الدباغ وهى من الوضوح
بحيث لا تحتاج الى تعليق لبيان ما تحمله من القيم التربوية الجنسية
التي تشير اليها والتي تبين لنا عدم اغفالهم للحاجات التي يحتاجها
الطالب عدى العلم والطعام والمسكن .

فقد ذكر الدباغ أن بعض طلبة الاندلس قدم على أبى محمد
عبد الله بن أبى زيد القيروانى للقراءة عليه فأكرمه وأنزله وأجرى عليه
ما يحتاج اليه من نفقة وجعله امام مسجده فبينما هو ذات يوم خارج
من داره الى الصلاة وكانت داره التى أنزله فيها مجاورة للمسجد
فى قبالة حمام أبى محمد اذ نظر الى امرأة خارجة من الحمام وقد
كشفت عن وجهها لما نالها من حر الحمام ولم تظن أن أحدا ينظر اليها
فلما رآته سترت وجهها وانصرفت فقيدت بصره وأخذت من نفسه
مأخذا عظيما فتبعها الى أن دخلت دار الفقيه أبى محمد بن أبى زيد
والفقيه محمد ينظر اليه فى تلك الحالة فلما رآه ينظر اليه سقط ما فى
يده وداخله من الحياء والخجل ما لا مزيد عليه ورجع الى داره حزينا
كثيرا فلما تأخر عن الصلاة اتاه المؤذن يؤذنه بها وأعلمه أن الشيخ
أبا محمد بعث اليه فأتى وصلى بالناس ثم أخذ الفقيه معه فى المذاكرة
والمؤانسة الى أن صلى العشاء الآخرة فقال له أبو محمد انصرف
الى دارك حتى أصل اليك فلم يشك أنه يقول له فى ذلك وظن سوءا
وعاد اليه حزنه وكآبته فلما وصل الى داره لم يجلس الا وأبو محمد

(٣٨٨) انظر دكتور أحمد شلبى الفكر الاسلامى منابعه وآثاره

ص ٦٠

فى أثره فقال له يابنى انما جئت لك معذرا من تقصيرى فى حقك اذ لم اقم بجميع ما تحتاج اليه وذلك انى لم اتفقد أنك تحتاج الى النساء فانك شاب وها أنا شيخ أحتاج الى الزيادة من ذلك فكيف أنت ؟ وأما الصبية التى رأيته خارجة من الحمام فاننى ربيتها صغيرة لنفسى وهى لك وما أخرجتها لهذا الوقت الا أنهم فى الدار من ذلك الحين يصلحون من شأنها فلم يبرح حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج اليه من ثياب وحلى وفرش وتركها فى منزله وانصرف بعد أن عقد له النكاح عليها^(٣٨٩) .

وهذا يوضح بجلاء مقدار فهمهم لحاجة الطالب والمطالب التى يجب توفيرها له بما يضمن له نموا ترويا صحيحا ونضجا كاملا بعيدا عن أى تقصير يؤدى الى عدم تفوقه فى دراسته .

ونختم الحديث عن الافكار التربوية بذكر الآداب التى كانوا يرون وجوب تحلى طالب العلم بها قبل التعلم وبعد التعلم قال أبو جعفر أحمد بن أبى سليمان فيما أوصى به طالب العلم : يا طالب العلم اذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبا تستعين به على طلبه واتخذ له بعد طلبه أدبا تستعين به على حمله . ومن آداب العلم الحلم وكظم الغيظ . وان يغلب علمك وحلمك هواك اذا دعاك الى ما يشينك . وعليك بالوقار والتعفف والرزانة والصيانة والصمت والسمت الحسن والتودد الى الناس ومجانبة من لا خير فيه والجلوس مع الفقهاء ومحبة الاخيار ومنايذة الاشرار والقول الحسن فى اخوانك والكف عن ظلمك ولا تهمز احدا بقول ولا تلمزه ولا تقل فيه ولو كان عدوك فان فعلت ذلك شرفت عند العقلاء وعرفت حقك الجلساء ولحقت بالعلماء وهابك السفهاء وحللت محل الأبرار وبرئت من الاشرار . فافهم وتفهم واستعن بالله يعذك الله^(٣٩٠) .

ولا شك أن ذلك رقى تربوى ما زلنا نحن فى حاجة الى أن نمير عليه بعد مضى عشرة قرون .

(٣٨٩) انظر الدباغ معالم ج ٣ ١٤١ ، ١٤٢

(٣٩٠) المالكى رياض ص ٤٠٨

٥ - الترجمة :

لم تمدنا المصادر بأسانيد كثيرة تبين لنا بوضوح مدى الترجمة وبدايتها والمشتغلين فيها بيانا كاملا او تذكر بالتفصيل الكتب التى ترجمت وتطور كل ذلك وما ترتب عليه الا ان الاخبار المتفرقة هنا وهناك والقليل من أسماء المترجمين . والمتناثر من الحوادث فى ثنايا كتب الطبقات تعطينا العلامات أو الاشارات الدالة على وجود الترجمة فى القيروان وعلى وجود اللغات التى كان يعرفها ويتكلم بها بعض سكان القيروان او بمعنى آخر بعض الافراد فى القيروان ولذلك يضع أمامنا صورة مصغرة لما كان يجرى فى ذلك الوقت بالنسبة للترجمة واذا ما عثر على بعض المصادر الكثيرة المفقودة فى تاريخ القيروان فسوف يظهر لنا بوضوح مدى ما وصلت اليه الترجمة فى القيروان .

ولا شك أنه عندما يعثر على مثل هذه الكتب سوف يكون الضوء ساطعا لبيان المدى الذى وصلت اليه - وان كانت الاشارات التى وردت والنتائج التى ترتبت عليها وخاصة فى الناحية الطبية كما سيتبين لنا عند الحديث عن الطب فى القيروان - فاذا ما أضفنا الى ذلك الصلات الوثيقة التى كانت للقيروان بصقلية حيث بدأت تبسط سلطانا عليها سنة ٢١٢ هـ وعلى غيرها من جزر البحر المتوسط ، ثم الصلات العدائية الطويلة المدى بين حكام القيروان وحكام ايطاليا وجنوب فرنسا والسفارات التى كانت تقوم بينهم فان كل ذلك بلا ريب قد ادى الى وجود نوع من المحاولة لمعرفة كل طرف للغة الآخر ومعرفة اللغة تؤدي الى معرفة الفكر والحضارة والعلوم المختلفة بما يؤدي الى ازدهار الترجمة وتقديم لها .

وقد ذكر المالكي ما حدث فى مسجد القيروان من نقاش ومحاكمة لعبد الله بن أحمد بن طالب القاضى المعزول وكيف رد حمديس القطان على الامير بقوله : امر الله فوق امر الامير فقام اليه « بلاغ » الخادم

مغضبا ليهم به « فكلمة الامير بالصقلية فانكف » (٣٩١) ومعنى هذا أن الامير يعرف الصقلية وأن في بلاطه وفي رجال دولته من يعرف هذه اللغة . كما يذكر الدباغ حادثة أخرى يتحدث فيها الامير بالصقلية الى خادمه في بعض المناقشات (٣٩٢) .

ويفيدنا صاحب الورقات أن ثلاثة من أمراء الاغلبة وهم ابراهيم الاصغر وابنه عبد الله الثانى وزيادة الله الأخير كانوا يجيدون اللسان اللاتينى وقد تعلموا ذلك عندما كانوا يتولون ولاية صقلية . وأن الروح التى لمست فى الامير ابراهيم بن أحمد بن الاغلب من ميله للمناقشة بين العلماء وفى تعلمه اللغة اللاتينية والصقلية قد دعت به بلا شك الى تخير بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية التى اطلع عليها ثم كلف بعض المتعلمين من الصقليين الذين يعرفون اللغة العربية بترجمتها مع مراجعتها ممن يحذق العربية من علماء القيروان ليعم نفعها .

وقد ذكر حسن الوزانى فى رحلته أنه رأى فى تونس ترجمة كتاب بلينيوس (plenus) الرومانى فى علم النبات باللغة العربية وقد نقل عن هذا الكتاب العشابون المغاربة ولم تقع ترجمة هذا الكتاب بالاندلس فى مدة عبد الرحمن الثالث ولا فى أيام ابنه الحكم الثانى مما يؤيد أنه ترجم فى القيروان .

وقد عثر فى المكتبة العتيقة المحفوظة فى جامع عقبة بالقيروان على نسخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الأمم القديمة » نسب وضعه الى القديس المسيحى برونيم الرومانى ولثانى لهذه النسخة وقد رسم على هوامشها بعض كلمات بالحروف اللاتينية منها تسمية المؤلف أن (برونيم) (٣٩٣) .

(٣٩١) انظر المالكى رياض ص ٣٨٦ ، ٣٨٧

(٣٩٢) الدباغ ج ٢ ص ٢١٨

(٣٩٣) حسن حسنى - الورقات ص ٢٠٠ ، ٢٠٣

ولقد ازدهرت حركة الترجمة عندما أسس ابراهيم بن أحمد بيت الحكمة واستقدم من صقلية جماعة من القسيسين ليقوموا بترجمة المؤلفات اليونانية واللاتينية في شتى الموضوعات من فلسفة وتاريخ وجغرافيا وطب ونبات ، كما أرسل الى الفسطاط ودمشق وبغداد لاستقدام علماء مختصين من أطباء فلكيين وغيرهم وكان لهم أثر كبير في رقى الترجمة ووصول ترجمة الكتب المختلفة الى القيروان^(٣٩٤) .

وفيدنا الأستاذ الكعك بأن كتاب العشریات فی تاریخ الرومانيين للمؤرخ الرومانى طيطس ليوشى قد قام بترجمته بعض المترجمين ببيت الحكمة بالقيروان فى القرن الثالث من اللاتينية الى العربية وهو أحد مصادر ابن خلدون فى بعض الأقوال^(٣٩٥) .

وممن ولد فى القيروان فى اواخر القرن الثالث الهجرى واتقن اللغة العربية والعبرية وتفقه فى الشريعة الموسوية أبو سهل دونش بن تميم ويلقب بالشفلجى الاسرائيلى وتعلم على علماء القيروان فى الطب والحساب والنجوم وقد ألف كتاب المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية وبين المشابهة القوية الموجودة بين اللسانين العربى والعبرى وهو مكتوب بالعربية ويتخلله كلمات بالعبرية^(٣٩٦) .

وكما قامت حركة الترجمة بالنقل من اليونانية واللاتينية والعبرية الى العربية فقد قام المترجمون كذلك بالنقل من العربية الى غيرها من اللغات ويذكر صاحب الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض وصاحب الورقات أن جماعة من المترجمين القيروانيين انتقلوا الى ايطاليا ونقلوا اليها كتب ابن الجزار الطبيب من العربية الى اللاتينية ومن هؤلاء المترجمين قسطنطين بن محمد القيروانى ويحيى بن افلح ويحيى السراج

(٣٩٤) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٦ ، ٣٢٥

(٣٩٥) انظر عثمان الكعك كتاب البربر ص ٣٦

(٣٩٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٩٧

الذين قاموا بترجمة الكتب العلمية من طبية وصيدلية ونباتية ورياضية الى اللغة اللاتينية وقد ترجم قسطنطين الافريقى لاسحاق بن سليمان الطبيب القيروانى كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب العناصر وكتاب الحدود والرسوم ومعها سبع مقالات أخرى وترجم كتاب الملائخوليا للطبيب اسحاق بن عمران وكتاب زاد المسافر وقوت الحاضر للطبيب احمد بن الجزار القيروانى كما ترجم مصنفات أخرى من غير الطب مثل كتاب البارح فى الفلك والنجوم والكتاب الملوكى لعلى بن العباس وغير ذلك من الكتب فى العلوم المختلفة وقد ترجم زاد المسافر الى اليونانية واللاتينية والعبرية وأخيرا الى الفرنسية^(٣٩٧) .

وبهذا يتبين لنا رغم قلة حديث المصادر عن الترجمة المدى البعيد الذى وصلت اليه الترجمة فى القيروان وقد استمرت حركة الترجمة تنمو وتزدهر خلال العصر الفاطمى وأكبر شاهد على ذلك ما ذكر عن المعز لدين الله من أنه كان يجيد غير اللغة العربية اللغات البربرية والسودانية واللاتينية والاسبانية والصقلية^(٣٩٨) .

٦ - العلوم الطبيعية. أو علوم الأوائل :

نقصد بالعلوم الطبيعية العلوم التى تتصل بالحياة العملية كالطب والصيدلة والطبيعة والكيمياء وعلوم الزراعة والرياضة والفلك والنجوم . وقد ابتدا بعضها فى القيروان فى منتصف القرن الثانى ثم أخذ فى النمو والازدهار بحيث استطاع أن يقوم علماء كل علم بدور فكري خصب وأن يؤدي بكل منهم واجبه فى رقى الحياة والمساعدة على تقدمها .

(٣٩٧). عثمان الكماك الحضارة العربية ص ١١٦ ، ١١٧ ، الورقات

حسن حسنى ص ٢١١ ، ٣٠٧

(٣٩٨) المقرئزى اتعاظ الحنفاء ص ٦٥ ، حسن ابراهيم تاريخ

الدولة الفاطمية ص ٩٣ ، المعز لدين الله حسن ابراهيم ص ٢٢٣ ،

الورقات حسن حسنى ص ٨٨

(١) الطب والصيدلة :

أشرنا في ختام بداية الحياة الفكرية الى وجود بوحنا المتطبب لدى يزيد بن حاتم وكان قد تعلم في بيمارستان جند نيسابور في العراق وقد أقام مدة في القيروان^(٣٩٩) وربما قد تعلم عليه بعض أبناء القيروان الا أن المصادر تصمت فلا تحدثنا عن الأطباء بعده الى أن ينتصف القرن الثالث الهجري .

وعندما يتأسس بيت الحكمة^(٤٠٠) يستقدم الأطباء من المشرق فنجد عددا من الأطباء الذين يمارسون الطب والصيدلة كما نجد الحديث عن المستشفيات (مستشفى الدمنة ودار الجذماء) وليس معنى الصمت الذي تلوذ به المراجع عن الفترة الماضية خلوها من الأطباء ومن العناية بالمرضى وانما قد يكون من يهتم بالطب عدد قليل فاهمله المؤرخون أو أنهم تحدثوا عنهم في الكتب المفقودة التي لم تصل إلينا .

ويشير المؤرخون الى أن البداية الحقيقية للفكر الطبى في القيروان قد بدأت على يدى الطبيب المشهور .

١ - اسحاق بن عمران الملقب بسم ساعة :

وهو طبيب بغدادى تعلم في بغداد وبرع في الطب حتى اشتهر بسم ساعة لما يظهر من سرعة تأثير الادوية التي كان يصنعها للمرضى وقد استقدم الى القيروان وقام بنشر الطب فيها حيث تلقى عليه عدد من أبناء القيروان الطب والفلسفة وكان طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الادوية المركبة بصيرا بفرقة العلل أشبه الأوائل في علمه وجودة

(٣٩٩) حسن حسنى الورقات ص ٢٧٠

(٤٠٠) بيت الحكمة : معهد للعلم والترجمة ودراسة الرياضيات

والطب والصيدلة وبه مكتبة للدراسة والمطالعة ومحل لنسخ الكتب ومقابلتها انشاه ابراهيم بن الاغلب سنة ٢٦٢ - ٢٨٩ هـ . انظر الورقات حسن حسنى ٢٦ ، ٩٧ وهذه تونس لحبيب تامر ص ١٢ ، ١٣

قريحته . وممن برع من تلاميذه في القيروان زياد بن خلدون واسحاق ابن سليمان الاسرائيلي الوافد من مصر وأبو بكر محمد بن الجزار وغيرهم^(٤٠١) .

وقد ألف وهو في القيروان عدة كتب في الطب هي :

١ - كتاب في المالنخوليا وهو الموجود من كتبه في مكتبة ميونخ ولم يسبق الى مثله^(٤٠٢) .

٢ - كتاب الأدوية المفردة .

٣ - كتاب العنصر والتمام في الطب في مقالة في الاستمقاء .

٤ - مقالة وجيزة كتب بها الى سعيد بن توفيل المتطبب في الابانة عن الأشياء التي يقال انها تشفى الاسقام وفيها يكون البرء مما أراد اتحافه به من نوادر الطب ولطائف الحكمة .

٥ - كتاب نزهة النفس .

٦ - كتاب في الفصد .

٧ - كتاب في النبض .

٨ - مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته وهي الرسالة التي كتب بها الى العباس وكيل ابراهيم بن الاغلب .

٩ - كتاب في البول من كلام ابقراط وجالينوس وغيرهما .

١٠ - كتاب جمع اقاويل جالنيوس في الشراب .

١١ - مسائل له مجموعة في الشراب على معنى ما ذهب اليه ابقراط وجالينوس في المقالة الثالثة من كتاب تدبير الأمراض الحادة

(٤٠١) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ٨٤ ، ٨٥ ابن أبي أصيبعة

عيون الأنبياء ج ٢ ص ٣٥ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٣٣

(٤٠٢) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ٨٥ ، ٨٦

وما ذكر فيها من الخير كلام له في بياض المدة ورسوب البول وبياض
المني (٤٠٣) .

وقد حدث سوء تفاهم بين زيادة الله بن الاغلب آخر امراء الاغالب
وبين اسحاق بن عمران أدى الى قتله سنة ٢٩٤ هـ بعد أن أدى واجبه
في نشر الطب وتعليمه في القيروان وفي قيام المدرسة الطبية بها (٤٠٤) .

٢ - اسحاق بن سليمان الاسرائيلي :

حمل راية الفكر الطبى بعد اسحق بن عمران في القيروان وهو
من أهل مصر وكان كحالا في بدايته أى يهتم بأمراض العيون ثم سكن
القيروان وتلمذ على اسحاق بن عمران وبرز في الطب والى فيه كتباً
كان يعتز بها ويراهما انها تخلد ذكره اكثر من الولد لانه لم يتخذ زوجة
وقد عمر اكثر من مائة عام وتوفي قريباً من سنة ٣٢٠ هـ بعد أن عاصر
الأغالبه والفاطميين وقد ألف كتباً في الطب والمنطق وقال عنه ابن جليل
له تواليف لم يسبقه أحد الى مثل بعضها ومنها (٤٠٥) :

١ - كتاب الحميات خمس مقالات ولا يوجد كتاب في معناه أجود
منه وقال عنه على بن رضوان الطبيب « أن هذا الكتاب نافع وجده
رجل فاضل وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه وبالله التوفيق
والمعونة » وتوجد من هذا الكتاب نسخة بمكتبة أحمد الثالث استنبول .

٢ - كتاب الادوية المفردة والاعذية ومنه نسخة بمكتبة الفاتح
في مجلدين مكتوبة سنة ٧٠٩ هـ .

(٤٠٣) انظر المرجع السابق ص ٨٥ ، ابن أبى أصبيعة عيون الانبياء

ج ٢ ص ٣٦

(٤٠٤) انظر أخبار وفاته في طبقات الأطباء لابن جليل ص ٨٥

(٤٠٥) ابن جليل طبقات ص ٨٧ ، ابن أبى أصبيعة عيون الانبياء

ج ٢ ص ٣٦ ، ٣٧

٣ - كتاب البول قال عنه ابن جلجل اشبع كتاب الفه مؤلف بذ فيه جميع المتقدمين وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية .

٤ - كتاب الاسطقات .

٥ - كتاب الحدود والرسوم .

٦ - كتاب بستان الحكمة وفيه مسائل من العلم الالهي .

٧ - كتاب المدخل الى المنطق .

٨ - كتاب المدخل الى صناعة الطب .

٩ - كتاب النبض .

١٠ - كتاب الترياق .

١١ - كتاب في الحكمة (٤٠٦) .

وقد ذكر الدباغ اثناء ترجمة بعض الفقهاء من اهل القيروان الاشارة الى اشتغالهم بالطب كقوله عن يحيى بن عمر المتوفى سنة ٢٨٩هـ انه كان فقيه البدن يريد انه كان طبيباً وقال عن علي بن ظفر انه يعرف الطب كما يذكر من فقهاء البدن محمد بن فرج البنامولى بنى الاغلب توفى سنة ٣٠٣ هـ وابا عبد الرحمن بن دحمان وموسى بن عبد الرحمن القطان توفى سنة ٣٠٦ هـ ونصر بن فتح التيسورى توفى سنة ٣٠٦ هـ (٤٠٧) كما يذكر ابن عذارى فى سنة ٣٠٧ هـ (٤٠٨) وفاة جماعة من الاطباء مما يدل على وجود عدد غير قليل من الاطباء فى القيروان كما يقول ابو العرب فى ترجمته لسحنون انه فقيه البدن (٤٠٩) . ومن اشتهر بالطب وكان يعالج الامراء والرؤساء كما يزور المرضى فى المشافى زياد بن خلفون الذى تتلمذ على اسحاق بن عمران وكان من عادته أن يزور مرضى مستشفى الدمنة

(٤٠٦) انظر نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٤٠٧) انظر الدباغ معالم ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٧٦ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،

٢٣٠ ، ٢٣٤

(٤٠٨) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٣

(٤٠٨) ابو العرب طبقات ص ١٨٤

في أيام معينة من الأسبوع كما يزور المرضى بدار الجذماء وقال عنه
البكرى « كان زياد بن خلفون المتطبيب اذا خرج من القيروان يريد مدينة
رقادة وحاذى باب اصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه
كالمتداوى »^(٤١٠) وهو ممن اشتغل بالطب في نهاية الدولة الأغلبية ثم خدم
المهدى مدة عشر سنوات الى ان اغتاله بعض حاسديه في القيروان سنة ٨٠٣ هـ
وقال عنه ابن عذارى « كان زياد بن خلفون عالما بالطب حسن الذهن
فيه وكان عبيد الله قد احتاج الى زياد فقربه من نفسه »^(٤١١) وقد هال المهدي
خبر مقتله وتأسف عليه كثيرا^(٤١٢) ومن الأطباء الذين ظهروا في العهد
الفاطمي موسى بن العزار الذي برع في الطب ومهر في معالجة أمراض
العيون في القيروان وكانت له مكانة عند المعز لدين الله وقد انتقل معه الى
مصر حيث أدركته الوفاة سنة ٣٦٣ هـ وقد ألف كتباً منها :

١ - الكتاب المعزى في الطب

٢ - كتاب السعال وهو مقالة أجاب بها سؤالاً عرضه عليه أحد
الباحثين عن حقائق العلوم

٣ - كتاب الأقرباذين « أى الصيدلة »

وقد انجب أبناء تعلموا عليه وبرعوا في الطب واشتغلوا به والتحقوا
بخدمة المعز أيضاً وهم عون الله بن موسى واسحاق بن موسى واسماعيل
بن موسى وحفيده يعقوب بن اسحاق بن موسى^(٤١٣) .

وممن اشتهر في القيروان بطب العيون أعين بن أعين وكان في أيام
المعز لدين الله الفاطمي وحاز سبقاً ومهارة في معالجة الرمد المزمن

(٤١٠) البكرى المغرب ص ٢٤

(٤١١) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٣

(٤١٢) حسن حسنى الورقات ص ٢٤١

(٤١٣) انظر حسن حسنى الورقات ص ٣٠١ ، حسن ابراهيم

تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٢

وشفى على يديه عدد كبير من المصابين به مثل الشريف !حمد ابن عوانة وابنه وشيخ المالكية عبد الله بن أبى زيد الفقيه . وقد انتقل مع المعز الى مصر واستقر بها وله ذكر جميل بها وحسن معالجة لأهلها وتوفي سنة ٣٨٥ هـ وقد ألف كتاب أمراض العين ومداواتها وكتاب كتابش في الطب (٤١٤) .

وعلى رأس من نبغ من أبناء القيروان في الطب .

٣ - أحمد بن إبراهيم الجزار :

ولد بالقيروان سنة ٢٨٥ هـ من أسرة اشتغلت بالطب واشتهرت به فكان أبوه طبيباً وكان عمه أبو بكر طبيباً وقد تلقى عليهما العلوم الطبية كما تتلمذ على اسحاق بن سليمان واستفاد من علمه وخبرته . وقد برع في الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ ووصفه ابن جليل بأنه من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم .

وكانت له عيادة للمرضى جعلها في مكان مستقل بجوار بيته كما خصص قسماً للصيدلة أجلس فيه غلامه رشيقاً وأعد له الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم وغير ذلك من الأدوية فإذا فحص هو المريض وشخص العلاج تحول المريض الى رشيق ليأخذ منه العلاج وكان يراقب الصيدلية كل يوم ليكمل ما ينقصها .

وكان له سمت خاص يسير عليه فلم يخلد الى لذة ولم يرتكب رلة وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها ولا يذهب الى الرؤساء والحكام مع عنايته بالفقراء فيحسن اليهم ويداويهم بدون أجر تقرباً الى الله وقد أكسبه ذلك منزلة عالية في القيروان وقد تلقى الطب عنه عدة تلاميذ من أشهرهم أبو حفص عمر بن بريق الأندلسي فقد لازمه في القيروان مدة وروى عنه مؤلفاته ثم عاد الى الأندلس والتحق بخدمة الأمراء الأمويين

(٤١٤) انظر حسن حسنى الورقات. ص ٣٠٥

وخاصة الخليفة عبد الرحمن الناصر وقد نشر تلميذه أبو حفص كنبه
في الأندلس حيث ترجمت الى لغات عدة .

وقد ألف ابن الجزار كتباً عدة في الطب والتاريخ والجغرافيا والأدب
وغيره ذكر منها ابن أبي أصيبعة اثنين وعشرين مؤلفاً وأوصلها الأستاذ
حسن حسنى الى سبعة وثلاثين مؤلفاً ومنها في الطب :

١ - زاد المسافر وقوت الحاضر : وهو من أهم الكتب الطبية التي
ألفها المسلمون ويوجد منه نسخ في مكتبة الشعب بباريس وفي الجزائر
والمانيا الغربية وأكسفورد والهند وهولندا وقد ترجم الى
اللاتينية في أواسط القرن الخامس الهجرى كما ترجم الى اليونانية ويوجد
منه نسخ بمكتبة الفاتيكان في روما كما نقل هذا الكتاب الى العبرية .

٢ - كتاب العدة لطول المدة .

٣ - كتاب الاعتماد في الادوية المفردة ويوجد بالجزائر والمتحف
البريطانى وترجم الى اللاتينية والعبرية .

٤ - كتاب البغية .

٥ - نصائح الأبرار .

٦ - قوت المقيم .

٧ - المعدة وأمراضها ومداواتها .

٨ - أصول الطب .

٩ - مجربات في الطب .

١٠ - المختبرات .

١١ - البلغة في حفظ الصحة .

١٢ - الفرق بين العلل التي تشبه أسبابها وتختلف أعراضها .

١٣ - إبدال الادوية رسالة موجودة بمجموعة طبية في خزانة

السيد أحمد خيرى بك بالبحيرة بمصر .

١٤ - التحذير من اخراج الدم من غير حاجة دعت الى اخراجه .

- ١٥ - طب الفقراء والمساكين موجود في مكتبة السيد عبد الحى الكتانى بفاس وترجم قديما الى العبرية .
- ١٦ - النصح جمع فيه ادوية الملوك والخواص .
- ١٧ - طب المشايخ : عالج فيه الحالات التى تعترى المسنين والمعمرين وهو موجود فى مجموع طبى مخطوط محفوظ فى مكتبة السيد أحمد خيرى بك بالبحيرة بمصر .
- ١٨ - سياسة الصبيان وتديبرهم .
- ١٩ - الخواص وقد ترجم قديما الى العبرية .
- ٢٠ - الزكام . أسبابه وعلاجه .
- ٢١ - الجذام . أسبابه وعلاجه .
- ٢٢ - الوباء ونعت الأسباب المولدة له فى مصر وطريق الحيلة فى دفع وعلاج ما يتخوف منه .
- ٢٣ - المقعدة وأوجاعها رسالة .
- ٢٤ - الحمامات منافعها ومضارها مقالة .
- ٢٥ - اسباب الوفاة رسالة .
- ثم ذكر له الأستاذ حسن حسنى علاوة على ذلك خمسة كتب فى التاريخ والجغرافيا وسبعة كتب فى الأدب وغيره وإذا كان ابن الجزار قد ألف هذه المجموعة فى الطب وغيره بما يدل على علو كعبه وتفوقه فقد كانت له مكتبة ضخمة يملكها ويرجع اليها قدرت بخمسة وعشرين قنطارا من كتب طبية وغيرها . مما يدل على اهتمامه بالقراءة والاطلاع وتسجيل تجاربه حتى وصل الى ما وصل اليه مما يجعله فى المغرب يعادل الفارابى وابن سينا فى المشرق . ومع كثرة مساعدته للفقراء ومداواته لهم مجانا فقد وجد له بعد وفاته أربعة وعشرون ألف دينار عدا الكتب مما يدل على شهرته والأجر الذى كان يتقاضاه وقد استمر يؤدى وإجبه الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٦٩ هـ (٤١٥) .

(٤١٥) انظر ابن جلجل طبقات ص ٨٨ - ٩٠ ، ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء ج ٢ ص ٣٨ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٧ ، حسن حسنى الورقات ص ٣٠٦ - ٣٢٢

وبهذا العرف يتبين لنا الفكر الطبى والصيدلى فى القىروان وكيف كان يدرس الطب نظريا وعمليا فقد كان الطلبة يتمرنون فى المارستانات (المشافى) وكانوا يتخصصون فى الأمراض الباطنية والجراحية ثم الكحالون الذين كانوا يعالجون امراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب ان يكون ملما باللغات الأجنبية وبخاصة السريانية واليونانية بجانب معرفة الطب . كما يذكر المؤرخون ان الأطباء كانوا يزورون مستشفى الدمنة للكشف على المصابين وتتبع سير مرضهم وعاهاتهم وكان يشرف عليها مسئولون عنها يسهرون على نظامها وعلى راحة المقيمين فيها كما كان هناك نساء زنجيات من السودان يخدمن المرضى ويقمن بشئونهن فى الغرف وخارجها .

وعند رحيل المعز الى مصر اصطحب معه بعض الأطباء من القىروان الى القاهرة مما يدل على تقدم الفكر الطبى فى القىروان (٤١٦) .

(ب) الرياضة والفلك :

لقد أثمرنا فى حديثنا عن تأسيس القىروان الى المبانى والمنشآت :

الحربية والدينية والمعمارية فيها مما يدل على تقدم العلوم الهندسية أو الفكر الهندسى وخاصة المعمارى وهو فكر عملى لا يزال شاهد عيان الى الآن فى مسجد القىروان والآثار الباقية فى القىروان منذ ذلك العصر من المواجل والفسقيات والحصون الحربية بالاضافة الى ان سفن الاسطول التى كانت تمخر عباب البحر والآلات الحربية التى كانت تستخدم آنذاك . كل ذلك يدل على وجود هندسة المبانى وبناء السفن والآلات الحربية وان لم يكن ذلك بالمستوى الموجود الآن الا ان ذلك كان بمستوى يتفق والحضارة الموجودة آنذاك .

(٤١٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٧٧ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠١ ، أحمد شوكت الطب عند العرب ص ١٢٦ - ١٣١

كما كان هناك عناية بالحساب وبحركة الأفلاك والنجوم وتحديد الأوقات وخاصة أوقات الصلاة وقد درس هذه العلوم بعض الراحلين الى المشرق وبعد أن تأسس بيت الحكمة واستقدم له العلماء من المشرق درست هذه العلوم فى القيروان على أيدي بعض الأطباء الذين سبق ذكرهم وقد كانوا يحيطون بالرياضة والفلك الى جانب الطب والصيدلة وممن رحل الى المشرق من أهل القيروان ودرس الفلك والتنجيم وعند عودته الحقة ابراهيم بن الأغلب ببيت الحكمة اسماعيل بن يوسف الذى قال عنه الزبيدي « أنه كان غاية فى علم النجامة » الا أننا نلاحظ كثرة ميله الى الاشتغال بالكيمياء . وممن غلب عليه الاشتغال بالرياضة والفلك والف فى ذلك بعض المؤلفات :

١ - أبو سهل (دونش) أدنيم بن تميم ويلقب بالشفلجى :

وقد ولد بالقيروان فى أواخر القرن الثالث الهجرى وتلقى العلم على الطبيب اسحاق بن سليمان وتخرج عليه فى الطب والفلسفة والحساب والنجوم . بل درس الديانة الموسوية وبرع فيها حتى صار اليهود فى الأندلس ومصر والعراق يستفتونه فى ديانتهم وخاصة فى حساب مواقيت اعيادهم ومعرفة سنى تاريخهم .

وقد عمل دونش فى خدمة الفاطميين أيام خلافة المنصور والمعز لدين الله والف كثيرا من الكتب فى الحساب والنجوم والطب ، بل ألف كذلك فى اللغة وفى العقيدة اليهودية .

ومن المؤلفات التى ألفها دونش فى هذه العلوم المتعددة :

١ - كتاب فى الحساب الهندى المعروف بحساب الغبار وهو من اقدم المؤلفات فى الموضوع .

٢ - كتاب فى الفلك وحركة الكواكب كتبه الى صديقه أبى يوسف حسداى طبيب الأمير الحكم بقرطبة وفيه تعديل السنين الشمسية بحساب الشهور القمرية .

٣ - مصنف كبير فى علم الفلك قدمه لى مخدومه المنصور بن القائم
الخليفة الفاطمى .

٤ - كتاب التلخيص فى الأدوية المقررة وفى آخر هذا الكتاب
بيان للأوزان والمكايل المستعملة فى المادة الطبية فى زمانة .
٥ - المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية .

٦ - شرح على سفر يصيرا اى سفر التكوين وأصله محرر باللغة
العربية الفصحى ثم نقل الى العبرية وهو موجود فى عدة مكتبات فى
أوربا ولا اثر للأصل العربى اليوم .

ويذكر الأستاذ حسن حسنى أن له عدة رسائل محفوظة فى المكتبة
البودليه باكسفورد وكلها ترجمت الى العبرية وبقيت لغتها المكتوبة فيها
هى العربية وهى كتاب المستلحق . رسالة التنبيه ورسالة التسوية
ورسالة التقريب والتسهيل ورسالة اللمع ورسالة الأصول .

وقد أدركته الوفاة بالقىروان فى حدود عام ٣٦٠ هـ (٤١٧) .

وممن برع فى الفلك نسيم بن يعقوب القىروانى الذى تتلمذ على
اسحاق بن سليمان وادنيم بن تميم وقد فاق معظم أقرانه الذين كانوا
يتلقون العلم معه خاصة فى علم الهيئة وحركة الكواكب وقد بلغت شهرته
وتفوقه الى العراق والأندلس فكان يهود العراق فى المشرق ويهود
الأندلس فى المغرب يستفتونه فى توقيت مواسمهم الدينية اذ لم يكن
بينهم من هو أعلم منه بهذا الشأن (٤١٨) .

وكان ابراهيم بن الأغلب يرسل السفراء لاستقدام العلماء المتخصصين
من العراق ومن مصر ويبدل الأموال الكثيرة فى سبيل ذلك كما كان

(٤١٧) انظر حسن حسنى المورقات ص ٢٩٧

(٤١٨) المرجع السابق ص ٢٦

يوصى سفراءه بشراء مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الأمير بها خاصة .

وكان يوجد فى بعض قاعات بيت الحكمة دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالاسطرلابات والمفطرات والجيوب وما يشابهها من أدوات البحث وتحقيق الأوقات وضبط الأطوال والعروض مما يستعمل فى علمى الفلك والتنجيم . وقد كان التنجيم وهو الرغبة فى استكشاف المغيبات مما يستهوى قديما ميول الرؤساء والكبراء وشغل ملوك المسلمين وغير المسلمين بالسواء^(٤١٩) .

ويخبرنا ابن عذارى بأن أحمد بن زياد الفارسى صاحب الوثائق بالقيروان والمتوفى سنة ٣١٩ هـ له كتب فى الوثائق والشروط وفى مواقيت الصلاة^(٤٢٠) . كما يذكر القاضى عياض أن عبد الله بن أبى القاسم بن مسرور التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ألف كتب كثيرة فى أنواع العلوم منها : كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان^(٤٢١) .

(ج) الكيمياء :

أشارت قليلة نجدها عند قراءتنا للمصادر القديمة توضح لنا الاشتغال بالكيمياء وإن كان ذلك قدرا ضئيلا وممن اشتغل بالكيمياء واهتم بها اسماعيل بن يوسف الذى ولد فى القيروان فى أواسط القرن الهجرى وقرأ فيها مبادئ العلوم ثم رحل فى طلب العلم الى مصر والشام والعراق وفى بغداد اتصل بمعمل كيميائى مشهور بتحضير مواد التجميل للنساء البغداديات وكان يسمى آنذاك بالطلاء وبعد أن اكتسب خبرة منه وحذق صنعة الكيمياء واطلع على غامض أسرارها قدم الى القيروان ونقل ما تعلمه الى القيروان وقد نال حظوة عند الأمير ابراهيم بن الأغلب

(٤١٩) حصن حسنى الورقات ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٤٢٠) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٠٤ .

(٤٢١) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٢ .

وبعد قيام الدولة الفاطمية اشتغل فترة بتحضير الطلاب للسيدات فى القيروان ثم رحل الى قرطبة لاتهام الفاطميين له بعمل الدنانير والدرهم الزائفة وربما عمل هناك فى تحضير المواد الكيميائية والارتزاق من بيعها الى ان أدركته الوفاة فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى^(٤٣٣) .

ويذكر الدباغ انه كان فى القيروان من يشتغل بالكيمياء وان بعض الفقهاء قد فهم من الكيمياء تحضير الذهب حتى انهم نظروا فى حل ذلك وحرمته وبحثوا الحكم بين الذهب المتحصل من الكيمياء والذهب الابريز . وكان البعض يقول ان عملها لا يجوز لأن من يدفع له من ذهبها شئ لو علمه ما قبله وقد وجد فى تركة أبى عمران الفاسى (الكبريت الأحمر) ولما مات محمد بن أبى زيد وجد فى تركته ألتها^(٤٣٣) (أى الكيمياء) مما يدل على اهتمام العلماء واشتغالهم بها .

ونجد فى ترجمة محمد بن حارث الخشنى انه قد تعلم على أحمد ابن يوسف فى القيروان وانه كان حكيما يعمل بالادهان ويتصرف فى الأعمال اللطيفة وكان يتعاطى صناعة الكيمياء^(٤٣٤) .

ومما يدل على وجود الكيمياء فى القيروان والعناية بها هو الوصول الى التأليف فى بعض فروعها ومن ذلك كتاب العطر الذى ألفه أحمد ابن الجزار وذكره ضمن كتاب طب المشايخ . وقد خصصه لصناعة الروائح السارية وطرق تقطيرها من النباتات والعقاقير التى يستخرج منها^(٤٣٥) .

٧ - التأليف والمكتبات :

(أ) التأليف :

ان الحصلة الحقيقية للحركة الفكرية فى القيروان والتصوير

(٤٢٢) حسن حسنى الورقات ص ١٠٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

(٤٢٣) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٠١ - ١٠٣

(٤٢٤) عياض المدارك ج ٣ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ولعله يقصد اسماعيل

ابن يوسف .

(٤٢٥) حسن حسنى الورقات ص ٣٢٠ - ٣٢٢

الصحيح لها انما يكون امرا واقعا ونتاجا ثابتا اصيل الجذور باسق
الأغصان ناضج الثمار عندما يتحول الى النشاط التأليفى الذى يتمثل
فى الكتابة فى شتى موضوعات الفكر التى ملأ فراغها الفكر القيروانى .

فلقد توجت هذه النهضة الفكرية فى جميع العلوم والتقدم فيها
بتسجيل الحياة الفكرية والتأليف فيها وزخرت القىروان بالمؤلفات الكثيرة
المتعددة التى ألفها العلماء فى القىروان .

وقد أسهب المؤرخون فى بيان الكتب التى ألفها علماء القىروان
فى شتى الموضوعات على مدى العصر الذى ندرسه . ومازال بعض
نتائجها الفكرى يرجع اليه الآن . وان كانت يد الدهر وأحداث الزمن قد
عبثت بالكثير مما كتب فى ذلك العصر . وأصبح الكثير مما ألف فى
فروع العلم المختلفة لا نسمع الا عن اسمه أو عما بقى من ترجمته
أو نقرأ بعض الاقتباسات عند المؤلفين الذين أتوا بعد هذا العصر ونقلوا
من مؤلفاته المفقودة الآن .

ونحن عندما نطالع كتب الطبقات نجد حصيلة من المؤلفات التى
ألفت فى القىروان من رجالها وعلمائها فى شتى العلوم فهناك ما يحدثنا
به الدباغ من أن أسد بن الفرات كان يغدو على ابن القاسم كل يوم فيسأله
ويجيب ابن القاسم حتى دون سبعين كتابا وسمماها الأسدية وقدم بها
القىروان (٤٣٦) .

كما يذكر عياض أن سحنون صنف المدونة وعليها يعتمد أهل
القىروان (٤٣٧) .

وفيدنا المالكى عن محمد بن سحنون بأنه لم يكن فى عصره أحد
أجمع لفنون العلم منه ألف فى جميع ذلك كتباً تنتهى الى نحو مائتى

(٤٣٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ٨
(٤٣٧) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٢

كتاب فى جميع العلوم، وفى المغازى والتواريخ^(٤٢٨) . وقد ذكرنا تفصيل كتبه اثناء الحديث عنه .

ويخبرنا عياض عن المؤلفين ومؤلفاتهم فيذكر موسى بن معاوية الصمادحى وتأليفه لكتاب الزهد وكتاب مواظب الحسن محمد بن رشيد مولى عبد السلام بن مفرج الربعى القائد^(٤٢٩) ومحمد بن عبدوس الذى ألف كتابا شريفا سماه المجموعة على مذهب مالك واصحابه وكتاب التفاسير وله كتب فسر فيها اصولا من العلم كتفسير كتاب المراجعة وتفسير كتاب الشفعة وكتاب الدور وله أيضا أربعة أجزاء فى شرح مسائل المدونة وكتاب فضائل مالك وكتاب مجالس مالك أربعة أجزاء^(٤٣٠) .

ونجد لعبد الله بن طالب كتابا فى الرد على من خالفه مالكا وثلاثة أجزاء من اماليه وله تأليف فى الرد على المخالفين من الكوفيين وعلى الشافعى^(٤٣١) . وألف محمد بن سليمان القطان تأليف فى الفقه وتعرف كتبه بالكتب السليمانية^(٤٣٢) أما يحيى بن عمر بن يوسف فله مصنفات منها كتاب الصراط وكتاب الميزان وكتاب النظر الى الله عز وجل وكتاب يرد فيه على الشافعى وكتاب اختصار المستخرجة المسمى بالمنتخبة وكتاب اختلاف ابن القاسم واشهب وكتاب احمية الحصون وكتاب فضل الموضوع والصلاة وكتاب النساء وكتاب الرد على الشوكية وكتاب الرد على المرجئة وكتاب فضل المنستير والرباط^(٤٣٣) كما ألف أخوه محمد بن عمر كتابا فى اكرية السفن^(٤٣٤) .

(٤٢٨) البالكى رياض ص ٣٤٥

(٤٢٩) عياض المدارك ج ٣ ص ٨

(٤٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ ، ١٢١

(٤٣١) المرجع السابق ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٤٣٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٦

(٤٣٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، الدباغ معالم

ج ٢ ص ١٦٣

(٤٣٤) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٢

أما أبو عثمان سعيد بن الحداد فله تأليف كثيرة منها كتاب
إيضاح المشكل وكتاب المقالات رد فيه على أهل المذاهب أجمعين وكتاب
الاستيعاب وكتاب الأمالي وكتاب عصمة النبيين وكتاب العبادة الكبرى
والصغرى وكتاب الاستواء^(٤٣٥) .

وقد ألف أبو بكر بن اللباد كتاب الطهارة وكتاب عصمة النبيين
صلى الله وسلم عليهم أجمعين وهو كتاب اثبات الحجة في بيان العصمة
وكتاب فضائل مالك وكتاب الآثار والفرائد عشرة أجزاء^(٤٣٦) كما نجد
لأبى الفضل المسمى تأليف كتاب في تحريم المسكر ناقض به كتاب الطحاوى
وآلف أيضا كتابا في قبول الأعمال وكتاب اختصار لكتاب محمد بن
المواز^(٤٣٧) . وقد سبق أن ذكرنا الكتب التى ألفها محمد بن أبى زيد
وأبو العرب تميم . أما على بن محمد المعافى المعروف بابن القابسى
فقد ذكر له تأليف بديعة مفيدة ككتابه . المهذب فى الفقه وأحكام الديانة
وكتاب المنقذ من شبه التأويل وكتابه المنبه للفتن من غوائل الفتن ،
والرسالة المعظمة لأحوال المتقين وأحكام المتعلمين والمعلمين وكتاب
الاعتقادات ، وكتاب مناسك الحج ، وكتاب الذكر والدعاء ، ورسالة
كشف المقالة فى التربية وكتاب ملخص الموطأ ، وكتاب رتب العلم وأحوال
أهله وكتاب أحمية الحصون ورسالة تزكية الشهود وتجريحهم ورسالة
فى الورع^(٤٣٨) .

ويفيدنا المالكى أنهم ألفوا فى كثير من الفنون حتى فى كيفية
صرف النقود للصرافين فكان هناك كتاب الصرف الذى طلب القاضى
عبد الله بن طالب من الصرافين الا يصرفوا حتى ينظروا فى كتاب
الصرف^(٤٣٩) كما يذكر ابن عذارى أن أحمد بن زياد الفارسى المتوفى

(٤٣٥) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٢

(٤٣٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

(٤٣٧) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٤

(٤٣٨) المرجع السابق ص ٦١٨ ، ٦١٩

(٤٣٩) انظر المالكى رياض ص ٤٠٨

سنة ٣١٩ هـ ألف كتباً فى الوثائق والشروط وفى مواقيت الصلاة^(٤٤٠) .

وكان الأمراء والخلفاء يشجعون التأليف ويقترحونه على العلماء
ففرى المعز لدين الله يقترح على النعمان قاضيه تأليف كتاب دعائم
الاسلام^(٤٤١) كما يقترح على القزاز القيروانى تأليف كتاب الحروف
لشرح الحروف التى ذكر النحاة أنها جاءت لمعنى^(٤٤٢) وغير ذلك من
الكتب التى كان يطلب من العلماء التأليف فيها مع منحهم العطايا
الجزيلة تشجيعاً لهم .

وقد ذكرنا أثناء حديثنا عن العلوم المختلفة وترجمة بعض النبغاء
الذين برزوا فيها كثيراً من كتبهم التى ألفوها فى العلوم الشرعية وفى
اللغة والأدب وفى العلوم العقلية وفى الطب والصيدلة والرياضة
والفلك فلا حاجة لذكرها ثانياً .

وهذا قل من كثير يوضح لنا الحركة التأليفية الضخمة التى قامت
بها القيروان خلال فترة البحث وهى تعبير أصدق تعبير عن النمو الثقافى
والازدهار الفكرى فى القيروان وتجلى لنا الحياة الفكرية فيها وتنوعها .
(ب) ثم يأتى دور المكتبات :

وعندما ننظر الى وجود الكتاب فى القيروان نجد أنه بدأ بداية
متواضعة ثم تطور الحركة الفكرية فى البداية كانت الكتب قلة تشتمل
على آثار الصحابة والتابعين وتسجيل الآثار التى تروى عنهم وعندما
بدأت الرحلة الى المشرق أخذ العلماء الراحلون الى المشرق يدونون
سماعهم عن العلماء الذين يتعلمون عليهم ثم يحضرون تلك المرويات
القيروان لتكون نواة أخرى تضاف الى النواة السابقة فى وجود الكتاب
فى القيروان كما أن هؤلاء الرواد الأوائل حاولوا لحصرهم على المعرفة

(٤٤١) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٥

(٤٤٢) المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٤٥

أن يحضروا معهم ما يستطيعون أن يحضروه الى القيروان من الكتب
المؤلفة فى الشرق .

وعندما بدأ الفكر يؤتى ثماره ونشطت حركة التأليف فى العلوم
المختلفة كانت المؤلفات القيروانية رافدا خصبا وعينا قرة أمدت المكتبة
بالمدد الذى لا ينفذ . ويتنوع العلوم تعددت الموضوعات فى المكتبة وقد
سبق أن ذكرنا عددا غير قليل من المؤلفات التى ألفت فى القيروان والتى
لا شك أن المكتبات فى القيروان قد ضمتها الى مخزوراتها .

وكان تأسيس بيت الحكمة خطوة عملية من الحكام نحو تنشيط الوعى
المكتبى ولم يكتف فيه بالمؤلفات التى ألفت فى القيروان . بل ان ابراهيم
بن الاغلب كان يمد البعثة التى يرسلها الى دار الخلافة فى بغداد
بالأموال ويكلفها بشراء نفائس الكتب التى توجد فى بغداد مما لا نظير له
فى القيروان وخاصة الكتب العلمية لا سيما مؤلفات الحكمة من فلك
وتنجيم لولوع الأمير بها خاصة كما كانت تشتري الكتب النادرة من
دمشق والفسطاط .

وكانت مكتبة بيت الحكمة تتفتح أبوابها للدارسين والمطالعين
ولمن يريد نسخ الكتب أو مقابلتها على الأصول المعتمدة وكان ابراهيم بن
الأغلب يكلف كبار العلماء بتصحيح مخطوطات المكتبة وتفسير مفرداتها
ولا زال فى المكتبة العتيقة التى كانت بجامعة عقبة نماذج من العصر
الأغلبى توضح ذلك (٤٤٣) .

ومما ساعد على كثرة الكتب رغم عدم ابتكار المطابع ما كان
يتسم به المرابطون على الثغور من نسخ للكتب بالمجان مما أدى الى
كثرة وجود المخطوطات وسهل على المتعلمين وجود الكتب بالاضافة الى

(٤٤٣) انظر الورقات حسن حسنى ص ١٩٦ ، ٣٢٥

تعلم القيروانيين لصناعة ورق الكافد الذى لا تزال نماذج قيمة منه موجودة فى المكتبة العتيقة التى كانت بجامع القيروان^(٤٤٤) .

وكانت الترجمة من اللغات المختلفة الى العربية من العوامل المهمة التى امدت المكتبة فى القيروان بمادة خصبة وزودتها بعلوم السابقين من تاريخ وجغرافيا وطب ونبات وغيرها من العلوم التى اشرنا اليها اثناء حديثنا عن الترجمة ونصل الى انه كان يوجد ببيت الحكمة كتب عربية وكتب غير عربية ترجمت الى العربية .

وقد ورث الفاطميون بيت الحكمة بكتبه المختلفة ونظامه الدقيق ولا شك انهم قد اضافوا اليه معارفهم والكتب المؤلفة على مذهبهم او مما اهدى اليهم وربما قل اهتمامهم بالكتب المؤلفة على غير مذهبهم . ولكن عند انتقالهم الى القاهرة نقلوا بيت الحكمة هو بالاحرى الكتب الثمينة التى كان يحتوى عليها الى القاهرة وقد نمت المكتبة المنقولة وتضاعفت حتى كانت ايام العزيز الفاطمى تحتوى على نحو مليون من كتب الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجابة والروحانية وسائر العلوم القديمة^(٤٤٥) .

وبجانب هذه المكتبة الحكومية العامة كانت هناك خزانات الكتب التى توضع فى المساجد وتوقف على طلبه العلم وقد اوقف عبد الله بن هاشم بن مسرور التجيبى ثلث مكتبته التى كانت تزن سبعة قناطير كتب على طلاب العلم وما زال بعض الأجزاء من ذلك الثلث الموقوف موجودا فى مكتبة جامع القيروان وعلى غالبها خط ابن أبى زيد وغيره^(٤٤٦) .

(٤٤٤) انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ٦١ ، حسن حسنى

الورقات ص ٢٠٧

(٤٤٥) انظر جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٦٩

(٤٤٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤١ ، حسن حسنى ورقات

ص ٣٤٠ ، المنجى الكعبى القزاز ص ١٨

كما يذكر الفاضل بن عاشور أن المكتبة العتيقة بجامع عقبة بن نافع بالقيروان قطعة فريدة من موطأ على بن زياد من رواية موسى الصمادحي^(٤٤٧) وأن بقاء قطعة من موطأ مالك منذ ذلك الحين لدليل على الاعتناء بالمكتبات رغم مرور الأيام وتوالى الأحداث . وإثناء رحلتي الى القيروان وجدت أن المكتبة العتيقة بالقيروان قد نقلت الى دار الكتب الوطنية في مدينة تونس . وعندما التقيت بالأستاذ حسين ماجول أمين قسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية بتونس أخبرني أن نقل المكتبة العتيقة من القيروان الى تونس . إنما هو نقل مؤقت الى حين بناء مكتبة ومتحف عقبة بن نافع بجوار المسجد الجامع بالقيروان فتنقل اليها المكتبة ثانيا .

والكتب الموجودة من المكتبة العتيقة تشمل أربعة أنواع :

النوع الأول :

قطع مفككة ولكنها مجنسة لخطوط كوفية وفيها أوراق لمصحف مكتوب بماء الذهب .

النوع الثاني :

أسفار علمية من أمهات كتب المذهب المالكي كالمدونة والمختلطة والواضحة والموازية والعتيبة وفيها قطع من جامع عبد الله بن وهب ومن الموطأ (رواية سحنون عن ابن القاسم) وقطعة من الموطأ رواية على بن زياد التونسي وهو أول من أدخل الموطأ الى إفريقيا وأجزاء عديدة من تفسير يحيى بن سلام ومن كتاب التصاريح فيما اتفق لفظه واختلف معناه من كلام الله عز وجل ليحيى الحفيد ومن بينها مختصرات لابن أبي زيد ومؤلفات له .

ويوجد بها سفران أحدهما من كتاب المبسوط والثاني أسئلة فقهية كلاهما رواية أسد بن الفرات عن محمد بن الحسن في الفقه الحنفي .

(٤٤٧) الفاضل بن عاشور أعلام الفأكر الاسلامى ص ٢٥

وأسفار قليلة في اللغة والجدل كلها بالخط الكوفي والنسخى وعلى هذه الأسفار سماعات وخطوط لكثير من علماء القيروان مع ملاحظة أنه لا يوجد من بين هذه الأسفار إلا أسفار التفسير والفقه والردود العقائدية وقليل من العربية .

النوع الثالث :

عقود بالشهادات العادلة في المعاملات بين الأفراد أو في بعض التحابيس أو من عقود الزواج ومعظمها على الرق بالخط النسخى المشرقى .

النوع الرابع :

أوراق منفصلة من أصول ضائعة أصابها شيء من التخريق أو الترهل وقد حفظت كل ورقة منها مع ما يقاربها .

وفي نهاية البحث أوردنا ملحقا ذكرت فيه قائمة بأسماء كتب المكتبة العتيقة بالقيروان حسب ترقيمها بأرقام سلسلة (٤٤٨) .

وقد ذكر لنا المؤرخون أخبارا متفرقة عن وجود المكتبات الخاصة لدى العلماء وهى توضح لنا العناية الفردية بالكتاب والمكتبات وتصور لنا الوعى المكتبى آنذاك حيث نجد أن كتب أبى العرب تميم بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة كتابا كلها بخط يده (٤٤٩) . وأن عبد الله بن هاشم التجيبى اقتنى كتب كثيرة من جميع العلوم وزنها سبعة قناطير كلها بخط يده (٤٥٠) .

وينح من شغفهم بجمع الكتب ما يذكر من أن أبا جعفر أحمد بن محمد القصرى كان يقول : لى أربعون سنة ما جف لى قلم من كثرة

(٤٤٨) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان

العتيقة .

(٤٤٩) الدباغ معالم ج ٣ ص ٤٣

(٤٥٠) المرجع السابق ص ٧١

نسخة للكتب وقد ذهب مرة الى سوسة لزيارة شيخه يحيى بن عمر فوجده ألف كتابا فلم يجد ما يشتري به رقبا يكتبه فيه فباع قميصه الذى كان عليه واشترى بثمنه رقوقا وكتب الكتاب وقابله واتى به الى القيروان (٤٥١) .

ويذكر عياض أن أبا الحسن الكانشى قال : أدخلنى عيسى بن مسكين الى بيت مملوء بالكتب ثم قال كلها رواية وما فيها كلمة غريبة الا وأنا أحفظ لها شاهدا من قول العرب (٤٥٢) . كما يذكر أن ابراهيم بن الزاهد الاندلسى من سكان القيروان كانت كتبه بعد وفاته موقوفة لا يتصرف فيها الا بالقراءة والانتفاع (٤٥٣) .

ونجد أن مكتبة أحمد بن الجزار كانت خمسة وعشرين قنطارا من كتب طبية وغيرها (٤٥٤) وكان العلماء يسترخصون الاموال فى سبيل جمع الكتب فقد بلغ ما بيعت به مكتبة أبى الفضل احمد بن على بعد وفاته ألف دينار ومائتى دينار (٤٥٥) .

وقد كان للمعز فى المنصورية مكتبة ذاخرة بالكتب يعرف مواضع ما فيها من الكتب وما تحويه من المعلومات . وقد قيل أن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتابا فلم يحضره على الفور فقام المعز ويحث عن هذا الكتاب ثم قرأه واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم الليل فى القراءة وهو واقف على قدميه وكان يقول : والله ما تلذذت بشئ تلذذى بالعلم والحكمة (٤٥٦) .

(٤٥١) الدباغ معالم ج ٣ ص ١١

(٤٥٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٢١٣

(٤٥٣) المرجع السابق ص ١٣١

(٤٥٤) ابن جلجل طبقات ص ٩٠

(٤٥٥) المالكى رياض ص ٣٨٨

(٤٥٦) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٢٢ نقلا عن

المجالس والمسائرات ج ١ ص ٩١

وقد أدرك التجار المشاركة هذه الرغبة القوية لعلماء القيروان في اقتناء الكتب فعملوا على جلبها من المشرق لبيعها في القيروان والاندلس فقد وفد على القيروان سنة ٣٢٩ هـ أبو على اسماعيل بن القاسم البغدادي في قافلة ذات أحمال كثيرة من المؤلفات النفيسة المشرقية ما بين لغوية وأدبية وتاريخية ودواوين من شعر الجاهليين والمخضرمين والمولدين فباع منها في مدة عام كل ما شاء أن يبيع لاهل القيروان ثم تحول بعد ذلك بما بقى الى الاندلس^(٤٥٧) سنة ٣٣٠ هـ .

ولا شك أن هذا الخبر بعد علمنا بإرسال البعثات الى المشرق لأجل شراء الكتب يبين لنا الشغف الذي كان موجودا في القيروان للحصول على نفائس المخطوطات وتكوين المكتبات والاطلاع على كل جديد في الفكر مما حمل أهل المشرق على اشباع ذلك الميل بالاتجار في الكتب وحملها الى القيروان لما يحوزونه من الأموال الطائلة . كما يوضح النضج الفكري في القيروان .



الفصل السابع

العلاقات الفكرية بين القيروان
وغيرها من مراكز الفكر

تمهيد :

أريد في هذا الفصل ان أوضح العلاقات بين القيروان وبين غيرها من مراكز الفكر ولا أريد ان اذكر كل العلماء الذين كانت لهم رحلات الى مراكز الفكر المختلفة أو العلماء والطلاب الذين قدموا الى القيروان فان ذلك يدعو الى تطويل ممل ولكنى اريد الاشارة الى العلاقات الفكرية التي قامت بين القيروان وبين غيرها مع ذكر بعض الذين شدوا الرحال وتغربوا عن أوطانهم في سبيل طلب العلم والمعرفة سواء من القيروان أو إليها . فكانوا الصلة القوية بين القيروان وغيرها .

وذلك بلا شك سوف يظهر لنا العلاقات القوية الفكرية التي جعلت القيروان على صلة وثيقة بغيرها من مراكز الفكر تأثيرا مما جعلها دائما في نمو فكري متجدد بحيث تأخذ وتعطى أو تؤثر وتتأثر وذلك مما أدى الى النمو المضطرد في انحرجة الفكرية في القيروان وجعلها منارة مشعة من منارات الفكر في انعالم الاسلامى : فلا يظهر غيرها أو في غيرها أى جديد الا وكان لها منه أو فيه نصيب .

واذا كان ذلك هو الطابع السائد في المدن الاسلامية في ظل الدولة الاسلامية الموحدة فان الذى يعنينا في بحثنا هو ذكر العلاقة الخاصة بين القيروان وغيرها من أمهات المدن الاسلامية .

١ - القيروان ومكة والمدينة :

لقد كانت صلة القيروان بمكة والمدينة وثيقة منذ تأسيسها ذلك لأنها المنبع الاصلى للإسلام وشريعته واللغة العربية . ولقد حظيت القيروان منذ تأسيسها بعدد غير قليل من الصحابة والتابعين الذين أتوا اليها ومكنوا فيها ينشرون ويعلمون الشريعة والآداب الاسلامية واللغة العربية الى ان أدركتهم الوفاة فيها وبعضهم عاد ثانيا الى المشرق وقد ذكرت في بداية الحياة الفكرية أسماء أولئك الاعلام من الصحابة والتابعين

الذين تشرفت بهم القيروان في بداية الحياة الفكرية فيها فكانوا الصلة
القوية التي تربط القيروان بمكة والمدينة .

ولا ننسى بعثة الفقهاء من التابعين الذين ارسلهم عمر بن عبد العزيز
الى القيروان لتعليم أبنائها كما لا ننسى أن نذكر انه كان من القادمين
الى القيروان ابو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس وحامل علمه
الذى اقام بالقيروان وبث فيها العلم وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان
في غربى الصومعة^(١) .

ودجين بن عامر الحجري الذى روى عنه من اهل القيروان بكر
ابن سودة الجذامى وعبد الرحمن بن زيادة بن أنعم^(٢) .

وقد نتج عن قدوم بعض الصحابة والتابعين الى القيروان وبث
العلم فيها أن انفردت القيروان ببعض الأحاديث ولذلك وجدنا عبد الرحمن
ابن زياد بن أنعم يسمع الطلبة منه فى مكة^(٣) بل تفيدنا الآثار أن الجلة
من أهل المشرق ومنهم سفيان الثوري وعبد الله بن لهيعة وعبد الله
ابن وهب وأبو عبد الرحمن المقرئ وغيرهم قد رووا عنه^(٤) أحاديث
لم ترو عن غيره .

كما نجد ان أبا زكريا يحيى بن سلام قد روى عنه مالك بن أنس
والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة^(٥) . ومن أبناء القيروان وعلمائها
الذين رحلوا الى مكة والمدينة للتزود من العلم وقد سبق ان ترجم البحث
لهم أثناء الحديث عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها عبد الرحمن بن
زيادة بن أنعم وعبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد وعبد الله بن

(١) المالكي رياض ص ٩٢

(٢) نفس المرجع ص ٩٥

(٣) نفس المرجع ص ٩٦

(٤) أبو العرب طبقات ص ٩٩

(٥) المالكي رياض ص ١٢٢

غانم واسد بن الفرات وموسى بن معاوية الصمادحى وسحنون بن سعيد
ومحمد بن سحنون ومعظمهم قد لقي مالك بن أنس امام دار الهجرة .

وقد تتابعت هذه الرحلات للتزود من العلم على مدى العصر الذى
ندرسه لتعميق هذه الصلات والعلاقات الفكرية بين القيروان وبين مكة
والمدينة . فمن الذين لم يترجم لهم ورحلوا الى مكة والمدينة من اجل
المعرفة - ويمكن التعرف عليهم بالرجوع الى المصادر المذكورة قرين كل
منهم - : صقلاب بن زيادة الهمدانى الذى سمع من مالك بن أنس
ومن غيره^(٦) وابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقى وحاتم بن عثمان
المعافرى^(٧) وعبد الله بن أبى غسان ويزيد بن محمد الجمحى^(٨) وعمر
ابن الحكم اللخمي وكلهم قد سمع من مالك بن أنس وزكريا بن محمد
ابن الحكم اللخمي الذى سمع من مالك بن أنس^(٩) وحيوة
ابن شريح^(١٠) .

ويعد وفاة مالك بن أنس رحل أبناء القيروان الى مكة والمدينة للاخذ
عن علمائها ومنهم أبو يحيى حماد بن يحيى الذى سمع من عبد الملك
ابن الماجشون وكان أول من قدم بفقهاء الى القيروان^(١١) وسالم بن
سالم القطان الذى دخل المدينة فحدث عن محمد بن مالك^(١٢) وعبد الله
ابن سهل القبريانى الذى لقي عبد الملك بن الماجشون بالمدينة^(١٣) وعون
ابن يوسف الخزاعى الذى قدم المدينة بعد موت مالك بسنة فأدرك بها
أربعين رجلا من معلمى بن وهب منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

(٦) أبو العرب طبقات ص ١٣٩

(٧) نفس المرجع ص ١٥٠

(٨) المالكي رياض ص ١٦٢

(٩) نفس المرجع ص ١٦٨

(١٠) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٩١

(١١) أبو العرب طبقات ص ٢٠٣

(١٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ١٩

(١٣) الدباغ معالم ج ٢ ص ٧٢

وسمع من المفضل بن فضالة وابن وهب^(١٤) وأحمد بن معتب سمع من العثماني بالمدينة وحسين بن حسن المروزي^(١٥) ويحيى بن عمر ابن يوسف سمع بالحجاز من أبي مصعب الزهري ونصر بن مرزوق^(١٦) وربيع بن عطاء الله القطان سمع بمكة من ابن شاذان الجلاب وأبي محمد بن يزيد المقرئ وغيرهم^(١٧) والعباس بن عيسى الممسي الذي سمع بمكة من أبي الحسين بن المنتاب^(١٨) .

وكانت القيروان تتصل بالمدينة عن طريق آخر غير الرحلات وذلك بإرسال الرسائل للاستفتاء فيما يحدث من القضايا مما لا تكون وجهة النظر فيه ظاهرة . مما يدل على قوة العلاقة والصلات بين المفكرين والمشرعين في الأمصار الإسلامية وكان سببا في سرعة النضج والنمو الفكري يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب من أن عبد الله بن فروخ كان يكتب مالكا وكان مالك يعرفه ويكتبه بجواب مسائله^(١٩) وكان عبد الله ابن غانم قاضي القيروان اذا أشكلت عليه تخبئة ارجأ أمر الخصمين حتى يعود عليه جواب مالك بن انس^(٢٠) .

أما سحنون فقد كتب الى عبد الملك بن الماجشون : يذكر ما حدث عندهم من الكلام في التشبيه والقرآن ويسأله الجواب عليه وكتب اليه عبد الملك مرة : من عبد الله بن الماجشون الى سحنون بن سعيد سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد وفقنا الله وإياكم لطاعته سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل

(١٤) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٢٧

(١٥) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٣٠

(١٦) نفس المرجع ص ٢٣٥

(١٧) نفس المرجع ص ٣٢٤

(١٨) ابن فرحون الديباج ص ٢١٧

(١٩) أبو العرب طبقات ص ١٠٥

(٢٠) الرقيق تاريخ إفريقية ص ١٧٨

فيكيفيك من مضى من صدر هذه الامة انهم اتبعوا باحسان ولم يخوضوا في شيء منها وقد خلص الدين الى العذراء فى خدرها فما قيل لها كيف ولا من أين ؟ فاتبع لما اتبعوا واعلم انه العلم الاعظم الذى لا يشاء الرجل ان يتكلم فى شيء من هذا فيكب فيهوى فى نار جهنم (٢١) .

وبذلك كانت الصلة العلمية قائمة بين القيروان وبين المدينة بكل الطرق الممكنة آنذاك . ويجانب هذا الاتصال عن طريق الرحلة الى مكة والمدينة وارسال الرسائل اليها للاستفتاء والاستفهام كان هناك طريق آخر للاتصال . وذلك عن طريق وفود بعض العلماء من مكة والمدينة الى القيروان للزيارة كاساتذة زائرين - او للقامة فيها . منهم عبد العزيز بن يحيى المدنى الهاشمى الذى قدم القيروان سنة ٢٢٥هـ وخرج منها سنة ٢٢٦ هـ وكان من الحفاظ سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير (٢٢) وعلى بن يونس الليثى الذى سمع من مالك ومن ابن عيينة ومن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم يقدم الى القيروان ويحدث عنه سعيد بن اسحاق (٢٣) وعبد الله بن يزيد المقرئ الذى روى عنه ابن وهب وقدم القيروان سنة ١٥٦ هـ وكان وكيلا لرجل من التجار وقد اقرا القرآن بالبصرة ستا وثلاثين سنة وبمكة خمسا وثلاثين سنة (٢٤) ولا شك ان المهتمين بالقرآن وقراءته قد سارعوا اليه يتلفون عنه ويسمعون منه . وذكرى بن يحيى الوقار الذى قدم سنة ٢٢٥ هـ الى القيروان وسمع منه ابو عياش بن موسى وغيره من اهل القيروان وكان يحدث عن ابن وهب (٢٥) ومنهم ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد المؤمن من مكة ودخل العراق فاخذ عن عبد الله بن مجاهد البصرى وغيره وسكن آخر القيروان وصحب ابا محمد بن ابي زيد وغيره من ائمة القيروان وناظرهم وداكروه واثنوا عليه واخذوا عنه (٢٦) .

(٢١) عياض المدارك ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢٢) أبو العرب طبقات ص ١٥٨ .

(٢٣) نفس المرجع ص ١٥٩ .

(٢٤) نفس المرجع ص ١٦٣ .

(٢٥) نفس المرجع ص ١٨٢ .

(٢٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٤٦٥ .

وبجانب هؤلاء العلماء فى الشريعة فقد كانت العلاقات الادبية قائمة وقد ذكرنا ان الشعراء الذين وفدوا الى القيروان انحكم بن ثابت السعدى، وربيعه بن ثابت الرقى ، والمسهر التميمى .

كما يذكر الدباغ ان ابا عقال غنبون بن الحسن الاغلبى هجر القيروان واقام بمكة وهو من الشعراء الفصحاء الادباء الذين قالوا شعرا كثيرا فى الزهد والتصوف بعد ان تاب واناب^(٣٧) .

وبذلك يتبين لنال الاتصال العميق الجذور المتواصل الاسباب بين مكة والمدينة والقيروان على طول الفترة التى يهتم البحث بدراستها والذى ادى الى نضج الحياة الفكرية فى القيروان وازدهارها .

٢ - القيروان والعراق (الكوفة والبصرة وبغداد) :

كما اتصلت القيروان بمكة والمدينة فاننا نجد بعض الرواد الاوائل الذين غادروا القيروان متجهين الى المنبع الاصلى للاسلام فى مكة والمدينة لتحصيل العلم قد امتد طموحهم للقاء علماء البصرة والكوفة وبغداد وكانوا بذلك مثلا اعلى يقتدى بهم من جاء بعدهم . وممن ترجم لهم البحث من هؤلاء الرواد الذين اغترفوا من علم المدينة ومكة ثم واصلوا السير على طريق المعرفة الى المشرق - الكوفة والبصرة وبغداد وغيرها - للالتقاء بعلمائها ولد وربط علاقات القيروان بها : عبد الله ابن فروخ ، وعبد الله ابن غانم ، واسد بن الفرات ، كما سمع سحنون وهو بمكة من علماء كانوا بها من البصرة والكوفة وواسط. ونجد بكر بن حماد قد سمع من علماء البصرة والكوفة وبغداد والتقى بحبيب الطائى وصريح الغوانى ودعبل وعلى بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق وتمكين من مدح الخليفة المعتصم . ومحمد بن جعفر التميمى الذى رحل الى العراق واخذ عن الامدى صاحب الموازنة والتقى بغيره من كبار النحويين واللغويين وتلقى

(٣٧) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٤٢ .

عنهم العلوم والآداب - واسماعيل بن يوسف الذى تعلم الكيمياء والطلاء
فى بغداد^(٣٨) .

وهناك كثير غير هؤلاء ممن قام بعبء هذه العلاقات ممن رحل
الى العراق ولم يترجم لهم ومنهم محمد بن يسوتا الذى سمع من سفيان
الثورى^(٣٩) ويزيد بن محمد الجمحى الذى سمع من أبى بكر بن عياش
وجماعة كوفيين وبصريين^(٤٠) . وموسى بن معاوية الصمادحى الذى أكثر
الآخذ عن الرجال الكوفيين والبصريين بل واصل الرحلة الى خراسان والرى
للأخذ عن علمائها^(٤١) .

وقد اتصلت القيروان بالعراق عن طريق الرسائل والاستفتاءات
والمشاورة فى بعض الاقضية مما يقوى الصلة بها فكان عبد الله بن غانم
يكتب الى أبى يوسف القاضى فقد قال هشام بن معدان . كاتب أبى يوسف :
كنت الى جانب أبى يوسف فى مجلس قضائه اذ ورد عليه رجل معتم فى رى
اهل افرقية فصاح كتاب أبى عبدالرحمن بن غانم قاضى افرقية فدعا به فلما
صار بين يديه رفع الكتاب اليه فسأله من أنت قال : أنا ابو التمام عبدالوهاب
ابن محمد خرجت حاجا فكتب معى ابن غانم هذا الكتاب اليك وأمرنى
بإيصاله بنفسى وآخذ الجواب . فقال هشام فدفعه الى وقال : فضه واقراه
وارفع صوتك ياهشام وأعلن بقرأته ففعلت وقرأته عليه وأصاخ نحوه
فاذا فيه مسائل مما نزل به يشاوره فيها ويستقضىه فى جوابها فلما فرغت
من قراءته أمر بدرجة ثم التفت الى أبى التمام وقال احضر سفرك قال
نعم . قال : « قد ترى ما نحن فيه ولعله لا يتهى لك الوصول اليها فخذ
جوابك فى مقامك . ياهشام اكتب له فى ظهره : من يعقوب بن ابراهيم

(٢٨) انظر من ترجم لهم فى بداية الحياة الفكرية وازدهارها فى
هذا البحث .

(٢٩) أبو العرب طبقات ص ١٥٤ .

(٣٠) نفس المرجع ص ١٦٨ .

(٣١) نفس المرجع ص ١٩٠ ، المالکى رياض ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

الى عبد الله بن غانم قاض افريقية ثم دعا له وشكره على تثبته فيما ينزل به واعلمه ان ذلك كان - فعل - صدر السلف الماضيين . ثم تابع املاء المسائل على نحوها فى كتابه كل مسألة وجوابها وما اعاد نظرا فى الكتاب وأمرنى فختمته وعنوانته والقاء الى أبى التمام وقال له : هذا جواب صاحبك فان امكنك الوصول الينا جددت معك كتابا^(٣٣) .

ونلاحظ هنا الدقة فى امره للرسول بايصاله بنفسه وأخذ الجواب ثم ختم الجواب بخاتم القاضى ثم بيان ان ذلك امر قام منذ ايام السلف الصالح رضى الله عنهم وهو دليل على تثبت علماء القيروان وحرصهم على الدقة فى الاحكام والسؤال عنها عند خفاء وجه الصواب فيها .

وقد استمر هذا الاتصال بين القيروان والعراق وشمل غير ذلك من الامور التى تجد فى القيروان فقد حدث ان أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى أنكر الكرامات وذلك عندما أكثر المريدون فى عصره من ادعائهم رؤية الله سبحانه فى اليقظة فالف كتابا يقتضى انكار الكرامات وانكار الرؤية فانكر علماء القيروان عليه ذلك وأرسلوا الجواب من القيروان الى القاضى أبى بكر بن الطيب ببغداد حيث أجاب بجواز ذلك والف كتابا فى ذكر جواز الكرامات^(٣٣) .

ومن عوامل الاتصال بالعراق ما سبق ان ذكرناه اثناء حديثنا عن المكتبات من ارسال البعثات بالاموال لشراء نفائس الكتب التى توجد فى بغداد مما لا نظير له فى القيروان ثم قدوم بعض التجار بالكتب من بغداد لبيعها فى القيروان . ووصول بعض الكتب المؤلفة فى القيروان الى بغداد كما حدث لكتاب الامامة لمحمد بن سحنون .

وكما رحل من القيروان طلاب وعلماء الى العراق للتعلم على أساتذتها وعلمائها والتلقى عنهم فقد قدم بعض العلماء الى القيروان

(٣٢) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٣٣) الدباغ معالم الايمان ج ٣ ص ١٨٣

من العراق وقد سبق ان ذكرنا اثناء حديثنا عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها بعض هؤلاء العلماء الذين نشروا اللغة والأدب والنحو والكتابة وكانوا حلقة اتصال قوية بين العراق والقيروان وقد ترجم منهم للحسن بن سعيد البصرى الذى كتب ليزيد بن حاتم وعياض بن عوانة بن الحكم الكلبي ويونس بن حبيب الضبي وقتيبة الجعفى الكوفى وأبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى البغدادى وأشرنا الى أن يوحنا المتطبيب قدم القيروان أيام يزيد بن حاتم . واسحاق بن عمران الطبيب البغدادى الذى قدم الى القيروان ومكث فيها وعمل فى بيت الحكمة^(٣٤) وقد قدم من العراق الى القيروان واستقر فيها علماء آخرون لم يترجم لهم وكانوا أيضا ممن قوى العلاقات بينهما ومنهم الحارث بن نبهان البصرى^(٣٥) وعبد الله بن المغيرة الكوفى الذى سمع من سفيان الثورى ومن كبار الكوفيين مسعر بن كدام وعمر بن ذر وقطر بن خليفة وقد روى عنه من أهل القيروان سليمان بن عمران^(٣٦) ومنهم أحمد بن عبد الله بن عبد المؤمن من الحجاز وسكن مكة وروى عن الجلة فيها ثم دخل العراق وأخذ عن الشيوخ بها ثم سكن أخيرا القيروان وأخذ عنه العلماء والطلاب^(٣٧) .

وقد سبق أن ذكرنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن المكي الذى دخل العراق فأخذ عن أبى عبد الله بن مجاهد البصرى وغيره ثم سكن القيروان فكان صلة بين مكة والعراق والقيروان .

ولا شك أن هذه الرحلات والرسائل والكتب من القيروان الى العراق ومن العراق الى القيروان كانت عاملا قويا فى نمو وازدهار الصلات الفكرية بينهما .

(٣٤) انظر بداية الحياة الفكرية وازدهارها ص ١٦٢ - ١٦٣

(٣٥) أبو العرب طبقات ص ١٠٥

(٣٦) نفس المرجع ص ١١٦

(٣٧) ابن فرحون الديباج ص ٣٧ ، ٣٨

٣ - القيروان والشام :

مع ان القيروان أسست فى عهد الخلافة الأموية فى دمشق الا أننا نلاحظ قلة الاتصال الفكرى بين القيروان ودمشق اما لأن الحياة الفكرية ابتدأت بالعلوم الشرعية التى حملها الصحابة والتابعون وهم روادها وحاملو لوائها ومنبع ذلك ومصدره الاصلى هو مكة والمدينة أو لأنهم اغفلوا ذلك .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ بَعَثَةَ الْفُقَهَاءِ الَّتِي الْقَيْرَوَانُ كَمَا ذَكَرْنَا الْمُؤَرِّخُونَ بَعْضُ مِنْ قَصْدِ الشَّامِ وَتَلَقَّى عَلَى عِلْمَائِهِ وَسَمِعَ مِنْهُمْ وَخَاصَّةً عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَانِمٍ الَّذِي دَخَلَ الشَّامَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ^(٣٨) وَسُحْنُونَ بْنُ سَعِيدٍ الَّذِي سَمِعَ بِالشَّامِ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَأَيُّوبَ بْنَ سُوَيْدٍ^(٣٩) وَمِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ رِبْعَةَ الْإِفْرِيقِيِّ الَّذِي رَحَلَ إِلَى الشَّامِ وَصَادَقَ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبَ وَقَدْ تَوَلَّى الْكِتَابَةَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْقَيْرَوَانِ . وَقَدْ تَرَجَّمَ لَهُؤُلَاءِ فِي بَدَايَةِ الْحَيَاةِ الْفَكْرِيَةِ وَازْدَهَارِهَا .

وَمِمَّنْ تَلَقَّى عَلَى عِلْمَاءِ الشَّامِ عِدَا هَؤُلَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ يَسُوتَا الَّذِي سَمِعَ مِنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشِ الْعَنْسِيِّ الرَّائِي عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ وَأَعْلَمَ النَّاسَ بِحَدِيثِ أَهْلِ الشَّامِ^(٤٠) وَيَزِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجُمَحِيِّ الَّذِي سَمِعَ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ أَهْلِ الشَّامِ^(٤١) كَمَا يَذْكُرُ الْمَالِكِيُّ أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْحَكَمِ اللَّخْمِيَّ الَّذِي سَمِعَ مِنْ مَالِكٍ قَدْ رَوَى عَنْهُ الْأَوْزَاعِيُّ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مِنْ خَرَجَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مُسَافِرًا دَعَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا يَصْحَبُ فِي سَفَرِهِ »

(٣٨) المالكى رياض ص ١٤٣ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٦

(٣٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٤٩

(٤٠) أبو العرب طبقات ص ١٥٤

(٤١) المرجع السابق ص ١٦٨ ، المالكى رياض ص ٦٢

ولا تقضى حاجته «^(٤٢) ومنهم عيسى بن مسكين بن منصور الذى رحل الى الشام وسمع بها من ابي جعفر الايلي^(٤٣) .

وبهذا يتبين لنا ان القيروان قد اتصلت بالشام فكريا ايضا وان كانت هذه الصلات تتسم بالقللة والندرة الا ان علماء القيروان وطلابها لم يغفلوا عن عقد الصلات من علماء الشام بل اتصلوا بالفكر الشرعى واللغوى والأدبى فيها .

٤ - القيروان ومصر :

لا شك ان كل من رحل من القيروان الى المشرق سواء الى الحجاز أو الى العراق أو رحل من المشرق الى القيروان كلاهما قد مر بمصر ونزل بها وقد يكون العديد ممن فصد المشرق قد تلقى على علماء مصر . وجلس منصتا فى حلقات الدروس التى كانت تلقى فى مساجدها المختلفة .

ولكن المؤرخين قد ذكروا بعض هؤلاء ممن تلقى العلم فيها وتعلمذ على اعلامها وخاصة من اعلام القيروان الأوائل ومن حاملى راية الفكر فيها وقد ترجم لبعضهم فى بداية الحياة الفكرية وازدهارها ومنهم اسد بن الفرات الذى ألف اسديته فى مصر على ابن القاسم وسحنون الذى ألف مدونته فى مصر أيضا أخذا من ابن القاسم . اما عبد الله بن فروخ فبعد ان استوطن القيروان وأبى ان يتولى القضاء فيها خرج الى مصر بعد وفاة الليث بن سعد فقال عنه .عبد. الله بن وهب المصرى مصورا منزلة عالم من القيروان فى مصر لقد رجونا ان يكون عبد الله ابن فروخ خلفا لنا من الليث بن سعد فما لبث الا يسيرا حتى مات فدفناه فى مقبرتنا هذه وجعلت على نفسى الا أحضر جنازة الا وقفت على قبره ودعوت له وترحمت عليه^(٤٤) .

(٤٢) المالكي رياض ص ١٦٨

(٤٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٢١٢

(٤٤) الرقيق تاريخ ص ١٨٢

أما محمد بن سحنون الذي نزل في مصر على أبي رجاء بن أشهب فكان علماء مصر يأتون إليه ويسلمون عليه وممن أتاه المزني صاحب الشافعي وقد ناظر في مصر يهوديا إلى أن أسلم^(٤٥) .

وممن رحل إلى مصر ممن لم يترجم له عدا هؤلاء عيسى بن مسكين الذي سمع بمصر من الحارث بن مسكين ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم^(٤٦) وكذلك عبد الله بن أحمد بن طلب الذي لقي من المصريين محمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى^(٤٧) ومنهم لقمان بن يوسف الغساني الذي حج فسمع بمصر كثيرا^(٤٨) وربيع بن عطاء الله القطان الذي سمع بمصر من أبي عبد الله الحمري وأبي محمد بن رشيد^(٤٩) وعون بن يوسف الخزاعي الذي تلقى العلم في مصر على بن وهب والمفضل بن فضالة^(٥٠) وحمد بن القطان أحمد بن محمد الأشعري من ولد أبو موسى الأشعري وقد رحل إلى مصر فتلقى بها عن أصحاب ابن القاسم وأشهب وابن وهب^(٥١) . وأبو الفضل الممسي سمع بمصر من أحمد بن جعفر بن أحمد الحضرمي وأبي عبد الله الجيزي وأبي بكر بن مروان المالكي^(٥٢) ومنهم محمد بن نظيف خرج من القيروان إلى مصر عند ظهور حسب السلف أيام الفاطميين فسمع بها من محمد بن أحمد بن خروف وأبي إسحاق بن شعبان^(٥٣) وعبد الله بن مسرور التجيبي رحل

(٤٥) المالكي رياض ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

(٤٦) عياض المدارك ج ٢ ص ٢١٢

(٤٧) المالكي رياض ص ٣٧٥

(٤٨) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٤

(٤٩) نفس المرجع ص ٣٢

(٥٠) الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٣

(٥١) نفس المرجع ص ١٣٣

(٥٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١٤

(٥٣) نفس المرجع ص ٢٨٤ ، ٤٨٥

الى مصر فسمع من علمائها وسمع منه اهلها واهل الاسكندرية^(٥٤) .
وزيادة بن يونس اليحصبى سمع بمصر من محمد بن الربيع الجريري
وأحمد بن مروان وابن رمضان^(٥٥) وعلى بن محمد بن خلف المعافري
رحل الى مصر فسمع بها من جماعة وسمع فى الاسكندرية من على بن
جعفر التابيانى^(٥٦) .

وبجانب ذلك كانت هناك علفة بين القىروان ومصر بالمراسلة فقد
كتب على بن أحمد بن اسماعيل البغدادي الذى سكن مصر الى فقهاء
القيروان رسالة يدعوهم فيها الى الاعتزال والقول بالقدر والمخلوق
وغير ذلك من مذاهبهم . وكان على يقول بالاعتزال ويدعو اليه فجابه
فقهاء القىروان وردوا عليه ومنهم أبو محمد بن أبى زيد الذى رد عليه
برسالة ظهر فيها علمه وقوته فى الكلام والرد على اهل الأهواء^(٥٧) .
كما رحل بعض العلماء من مصر الى القىروان وقد سبق ان ترجم
لاسحاق بن سليمان الاسرائيلى المصرى الذى تزعم الطب فى القىروان
بعد اسحاق بن عمران .

ومنهم زيد بن بشر بن عبد الرحمن الازدى المصرى الذى كان
طلبته فى القىروان يهتمون به ويحيطون به حتى وهو ذاهب الى
المسجد^(٥٨) . ومحمد بن أحمد الحصنى الشاعر الذى خرج من مصر
سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ووصل الى القىروان فامتنح بها من الشيعة
وأقام محبوسا بالمهدية معتقلا فى دار البحر ثلاثة أعوام وسبعة أشهر^(٥٩)
ثم خرج بعد ذلك الى الأندلس .

(٥٤) نفس المرجع ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، الدباغ معالم ج ٣
ص ٧٠ ، ٧١

(٥٥) الدباغ معالم ج ٣ ص ٩٨

(٥٦) نفس المرجع ص ١٦٩ ، ١٧٠

(٥٧) عياض المدارك ج ٣ ص ٤٨٦

(٥٨) المالکى رياض ص ٣٠١

(٥٩) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى قسم ٢ ص ١١٦

كما اننا نجد بعض الباحثين يرجح أن يكون محمد بن جعفر التميمي القزاز القيرواني قد درس في مصر أثناء وجوده بها عندما قدم إليها صحبة المعز لدين الله وأن طلاب مصر قد أقبلوا عليه بشغف للاستفادة من علمه وربما يكون الطلبة في مصر قد عقدوا المجالس العلمية بينه وبين شيخهم ابن النحاس النحو المصري المشهور^(٦٠) .

وكل ذلك يوضح لنا العلاقة الفكرية الوثيقة التي قامت بين القيروان ومصر لاسيما وهي تعتبر أقرب المراكز الفكرية إليها والتي تتصل بها عن طريق البر والبحر .

٥ - القيروان والمغرب الأوسط والاقصى :

كانت القيروان هي المركز الرئيسي بالنسبة للمغرب الأوسط والاقصى وهي المنارة العلمية الأولى التي امتد شعاعها الى هذه البقاع ولذلك لم يكن غريبا أن نجد أبناء المغرب الأوسط والاقصى يقصدون القيروان للترؤد من العلوم والمعارف والتلقى عن علماء القيروان والمشاركة في الحياة الفكرية وربما طغى الطموح والشوق ببعضهم لكي يتجه الى المشرق بعد ذلك . فرحل قاصدا مراكز الفكر في المشرق وبعد العودة يستقر في القيروان وكأنه يرى نفس أهلا بعد أن حصل على قدر كبير من المعارف للاقامة في القيروان والاستقرار فيها لكي يتلقى العلم عليه طلبة الفيروان او ان يفضل الاقامة فيها كمركز فكري أوسع وأعمق يتناسب مع ثقافته ومع ما يطمح اليه من نشر لما حصل عليه من المعرفة .

ومن أبناء تاهرت الذين تلقوا العلم في القيروان ثم رحلوا الى المشرق وعادوا الى القيروان بعد رحلتهم الى المشرق بكر بن حماد وقد ترجمنا له^(٦١) وممن قصد القيروان من أهل مدينة فاس دراس بن اسماعيل الذي تلقى العلم بالقيروان من أبي بكر بن اللباد^(٦٢) ومن أهل سجلماسة

(٦٠) المنجي الكعبي القزاز القيرواني ص ٣٠ ، ٣١

(٦١) انظر فصل الازدهار في هذا البحث .

(٦٢) عياض المدارك ج ٤ ص ٣٩٥

عيسى بن سعادة السجلماسى الذى طلب العلم بالقيروان وكان صاحب
ابى الحسن النعابسى عند الشيخ^(٦٣) ومن اهل السوس الاقصى محمد بن
أحمد السوسى الذى سكن القيروان واستوطنها وصحبه البهلول بن راشد
وانتفع به هو وغيره من اهل القيروان^(٦٤) .

وقد كان كثير من اهل سبتة وسجلماسة يحضرون فى القيروان
على محمد بن أبى زيد فمن اهل سبتة أبو عبد الرحمن بن العجوز
وأبو محمد بن غالب وخلف بن ناصر ومن اهل سجلماسة أبو على بن
امدكنو السجلماسى^(٦٥) .

وممن دخل سبتة من اهل القيروان محمد بن حارث الخشنى الذى
تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر وأحمد بن يوسف وابن اللباد والمسى
وغيرهم وقد دخل سبتة قبل العشرين وثلاثمائة فحبسه أهلها عندهم
وتفقه عليه قوم منهم وقد حقق قبلة جامعهم اذ ذاك فوجد فيها تغريبا^(٦٦)
فامتثلوا رأيه وشرقوها^(٦٧) .

ومن هنا نرى الصلة التى كانت تربط مدن المغرب الأوسط والأقصى
بالقيروان .

٦ - القيروان والأندلس :

كانت القيروان هى المدينة الاسلامية التى اقامها المسلمون لتكون
حصنا صامدا ومنارة مشعة وموطنا أصليا للحياة الفكرية فى الشمال الافريقى
وعندما عبر المسلمون الى الأندلس من القاعدة القيروان كان لزاما للفكر
أن يعبر معهم وبدأ الفكر يشع من القيروان فى الأندلس الى أن نمت

(٦٣) نفس المرجع ص ٥٣٩

(٦٤) المسالكى رياض ص ١٢٨

(٦٥) ابن فرحون الديباج ص ١٣٦ ، ١٣٧

(٦٦) تغريبا : انحرافا الى المغرب .

(٦٧) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٠٠ ، ابن فرحون الديباج ص ٢٥٩

بذور الفكر وصارت أشجارا باسفة تنتقل البلابل الصادحة على أغصانها
وأفنانها من فرع الى فرع ومن شجرة الى أخرى او من مدينة الى أخرى
وكانت البلابل الصادحة بالفكر خلال ذلك تحن الى الموطن الأصلي .
فكانت الرحلات المتتابة لأبناء الأندلس من شتى أرجائه وبقاعه الى
القيروان للتزود من علمائها فى العلم والمعروفة فى شتى العلوم والفنون
وعلى مدى الفترة التى خصص البحث لها .

وليس من هدفنا أن نتحدث عن كل من شد الرحال من الأندلس
الى القيروان فى سبيل نمو الحياة الفكرية وللتزود من العلم أو من
وقد من القيروان الى الأندلس لنشر العلم والفكر فيها ويكفى أن نذكر
أن ابن القزى فى تاريخ علماء الأندلس قد ترجم فى هذه الفترة
لأكثر من مائة عالم قد رحلوا من مدن الأندلس الى القيروان للتلقي على
علمائها وخاصة عن سحنون وتلاميذه ممن كانوا يتمسكون بالمذهب
المالكي . وقد قدموا الى القيروان من كافة مدن الأندلس ونذكر على
سبيل المثال ممن قدم من قرطبة ابراهيم بن يزيد بن قلزم الذى سمع
من سحنون بن سعيد^(٦٨) وابراهيم بن قاسم القيسى^(٦٩) . وأنه كان فى
مدينة البيرة فى وقت واحد سبعة من رواة سحنون منهم ابراهيم ابن خلاد
للخمي وابراهيم بن خالد^(٧٠) ومن أهل طليطلة حزم بن غالب
الرعىنى^(٧١) وزكريا بن قطام^(٧٢) ومن اشبيلية عباس بن محمد بن
عبد العظيم^(٧٣) ومن شذونة اصبح بن منبه الذى سمع من محمد بن
سحنون^(٧٤) ومحمد بن وضاح الصدفى^(٧٥) ومن مرسية الصباح بن
عبد الرحمن العتقى^(٧٦) ومن أهل جيان طوق بن عمرو التغلبى^(٧٧)

(٦٨) ابن القزى تاريخ علماء الأندلس ص ٩

(٦٩) نفس المرجع ص ١١ (٧٠) نفس المرجع ص ٩ ، ١٠

(٧١) نفس المرجع ص ١١٧ (٧٢) نفس المرجع ص ١٥٠

(٧٣) نفس المرجع ص ٢٩٧ (٧٤) نفس المرجع ص ٢٩

(٧٥) نفس المرجع قسم ٢ ص ٣٠

(٧٦) نفس المرجع قسم ١ ص ٢٠٢

وهاشم بن محمد اللخمي سمع من سحنون^(٧٨) ومن أهل تدمير عميرة بن عبد الرحمن العتقى وقد سمع من سحنون^(٧٩) وعلاء بن محمد الذي سمع من أبي بكر بن اللباد^(٨٠) ومن أهل بجانة فضل بن سلمة الجهني وسمع من يوسف بن يحيى المخامي^(٨١) ومن أهل استجة عبد الله بن حمدون الأسلمي سمع من سحنون^(٨٢) ومن أهل تطيلة محمد بن محمد وسمع من سحنون^(٨٣) ومن أهل وشقة فرح بن أبي الحزم وسمع من سحنون^(٨٤) وكثيرون غير هؤلاء قدموا من شتى مدن الأندلس لتلقى العلم في القيروان ولا نرى حاجة إلى ذكر أسمائهم .

ويورد لنا الخشني في كتابه قضاة قرطبة أن من قضاة قرطبة الذين تلقوا العلم في القيروان والتقوا بعلمائها عامر بن معاوية اللخمي الذي رحل إلى القيروان فسمع من سحنون^(٨٥) وأسلم بن عبد العزيز الذي التقى بسليمان بن عمران في القيروان^(٨٦) ومحمد بن عبد الله بن عيسى الذي لقي من شيوخ القيروان محمد بن اللباد ومحمد بن علي البجلي وغيرهما^(٨٧) .

ويترجم صاحب جذوة المقتبس لخمسة وعشرين عالما رحلوا إلى القيروان وسمعوا من سحنون أو من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وخاصة

(٧٧) نفس المرجع قسم ١ ص ٢٠٨

(٧٨) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٧١

(٧٩) نفس المرجع قسم ٢ ص ٣٢٨

(٨٠) نفس المرجع ص ٣٢٩

(٨١) نفس المرجع ص ٣٥٢

(٨٢) نفس المرجع ص ٢١٦

(٨٣) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٥

(٨٤) نفس المرجع قسم ١ ص ٣٤٩

(٨٥) الخشني قضاة قرطبة ص ٩

(٨٦) نفس المرجع ص ١٠٦

(٨٧) نفس المرجع ص ١١٩

محمد بن أبى زيد ومنهم محمد بن موهب القبرى تفقه بالقيروان على محمد بن أبى زيد وأبى الحسن القابسى^(٨٨) ومحمد بن يحيى بن عمر يروى عن حماس بن مروان قاضى القيروان^(٨٩) وعبد الله بن أبى الوليد سمع من محمد بن سحنون^(٩٠) وعمر بن يوسف الذى رحل الى القيروان فسمع من جماعة من أصحاب سحنون^(٩١) .

ونرى فى كتاب المدارك كثيرا من الطلاب والعلماء الذين قدموا من الأندلس الى القيروان وتلقوا العلم على علمائها ومنهم عبد الله بن محمد بن خالد بن مرتيل القرطبى الذى سمع من سحنون فى القيروان وكان رأس المالكية بالأندلس والقائم بالمذهب المالكى المدافع عنه^(٩٢) وعثمان بن أيوب بن أبى الصلت سمع بالقيروان من سحنون وهو أول من أدخل المدونة بالأندلس^(٩٣) ومنهم عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم من أهل قلعة أيوب من ثغر شرق الأندلس وقد سمع من ابن اللباد بالقيروان^(٩٤) وتمام بن عبد الله المعافى الطليطلى وقد سمع بالقيروان من أبى عبد الله بن مسرور الغال^(٩٥) وعبد الرحمن بن محمد بن يحيى القرطبى الذى سمع بالقيروان من ابن أبى زيد والقابسى^(٩٦) .

وأفادنا صاحب الصلة أيضا ببعض من رحل من الأندلس الى القيروان ومنهم سعيد بن محمد بن سيد أبيه وابن العلاء القشيري ومحمد بن عمرو بن العاص ووسيم بن أحمد بن محمد الأموى وغيرهم ومعظمهم

(٨٨) الحميدى جذوة المقتبس .

(٨٩) نفس المرجع ص ٩٨ (٩٠) نفس المرجع ص ٢٦٥

(٩١) نفس المرجع ص ٣٠٣

(٩٢) عياض المدارك ج ٣ ص ١٣٤

(٩٣) نفس المرجع ص ١٣٧

(٩٤) نفس المرجع ج ٤ ص ٥٧٤ ، ٥٧٥

(٩٥) نفس المرجع ص ٥٧٨

(٩٦) نفس المرجع ص ٦٥٨ ، ٦٥٩

تلقى بالقيروان عن أبى محمد بن مسرور وأبى محمد بن أبى يزيد^(٩٧) .

كما أورد ابن فرحون عددا من رحل الى القيروان من الأندلس لتلقى العلم الا ان من ذكرهم لم يجاوز من ذكرهم هؤلاء المؤرخون السابقون والمعاصرون لفترة البحث^(٩٨) وقد كان من الأطباء الذين رحلوا من الأندلس الى القيروان لتلقى العلم عن ابن الجزار أبو حفص عمران ابن بريق الأندلسي فقد لازم ابن الجزار فى القيروان فترة أخذ عنه فيها الطب وروى عنه تأليفه وقد عاد الى الأندلس فكان فى خدمة الأمراء الأمويين وخاصة عبد الرحمن الناصر وقد ادخل ابن بريق كتب أستاذه الجزار الى الأندلس فتلقاها عنه الأخصائيون فى الطب من مسلمين ويهود ونصارى ومنهم سليمان بن جلجل^(٩٩) .

وكان طلبة الاندلس يهتمون بتلقى العلم فى القيروان ويستعدون لذلك بكتابة الكتب قبل القدوم لسماعها وقد حدث « أن قوما من الاندلسيين قد كتبوا المدونة وأرادوا ان يسمعوها من سحنون » فقال لهم : انى مشغول فقال له شاب منهم انا قد كتبناها فما نصنع بها ؟ لئن لم تسمعناها لنطرحنها فى هذا الغدير وأشار لغدير ماء بين يديه فتغير سحنون وعض على بنانه من الغيظ ثم قام الى أزواجه وهى تحرث ثم رجع اليهم فقال : انى لو احتجت اليكم فى مثل هذه ورفع شيئا من الأرض ما سوى علمى عندكم شيئا ثم أسمعهم^(١٠٠) .

ومع كثرة من سمع من سحنون فى القيروان من أهل الاندلس فان وفودهم كانت تتتابع للسمع حتى يوم وفاته . وقد ورد ان سليمان

(٩٧) الصلة لابن تشكوال ج ١ ص ٢٠٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥٨٥

(٩٨) انظر ابن فرحون الديباج ص ٣٧ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٧٣

(٩٩) ابن جلجل طبقات ص ١٠٧ حسين حسنى ورفات

ص ٣٠٩ - ٣١٢

(١٠٠) المالكى رياض ص ٢٦٧ ويقصد بقيامه الى أزواجه الى

اثنين من البقر يجران المحراث وتحرث الأرض .

ابن سالم رأى « يوم مات سحنون مشايخ من أهل الاندلس سيكون ويضربون خدودهم كالنساء يقولون : يا أبا سعيد ليتنا تزودنا منك نظرة نرجع بها الى بلدنا »^(١٠١) وكان الحجاج من أهل الاندلس يغتنمون

مرورهم بالقيروان ويقيمون وقتا فيها يتعلمون من علمائها^(١٠٢) .

ولا نغفل عن ذكر العلاقات الفكرية بين القيروان والاندلس عن طريق المراسلة فقد أورد عياض اشارة الى مراسلة بين قاضى القيروان وقاضى قرطبة حيث نجد فيها « انه جاء فى كتاب سحنون الى محمد بن زياد قاضى قرطبة يأمره بالشدة والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأذب والعذاب عليه حتى يؤدى او يموت قال أى سحنون : وبذلك أخذت فى ابن أبى الجواد ضربته أربعاً وعشرين ومائة درة وأوقفته يوم الجمعة للناس فى صحن الجامع وسوف أضربه ابداً حتى يؤدى تحت الدرة او يموت »^(١٠٣) .

وقد كانت هذه المراسلات الفكرية متصلة بين قاضى القيروان وقاضى قرطبة . وكان قضاة القيروان يرون أنهم المقدمون على قضاة قرطبة ولهم المنزلة الأولى ويصور ذلك ما ورد من : « أن سليمان بن عمران قاضى القيروان كان يكتب الى عمرو بن عبد الله . من سليمان ابن عمران قاضى القيروان الى عمرو بن عبد الله فكان عمرو يسوغ ذلك ولا ينكره عليه ويكتب اليه الجواب بتقديم سليمان بن عمران وتأخير نفسه فلما ولى سليمان بن الأسود عامله سليمان بن عمران تلك المعاملة فلم يحتملها سليمان بن أسود فجأبه بتقديم نفسه فكان سليمان بن عمران يقول : يا عجباً يعزل مثل عمرو بن عبد الله عن القضاء ولى مثل سليمان بن أسود ذلك الجلف الجافى »^(١٠٤) .

(١٠١) نفس المرجع ص ٢٨٨

(١٠٢) نفس المرجع ص ٤٠٧

(١٠٣) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٠٦

(١٠٤) الخشنى قضاة قرطبة ص ٧٠ ، ٧١

وكما كان هناك علاقة بين القيروان والاندلس بالرسائل ويوفود الطلاب والعلماء الى القيروان من الاندلس فقد رحل بعض العلماء من ابناء القيروان الى الاندلس واستوطنوا فيها وبثوا فيها علمهم ومعارفهم ومن هؤلاء العلماء حباشة بن حسن اليحصبي الذي تلقى العلم بالقيروان من زياد بن عبد الرحمن بن زياد ومن ابراهيم بن عبد الله الزبيدي المعروف بالقلانسي ثم رحل الى الاندلس فلزم العبادة ودراسة العلم والجهاد الى ان توفي بقرطبة سنة ٣٧٤ هـ^(١٠٥) وتميم بن محمد ابن احمد التميمي الذي رحل الى الاندلس واستوطن قرطبة وحدث فيها عن ابيه وعن عبد الله بن محمد الرعيني وجماعة سواهم وقد سمع منه الناس كثيرا الى ان توفي بها سنة ٣٦٩ هجرية^(١٠٦) ومحمد ابن هشام اليحصبي الذي تلقى العلم بالقيروان عن يحيى بن عمر ونظرائه من علماء القيروان ثم رحل الى قرطبة واستوطنها وتلقى العلم عليه كثير من ابنائها وقد اسند اليه النظر في الاوقاف أيام ولاية محمد بن عبد الله بن ابي عيسى على القضاء وتوفي بها سنة ٣٤٣ هـ^(١٠٣) .

ومحمد بن احمد البلوي القيرواني الذي سكن بجانة وحدث بها عن تلقى عنهم من علماء القيروان^(١٠٨) ومحمد بن احمد الفارسي من اهل القيروان وتعلم بها وبمكة والاسكندرية ثم رحل الى الاندلس فكان ينتقل بين قرطبة وشذونة واشبيلية واستقر أخيرا بقرطبة وسمع الناس منه كثيرا وكان خيرا متمسكا بالسنة شديد الانكار على اهل البدع الى ان توفي سنة ٣٥٩ هـ^(١٠٩) .

ومنهم محمد بن الحارث الخشني الذي ولد ونشأ بالقيروان حيث

(١٠٥) ابن القرضي تاريخ علماء الاندلس ص ١٢٨

(١٠٦) نفس المرجع ص ٩٩

(١٠٧) نفس المرجع قسم ٢ ص ١١١

(١٠٨) نفس المرجع ص ١١١

(١٠٩) نفس المرجع ص ١١٢

تعلم بها ثم رحل الى قرطبة فسمع من شيوخها . وكان حافظا للفقهاء عالما بالفتيا حسن القياس وقد ولى الشورى بقرطبة وكان يعمل الادهان ويتصرف فى ضروب من الأعمال اللطيفة مع قوله الشعر البليغ وقد تردد فى كور الثغر ثم استقر بقرطبة وألف كتباً كثيرة وخاصة فى التاريخ والفقهاء وتوفى سنة ٣٦١ هـ (١١٠) ومحمد بن الحسين ابن النعمان بن المقرئ القيروانى وقد عنى بالقرآن وجوده على علماء القرآن فى القيروان ومصر ثم رحل الى الاندلس فقرأ عليه كثير من الناس وتوفى بالاندلس سنة ٣٦٨ هـ (١١١) .

ومنهم محمد بن يوسف الوراق الذى نشأ بالقيروان وتعلم بها ثم رحل الى قرطبة واستوطنها وألف بالاندلس للحكم المستنصر كتاباً ضخماً فى مسائل إفريقية وممالكها وغير ذلك من الكتب الكثيرة وخاصة فى تاريخ ملوك إفريقية وأخبار تاهرت ووهران وسجلماسة وغيرها (١١٢) ومكى بن محمد حموش المقرئ الذى ولد بالقيروان وقرأ على شيوخها ثم رحل الى مصر وقرأ بها على عبد المنعم بن غلبون المقرئ الحلبي ساكن مصر وعلى غيره ثم ذهب الى الاندلس واستوطن قرطبة وقرأ عليه الطلبة بها وكان اماماً مشهوراً فى القراءة (١١٣) .

ولا شك أنه بعد قيام الخلافة الفاطمية واضطهادها لعلماء القيروان السنيين قد رحل من القيروان بعض أولئك العلماء الى جهات متعددة وخاصة الاندلس التى كانت تتأوى الفاطميين العداء . بل نجد أن الاندلس كانت ترحب بمن يأتى إليها ويفد الى رحابها من علماء القيروان وخاصة الذين كان يضطهدهم الشيعة ومنهم حكم بن محمد القيروانى القرشى الذى تعرض لسجن عبيد الله المهدي بسبب مهاجمته للفاطميين

(١١٠) نفس المرجع ص ١١٣ ، ابن فرحون الديباج ص ٣٥٩

(١١١) ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس سنة ١١٣

(١١٢) الحميدى جذوة المقتبس ص ٩٧

(١١٣) نفس المرجع السابق ص ٣٥١

وكان يتردد بين قرطبة والقيروان^(١١٤) وكان ذلك مما ساعد على تقوية العلاقات الثقافية ونقل الأفكار بين القيروان والاندلس .

كما نلاحظ في هذه الفترة في البداية والازدهار اننا لا نجد من اهل القيروان من رحل الى الاندلس لأجل التعلم فيها والتقى عن علمائها وانما كان اهل الاندلس هم الذين يأتون الى القيروان لأجل التعلم وهذا دليل قوى على ان هذه الفترة كانت القيروان فيها هي المركز الفكرى في المغرب . واليها كانت تفد رحلات الطلاب من الجهات المحيطة بها . واذا ذهب الى الاندلس عالم من القيروان فائما لبث علمه وتعليم الناس هناك ولم نجد عالما من القيروان ذهب الى الاندلس لطلب العلم ثم عاد ليعلم في القيروان ما تلقاه في الاندلس .

ولقد كان لكثرة التلقى على سحنون وتلاميذه اثر في انتشار المذهب المالكي في الاندلس والالتزام به ولعل ما سبق يضع أمام أعيننا الصورة الحقيقية للعلاقات الفكرية المتنوعة التي أوجدت جسرا متينا بين القيروان والاندلس ويوضح الدور العظيم الذي قامت به القيروان بالنسبة للاندلس حيث كانت هي همزة الوصل بين المشرق وبين الاندلس .

٧ - القيروان وصقلية :

اننا عندما نعرف ان قائد جيش الفتح لصقلية هو أسد بن الفرات فقيه القيروان وقاضيه فان ذلك يعطينا لمحة عن طبيعة هذا الفتح وعن الجنود الذين كانوا تحت امرته ولا شك أن كثيرا منهم كانوا من الفقهاء والعلماء الصالحين والزهاد .

واذا كان هذا هو ما يتسم به جيش الفتح فان ذلك كان له الاثر الكبير في نشر الثقافة الاسلامية بها . وعند استقرار المسلمين فيها نجد

(١١٤) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٦١٥ نقلا عن التشيع في الاندلس لمحمود مكى ص ١٢٤

الحنين الى الوطن الاصلى من أبناء هذا الجيش الفاتح يجذبهم الى القيروان .

فبعد استقرار الفتح فيها اقبل أبناء صقلية وأبناء الفاتحين الى القيروان لتلقى العلم والمعرفة من علماء القيروان وان لم يكن علماء الطبقات قد ذكروا لنا أسماء من رحل من صقلية قاصدا القيروان لتلقى العلم بها الا أننا نجد ابن الفرضى يذكر لنا وافدا الى الأندلس من صقلية بعد أن تعلم في القيروان وهو عباس بن عمرو الكناني الوراق الذى خرج من صقلية الى القيروان سنة ٣١٥ هـ فمكث بها الى سنة ٣٣٦ هـ حيث خرج الى الأندلس وكان بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب عالما بالكلام حافظا لأخبار أبى عثمان الحداد وقد حدث بالاندلس عن أساتذته وقد كتب عنه ابن الفرضى نفسه بعض أحاديثه وتوفى بقرطبة سنة ٣٧٩ هـ (١١٥) .

واذا كان المؤرخون قد أغفلوا ذكر من رحل من صقلية الى القيروان فقد زدونا بأسماء بعض من قام بنشر الفكر القيروانى في صقلية ممن رحل من القيروان اليها وخاصة من القضاة الذين كانت الدولة تسند اليهم القضاء فيها فكانوا يقومون بجانب القضاء بالتعليم ونشر العلوم والمعرفة . ومن هؤلاء محمد بن سليمان بن سالم القطان الذى سمع من سحنون وابنه وغيرهما من علماء القيروان ورحل الى المدينة فحدث عن محمد بن مالك بن أنس وتعلم على يديه كثير من طلبة القيروان ولقوا كثيرا من بره بهم . وكان الغالب عليه الرواية والتفسير وألف في الفقه كتباً تعرف بالسليمانية وقد تولى قضاء باجة ثم مصالح القيروان وأخيراً أسند اليه القضاء في صقلية فخرج اليها سنة ٢٨١ هـ فنشر بها علما كثيرا وعنه انتشر مذهب مالك في صقلية وظل فيها قاضيا ومعلما الى أن توفى بها في سنة ٢٨٩ هـ (١١٦) ومنهم أبو عمر وميمون بن عمرو

(١١٥) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ٢٩٩

(١١٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٦ ،

احسان عباس العرب في صقلية ص ٩٦

الذى سمع من سحنون وتولى القضاء بصقلية وكان مثالا في الصلاح والتقى والزهد وتوفى سنة ٣١٦ هـ^(١١٧) وأبو القاسم الطرزي الذى بقى قاضيا فى صقلية مدة عشر سنوات^(١١٨) وغيرهم من القضاة الذين قاموا بالتدريس فى صقلية .

وممن رحل الى صقلية من أهل القيروان لنشر العلم سعيد بن يحيى المعروف بابن الفرات وقد سمع من ابن سحنون وغيره ومات بصقلية^(١١٩) ولقمان بن يوسف الخسائى الذى تلقى العلم بالقيروان من اصحاب سحنون وعيسى بن مسكين وغيرهم . وكان عالما باللغة والحديث والرجال والقرآن يحيط بالثنى عشر صنفا من العلوم وقد سكن صقلية مدة اربع عشرة سنة يدرس المدونة لابنائها ولا شك أنه قد بث فيها قدرا كبيرا من علمه الغزير الذى حصله وقد توفى بتونس سنة ٣١٩ هـ^(١٢٠) .

وربما شجع بعض العلماء على الرحلة الى صقلية ما كان فى القيروان من مقاومة عنيفة من الفاطميين لعلماء السنة لا سيما بعد ان تمكن الخليفة الفاطمى من القضاء على ثورة أبى يزيد التى ايدها وشارك فيها فقهاء المالكية مما حمل كثيرا منهم الى الهجرة الى صقلية ومع انها كانت تابعة للفاطميين غير ان الاضطهاد لعلماء السنة فيها كان اقل منه فى القيروان^(١٢١) .

وممن كان له جهد تاليفى وتعليمى فى صقلية خلف بن أبى القاسم

-
- (١١٧) المكتبة الصقلية ص ١٩١ نقلا عن رياض النفوس ، ص ٦٤٨
نقلا عن العبر للذهب ، ابن فرحون الديباج ص ٣٣٤
(١١٨) المكتبة الصقلية ص ١٨٩ نقلا عن رياض النفوس ، احسان عباس العرب فى صقلية ص ٥٥
(١١٩) عياض المدارك ج ٣ ص ١٣٠
(١٢٠) عياض المدارك ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٣ المكتبة الصقلية ص ١٩٢ نقلا عن الرياض
(١٢١) احسان عباس العرب فى صقلية ص ٩٧

الازدى المعروف بالبرادعى الذى تلقى العلم فى القيروان من أبى محمد ابن أبى زيد وأبى الحسن القابسى الا ان علماء القيروان كرهوه لمصاحبتهم سلاطين القيروان الشيعة فلم تحصل له رئاسة فى القيروان . فخرج منها قاصدا صقلية فكانت له منزلة كبيرة فيها ولف كتبها منها كتاب التهذيب فى اختصار المدونة الذى نال شهرة واسعة بالمغرب والاندلس واقبل طلاب الفقه على تلقيه منه فى صقلية بل ان المناظرة فى جميع حلقات الدروس فى صقلية كانت بكتاب البرادعى التهذيب وفد اكسبه ذلك منزلة رفيعة وله أيضا كتاب التمهيد لمسائل المدونة ، وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدونة وكتاب اختصار الواضحة ونلاحظ ان كتبه انما هى اختصار لكتاب أو شرح له الا ان اقبال الطلاب على دراسة كتبه اكسبه شهرة واسعة^(١٢٣) .

ولا شك ان الكتب كانت تنقل من القيروان الى صقلية لا سيما المدونة فى الفقه المالكي والموطأ وملخصه الذى ألفه القابسى وغير ذلك من الكتب المؤلفة فى فنون العلم المختلفة التى ازدهرت فى القيروان^(١٢٣) .

وقد سبق ان ذكرنا عند حديثنا عن الترجمة ان بعض المترجمين كان من صقلية كما ان بعض سكان القيروان قد تعلم اللغة الصقلية فيها .

وهذا يوضح لنا العلاقات الفكرية التى كانت تربط بين القيروان وصقلية . كما كان للقيروان علاقات فكرية أيضا بالجزر التى كانت تحت سلطة القيروان أو تتصل بها كجزيرة قوصرة وجزيرة مالطة وجزيرة سردينيا وجزيرة كرسكة^(١٢٤)

(١٢٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ١١٢

(١٢٣) احسان عباس العرب فى صقلية ص ٩٢ - ٩٥

(١٢٤) انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية فى حوض البحر

المتوسط ص ٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٤١ القيروان غير عصور الازدهار الحبيب الجناحى ص ١١٦

وفي ختام هذا الفصل أحب أن أبدى بعض الملاحظات هنا :

وهو أن هذه الرحلات الشاقة - التي كانت تذهب الى المشرق والمغرب أو الى الجزر في البحر المتوسط لتكون جسرا قويا متينا تربط القىروان وهذه المراكز وكانت تبذل الجهود الشاقة فى لقاء العلماء وقضاء الأعوام فى نحصيل العلم وترقية الفكر - كانت رحلات يقوم بها العلماء والطلاب بمحض اختيارهم وعلى نفقتهم الخاصة ورغبة من أولئك العلماء الاجلاء والطلاب النبهاء - الذين حملوا راية الفكر فى هذه الفترة وأوجدوا هذه الصلات الفكرية الوثيقة بين مدن مراكز الفكر المختلفة فى الحصول على المعارف المختلفة من شتى البقاع . وانهم كانوا يقوموا بذلك لا لأجل منصب من مناصب أو مركز من مراكز السلطة . وانما كانوا يقومون بذلك ارضاء لحب المعرفة والاحاطة بالعلوم . وإذا كان البعض منهم قد يلقى حظوة بعد ذلك فى مناصب الدولة كمناصب الكتابة والرسائل مثلا فان ذلك كان امرا عارضا . اما غيرهم وخاصة أصحاب العلوم الشرعية فكانوا يقومون بالتعليم ابتغاء وجه الله وحب الخير بل كان كثير منهم عندما يتولى القضاء لا يتقاضى أجرا على عمله .

وبذلك يتضح لنا الحب العميق الذى كان يسود علماء القىروان من أجل الحصول على المعرفة ونمية الفكر . ذلك الحب الذى كان يفوق حب المناصب ومتاع هذه الحياة .

وان هذه العلاقات التى أوجدها أولئك العلماء والطلاب بين شتى المراكز الفكرية - آنذاك لم تكن تتولاها الدولة سوى بعثة الفقهاء الأولى التى أرسلها عمر بن عبد العزيز ثم الأطباء والمترجمين الذين استقدمهم أمراء الاغالبه خاصة عندما أنشئوا بيت الحكمة وبذلوا جهدهم لرقبه وتقديمه وعملوا على شراء الكتب المختلفة واحضارها له من كل مكان .

كما نلاحظ ان وفود العلماء والطلاب من القىروان واليهما ظل مستمرا طوال الفترة التى خصصت لها هذه الدراسة ولم يستطع تغير

الولادة ولا قيام الدول والامارات المختلفة أو سقوطها أو العداء السياسى والمذهبى الذى يقوم احيانا بين الحكام أن يقف حائلا دون ذلك . بل كان الاشعاع الفكرى الحر يخترق كل الحجب السياسية بخصـوماتها وعداواتها المتعددة المتنوعة فكانت الحياة الفكرية هى الصلة التى لم تنقطع ولم تتأثر بالعداء السياسى بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر .

وهذا الاتصال الفكرى المستمر الذى لم ينقطع قد ضمن للقيروان منذ تأسيسها احاطة بما يجد من فكر فى غيرها من المراكز الفكرية ولم يجعلها فى عزلة عن غيرها بل كانت على صلة بالحركة الثقافية الفكرية آنذاك .

وكانت الرحلات والسفارات والمراسلات العلمية المتبادلة بين القيروان وبين غيرها من المنابع الأصلية فى المشرق أو بينها وبين الروافد فى الأندلس والمغرب عاملا من عوامل الربط الثقافى والامتزاج الفكرى مع المراكز الأخرى للفكر خ هذه الفترة .

* * *

الفصل الثامن

الحياة الفكرية في القيروان
بين التأثير والتأثر

تمهيد :

تبين لنا من عرضنا للحياة الفكرية في القيروان انها بدأت منذ تأسيسها على أيدي الصحابة والتابعين ثم كانت بعثة الفقهاء الى القيروان في نهاية القرن الاول الهجري وقد سبق ان تحدثنا عنهم كما تحدثنا عن الخطباء والشعراء والكتاب الذين قدموا من المشرق الى القيروان . ولا مراء في ان الحياة الفكرية في القيروان بدأت بتلك البذور القادمة من المشرق ثم نمت في القيروان . وخلال نموها كانت تتغذى كذلك من المشرق فكان الطلاب والعلماء من أبناء القيروان يرحلون الى مكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد والشام والفسطاط . وكانوا يتلقون الحديث والفقه والنفسير وغيرها من العلوم الشرعية ، وكذلك الادب واللغة والنحو وما يتعلق سلك من قوانين اللغة العربية وآدابها ، كما ذهبت بعثة من القيروان لتلقى علم العقائد في المشرق . وعندما ازدهرت الحياة واستوت على سوقها تطورت الاهداف المقصودة فشملت غير ذلك من علوم الاوائل .

التأثير والتأثر بالنسبة للمشرق :

مما لا شك فيه ان القيروان في بداية هذه الفترة كانت متأثرة بالحياة الفكرية في المشرق . خاصة بالمراكز الفكرية التي اتصت بها سواء في مكة والمدينة أو الكوفة والبصرة وبغداد أو الشام ومصر . ولقد كانت رحلة العلماء والطلاب الى هذه المراكز للأخذ عن علمائها في مختلف العلوم والآداب فيها : هي المظهر العملي الواقعي لتأثر القيروان بهذه المراكز والتفاعل معها في حقل الحياة الفكرية .

وقد سبق أن ذكرنا في حديثنا عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها وعن العلاقات بين القيروان والمراكز الفكرية في المشرق اسماء عدد كبير ممن تصدى للاتصال بالحركة الفكرية في مراكزها السابقة وخاصة عبد الرحمن بن أنعم وعبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد وعبد الله ابن غانم وخالد بن ربيعة الافريقي وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد

ويكر بن حماد ومحمد بن جعفر التميمي وغيرهم . فمنهم من تلقى على العلماء في مكة والمدينة ومصر ومنهم من ذهب الى الكوفة والبصرة وبغداد والشام فتلقى على العلماء منها وتأثر بهم وبأفكارهم .

كما لا نغفل تأثر القيروان بمن قدم اليها من المشرق وقد ذكرنا منهم الحسن بن سعيد البصري أحد كبار نحاة البصرة الذي استفاد منه شباب القيروان كثيرا من علمه وادبه وعامر بن المعمر بن سنان التميمي الذي نقل الى القيروان أيام العرب وأخبارها ووقائعها وعياض بن عوانة الكلبي الكوفي الذي تعلم أبناء القيروان على يديه علم النحو وآداب اللغة وإبراهيم بن محمد الشيباني الذي تولى الكتابة في نهاية دولة الاغالبية وادخل القيروان رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم^(١) وتعلم على يديه الكثير من أبناء القيروان . ويذكر عياض أن « أفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لانه رحل اليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه »^(٢) كما استفاد الأطباء من بغداد ومصر الى القيروان فكان لهم تأثير في الطب فيها .

أضاف الى تأثر الفكر في القيروان بذلك تأثره بالكتب التي كانت تشتري من المشرق وتحضر الى القيروان ليتعلم منها أبناء القيروان ويطلعوا على الأفكار المشرقية في مختلف العلوم والفنون والآداب . بل بلغ الأمر بهم ان الأمير أبا إبراهيم أحمد بن محمد الاغلبى لكى يزين عقد المحراب وما يحيط به من جدار المحراب في جامع عقبة بن نافع استفاد من تربيعة من الخزف ذي البريق المعدنى (قراميد) من العراق^(٣) .

ولعل هذا يوضح لنا مبلغ تأثر الحياة الفكرية في القيروان بهذه المراكز الفكرية في المشرق الا أننا مع ذلك نلاحظ خلال تتبعنا لعوامل تأثر

(١) المرقى نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٠

(٢) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩١ .

(٣) دكتور السيد محمود سلم : بيوت الله مساجد ومغاهد ج ٢

ص ١٧٧

القيروان بالمراكز الفكرية في المشرق بذور التأثير أبناء القيروان في غيرهم في هذه المراكز . ويحفيهم ترفا بدون نحيز - أنهم وهم القادمون لأجل التعلم ان يكون عندهم من الزاد الفكرى ما يستطيعون ان يناظروا به وينافحوا عنه ويحموا الخصم اذا حاول ان يزدريهم .

ذلك ان القيروان مع تاخر تأسيسها عن الكوفة والبصرة وانفجاط الا انها قد انفردت ببعض الاحاديث التى رويت عن الصحابة فيها بما يعطى لها فضل المشاركة فى المنزلة التى كانت تتميز بها المدن التى سكنها واهام فيها بعض الصحابة رضى الله عنهم . فنرى سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك وكبار اصحاب ابي حنيفة^(٤) يروون بعض الاحاديث عن أبناء القيروان حتى ان الثورى قال : جاءنا عبد الرحمن بن زياد الافريقى بستة احاديث يرفعها الى النبى ﷺ لم اسمع احدا من اهل العلم يرفعها^(٥) كما يرون عن موسى بن على بن رباح القيروانى اكابر العلماء منهم الليث وابن المبارك وابن وهب^(٦) ، وعن يحيى بن سلام يروى مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة^(٧) . وهكذا ترى كيف يروى كبار علماء مصر والكوفة والمدينة عن علماء القيروان وابنائها بما يبين لنا بعضا من جهود ابناء القيروان في المشرق . وان القيروان مع تاخر تأسيسها فقد حازت شرف الانفراد ببعض الاحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام مثل غيرها .

وقد اشرنا سابقا الى ان ابن فروخ زفر في مجلس ابي حنيفة فازدراه زفر للغربية فلم يزل ابن فروخ يناظره حتى علا على زفر وقطعه بالحجة^(٨) هذا يصور لنا نوعا من تأثير الفكر القيروانى في الكوفة ومقدار

(٤) أبو العرب طبقات ص ٩٩ ، المالکى رياض ص ١٠٢ ،

الدباغ معالم ج ١ ص ٣٣٠

(٥) الدباغ معالم ج ١ ص ٢٣٦

(٦) المالکى رياض ص ١١٢

(٧) نفس المرجع ص ١٢٢

(٨) نفس المرجع ص ١١٦

تقدمه ممثلاً في ابنائه ليقف مواجهاً للفكر العراقي وقد اعترف الامام مالك بذلك فكانت لا ترد عليه في مجلسه مسألة وعبد الله بن فروخ حاضراً . وقال أجب يا أبا محمد فيجيب ثم يقول مالك هذا كما قال . ثم يلتفت مالك الى أصحابه ويقول : هذا فقيه المغرب ولذلك عندما قصد عبد الله ابن فروخ مصر بعد وفاة الليث بن سعد طمع علماء مصر ان يكون ابن فروخ حلفاً عن الليث وكانوا يعظمونه ويعتقدون امامته ^(٩) .

وقد كان في بعض أبناء القيروان جراءة في تحصيل العلم وزيادة الاستقصاء وتحري المعرفة حتى وهم يتلقون العلم في هذه المراكز الفكرية « فقد سأل أسد بن الفرات مالك بن أنس يوماً عن مسألة فأجابه فيها ، فزاد أسد في السؤال فأجابه فزاد أسد في السؤال فأجابه ثم زاد فقال مالك : حسبك يا مغربي ان احببت الرأي فعليك بالعراق ^(١٠) وقد ادرك مالك في أسد التحري والجراءة فأرشده الى نوجهيهما الى العلم والعمل به فقال له عند توديعه « أوصيك بتقوى الله تعالى والقرآن والمناسحة لهذه الأمة ^(١١) ومن تأثير القيروان في العراق ما يروى من أن أسد ابن الفرات عندما وصل الى العراق « أخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك ^(١٢) » ومن التأثير في مصر ما يذكر من أن أسداً بعد ان اتم كتابة الاسدية التي ألفها من الاجابة على الاسئلة التي وجهها الى ابن القاسم في مصر وأراد الرحيل الى الفيروان شعر أهل مصر بقيمة كتاب الاسدية الذي ألفه أسد فنسخوه منه وذلك يوضح تأثير اسد بمؤلفه الاسدية في مصر ^(١٣) ، قبل رحيله عائداً الى القيروان .

وقد تجاوزت شهرة أحد زهاد القيروان وعبادها حداً بعيداً فان حتى هذه المراكز الفكرية فوصلت الى سمرقند فقد ذكر مؤرخو الطبقات انه

(٩) عياض المدارك ج ١ ص ٣٤١

(١٠) المالكي رياض ص ١٧٤

(١١) نفس المرجع والصفحة .

(١٢) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٥

(١٣) المالكي رياض ص ١٧٩

دفع للبهلول بن راشد كتاب ففضه فاذا فيه : « من امرأة من سمرقند مجنت مجونا لم تمجنه الا هي ثم تابت الى الله وسالت عن العباد في أرضه فوصف لها أربعة : بهلول بافريقية أحدهم » قالت له فسالتك بالله يا بهلول الا دعوت ان يديم ما فتح لى فيه « فسقط الكتاب من يده وخر على وجهه وجعل يبكى حتى لصق الكتاب بطين دموعه ثم قال يا بهلول ذكرت بسمرقند خراسان الويل لك من الله ان لم يستر عليك » (١٤) .

كما رحل الى شقران بن على في القيروان ذو النون المصرى الاخميمى وغيره لينتفع بمصاحبه ويتلقى عنه الزهد والتصوف وتهذيب النفس بالتزامها بالمثل العليا^(١٥) وذلك يوضح تاثير القيروان في هذه الأماكن بما عرف عن زهد عباد القيروان الذى وصل الى ذلك المدى البعيد واصبح اهل تلك البلاد يقتدون به .

وفي القرن الثالث الهجرى عندما بلغ الفكر في القيروان مرحلة الازدهار كان لعلمائها منزلة كبيرة في المراكز الفكرية التى كانت متأثرة بها من قبل وخاصة في العلوم الشرعية .

وقد سبق أن ذكرنا عند ترجمتنا لمحمد بن سحنون كيف ناظر يهوديا في مصر الى ان اسلم اليهودى وكذلك فان ما حدث لمحمد بن سحنون في مصر والمدينة يبين لنا منزلة علماء القيروان فيهما فتحليق العلماء عليه في مصر وسؤاله وثناء المزنى صاحب الشافعى عليه عند خروجه بعد لقائه بابن سحنون بقوله « والله ما رايت أعلم منه ولا احد ذهنا على حدائة سنة^(١٦) يبين منزلة ابن سحنون في مصر ثم ما حدث عندما دخل محمد بن سحنون مسجد النبى ﷺ بالمدينة ووجد جماعة عظيمة

(١٤) أبو العرب طبقات ص ١٣١ ، عياض المدارك ج ١ ص

٣٣١ ، ٢٣٢

(١٥) المالكي رياض ص ١٢٣

(١٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ٨١

محلقيـن على شيخ متكىء لكبر سنه وهم يتنازعون في مسألة من مسائل أمهات الأولاد فنـبـههم محمد بن سحنون على نكتة فاستوى الشيخ جالسا وقررها فزاد ابن سحنون أخرى فقال الشيخ من أى البلاد أنت . قال من افريقية . قال من أى بلدة منها . قال من القيروان . قال ينبغى أن تكون أحد الرجلين أما محمد بن سحنون وأما محمد بن لبدة ابن أخى سحنون فإن هذا التنكيت لا ينبغى أن يكون إلا من أهل دار سحنون فقال له : أنا محمد بن سحنون فقام إليه وصافحه وخرجوا من المسجد وجعل ابن سحنون يملأ على الشيخ بالطريق وهو يكتب المسألة « (١٧) » .

وهذا يوضح لنا كيف بدأت القيروان تؤثر في كل من مصر والمدينة وتصل منزلة بعض علمائها الى هاتين المدينتين ويكون لعالمها سحنون منهجا في التفكير يعرفه أولوا العلم .

وقد وصلت مؤلفات علماء القيروان الى بغداد وبلغ من تقديرهم لاحد هذه المؤلفات وهو كتاب الامامة لمحمد بن سحنون ان كتب بماء الذهب واهدى الى الخليفة (١٨) .

كما نرى أن الرسالة التى ألفها أبو محمد بن أبى زيد القيروانى لتعليم أولاد المسلمين « انتشرت في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد افريقية والاندلس والمغرب وبلاد السودان وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب وأول نسخة منها بيعت ببغداد في حلقة أبى بكر الابهري بعشرين دينارا ذهبيا » (١٩) .

وهذا يبين لنا المستوى الرفيع الذى وصلت اليه القيروان في فكرها واستطاعت به ان تؤثر في غيرها من مراكز الفكر التى كانت متأثرة بها

(١٧) نفس المرجع ص ٨١ ، ٨٢

(١٨) المالکى رياض ص ٣٤٦

(١٩) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٣٨

من قبل اثرت في كافة انحاء العالم الاسلامى . وقد بلغت منزلة محمد ابن ابي زيد أن كان يعرف بمالك الصغير واستجازة بن مجاهد البغدادى وغيره من اصحابه البغداديين^(٢٠) .

وعند رحيل الفاطميين الى مصر استصحب المعز لدين الله معه العلماء من القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والكتاب والاطباء كما استصحب معه مكتبة ضخمة من القيروان الى القاهرة . ولا شك أن كل ذلك كان له اثر كبير في تأثير القيروان في مصر^(٢١) .

وتخلص من كل هذا الى أن القيروان اذا كانت متأثرة في بداية اتصالها بالمراكز الفكرية في المشرق فانها في النهاية قد وصلت الى درجة من التقدم الفكرى جعلها تؤثر في المراكز التى كانت تتأثر بها من قبل مع اختلاف في درجة التأثير والتأثير يبينه عرضنا السابق .

التأثير والتأثر بالنسبة للمغرب :

هذا هو وضع الحياة الفكرية القيروانية في التأثير والتأثر من المراكز الفكرية في المشرق ، أما بالنسبة للمغرب : من المدن والاقاليم والجزر التى كانت تتصل بالقيروان أو تتصل القيروان بها . فقد كان للقيروان تأثير قوى فيها بل لا نغالى اذا قلنا ان الحياة الفكرية فيها وخاصة في البداية كانت امتدادا للحياة الفكرية في القيروان ، وبمرور الزمن كان هناك بعض تأثر من القيروان بهذه المدن والاقاليم .

ومن قراءتنا لمكتب الطبقات يتجلى لنا ذلك التأثير القوى الذى قامت به القيروان بالنسبة لغيرها من المدن والاقاليم والجزر في كثير من العلوم والفنون . وليس من هدفنا تتبع كل الحالات الفردية التى اثرت بها القيروان في غيرها وانما هدفنا استجلاء ملامح التأثير الفكرى للقيروان في غيرها من مدن واقاليم وجزر المغرب :

(٢٠) عياض المدارك ج ٤ ص ٩٣

(٢١) حسن ابراهيم الفاطمية ص ٥٠١ ، حسن ابراهيم وطه شرف

المعز لدين الله ص ٢٥٦

(١) ففى مجال العلوم الشرعية :

نجد - كما سبق أن بينا فى علاقات القىروان - اعدادا كثيرة من الطلاب والعلماء يقصدون القىروان ليتلقوا على علمائها ثم نجد انهم قد قاموا بحمل هذه الافكار لتؤدى دورها وتشع من نورها فى الاماكن التى قدموا منها وسوف نذكر بعضا من هؤلاء العلماء مع الاشارة الى الاعمال التى قاموا بها فى بلادهم وفى غيرها بعد تزودهم من الحياة الفكرية فى القىروان ومدى تأثيرهم فى المدن والاقاليم التى قدموا منها . وذلك سيضع ايدينا على أمثلة ونماذج من التأثير القوى الذى قامت به القىروان فى مجال الفكر فى غيرها من المدن والاقاليم .

فابراهيم بن محمد بن باز القرطبى الذى سمع من سحنون كان فى الأندلس مقدما فى الفتيا وقد حدث عنه الناس^(٢٢) وأحمد بن الوليد الذى سمع من سحنون تولى قضاء طليطلة وجيان^(٢٣) وحزم بن غالب الرعينى الضليطلى لقى سحنون بن سعيد ثم انصرف الى بلده فكان يستفتى فيها وولى الصلاة واحكام القضاء وكان يرقى المنبر وتوفى سنة ٣٠٥ هـ^(٢٤) وسعيد بن فلحون بن سعيد من البيرة وسكن بجانة وقد أدرك بجامع القىروان ستة عشر رجلا من رواه سحنون كما التقى فى القىروان بعبد الرحمن بن عبيد البصرى فسمع منه ثم عاد الى بلده وطال عمره فكان يرحل اليه للسمع من قرطبة وغيرها^(٢٥) وتوفى سنة ٣٤٦ هـ والتقاؤه بعبد الرحمن البصرى فى القىروان يوضح لنا كيف كان يلتقى العلماء من المشرق والأندلس فى القىروان بما يجعلها مركزا للتأثير والتأثر . ومنهم فضل ابن سلمة الجهنى البجائى الذى سمع بالقىروان من يوسف بن يحيى المقامى ولقى جماعة من اصحاب سحنون وكان حافظا للفقہ على مذهب

(٢٢) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٠

(٢٣) نفس المرجع ص ٢٤

(٢٤) نفس المرجع ص ١١٧

(٢٥) نفس المرجع ص ١٦٩

مالك بعيد الصوت فيه وكان يرحل اليه للمساع منه والتفقه عنده وقد حدث عنه من أهل قرطبة : أحمد بن سعيد وغيره في جماعة من أهل البيرة وبجانة وتدمير^(٢٦) ومحمد بن وضاح القرطبي مولى عبد الرحمن ابن معاوية سمع بالقيروان من سحنون وعون بن يوسف وغيرهما من علماء القيروان وكان عالما بالحديث بصيرا بطرقه متكلماً على الله سمع الناس منه الحديث ونفع الله به أهل الاندلس فكان ناشرًا للحديث فيها^(٥٧) كما يحدثنا عياض ان ممن سمع من أبي محمد بن زيد من أهل سبتة : أبو عبد الله بن العجوز وأبو محمد بن غالب وخلف بن ناصر ، ومن أهل المغرب ابن امدكنو السجلماسي^(٥٨) .

ونجد من أبناء القيروان نفسها من رحل الى غيرها من الاقاليم والمدن أو مر بها أو أوفد اليها ليتولى أمور التعليم ونشر العلوم الشرعية فيها فكان عاملاً لتأثير الفكر القيرواني في تلك الاماكن : فأهل اجدابيه قد سمعوا من سحنون عند عودته من رحلته الى المشرق سنة ١٩١ هـ^(٥٩) وموسى بن عبد الرحمن القطان كان يحسن الكلام على مذهب مالك وولى قضاء طرابلس فنفذ الحقوق وأقام أحكام القرآن اثني عشر جزءاً ثم عزل وسجن فكان سبب اطلاق سراحه ما امتاز به من الدقة في الافتاء وحل المشاكل^(٣٠) وأحمد بن سليمان الذي روى عن سحنون رحل الى الاندلس وحدث عنه سعيد بن فلحون وتوفي ببجانة سنة ٢٩٦ هـ^(٣١) . وتميم بن محمد التميمي استوطن قرطبة الى ان توفي بها سنة ٣٦٩ هـ وقد حدث عن أبيه وعن عبد الله بن محمد الرعيني وسمع الناس منه كثيراً^(٣٢) .

(٢٦) نفس المرجع ص ٣٥٢

(٢٧) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢٨) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٩٤

(٢٩) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٩٤

(٣٠) نفس المرجع ص ٣٤٢

(٣١) ابن الفرضي تاريخ علماء الاندلس ص ٦٠

(٣٢) نفس المرجع ص ٩٩

وحكم بن محمد بن هشام القرشي القيرواني المقرئ قرأ القرآن على أهل القراءة بمصر ودخل العراق فقرأ على جماعة من أصحاب القراءات بها ثم ذهب إلى الأندلس فكان يقرأ ويقرئ القرآن بها كما كتب عنه الحديث بها وقد توفي سنة ٣٧٠ هـ^(٣٣) . وحباشة بن حسن اليحصبي سمع بالقيروان من زياد بن عبد الرحمن بن زياد وغيره ورحل إلى المشرق فسمع من المحدثين به ثم انصرف إلى الأندلس وكان فقيها في المسائل حافظا للاختلاف عالما بالسنن والآثار وقد لزم العادة ودراسة العلم والجهاد إلى أن توفي سنة ٣٧٤ هـ^(٣٤) ومحمد بن أحمد الفارسي القيرواني سمع بالقيروان من علمائها ومن علماء مكة والاسكندرية ثم سكن قرطبة مع تجوله في شذونة واشبيلية وكان متمسكا بالسنة شديد الإنكار على أهل البدع وقد سمع الناس منه كثيرا بقرطبة وتوفي سنة ٣٥٩ هـ^(٣٥) . ومحمد ابن الحسين بن محمد المقرئ عنى بالقرآن وجوده وكان حسن الصوت به ثم رحل إلى الأندلس فكان الناس يقرؤون عليه وتوفي بها سنة ٣٦٨ هـ^(٣٦) .

وقد أوفد إلى صقلية عدد من القضاة من أبناء القيروان كانت لهم مجهودات مشكورة في سبيل نشر الفكر فيها منهم : محمد بن سليمان القطان الذي وصل إلى صقلية سنة ٢٨١ هـ فنشر فيها علما كثيرا وعنه انتشر مذهب مالك بها وقد ظل فيها قاضيا إلى أن توفي سنة ٣٨٩ هـ^(٣٧) . وأبو عمرو ميمون بن عمرو الذي تولى قضاء صقلية فخرج إليها بكتابة وخادمته وفروته وجبته وكما خرج إليها عاد منها بدون أي متاع تعففا وزهدا . فكان قدوة للصقليين في الزهد والتصوف وقد توفي سنة ٣١٦ هـ^(٣٨) .

(٣٣) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٣٤) نفس المرجع ص ١٢٨ .

(٣٥) نفس المرجع قسم ٢ ص ١١٢ .

(٣٦) نفس المرجع ص ١١٣ .

(٣٧) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٣٨) المكتبة الصقلية ص ١٩١ .

وممن كان له تأثير كبير فى صقلية فى العلوم الشرعية لقمان بن يوسف الغسانى الذى اقام بصقلية أربع عشرة سنة يدرس المدونة وكان عالما باثنى عشر صنفا من العلوم^(٣٩) وخلف أبو القاسم الازدى البرادعى الذى تعلم عليه فى صقلية كثير من الطلاب والى كتبها أشهرها كتاب التهذيب فى اختصار المدونة وقد كان مدار الدراسة على هذا الكتاب فى كثير من حلقات الدرس فى صقلية^(٤٠) . ومن أهل صقلية الذين طلبوا العلم فى القيروان عبد الرحمن بن محمد الصقلى الذى ألف كتابا فى التصوف منها كتاب الأنوار فى علم الأسرار ، وكتاب كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين وغيرهما^(٤١) .

ولعل هذه اللمحات عن تأثير القيروان فى غيرها فى العلوم الشرعية يوضح لنا الأثر الكبير الذى قامت به القيروان فى نشر الشريعة الإسلامية فى تلك المدن والأقاليم قال عياض نقلا عن ابن عجلان الأندلسى مصورا تأثير سحنون بن سعيد أحد علماء القيروان « ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون فى أصحابه أنهم فى كل بلد أئمة » وقال ابن حارث حاكيا رأى أهل عصره « سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء دخل المغرب . كان أصحابه مصابيح فى كل بلدة عد له نحو سبعمائة رجل ظهوروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه »^(٤٢) .

(ب) وفى مجال العلوم اللغوية والأدبية :

يحدثنا ابن الفرضى أن قاسم بن أصبغ بن محمد القرطبى قد سمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر وغيرهما وقد برع فى النحو والغريب والشعر مع بصر بالحديث وقد

(٣٩) المكتبة الصقلية ص ١٩٢

(٤٠) ابن فرحون الديباج ص ١١٢

(٤١) احسان عباس العرب فى صقلية ص ١٤٥

(٤٢) عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٣

طال عمره وسمع منه كثير من اهل الأندلس الى ان توفي سنة ٣٤٠ هـ^(٤٣) .
وقد رحل الى الأندلس عبد الرحمن بن بكر بن حماد الشاعر القيرواني
فكتب عنه كثير من ابناء قرطبة اشعار أبيه^(٤٤) ، كما كان من علماء
اللغة الذين رحلوا الى صقلية لقمان بن يوسف الغساني الذي سبق أن
بيننا انه قد درس المدونة فيها وكان يحسن اللغة والنحو ولا شك أن من
ابناء القيروان الذين رحلوا الى صقلية من كان يقول الشعر ويهتم بالأدب
واثروا بذلك فيها الا أن المصادر لم تمدنا بأسماء أولئك العلماء .

(ج) وفي مجال العقائد :

نجد عبد الملك بن العاصي القرطبي الذي رحل الى القيروان
فسمع بها من علمائها كما سمع بمكة وبغداد وبعد ذلك عاد الى الأندلس
فنشر فيها علما كثيرا وكان متصرفا في علم الرأي حسن النظر فيه وكان
مشاورا في الأحكام وقد توفي سنة ٣٣٠ هـ^(٤٥) ، واحمد بن محمد
التميمي المعروف بالقصري الذي قرأ مرارا بصقلية كتاب تحديد الايمان
وشرائع الاسلام الذي ألفه يحيى بن عمر^(٤٦) . ولقد كانت الدولة الفاطمية
تحاول بث المذهب الشيعي بكل الوسائل في كل الشمال الافريقي وفي
صقلية بل امتد تأثيره الى ايطاليا وفرنسا^(٤٧) .

ويذكر الدكتور الحبيب الجنحاني ان القيروان كانت مؤثرا مباشرا
في انتشار مذهب المعتزلة في الأندلس^(٤٨) وان كنت لم أجد ما يشير
الى ذلك في المصادر التي رجعت اليها .

(٤٣) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ٣٦٦

(٤٤) نفس المرجع ٢٦٨

(٤٥) نفس المرجع ص ٢٧٤

(٤٦) المكتبة الصقلية نقلا عن الرياض ص ١٩٣ ، ١٩٤

(٤٧) يوسف الجزايرلي أرض البطولة ص ٢١٨

(٤٨) يوسف الجنحاني القيروان عبر عصر الازدهار ص ١١٨

(د) اما بالنسبة للعلوم الاجتماعية وخاصة التاريخ :

فوجد للقيروان تأثيرا وضحا في الأندلس : فاحمد بن سعيد الصدفى القرطبى الذى رحل فسمع بمكة ومصر نجده قد سمع أيضا بالقيروان من أحمد بن نصر ومحمد بن محمد اللباد وغيرهما وعندما انصرف الى الأندلس صنف تاريخا فى المحدثين يقول فيه ابن الفرضى بلغ فيه الغاية وقرئ عليه ولم يزل يحدث الى أن توفى سنة ٣٥٠ هـ^(٤٩) . ومحمد بن أسامة الحجزى من أهل سرقسطة وقد رحل الى المشرق وهو من مدنها ثم استقر أخيرا فى قرطبة وكان عالما بالأخبار وأسماء الرجال والف كتب كثيرة منها تاريخ علماء الأندلس وتاريخ قضاة الأندلس، وتاريخ الأفريقيين وكتاب فقهاء المالكية . وكتاب التعريف وكتاب المولد والوفاء وكتاب النسب وكتاب الاقتباس وقد ظل بقرطبة الى أن توفى بها سنة ٣٦١ هـ^(٥٠) وقد كان لحياة ومؤلفات ابن حارث فى الأندلس اثر كبير فى الناحية التاريخية كما نجد عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضى القرطبى قد رحل فى طلب العلم الى القيروان ومصر ثم عاد الى الأندلس وقد ألف كتاب تاريخ علماء الأندلس وهو من مراجع هذا البحث^(٥١) . وهذا يوضح تأثير القيروان فى الأندلس بالنسبة للعلوم الاجتماعية .

وقد قامت القيروان بتأثير قوى فى مجال الأوائل وخاصة الطب والصيدلة . وكان بيت الحكمة القيروانى من العوامل الدافعة الى قوة تأثير القيروان فى ذلك فقد ذهب خريجه الى كثير من الأماكن فى المغرب والأندلس لمعالجة المرضى^(٥٢) وقد قدم الى القيروان من قرطبة الطبيب أبو حفص عمر بن بريق حيث لازم أحمد بن الجزار ستة أشهر

(٤٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ٤٤

(٥٠) المرجع السابق قسم ٢ ص ١١٣ - عياض المدارك ج ٢ ص ٥٣١

(٥١) جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٧١

(٥٢) حسن حسنى ص ٢٠٩

وهو الذى ادخل الى الأندلس كتاب زاد المسافر لابن الجزار وغيره من الكتب الطبية حيث تلقاها عنه المهتمون بالدراسة الطبية^(٥٣) .

وقد شاع الطب فى صقلية فى بداية القرن الرابع بتأثير من القيروان^(٥٤) ومنها انتقل الى ايطاليا حيث أثرت مدرسة القيروان الطبية فى كلية سالرن بايطاليا ، كما انتقل جماعة من المترجمين القيروانيين الى ايطاليا فترجموا كتب أحمد بن الجزار وغيرها من الكتب العلمية فى الرياضة والنبات والطب والصيدة الى اللغة اللاتينية ومن هؤلاء المترجمين الذين قاموا بنقل العلوم العربية الى اللاتينية قسطنطين بن محمد القيروانى ويحيى بن أفلح ويحيى السراج وقد كانت القيروان بتأثيرها فى صقلية وبمشاركتها بالتدريس والترجمة فى كلية سالرن بايطاليا أسبق بالتأثير فى أوربا من مدرسة طليطلة وكانت مدرسة سالرن بهذا التأثير القيروانى دعامة للنهضة العلمية فى أوربا وخاصة فى العلوم الطبية^(٥٥) .

وإذا كنا قد رأينا كل هذا التأثير للقيروان على غيرها من الأقاليم المحيطة بها فى كثير من مجالات الحياة الفكرية . فإننا نلاحظ أيضا بداية لتأثيرها بغيرها وان كان تأثيرا قليلا الا انه دليل على تفاعل الحياة الفكرية فيها مع النمو الفكرى فى هذه الأقاليم . وقد بدأ ذلك فى حالات فردية لاحظناها خلال بحثنا فقد رأينا على سبيل المثال ان : دراس بن اسماعيل من مدينة فاس كان حافظا للرأى على مذهب مالك وقد رحل

(٥٣) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ١٠٧ ، حسن حسنى

الورقات ص ٣٠٨

(٥٤) احسان عباس العرب فى صقلية ص ١٢٢

(٥٥) عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ١١٦ ، ١١٧ ، أحمد

شوكت الشطى الطب عند العرب ص ١٤١ ، غستاف لوبون حضارة العرب ص ٥٧٧

الى مكة ولقى بالاسكندرية على بن ابي مطر وسمع منه كتاب ابن المواز
وحدث به فى القيروان وسمعه منه ابو الحسن ابن القابسي وابو محمد
ابن ابي زيد وقد رحل الى الأندلس ثم توفى بفاس سنة ٣٥٧ هـ^(٥٦) .
وسعيد بن شعبان بن قرّة الأندلسى سمع منه بالقيروان وكان كثير الكتب
ضابطا لما كتب ثم خرج الى صقلية فتوفى بها سنة ٢٩٥ هـ^(٥٧) ،
ومحمد بن اسامة الحجري من اهل سرقسطة وقد رحل الى المشرق وهو
شاب ثم قدم الى القيروان فتلقى عنه احمد بن نصر وغيره « مستخرجة
العتبي » وقد توفى ببلده سنة ٢٨٧ هـ^(٥٨) . ومحمد بن عبيد الله بن
أيوب القرطبي الذى رحل الى بغداد فى طلب الحديث وتلقى على العلماء
فيها وخاصة عبد الله بن أحمد بن حنبل واسماعيل قاضى بغداد وقد
نزل بعد ذلك القيروان وسمع منه علماء القيروان ومنهم عمر بن يوسف
ثم عاد الى الأندلس فتوفى بها سنة ٣١٧ هـ^(٥٩) ومنهم يحيى بن عمر بن
يوسف الذى رحل من الأندلس فسمع بالقيروان من سحنون كما رحل
الى مصر فسمع من علمائها ثم عاد الى القيروان واستوطنها حيث سمع
منه اهل القيروان وغيرهم وكانت الرحلة اليه فى وقته وقد توفى بمسوسة
سنة ٢٨٩ هـ^(٦٠) ويحيى بن عبد العزيز القرطبي الذى رحل الى مصر
ومكة وسمع من العلماء فيها وفى عودته مكث بالقيروان مدة سمع منه
فيها المستخرجة للمعتبي وغير ذلك من حديثه كما حدث عنه من اهل
القيروان احمد بن نصر وابو العرب محمد بن أحمد التميمي وقد توفى
بالأندلس سنة ٢٩٥ هـ^(٦١) .

(٥٦) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٤٦ ، عياض المدارك

ج ٤ ص ٣٩٥

(٥٧) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٦٣

(٥٨) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٨

(٥٩) نفس المرجع ص ٣٧

(٦٠) نفس المرجع ص ١٨٤

(٦١) نفس المرجع ص ١٨٥

كما نجد فى مجال تاثر القيروان بغيرها ما اشرنا اليه فى الترجمة سابقا من ان ابراهيم بن الأغلب الثانى قد اختار بعض المصنفات اللاتينية فى علوم الرياضة وكلف بعض الرهبان الصقليين الذين يعرفون العربية بترجمتها ومن ذلك كتاب بليزوس الرومانى فى علم النبات ، وكتاب تاريخ الأمم القديمة ليروتيم الرومانى^(٦٢) .

كما نلاحظ التأثير الناتج عن ايراد التسميات البربرية للنباتات فى المعاجم اللغوية التى جمعت بين العربية والبربرية وما قام به بعض العلماء من تسجيل لأنساب البربر وحروبهم وترجمة لأخبارهم^(٦٣) .

(هـ) سماتها :

وفى ختام هذا الفصل أحب أن اشير الى بعض المظاهر والسمات فى الحياة الفكرية فى القيروان والتى تدلنا على تمتع القيروان بالاستقلال الفكرى الذى نلمسه فى بعض مظاهر الحضارة فيها ومن بعض الحوادث التى وقعت بدون استقصاء لهذه الحوادث ولتلك المظاهر : ومن ذلك مؤذنة مسجد القيروان التى لها تأثير بعيد لا فى المغرب والأندلس فحسب بل فى بعض المآذن المصرية مثل مؤذنة مسجد الجيوشى وضريحه ومؤذنة مسجد قلاوون وقبتها بحيث أصبحت مؤذنة جامع القيروان تؤلف طابعا قيروانيا بحثا^(٦٤) وقد كان لطابع مسجد القيروان الفريد فى محرابه وقبابه ومؤذنته أثر كبير فى حمل المسلمين على بناء المساجد على نظامه فى المغرب والأندلس .

ومنها ما عبر عنه عبید الله المهدي بأنه رآه فى القيروان ولم يره فى المشرق عندما قال : « رأيت بافريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق

(٦٢) حسن حسنى الورقات ص ٢٠٣

(٦٣) عثمان الكعاك البربر ص ١٠٥ ، يوسف الجزايرلى أرض

البطولة ص ١٨٣

(٦٤) السيد محمود سالم بيوت الله مساجد ومعاهد ص ١٧٣

الحفير الذى بباب تونس (من ابواب القيروان) يعنى المساجل والقصر الذى بمدينة رقادة المعروف بقصر البحر »^(٦٥) ويضيف بعض المؤرخين قطرة باب الربيع^(٦٦) الى الأثرين السابقين . ومما يؤيد استقلال القيروان فى فكرها وبراعة أبنائها فى ذلك وذبوع شهرتهم ما ذكره صاحب الديباج من أن حماس بن مروان الهمدانى القيروانى أتى حلقة محمد بن عبد الحكم وتكلم حماس فصرف اليه ابن عبد الحكم وجهه ثم سأل ابن عبد الحكم عن مسألة من الجراح فأجابه ثم سأل عن أخرى فأجابه وجود فقال ابن عبد الحكم يمكن أن تكون حماس بن مروان قال نعم . وقد شهد لحماس بن مروان يحيى بن عمر بعد أن قدم من بغداد وشهد ما يدور فى حلقة حماس فقال : ما تركت فى بغداد من يتكلم فى انفعه بمثل هذا الكلام^(٦٧) كما تتمثل ظاهرة الاستقلال فى المؤلفات التى دونت فى الرد على المخالفين من الأحناف والشافعية والشيعة . وان ما حدث عندما ألف أبو محمد بن أبى زيد كتبه على الفكرية ونقض كتاب عبد الرحيم الصقلى بتأليفه الكشف وكتاب الاستظهار والاعتراض على كثير مما نقلوه من خارق العادات ثم رد جماعة من أهل الأندلس ومن أهل المشرق على ابن أبى زيد بتأليف كتب عدة^(٦٨) لخير دليل على حيوية الفكر القيروانى وعلى تتبع المراكز الفكرية لما يصدر عنه من أفكار ومؤلفات . كما ان فى امتداد تأثير الفكر القيروانى الى أوروبا عن طريق صقلية وإيطاليا وخصوصا فى علوم الأوائل كالطب والصيدلة والرياضة والفلك وغيرها لأقوى دليل على تقدمه وازدهاره الذى هو نتيجة للاستقلال والتحرر .

واننا عندما ننظر الى الحياة الفكرية فى القيروان نرى انها كغيرها من الحياة الفكرية التى نشأت فى غيرها من مراكز الفكر فى العالم

(٦٥) البكرى المغرب ص ٢٦

(٦٦) حسن حسنى ورقات ص ٣٧٤

(٦٧) ابن فرحون الديباج ص ١٠٨

(٦٨) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٩٥

خلاصة وافية عن البحث ونتائجه

مضى البحث فى مقدمة وثمانية فصول وستتبع الخلاصة
بتعريف بالمصادر وبعض الملاحق .

وكانت المقدمة عن الموضوع وأهميته والهدف منه والمنهج الذى
سيسير عليه البحث ، وتحدث الفصل الأول عن الفتح الإسلامى لأفريقية
وتأسيس القيروان فبين كيف كان الاتجاه لفتح برقة ضرورة لتأمين الاستيلاء
على مصر لاسيما وقد ظهرت مساعدة حاكم برقة لحاكم الاسكندرية .
ولنشر الدعوة الإسلامية التى جعلت العرب يخرجون من جزيرتهم وليس
للحصول على المغنم كما يدعى المستشرقون ومن يدور فى فلكهم .

وبين كيف تمكن المسلمون من الاستيلاء على برقة وطرابلس وبسطوا
سلطانهم على الأقاليم الداخلية لهما . وبذلك وقفوا على أبواب أفريقية
حيث استأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فى مواصلة الفتح ولكن الخليفة أمر عمرا بإيقافه الى أن كانت خلافة
عثمان بن عفان رضى الله عنه فأمر باستئناف الفتح بعد استشارة الصحابة
فى ذلك ، وتولى أمر الغزوة الأولى عبد الله بن أبى السرح سنة ٢٧ هـ
وانتصر المسلمون فيها على جرجير فى سببيلة وعاد عبد الله بعد الانتصار
الى مصر لأسباب دعتة الى ذلك بعد أن عقد صلحا مع أهل أفريقية .

ثم وضع توقف فتح أفريقية الى أيام معاوية بن أبى سفيان حيث
أرسل فى سنة ٤٥ هـ معاوية بن جديح فى عشرة آلاف جندى لفتح أفريقية
فاستولى المسلمون على جلولاء وموسمة وبنزرت وظهرت على يديه فكرة
إيجاد مصر إسلامى يكون مركزا للمسلمين فى أفريقية ، ولكنه عاد من
أفريقية الى مصر لى تسند القيادة فى أفريقية الى عقبة بن نافع الفهري
الذى أسس القيروان وأمن البلاد من الداخل بالاستيلاء على المدن والقرى
الداخلية وأشعر الروم والبربر بقوة المسلمين وقبل ان يتم بناء القيروان
عزل عن أفريقية سنة ٥٥ هـ وأُسندت قيادة أفريقية الى أبى المهاجر الذى

نازل قرطاجنة وعقد صلحا معها بعد ان استولى على جزيرة شريك .
ثم توجه الى المغرب الاوسط فوصل الى تلمسان واقام بها حوالي عامين
وصالح عجم افريقية وحاول نشر الاسلام بين البربر بعد ان انتصر على
كسيلة الاوربي الذي اعتنق الاسلام . ولكنه عزل عن الامارة وعاد عقبة
ثانيا لبتولى امر افريقية فعمر القيروان وجعلها موطنها ومقرا للمسلمين
ثم اتجه الى المغرب الأقصى فى حملته الكبرى الطويلة السريعة التى
تغلب فيها على الروم والبربر فى الزاب وتاهرت وتابع سيره الى المغرب
الأقصى وجاوزه الى بلاد السوس . وهو فى ذلك يدعو الى الله ويقيم
المساجد ويترك الدعاة الى الله فى هذه الأماكن وينتصر على كل من
يعترض سبيله . ثم قفل راجعا الى القيروان وعند تهودة كان استشهاد
على يد كسيلة الذى ارتد عن الاسلام وترأس الروم والبربر وزحف بهم
نحو القيروان فاستولى عليها بعد ان انسحب الجيش الاسلامي منها
وبقى حاكما عليها مدة خمس سنوات .

وكان استيلاء كسيلة على القيروان دافعا للمسلمين الى محاولة
استردادها واخذ الثار لمقتل عقبة بن نافع وقد اسندت هذه المهمة الى
زهير بن قيس البلوى الذى ظل مرابطا فى برقة مدافعا عنها الى أن اتاه
المدد الذى ارسله اليه عبد الملك بن مروان من الشام ومصر فتمكن بهذا
المدد بعد معركة قاسية من تحقيق الانتصار على الروم والبربر فى معركة
ممس التى قتل فيها كسيلة . واسترجع زهير القيروان وثبت هيبة المسلمين
وبث الفزع بين الروم والبربر لى لا يعاودوا مقاومة المسلمين ويعد ان
تم له ذلك قرر العودة الى المشرق وعندما مر ببرقة وجد حملة من الروم
تغير عليها فقاومهم الى أن استشهد هو ومن كان معه دفاعا عن أسرى
المسلمين .

واختار الخليفة عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى
ليثبت اقدام المسلمين فى افريقية ويقضى فيها على مقاومة الروم فى
انشمال ومقاومة البربر فى الجنوب وقد اطلق الخليفة يده فى أموال
مصر وأمدّه بجيش كبير بلغ أربعين ألفا تمكن به حسان من فتح قرطاجنة

وهزيمة الروم والبربر فى صطفورة • وكان ذلك ايدانا بقضائه على الروم
ثم توجه حسان الى جبال الأوراس ليلتقى بالكاهنة زعيمة البربر بعد كسيلة
فتقابل معها على نهر نينى ولكنها تمكنت من هزيمة حسان بعد معركة
شرسة فنى فيها كثير من أبطال العرب والبربر وتتبعته الكاهنة الى أن
خرج من حدود قابس وكانت نتيجة ذلك استطاعة الروم أن يسترجعوا
قرطاجنة من أيدي المسلمين وأن الكاهنة ملكت افريقية خمس سنوات أفست
خلالها فى افريقية فمهدت بذلك السبيل أمام حسان ليتمكن من هزيمتها
وقتلها بعد معركة حامية استعد لها حسان خير استعداد بالمدد الذى وصله
من الخليفة وبتقصيه الأخبار عدوه وقد نتج عن هذا الانتصار دخول
البربر فى الاسلام وانضوائهم تحت لوائه ليقاتلوا فى سبيل نشره •
وبعد القضاء على الكاهنة تمكن حسان من طرد الروم من قرطاجنة الى
الأبد • وبذلك قضى حسان على مقاومة الروم والبربر ونشر الأمن
والسلام فى ربوع البلاد ليستأنف مجهوداته فى سبيل الإصلاح الصناعى
باقامة دار الصناعة فى تونس لتكون تونس ميناء بحريا تجاريا تطل منه
القيروان على البحر المتوسط ، واقامة نظم ادارية ثابتة فى القيروان
وأعمال عمرانية أخرى كإصلاح مسجد القيروان وقد ضرب حسان بذلك
مثالا رائعا فى الحرب والسياسة التى أدت الى استقرار أقدام المسلمين
فى القيروان •

ووضح الفصل الثانى كيف كان تأسيس القيروان خطوة ناجحة فى
سبيل استقرار أقدام المسلمين فى افريقية ودفعهم الى العودة اليها اذا
ارغموا تحت هزيمة من الهزائم على الخروج منها ، وقد وفق عقبة ومن
معه فى اختيار مكانها لتقوم بالهدف المقصود من انشائها بحيث تكون
قاعدة حربية ودفاعية عن المسلمين ومنازة لنشر هداية الاسلام بين سكان
افريقية وما حولها ، ثم قاعدة للولاء الأمويين والعباسيين وللدولة الأغلبية
والفاطمية من بعد •

وبين الفصل كيف ابتدئ فى تأسيس القيروان بالمسجد ودار الامارة
ثم مساكن الجنود وأسرههم وقد بلغت مساحة دورها ثلاثة عشر ألف ذراع

وستمئة ذراع . وكان داخل المدينة ينقسم الى أرباض وحارات وشوارع وأزقة وأسواق ولقد أضيف الى القيروان بعد ذلك تحصينات حربية كالسور والمحارس وأقيمت بعض المساجد كمسجد الأنصار ومسجد الزيتونة وغيرهما من المساجد وأقيمت المصالح العامة كدار الدواوين ودار الضرب ودار الضيافة وأنشئت مشاريع المياه كالآبار والنواجل فى داخل المدينة وخارجها وبنى بالمدينة أسواق كثيرة أهمها سوق القيروان الكبير الذى يدعى (السماط) نظمت فيه المتاجر والصناعات كما بنيت بالقيروان الحمامات والمنتزهات والمستشفيات والملاجئ وخصص فى خارج المدينة أماكن لدفن الموتى (المقابر) .

كما أشار الفصل الثانى الى ما نشأ حول القيروان من مدن هامة كانت مقرا للحكام وأعوانهم حيث ازدهرت هذه المدن ازدهارا عظيما وهى مدينة القصر القديم ورقادة والمنصورية التى تبعد عن القيروان نصف ميل ونقل اليها أخيرا أسواق القيروان الا أن هذه المدن قد تخربت واندثرت ولم يبق منها سوى الاطلال وبقيت القيروان محتفظة بآثارها وتاريخها . كما رايت كل ذلك فى رحلتى اليها ولا تزال الحفريات قائمة لمعرفة المدى التى وصلت اليه تلك المدن من الحضارة .

وتحدث الفصل الثالث عن الحالة السياسية فبين كيف انه بعد استقرار الفتح فى أيام حسان بن النعمان توافد الولاة من بنى أمية وبنى العباس على القيروان وقد بلغ عددهم حوالى تسعة عشر واليا أولهم موسى بن نصير وآخرهم محمد بن مقاتل العكى وقد وطد موسى بن نصير سلطان المسلمين فى افريقية والمغرب ثم فتح الأندلس وعمل اسماعيل بن عبيد على نشر الاسلام بين البربر وتفقيهم فى الدين وقد مهد بشر بن صفوان أمور افريقية وغزا صقلية وسار خلفه عبيدة السلمى على نفس سيرته . اما ابن الحبحاب فقد نظم شئون القيروان وبنى المسجد الجامع بتونس وزاد فى دار الصناعة فيها وأرسل الولاة الى كل الأقاليم وفى أيامه بدأت ثورات البربر بقيادة ميسرة المدغرى حيث دارت معارك قتل فيها كثير من العرب والبربر وأدت الى انتقاض المغرب الأقصى والى استشهاد

كلثوم بن عياض أمير إفريقية الذى أسند اليه أمر القضاء على ثورة البربر ونتج عن ذلك انفصال المغرب الأقصى عن سلطة القيروان . وحاول البربر الصفرية الاستيلاء على القيروان ولكن حنظلة بن صفوان الكلبي والى إفريقية تمكن من الانتصار عليهم فى موقعة القرن والأصنام التى شارء فيها الرجال والنساء من أهل القيروان .

وبعد استقرار الأمر لحنظلة تمكن عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذى ثار بتونس من الاستيلاء على السلطة فى القيروان حيث نركها حنظلة كراهية لسفك دماء المسلمين وقد اعترفت الخلافة الاموية وهى تترنج للسقوط بعبد الرحمن بن حبيب فمكث واليا على إفريقية عشر سنوات اعترفت به خلالها الخلافة العباسية وتازمت الامور ثانيا فى القيروان ، فأرسل العباسيون محمد بن الاشعث فاسترجع القيروان ونشر الأمن والسكينة فى إفريقية ولكن الجند ثاروا عليه فرجع الى المشرق وأسندت ولاية إفريقية الى الاغلب بن سالم الذى حاول نشر السكينة فى إفريقية الى أن استشهد فأند المنصور أمر إفريقية الى عمر بن حفص وبعد ثلاث سنوات من امارته ثار عليه البربر الصفرية والاباضية بأعداد كثيرة وحاصره فى القيروان حتى استشهد وهو يقاتلهم فولى بعده يزيد بن حاتم الذى قضى على ثورات البربر ونشر الأمن فى إفريقية وجدد بناء المسجد الجامع ورتب أسواق القيروان . كما تولى أمر إفريقية هرثمة بن أعين فحاول اصلاح الامور فى إفريقية الا أنه استعفى من امارتها لما رأى من كثرة الثوار فيها فاستعفاه الرشيد وولى محمد بن مقاتل الذى أساء السيرة فاضطربت الامور وثار الجند عليه ولخرجوه من إفريقية ولكن ابراهيم بن الاغلب أعاده ثانيا فكره الناس امارته مما جعل الرشيد يستطلع رأى خاصته فأشاروا بتولية ابراهيم بن الاغلب الذى كانت ولايته ايذانا بقيام الدولة الأغلبية ، ونلاحظ على هذه الفترة كثرة الولاة وكثرة الثورات من الخوارج وبعض زعماء الجند وتوالى ارسال الجيوش الى إفريقية . وكان لهذه الثورات تأثير فى الحياة الفكرية فى القيروان وخاصة فى

الناحية العقائدية كما نلاحظ اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وبارسال كبار رجال دولتهم اليها خسية انفصال افريقية عن الخلافة . ولكن افريقية حصلت على نوع استقلال بتولية ابراهيم بن الأغلب . كما كان لظاهرة تتابع الجيوش على افريقية من المشرق أثر في سرعة تعريب البلاد وسيادة اللغة العربية في افريقية .

وكانت تولية ابراهيم بن الاغلب ايذاً بقيام عصر الاغالبية وباستقلال افريقية استقلالاً داخلياً ، وكان ابراهيم يتصف بصفات اعانتة على النهوض بافريقية والرقى بها وقمع الثورات التي قامت ضده وبنى بجوار القيروان مدينة لتكون عاصمة لامارته وعهد بولاية العهد بعده لابنه عبد الله الذى توفى بعد خمس سنوات من ولايته . وكانت الامور فيها هادئة مستقرة فتولى الامور زيادة الله الاول حيث قامت ضده بعض الثورات تمكن من قمعها ثم انصرف الى القيام بالأعمال الاصلاحية من بناء للمساجد والقناطر وتحصين للبلاد وتكوين جيش واسطول قوى تمكن به من فتح صقلية وضمها الى سلطان القيروان . وقد تولى الامر بعده أخوه الاغلب الذى قام بتحسين حالة الجيش والرعية وتابع السرايا الى صقلية الى أن توفى فتولى الأمر ابنه محمد بن الأغلب الذى حاول نشر العدل بين الرعية والأخذ على يد الظالمين وولى سحنون شئون القضاء وتابع عماله على صقلية الغزو والفتح وقد مهد ذلك السبيل لمن تولى بعده وهو أحمد بن محمد ابن الأغلب الذى احسن السيرة فى الرعية واتصف بالسماحة والكرم وقام بأعمال عمرانية ودفاعية عن البلاد وفى عهده فتحت قصرية من مدن صقلية وبعد وفاته تولى زيادة الله الثانى الذى لم يطل عمره فتولى أمر افريقية أبو الغرائيق محمد بن أحمد ففتحت فى عهده جزيرة مالطة وقد أسرف فى تبذير الأموال وفى اللهو واللعب فكان بيت المال خاوياً بعد وفاته وأسند أهل القيروان ومشايخها الولاية بعده الى ابراهيم ابن أحمد الذى أصلح أمور الدولة وقضى على البغى والفساد وبنى الحصون والمحارس واهتم بالتجارة وبنى مدينة رقادة وتابع الفتوح

في صقلية ورد الحملة التي قدمت الى افريقية من مصر وفي آخر أيامه كان ظهور الدعوة الفاطمية في بلاد كتامة . وختم حياته بالجهاد في صقلية فتولى بعده ابنه عبد الله الذي اتصف بالعقل والشجاعة وحسن السيرة في الرعية وقد عامل ابنه زيادة الله بالحزم والسدة مما جعل زيادة الله يتآمر على أبيه ويقتله وتولى زيادة الله الأمر بعده فعامل أسرته معاملة سيئة أضعفت الدولة وانهك في لهوه وملذاته وأهمل شئون الدولة وقد مكن كل ذلك عبد الله الشيعي من القضاء على الدولة الأغلبية واضطر زيادة الله الى الفرار الى المشرق لأجمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ .

وكانت هناك أجهزة تساعد الأمير على ادارة شئون الامارة وأهمها الوزير الذي كان يشرف على دواوين الدولة ، وهو ديوان الجيش الذي يشمل القوات البرية والبحرية والشرطة وديوان الجباية الذي يهتم بدخل الدولة ونفقاتها وديوان الرسائل الذي يحرر المكاتبات .

وقد استطاع أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين في افريقية أن ينشر الدعوة الفاطمية فيها وتمكن بقبيلة كتامة ومن تبعه من البربر الذين اعتنقوا المذهب الشيعي من أن يتغلب على جيش زيادة الله وأن يستولى على المدن الافريقية واحدة بعد الأخرى وكانت المعركة الحاسمة بين الشيعة وجيش الأغالبة في الأريس حيث انجلت عن انتصار الشيعة فيها مما حمل زيادة الله على مغادرة افريقية فدخل عبد الله الشيعي القيروان ورقادة وتولى مقاليد الأمور فيها في رجب سنة ٢٩٦ هـ ثم استنقذ عبيد الله المهدي من سجن سجلماصة حيث بويغ بالخلافة ثم توجه المهدي الى رقادة فذكر اسمه في الخطبة وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وأخذ يدير شئون البلاد ويعين الولاة على الاقاليم . وقد قضى عبيد الله المهدي على الثورات التي قامت ضده كما قضى على عبد الله الشيعي مؤسس الدولة لتآمره عليه ، وحاول فتح مصر مرتين ولكنه لم يفلح في محاولته . وأنشأ المهدي عاصمة خلافته المهدية وانتقل اليها وعمل على نشر سلطانه في المغرب الاوسط.

والأقصى . وتابع الحملات على بلاد الروم وبذلك بسط سلطان الخلافة على البلاد من برقة الى المغرب الأقصى وعلى صقلية وقد تولى الخلافة بعد وفاة المهدي ابنه القائم الذي ثبت أقدام الخلافة في المغرب وارسل أسطولا استولى على جنوة بإيطاليا وأثخن في بلاد الروم وحاول الاستيلاء على مصر فلم يفلح أيضا وفي أيامه قام أبو يزيد مخلص ابن كيداد الخارجي الصفري بالثورة عليه وهزم جيوش الفاطميين واستولى على معظم البلاد وحاصر القائم في المهدي فاستعان القائم بصنهاجة حيث واصل الحرب للقضاء على أبي يزيد وتوفي القائم أثناء ذلك فحمل عبء القضاء على أبي يزيد خليفته المنصور الذي تمكن بعد مطاردة شاقة لأبي يزيد من القضاء عليه وعلى ثورته التي كادت تذهب بالخلافة الفاطمية وبعد انتصار المنصور عليه بنى مدينة صبرة على نصف ميل من القيروان ونقل مقر الخلافة إليها ، وبعد أن أدركته الوفاة تولى الخلافة رابع الخلفاء الفاطميين وآخرهم بالمغرب المعز لدين الله الذي نشر الأمن في البلاد وناوش أسطوله الأمويين في الاندلس وهدد بنقض الهدنة مع الروم عند اغارتهم على أقرطش وارسل المعز حملة بقيادة جوهر الصقلي بسطت الأمن في المغرب الأوسط والأقصى وقضت على العصاة وبعد أن استقر له الأمر في المغرب وجه المعز جهده الى المشرق فأعد حملة أمر جوهر الصقلي عليها وزودها بكل ما يستطيع . وقد سهل ضعف مصر السياسي والاقتصادي آنذاك ووضع الخلافة العباسية في المشرق على جوهر الاستيلاء على مصر بدون قتال يذكر وتابع جوهر بسط النفوذ على الشام والحجاز وبنى مدينة القاهرة ودعا المعز للقدوم الى القاهرة واستعد المعز للرحيل الى مصر وعين ولاته على المغرب وصقلية ورحل من افريقية في صفر سنة ٣٦٢ هجرية متوجها الى مصر فدخلها في رمضان سنة ٣٦٢ هـ وبذلك انتقلت الخلافة الفاطمية من افريقية الى مصر وصارت افريقية امانة تابعة لمصر . وقد اعتمد الفاطميون في سياستهم على أنصارهم الشيعيين وكان لهم جهاز سرى منظم يبين لهم حالة الرعية والحكام . وكانت البلاد مقسمة الى ولايات يعين الخليفة الوالى

لكل منها والوالى مسئول عن ادارة شئون ولايته وحمايتها والدفاع عنها والى جانب الوالى كان يوجد عامل الخراج والقاضى وصاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين بما يؤدى الى ادارة الولاية ادارة حسنة هذه لمحة عن الحالة السياسية .

أما الفصل الرابع فقد تحدث عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية :

فبين أنه بعد أن استقرت أقدام المسلمين فى القىروان وجهاوا عناية كبيرة الى الاهتمام بالحياة الاقتصادية فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة . وفى الزراعة : تنوعت المحصولات وجلبت الى القىروان أنواع لم تكن موجودة ووزعت الأرض الموات وأقيمت مشاريع الرى للاحتفاظ بمياه الأودية لينتفع بها فى الزراعة كما اهتموا بتربية المواشى .

وفى الصناعة : عنى المسلمون بصناعة السفن الحربية والتجارية وآلات الحرب وسك النقود وصناعة المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية والكتانية وكان فى القىروان مصنع خاص يسمى دار الطراز لصنع الأقمشة الراقية كما وجدت صناعة دبغ الجلود التى تستعمل للكتابة عليها أو للسروج والاحذية والمناطق وتجليد الكتب وظهرت الصناعات الخشبية التى ظهر فيها الفن الدقيق . وصناعة الصدفيات والعاجيات وصناعة المزجاج والبلور وقد رأيت بنفسى بقايا من صناعات الزجاج والبلور فى الحفريات الموجودة فى القىروان الآن كما اشتهر القىروان بصناعة المعدنيات على اختلاف أنواعها وخاصة صنع المجوهرات والفضيات وصناعة الخزف المطفى وصناعة الورق والكاغد والصابون ووجه اهتمامه الى النعدين والمناجم وخصص مكان لكل صناعة فى المدينة مما أدى الى التنافس والرقى فى الصناعات .

وقد نشأ عن التقدم الزراعى والصناعى نشاط تجارى واسع : فكانت القىروان سوقا كبيرا للمنتجات الزراعية والصناعية ومقرا للتجارة الداخلية والخارجية . وقد نظمت فيها الأسواق حسب السلع المباعة وأنواعها وكان كثير من منتجات القىروان تصدر الى الخارج

كما يرد اليها بعض السلع من الخارج وبذلك كان للقيروان علاقات تجارية مع مالى • والبلاد الواقعة حول بحيرة تشاد ومع غيرها من البلاد شرقا وغربا وساعدها على ذلك موقعها الجغرافى المتوسط وكثرة مراسيها فكانت البضائع تخرج من العاصمة محمولة على القوافل الى السودان أو على طريق البحر الى مصر وصقلية والاندلس والمغرب •

ولقد ساعد هذا التقدم الاقتصادى فى الزراعة والصناعة والتجارة على القيام بالمشروعات الكثيرة التى كانت تقوم بها السلطة الحاكمة فى القيروان من بناء للمدن والحصون والأسوار وانفاق على الاسطول والجيش والفتوح وغير ذلك من أوجه الانفاق فى المشاريع الداخلية فى الصحة والصناعة وبناء المساجد والمستشفيات وغيرها وقد مكن هذا الازدهار الاقتصادى القيروان من التغلب على بعض الأزمات الاقتصادية التى كانت تعترها فى بعض الأحيان وضمن لها وضعا اقتصاديا ممتازا •

كما بين فى هذا الفصل أن الحياة الاجتماعية فى القيروان بدأت منذ تأسيسها وكانت تتسم بالروح العسكرية فى بداية أمرها ومع مطلع القرن الثانى الهجرى زخرت القيروان بالسكان من مختلف الامصار الاسلامية وصارت بيئتها الاجتماعية تتألف من عرب وأفارقة وبربر وروم وكانت طبقات المجتمع حسب الأعمال التى يقومون بها تتكون من طبقة الحكام وكبار رجال الدولة وطبقة التجار وطبقة المثقفين والطبقة الشعبية من الجنود وأصحاب الحرف اليدوية ومنهم الفلاحون والارقاء • وكان فيها رأى عام جماعى كثيرا ما حمل الحكام على مراعاته وعلى أن يكون له أثر فى تصرفات الحكام وسلوكهم تجاه الرعية ويمكن الإشارة الى المظاهر الاجتماعية فيما يلى :

١ - السلوك الاجتماعى العام :

حيث شاع العدل وارتفع الظلم وحارب المنكر وروعت المصلحة انعامه وانتقد كل عمل يخالف قوانين المجتمع •

٢ - وضع المرأة في القيروان :

حيث شاركت الرجل في الدفاع عن المدينة وحمل السلاح معه جنباً الى جنب مع رعايتها لشئون بيتها ، وقامت ببعض الاعمال اليدوية داخل المنزل وكانت تتمتع بشخصية قوية وبالحرية الكاملة مما أدى الى قلة تعدد الزوجات في القيروان وأدى هذا الوضع المنصرف للمرأة الى تماسك الاسرة وقوة بنيانها وشدة تأثيرها في المجتمع القيرواني .

٣ - في اللباس :

كان له أنماط مختلفة ومناسبات لكل نمط يلبس فيها حسب المناسبة وخاصة بالنسبة للمرأة . وتوجد نماذج من اللباس القيرواني في مختلف الباردو بتونس شاهدها أثناء زيارتي له .

٤ - في الطعام :

حيث كان هناك ألوان متعددة منه : بعضه جاء به العرب والبعض الآخر اقتبس من البربر وبعضه رثي في الطعام والبعض الآخر للتفكه .

٥ - في المواكب :

كانت تقام بعض السراقات وتعد بعض الزينات في المناسبات . و اقيمت بعض المصليات للاجتماعات العامة كصلاة العيدين والاحتفال بالمواسم وبيعة الأمراء .

٦ - في الهبات والثروة والترف :

العطاء بسخاء الذين كان يعطى للقاصدين أو يباح للرعيه أو يفرق عليهم في المناسبات كما حدث عند ختان أبناء المعز .

٧ - التسلية والملاهي :

في أيام العطلات وفي الأفراح والأعياد فكانت توجد ألعاب القروسية

واللعب بالحرايب وكان هناك ربح البقرية في طرف القيروان الذي يجتمع
الشبان فيه يطربون بسماع آلات الطرب ورقص الغانيات .

٨ - الصحة والنظافة :

حيث اهتم بالنظافة وبالشئون الصحية حيث كثر الأطباء وأقيمت
المستشفيات التي خصص بعضها للأمراض المعدية كما وجدت الحمامات
العامة وكانت الشوارع واسعة والأسواق منظمة مما ساعد على نظافة المدينة
وأدى الى التقدم الصحى .

٩ - الأمن والروح العسكرية :

كان هناك حراس بالليل وبالنهار يحافظون على الأمن وينشرون
السلام ويقبضون على من يحاول العبث به وكان هناك المراقبون
للأسواق لمنع الغش والاحتكار أو التلاعب بالأسعار وفي أيام عبيد الله
المهدى والمعز حاولا نشر الروح العسكرية فيها خاصة بين الاتباع من
الشيعية وحاول المعز أن يكون المجتمع متماسكا خلقيا وعسكريا وبذلك
توطدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشاع الأمن وظهرت الروح
العسكرية ، وصارت الأمة قوية تمكنت من تحقيق سلامتها وأمنها
ونشر سلطانها على الشمال الافريقى كله وجزر البحر المتوسط بل تمكنت
من فتح مصر وبسط سلطان الفاطميين عليها .

وتحدث الفصل الخامس من بداية الحياة الفكرية :

ووضح انه قد ابتدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية
وكان الأساس لها القرآن الكريم والحديث والفقه والتفسير . وقد
اضطلع صحابة رسول الله ﷺ والتابعون من بعدهم بهذه
المهمة فكانوا هم الذين وضعوا فيها بأيديهم بذور الحياة الفكرية لتنمو
وتزدهر وتمتد أغصانها وفروعها وفىء الى ظلالها الراغبون من كل
مكان وقد تيمن البحث بذكر أسماء هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم .
كما ذكر بعض أسماء التابعين وخاصة من كان له مساهمة في غرس
الحياة الفكرية في القيروان .

وعن هؤلاء الصحابة والتابعين تلقى ناشئة العرب وأبناء الأفاارقة
والبربر الذين شرح الله صدورهم للإسلام القرآن الكريم والسنة النبوية
والتعاليم الدينية .

وأثناء خلافة عمر بن عبد العزيز أرسل بعثة من الفقهاء الى
القيروان لتعليم الناس ونشر الثقافة الاسلامية فيها حيث بنى كل منهم
فى القيروان دارا ومسجدا وكنابا أو مدرسة صغيرة ليحفظ الصغار
القرآن ويتعلم الكبار الحديث والاحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول
ﷺ وغزواته وقد ترجم البحث لكل منهم بايجاز مع التركيز على
الجانب الفكرى الذى قام به كل منهم . وكان المجهود الذى قام به أولئك
الدعاة باعثة لبعض أبناء القيروان على الرحلة الى المشرق للاستفادة
من العلوم الشرعية فى المشرق وكان من أبرع وأشهر هؤلاء الذين ابتدوا
الرحلة الى المشرق :

١ - عبد الرحمن بن أنعم :

الذى تلقى عن التابعين فى القيروان وبرع فى العلوم الشرعية
والعربية وقد روى عنه بعض أبناء المشرق كسفيان الثورى وابن لهيعة
وكبار أصحاب أبى حنيفة وقد تولى قضاء القيروان آخر أيام الخلافة
الأموية كما ولده محمد بن الاشعث قضاء الفيروان بأمر المنصور فمكث
قاضيا الى صدر ولاية يزيد بن حاتم فتخلّى بنفسه عن القضاء وكان
صريحا فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم سواء مع الخليفة فى بغداد
أو الأمير فى القيروان فكان طول حياته رفيع القدر معظما فى صدور
الناس الى أن أدركته الوفاة سنة ١٦١ هـ فدفن بباب نافع .

٢ - عبد الله بن فروخ الفارسى :

الذى تلقى العلم فى القيروان وكان ورعا حافظا للحديث والفقهِه
جاهرا بالحق لا يخشى الا الله سبحانه وتعالى ثم رحل الى المشرق
فلقى مالك بن أنس وسفيان الثورى وبعض التابعين كما صحب أبا حنيفة
وذاكره وأخذ عن هشام بن حسان الاسدى أحد كبار محدثي

البصرة وقد كان ابن فروخ متحرر الفكر فهو أول من اظهر آراء اهل العراق بالقيروان وكان مالك يجله ويجلسه الى جواره ويجعله يفتي في مجلسه وقد قام بنشاط كبير في تعليم الناس في القيروان فكان له منزلة كبيرة فيها وفي غيرها وكان البعض يرميه بالاعتزال الا انه تبرأ من ذلك . وارغمه روح بن حاتم على تولى القضاء ولكنه استطاع ان يستعفى منه ويشير بتوليته ابن غانم بدلا عنه ثم خرج الى مصر فتوفي بها ودفن بالمقطم .

٣ - البهلول بن راشد الرعيني :

الفقيه الزاهد الذي تعلم بالقيروان ورحل الى المشرق فسمع بمكة والمدينة من مالك والثوري وغيرهما وكان مالك ينظر اليه ويقول هذا عابد بلده وكان لا يسلم ولا يرد السلام على أهل الاهواء ويعظم الجهاد وطلب العلم وقد تعلم منه جلة العلماء بالقيروان . وله كثير من الادعية الماثورة كان يناجي بها الله سبحانه وتعالى ويعلمها تلاميذه ليسيروا على نهجها وقد بلغت شهرة البهلول الى سمرقند في خراسان . وقد كان استشهاد البهلول نتيجة لجهره بالحق ونصحه لامير افريقية سنة ١٨٣ هـ .

٤ - عبد الله بن غانم الرعيني :

الذي تلقى ثقافته بالقيروان ثم رحل الى الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وأبى يوسف وغيرهما من العلماء وقد قدره مالك وقال عنه : هذا قاضى بلده ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته على أن يقيم عنده . وقارنه الشيرازى بقاضى البصرة وكان يقرأ لتلاميذه فقه أبى حنيفة يوما في الاسبوع وولى القضاء في القيروان وهو ابن اثنين وأربعين عاما فخصص يوما للفصل في خصومات النساء وقد ذكرنا بعض ما كان يتصرف به في قضائه خاصة عندما تكون الخصومة مع الحكام وعدم خوفه منهم وكان الخليفة يخبر ابراهيم بن الأغلب بأنه لا يفك كتابه الا اذا كان معه كتاب ابن غانم القاضى . ولذلك كان ابراهيم يحذره ويحاول كسب رضاء ابن غانم ويكتم غيظه عندما يقف

ابن غانم فى وجه تصرفاته الخاطئة وقد توفى ابن غانم وهو قاض
سنة ١٩٠ هـ .

ومن هنا نرى ان بذورا للمذهب المالكي والحنفى قد وصلت الى
القيروان مع بدء الرحلة مما يوضح لنا خطأ من يقول ان اهل القيروان
كانوا حنفيين او اوزاعيين . كما ان علماء القيروان برحلتهم الى المشرق
اضافوا الى ما كان عندهم من علم الصحابة والتابعين فى القيروان علم
الصحابة والتابعين فى المشرق ، وكان من علماء القيروان من له نظر
واستدلال بالنسبة للمذاهب كابن فروخ ومن يعتمد على مذهب مالك
ومع ذلك يقرأ فقه أبى حنيفة لتلاميذه يوما فى الاسبوع كابن غانم مع
حرصهم على الجهر بالحق فى كل الظروف وكان هذا الجيل من العلماء
ممهدا لازدهار الحياة الفكرية فى هذه العلوم .

ولقد اتسمت القيروان منذ نشأتها بأنها نصر اسلامى يقع على كاهله
واجب كبير وشاق فى نشر الدعوة الاسلامية وتعميم اللسان العربى
فى هذه البقاع وقد تمكنت القيروان فى النهاية من ذلك وساعدها على
نشر اللغة كثير من الامور منها الدعوة التى اسست من أجلها والكتاب
الذى جاء بها ثم النشاط الذى أبداه المسلمون العرب فى فتح الكتابيب
وجعل اللغة العربية لسان للدولة الرسمى والصلة التى تربط بين
اللغة العربية والفينيقية السابقة التى خالطت البربرية منذ امد بعيد .
بالاضافة الى خصوبة اللغة العربية وضحالة اللغة البربرية ثم طول امد
الفتح وغير ذلك من الامور التى ساعدت على انتشار اللغة العربية
وجعلها لغة للبلاد ووعاء لادابها . من خطابة : ظهرت على ايدى القواد
والفاتحين والولاة وقد حفظ لنا التاريخ بعض نماذجها وهى تبين الدور
الذى قامت به فى بداية الحياة الفكرية وقد ذكر البحث نماذج منها .
وشعر : صور لنا الأفكار التى كان يدور حولها من حث على الشجاعة
ومقاتلة للبربر والخارجين على الولاة . وقد امدنا المؤرخون ببعض أسماء
الشعراء الذين وفدوا على ولاة القيروان وبععض شعرهم الذى تردد
صداه فى القيروان وقد سكن بعض هؤلاء الشعراء القيروان وتلقى

عنهم أبناءها أشعار الجاهليين والمخضرمين كالحكم بن ثابت السعدي وعامر بن المعمر التيمي .

ولم تخل القیروان فی بداية الحياة الفكرية من الكتاب أيضا وقد ذكر المالکی أن دجین بن عامر الحجری كان یکتب لعقبة بن نافع وكان ترتیب حسان للدواوین عاملا علی رقی الكتابة كما كان أحد ولادة القیروان ممن تولى الكتابة قبل ولايتها وهو عبد الله بن الحبحاب ویذكر ابن النديم عن خالد بن ربيعة الافریقی انه مترسل بلیغ رحل الی المشرق ونسأ فی الدواوین وله رسائل مجموعة فی الادب وقد تولى الكتاب لعبد الرحمن بن حبیب الفهری وله صداقة بعبد الحمید بن یحیی الكاتب . أما الحسن بن سعید البصری فقد كتب لیزید بن حاتم واستفاد بعلمه الجم وأدبه الغزیر کثیر من شباب القیروان .

وفی هذه الفترة سعدت القیروان كذلك بقدم بعض علماء اللغة والنحو من المشرق وعنهم أخذ أبناء القیروان أصول اللغة وأشعارها وایام العرب وأخبارها ووقائعها .

ومن هؤلاء العلماء عیاض بن عوانة الکلبی الکوفی الذی اشتهر بمعرفة النحو ورواية اللغة وتعلم علی یدیہ النحو والعربية وآدابها أبناء القیروان وخاصة أبو الولید المهری الذی تثقف بعلمه الغزیر كما حظیت القیروان بقدم یونس بن حبیب الضبی البصری الذی سمع من أبی عمرو بن العلاء وتلقى العلم عنه الکسائی والفراء وروی عنه سیبویه ولا شك ان أبناء القیروان قد اغتنموا فرصة وجوده فحاولوا الاقتباس من علمه الغزیر وأدبه الجم وروایته الواسعة . وقتیبة الجعفی الکوفی صاحب الکسائی الذی وفد علی یزید بن حاتم فی القیروان فروى عنه جماعة من أبناء القیروان الشعر ووقائع العرب واستفادوا منه فائدة جمّة .

وعلى أیدی هؤلاء العلماء تخرج باکورة أبناء القیروان فی النحو واللغة والشعر وفی مقدمتهم امان بن الصمصامة الذی قال عنه الزبیدی انه عالم باللغة والشعر حافظ للقریض وشاعر مفوه . وقد ألف جزءا

فى النحو واللغة والشعر رواه عنه تلميذه عبد الملك المهرى . وكان ذلك
اىذا نا بازدهار العلوم العربية فيما بعد .

وخلال القرن الأول كان سكان القىروان مشغولين بالفتح ونثبىت
أقدام المسلمين يأخذون بالكتاب والسنة دون لجوء الى تأويل ، وفى
مطلع القرن الثانى الهجرى انعكس على الحياة العقلية فى القىروان
بعض ما كان يدور فى المشرق من مناقشات أثارتها الفرق المختلفة
(من مرجئة ومعتزلة وقدرية وخوارج) حول مسألة الايمان وهل
العمل جزء منه أم لا ؟ ومسألة علاقة صفات الله تعالى بذاته ، وحرية
الارادة الانسانية والامامة ، وكان اهل السنة متشددىن ضد
من يميل او يأخذ بهذه المذاهب .

هذا ما يمكن أن نلاحظه مما ذكرته لنا المصادر عن هذه الفترة فقد ذكرت
أنه كان يوجد بالقىروان ابن صخر المعتزلى وسقيفة العراقى وعند وفاة
ابن صخر المعتزلى أبى علماء السنة أن يصلوا على جنازته وقالوا « كل
حى ميت » ونرى البهلولى يهدد تلميذا له تمنعه من حضور درسه لأنه
انصت الى المتناظرىن فى حلقة سقيفة المعتزلى ، ونرى الاعتزال تهمة ىرمى
بها علماء السنة كما حدث مع عبد الله بن فروخ حتى نفاه عن نفسه
وهذا يبين لنا وصول آراء الاعتزال الى القىروان واعتناقها من بعض
العلماء . كما تمدنا المصادر بأن يحى بن سلام نفى عن نفسه اعتقاد
الارجاء مما يدل على أن الارجاء كان معروفا وان البعض كان يعتقد به .
وقد قدم الى افريقية فى بداية القرن الثانى الهجرى أفراد من الخوارج
الصفرية المتطرفىن الذىن يستحلون سفك دماء المسلمين وسبى وقتل اطفالهم
ونسائهم وبثوا نحلتهم بين البربر فى المغرب الاقصى وعندما كثر جمعهم
وقويت شوكتهم قدموا الى القىروان يريدون الاستيلاء عليها الا أن حنظلة
بن صفوان تمكن من دحرهم فى موقعتى القرن والأصنام ولكنهم عادوا
فتمكنوا من الاستيلاء على القىروان وعاثوا فيها فسادا وبذلك كانت افكار
الخوارج الصفرية معروفة لاهل القىروان خاصة للعلماء منهم الا أن أحدا
من اهل القىروان لم يعتنق مذهب الصفرية ، وقد قدم من المشرق سلمة

ابن سعيد بمذهب الخارج الاباضية وتلقاه عنه بعض ابناء افريقية الذين رحلوا الى البصرة خاصة لتعلمه فتلقوا المذهب على ابي عبيدة مسلم ابن ابي كريمة البصري احد علماء الاباضية المشهورين ومكثوا عنده في البصرة خمسة اعوام ثم عادوا الى افريقية حيث نشروا المذهب الاباضي ومن يومها والمذهب الاباضي معروف بافريقية وقد تمكن الخوارج الاباضية من طرد الخوارج الصفرية من القيروان واستولوا عليها الى أن أخرجهم محمد بن الاشعث منها ليسود فيها مذهب اهل السنة وتعود الى سلطة الخلافة العباسية .

ولم يذكر لنا أحد مؤرخي الطبقات انه كان للخوارج في هذه الفترة في القيروان حلقات ييثون فيها تعاليمهم في القيروان لنشر مذهبهم وعقائدهم .

وقد عرفت القيروان خلال هذه الفترة شيئا عن علم الطب والعناية بالصحة فقد كان موجودا بها يوحنا المتطبيب طبيب يزيد بن حاتم وهو دليل على وجود الفكر الطبى الذى سوف يؤدى بعد ذلك الى ازدهار الحياة الطبية فيها .

وكان كل ذلك تمهيدا لازدهار الحياة الفكرية في القيروان الذى خصص له الفصل الرابع :

الذى بين ان ازدهار الحياة الفكرية كان مصاحبا لقيام الدولة الاغلبية واستمر الازدهار خلال الدولة الفاطمية حيث شملت جميع العلوم والفنون ودامت الرحلة خلال هذه الفترة الى المشرق وقد ادى ازدهار الحياة الفكرية في القيروان الى جعلها مقصدا للطلاب من شتى الاقاليم حولها . من المغرب الاوسط والاقصى والاندلس وصقلية . وقد ساد في القيروان خلال هذه الفترة المذهب المالكي وكان المذهب الحنفي يليه في معرفة العلماء او التمهيد به . ولكن ذلك لم يمنع من ان يكون من بين علماء القيروان من يميل الى المذهب الشافعي ويدرسه او يرد عليه . وكان هناك من يسمع من عالم

حنبللى وصل كذلك الى القيروان كما وجد الفقه الشيعى عند قيام الدولة الفاطمية . وبذلك نرى المذاهب الأربعة المشهورة والمذهب الشيعى قد وصلت الى القيروان وان كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الاتباع وبعضها لا يعتنقه الا أفراد قلائل . وفى ذلك دليل على أن كل الآراء التى كانت تدور حول التشريع الاسلامى فى أرجاء العالم الاسلامى كانت معروفة وتدرس فى القيروان . وقد ساعد على ذلك علاوة على الرحلة قدوم العلماء الى القيروان والمناظرات التى كان الحكام يشجعون على عقدها بين العلماء وصولا الى وجه الصواب فى مسألة من المسائل أو مشكلة من المشكلات مما أدى الى الازدهار فى الفقه والتشريع وقورن علماء القيروان بغيرهم من علماء مصر ومكة والمدينة .

وكان الوثائم والصفاء بين المذاهب سائدا فى بعض الأوقات متأزما فى بعضها الآخر يصل أحيانا الى الضرب والتشريد والتعذيب الذى يؤدى فى بعض الحالات الى القتل خاصة عند قيام الخلافة الفاطمية وحملها للعلماء على اعتناق مذهبها ومقاومة علماء المالكية للشيعية بحيث كان الانتصار لهم فى النهاية ويبدو أن بعض المؤرخين قد اشتطوا فى وصف الاضطهاد بين المذاهب نتيجة الميل الى مذهب من المذاهب وان كان من المحتمل وقوع بعض الأخطاء نتيجة لانهايار حكم وقيام حكم آخر . ولكن هذا الاحتكاك بين المذاهب فى القيروان قد دفع الى بذل كل الطاقات الكامنة فى سبيل دفاع علماء كل مذهب عن مذهبهم مما أدى الى اثراء الحياة الفكرية بالأفكار والآراء وكانت مجالا لظهور علماء للشيعية كانوا يدرسون مذهبهم ويعلمونه للناس مما أضاف الى الفكر التشريعى عنصرا جديدا ومن نبغاء الفقهاء فى هذه الفترة .

١ - أسد بن الفرات :

الذى رحل الى المشرق فالتقى بمالك بن أنس وأبدى شغفا بالبحث عن المعرفة أدى الى تقدير مالك له . وفى العراق التقى بأصحاب أبى حنيفة وكان نهما أيضا الى المعرفة ثم رجع الى مصر فالتقى بابن القاسم وكتب عنه الاسدية يسأل أسد ويجيب ابن القاسم حتى دون ستين كتابا

بطريقة المراجعة بينه وبين ابن القاسم وقد ادرك اهل مصر قيمة العمل الذى قام به أسد فنسخوه منه واخيرا عاد أسد الى القيروان ليقوم بدوره فى المساهمة فى الحياة الفكرية فيها فتلقى عليه العلم كثير من العلماء فى القيروان مالكيين وحنفيين وكان فى درسه يأخذ من اقوال أهل المدينة واهل العراق ما وافق الحق عنده . وكان أسد يعلم تلاميذه كيف يجيبون ويفتون عندما تتعدد الآراء بما يدل على قدرة المفتى نفسه على التمييز بين الآراء أو عدم قدرته وهذا يبين لنا عدم تعصبه للآراء ما دام له رأى ثاقب يرى ما يطمئن اليه . وقد أسند اليه القضاء فى القيروان مشاركا لابی محرز فيه وكان يجهر بالحق فى قضائه شديدا على من يخالفه فى حلقة درسه خاصة فى مسائل العقيدة مما جعل مالكا وابن القاسم يوصياناه بتقوى الله والقرآن ونشر العلم والمناصحة لهذه الأمة وختم حياته بالاشهاد فى سبيل الله غازيا لصقلية وقائدا للجيش سنة ٢١٣هـ .

٢ - أبو سعيد سحنون بن سعيد :

ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ وتعلم بها ثم رحل الى مصر والمدينة ومكة سنة ١٨٨هـ فالتقى بكثير من العلماء واخذ عنهم وعاد من رحلته الى القيروان سنة ١٩١هـ وقد أحاط بكل المسائل المالكية والفقهاء المدونة اخذا من ابن القاسم وتصحيحا للأسدية . فمال الناس الى التفقه بكتب سحنون التى ذيل معظم . مسائلها بالحديث والآثار الا كتب منها بقيت على اصل اختلاطها فسميت بالمختلطة . وقد رد سحنون بمدونته الفقه المالكي الى طريقة أهل المدينة الأولى مع الحفاظ على ما اضافه أسد الى الفقه من لقاح جديد بطريقة أهل العراق ، وقد انتشرت المدونة فى الآفاق وعول الناس عليها . واقبل علماء القيروان عليها بالاختصار والشرح فكان لها اثر كبير واقبل الطلاب من كل مكان للتلقى على سحنون فكانت حلقاته غاصة بالطلاب وذكر علماء التراجم كثيرا من تلاميذه .

وقد ولى القضاء سنة ٢٣٤هـ فمكث فيه الى أن توفي سنة ٢٤٠هـ وكان لا يتقاضى اجرا على قضائه وادخل على القضاء فى ولايته كثيرا من التنظيمات والاصلاحات التى كان لها شأن كبير فى نشر العقيدة الصحيحة

واصلاح الحياة الاجتماعية . وكان مأنيا فى فتواه الى ان يظهر له وجه الصواب فيقضى بالحق الذى يعتقده بدون محاباة لكبير او صغير وفى كثير من المرات وقف فى وجه الأمير واعوانه غير عابىء بهم فى تنفيذ الحق الذى يقضى به عليهم فحصل الناس بتوليه القضاء امانا واستقرارا وعدالة بين الكبير والصغير . وهو يعتبر من ائمة اهل السنة وقد امتحن بخلق القرآن وله كثير من الوصايا الدالة على تفكيره ونظره الى الأمور وقد اورد البحث بعضها . وذكر رأى العلماء الذين شاهدوا مجهوده بأعينهم بما يدل على عظيم تقديرهم له وارتفاع منزلته فى المشرق والمغرب وذكر البحث بعض ما كان يتحلى به فى لبسه ومطعمه ومعاملته .

٣ - سليمان بن عمران الحنفى :

الذى تلقى عن أسد وسحنون . ومن قدم الى القيروان من علماء الكوفة وبرع فى العلم حتى اشار سحنون وغيره بأن يسند اليه القضاء . وتلقى العلم عن سليمان عدد من أبناء القيروان منهم محمد بن عبدون وغيره . وبعد توليه القضاء كان يعلم تفسير القرآن وغيره يومين فى الاسبوع مما يدل على أن ولاية القضاء لم تكن تلهى عن التعليم . وعندما ولاه سحنون قضاء باجة كان يحكم بمذهب أبى حنيفة وهذا يوضح لنا الصلة بين المذهب المالكى والحنفى وقد اسند اليه القضاء فى القيروان مرتين مكث فيهما سبعة وعشرين عاما ، وكان للناس رأى فيه عند توليه القضاء وعند عزله عنه . وكان سليمان لطيفا فى قضائه يعرف كيف يصل الى الحقيقة بين المتخاصمين مع ميله الى النادرة تفكها وكان متسامحا مع من يعرض عن الصلاة خلفه وتوفى سنة ٢٧٠ هـ .

٤ - سعيد بن محمد الغسانى بن الحداد :

تعلم بالقيروان وتونس وطرابلس ولم يرحل الى المشرق ولم يتقيد بالمذهب المالكى بل درس المذهب الشافعى ومال اليه من غير تقليد كما درس غيره من المذاهب ورد على كل المذاهب وتلقى عليه العلم بعض أبناء القيروان وأورد ابو العرب فى الطبقات وعياض فى المدارك كثيرا من الروايات عنه . وقد ألف ابن الحداد كثيرا من الكتب والمقالات ولم

يستطيع المزنى صاحب الشافعى ان يرد على النقد الذى وجهه ابن الحداد الى الشافعى ، كما احصى ابن الحداد مسائل كثيرة لاثبى حنيفة ركب فيها المحال اضطرارا . وكان كل جهد ابن الحداد موجها الى الدفاع عن السنة والرد على اهل البدع حتى مثله اهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة فكان هو القائم فى وجه الشيعة والمدافع عن السنة وقد أشير الى بعض هذه المناظرات فى البحث . ولابن الحداد حكم ماثورة أشار البحث الى بعض منها . وقد ظل يدافع عن السنة الى أن ادركته الرفاة سنة ٣٠٢ هـ فحزن اهل القيروان عليه حزنا شديدا .

٥ - النعمان بن محمد بن منصور المغربى :

كان مالكيًا ثم تشيع ودخل فى خدمة الفاطميين سنة ٣١٣ هـ وفد اهتم بجمع وحفظ ونشر كتب المذهب الشيعى وعينه المهدي قاضيا ، وعينه المنصور قاضيا لقضاة وكان عادلا فى قضاة لا يفرق بين شريف ومشروف وقوى وضعيف وكان يخطب فى المساجد الجامعة فى القيروان والمنصورية والمهدية . وكان يولى قضاة الأقاليم ويوجه اليهم الوصايا فى التمسك بالحق وقد ألف كتباً كثيرة فى فنون مختلفة فى العلم بقى منها حتى اليوم عشرون كتابا وبعض كتبه يجعلها الشيعة فى منزلة بعد الكتاب والسنة وتختص كتبه بالعقيدة والفقه والاخبار والسيرة والوعظ والارشاد وهى تمتاز بالاسلوب السهل - والفكرة الواضحة وقد انتقل الى مصر عند رحيل الفاطميين اليها . وظل يتولى القضاء فى عسكر المعز لدين الله الى أن ادركته الوفاة فى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ .

وبهذا كانت القيروان موطنًا للمذاهب كلها حتى الشيعى منها ولم تقصر القيروان من غيرها من مراكز الفكر الاسلامى الاخرى فحملت الفكر الاسلامى الى الأقاليم المجاورة لها فى المغرب والاندلس وصقلية ووسط وغرب افريقيا .

وفى هذه الفترة عنى بمعرفة علم القراءات وكان اهل القيروان يقرأون بحرف حمزة ولا يقرأ بحرف نافع الا الخواص حتى قدم محمد بن خيرون

فنشر قراءة نافع حتى صارت القراءة الغالبة عليهم ، ووجد عدد كبير من العلماء اهتم بالقراءة وبتجويد الصوت وفى نهاية ايام الفاطميين كان فى القيروان محمد بن سفيان المفرىء الذى ألف فى القراءات كتابه (الهادى فى القراءات) فكان هناك اهتمام بالقرآن قراءة وحفظا وتجويدا .

ووجه اهتمام كذلك الى تفسير القرآن ومن أشهر المفسرين فى ايام الاغلبة يحيى بن سلام النميمى وله كتاب فى التفسير توجد أوراق منه بمكتبة الفيرواى العتيقة . وكان ابن الحداد يهتم بفهم القرآن وبمعانيه وقد ألف موسى بن عبد الرحمن القطان اثنى عشر جزءا فى أحكام القرآن وضرب ابن اللباد بهم وافر فى علم القرآن قراءته واعرابه واحكامه وناسخه ومنسوخه .

وبلغ اهتمام علماء الفيروان بالحديث غايته : جمعا وحفظا ومعرفة لرجاله وتقصيا للضعفاء منهم والثققات والعلم بمعانى الحديث وعمله وغريبه وقد بذل موسى بن معاوية الصمادحى جهدا كبيرا فى جمع الحديث من علماء القيروان وعلماء الامصار الأخرى وخاصة المدينة ومكة والكوفة والبصرة بل وصل الى الرى من ارض خراسان طلبا للحديث وجمعا له ثم عاد الى القيروان فسمع منه الحديث كثير من علماء القيروان وغيرها وقد ألف كتاب الزهد وتوفى سنة ٢٢٥ هـ وقد ألف يحيى بن عمر بن يوسف فى اصول السنن : كتاب الميزان وكتاب الرؤية وتوفى سنة ٢٨٩ هـ ، وممن كان حافظا عالما بمعانيه وعمله وغريبه ربيع بن عطاء الله القطان فكانت له حلقة بجامعة القيروان أيام ابي يزيد وقد قتل شهيدا فى حصار المهدي سنة ٣٣٤ هـ وهذا يوضح عناية القيروان بالحديث وتصحيحه والبحث عن رجاله وعمله .

وقد نهضت العلوم اللغوية والادبية وشجع على ذلك تحلى كثير من الأمراء بالميل الى الاداب والعلوم . وكان قيام الدولة الاغلبية والفاطمية وحاجتهما الى اللسان الناطقة لشرح المبادئ والاهداف من الامور التى ادت الى ازدهار الخطابة التى كانت محرضا قويا فى الحرب وحاجة على الصبر

عند اللقاء كما ازدهرت الخطابة الدينية خاصة بعد تفتح اكمام العلوم الشرعية .

واستطاع الشعر فى عصر الازدهار أن يطرق جميع الانغراض : الشعر السياسى والمذهبى والغزل والرثاء والفخر والزهد والحكمة ووجد الشعر الوصفى والتاريخى والاجتماعى . وقد بلغ عدد الشعراء عند موت ابن سحنون ثلاثمائة شاعر . وكانوا يحتكمون الى علماء اللغة لتقويم شعرهم ولا شك ان ذلك مما ادى الى رفى الشعر وخلوه من العيوب . وبعض الأمراء كان يقول الشعر فى بعض الانغراض . وكانت الجوائز تعطى للشعراء وكان لبعض الأمراء ذوق أدبى ينقدون به الشعر ، وقد ذكر البحث امثلة للانغراض التى قيل فيها الشعر . ومن شعراء الأغلبية الأمير محمد بن الأغلب ، ومجبر بن ابراهيم بن سفيان واحمد بن ابى سليمان ، وبكر بن حماد الزيناتى الذى قال الشعر فى المدح والزهد وذكر الموت وهوله ، وكانت القيروان تحظى ببعض الشاعرات منهن مهربة الأغلبية . ومن الشعراء فى العصر الفاطمى أبو القاسم محمد بن عبد الله الغزارى الذى قال شعرا فى الرثاء وفى المدح . ومحمد بن هانىء الازدى شاعر المغرب الكبير والذى لقب بمتنبى المغرب . وقد صور امجاد الفاطميين فى الفتح والدفاع عن الاسلام وان كان قد جاوز الصواب فى مدح المعز لدين الله . اما على بن محمد الايادى فكان مبعلا عند العامة والخاصة ويقرنوه بفحول الشعراء البلغاء المعاصرين له كمتنبى المشرق ومتنبى المغرب ، وقد قال فى الوصف كثيرا من شعره كما قال الشعر كذلك فى توحيد الله والرد على الزنادقة الملحدين .

وقد نهضت الكتابة وازدهرت فى ذلك العصر وكانت الرسائل مشتملة على آيات من القرآن وأبيات من الشعر وقد ذكر البحث نماذج من الكتابات المتداولة بين المولاة والخارجين عليهم وكذلك بين بعض القضاة . وهناك نماذج من الحكم ذكرها البحث .

ومن الكتاب فى هذا العصر أبو سليمان داود الكاتب القيروانى وله

كتابة فيها حسن الاعتذار . وأبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني البغدادى الذى ادخل رسائل المحدثين وشعرهم الى القيروان وقد تولى الكتابة فى نهاية الدولة الاغلبية وبداية الدولة الفاطمية وأورد البحث نموذجا للكتابة الموجزة . وكان للكاتب منزلة رفيعة فى الدولة الفاطمية وكان تقدم الكاتب فى كتابته دليل على تأهله لتولى الوزارة ومن الأمثلة الواضحة على رقى الكتابة عهد جوهر الى أهل مصر وهو يبين مدى تقدم الكتابة فى عصر الازدهار .

وقد عظمت العناية بالعلوم اللغوية فوضع بعض العلماء دراسة مقارنة بين العربية والعبرية والبربرية ، كما وضعت معاجم مقارنة فى ذلك وكان العلماء يجمعون بين الاحاطة بالنحو والاشتغال باللغة ورواية الأدب .

وممن غلب عليه الاشتغال بالنحو عبد الملك بن قطان المهرى الذى تبحر فى اللغة الى أن استطاع أن يشرح الشعر الجاهلى من تلقاء نفسه وتلقى عنه النحو بعض أبناء القيروان وألف كتباً فى النحو والصرف واللغة . ومحمد بن اسماعيل الذى كان يحفظ كتاب سيبويه وكان له حلقة يتلقى عليه فيها راغبوا النحو واللغة . واحمد بن أبى الاسود النحوى الذى كان له حلقة يعقدها فى مسجد القيروان . وكان ابراهيم بن عثمان الوزان يميل الى مذهب البصريين مع علمه بمذهب الكوفيين .

ومحمد بن جعفر التميمى القزاز الذى برع فى النحو واللغة وتخرج عليه كثير من نجباء التلاميذ وألف كتباً كثيرة منها كتاب الحروف . ومن علماء اللغة أبو محمد عبد الله بن محمد الذى اشتهر بتفوقه فى اللغة وشرح الدواوين وأحمد بن ابراهيم اللؤلؤى الذى ألف كتاباً بعنوان الظاء والضاد . وحسن بن محمد التميمى العنبرى الذى اشتهر بكثرة شرحه للدواوين وخاصة ديوان ذى الرمة .

أما فى مجال العقيدة فلم يمنع سيادة مذهب أهل السنة من وجود مذاهب أخرى وكانت المجادلات تدور حول الآراء الكلامية من اختلاف

فى رؤية الله وخلق القرآن . ووجد من كان عارفا بأصول الديانات والـف كتبـا فى الرد على النصارى وأهل الشرك والبدع مما يدل على دراسة الاديان كما ثار الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى مسألة التفضيل وقد تصدى أهل السنة لكل من خالف مذهبهم من المعتزلة خاصة فى رؤية الله تعالى وفى خلق القرآن وعندما ولى سحنون القضاء فرق أهل الـهواء من الخوارج الصفرية والاباضية . وكان السنـى عندما يموت يوصى بالكتابة على قبره بأنه كان يشهد أن القرآن غير مخلوق . وبعد وفاة سحنون ثار خلاف بين ابن سحنون وابن عبدون حول الاستثناء فى الايمان وسمى من يستثنى الشكوكية كما ثار النزاع بين أهل السنة والشيعة فى التفضيل بين الصحابة وتفضيل عائشة على فاطمة ودارت مناقشات فى ذلك وقد بلغ عدد المتكلمين من أهل السنة فى القرن الثالث وبداية القرن الرابع نحو الثلاثين عالما ومن أشهرهم : محمد بن سحنون الذى أسلم يهودى على يديه فى مصر بعد مناقشة فى الدين كما جادل ابن سحنون احد المعتزلة فى خلق القرآن فلم يستطع المعتزلى اجابته . وقد ألف كتبـا كثيرة فى العقائد وغيرها .

ومحمد بن أبى زيد الذى لقب بمالك الصغير والذى حضر على كثير من العلماء وكان بصيرا بالرد على أهل الـهواء وألف كتبـا كثيرة منها رسالة فى الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادى المعتزلى وكتاب الاقتداء بأهل السنة والرد على الفكرية وغير ذلك من الكتب وحضر عليه طلاب كثيرون من القيروان وغيرها .

ونجد من أهل السنة فريقا مال الى الزهد والتصوف مع الحرص على الجهاد والرباط ومن هؤلاء شقران بن على الذى قدم عليه ذو النون المصرى ليلتقى عنه وكان مجاب الدعوة .

وأبو محمد عبد الرحيم الربعى الزاهد الذى زهد فى الدنيا وبنى قصر زياد ولازم الرباط فيه وكان ينقد المـرابطين عندما لا يلتزمون بآداب الرباط من الزهد فى الطعام وظل مـرابطا فى سبيل الله الى أن توفي .

وقد أمدتنا المصادر بما يبين وجود فرق للخوارج بالقيروان كانت تتحدث عن الخلافة والعمل وشرط الايمان وكان من فرقها الازارقة وهى قليلة الانتشار فى المغرب والصفرية والاباضية وهما كثيرا الانتشار فى المغرب وانقسمت الاباضية الى النكارية والخلفية والنفاتية . وفى مطلع القرن الثالث الهجرى نادى المعتزلة بخلق القرآن وأودى بعض علماء السنة من جراء ذلك وكان المعتزلة يقولون بحدوث الاسماء والصفات ويتناظرون فى ذلك .

وفى بداية الخلافة الفاطمية تناظر بعض المعتزلة مع الشيعة ولكن كثيرا من المعتزلة انضموا الى الشيعة كابى بكر القمودى .

وظهر التشيع فى نهاية القرن الثالث واعتنقه بعض وزراء زيادة الله كما أن محمد بن عمر المروزى الذى تولى القضاء للشيعة أمر بتنفيذ مذهبهم من ترك صلاة الاشفاع وزيادة حى على خير العمل فى الأذان مما يدل على معرفة المذهب الشيعى قبل تعلب الفاطميين على القيروان . وقد أخذ بمذهب الشيعة بعض علماء الاحناف وقليل من المالكية . والشيعة ينزهون الله تعالى عن الاتصاف بالصفات التى يتشارك فيها مع الموجودات والايمان عندهم هو الباطن والاسلام هو الظاهر ، والايمان مبنى على المعرفة والمعرفة قائمة على التأويل الباطنى لآيات الكتاب وهو وقف على الأئمة ومن هنا وجب الاتباع للأئمة وقد عارضهم أهل السنة فى أن يكون هناك مصدر ثالث بجوار الكتاب والسنة وهم الأئمة الذين يقتصر عليهم التأويل الباطنى لآيات الكتاب وأورد البحث أمثلة من التأويل الباطنى وبين مبالغة ابن عذارى فى وصف الشيعة بانهم كانوا يحلفون بالمهدى عالم الغيب والشهادة وقد دار نقاش حول المبادئ الشيعية فى بداية الدولة الفاطمية وعقدت لذلك المجالس التى بلغت أربعين مجلسا وقامت مناقشات كثيرة بين أهل السنة والشيعة حول مبادئهم وأودى كثير من أهل السنة وطردها من أعمالهم وأسس الشيعة مدارس الدعوة لبث مذهبهم ونشر مبادئه وكانت تعقد الاجتماعات لذلك فى مقر المعز بالمنصورة وكان المعز يؤلف الرسائل ليلقيها قاضى قضااته على المستجيبين . وهناك كثير من النصائح التى كانت

توجه للدعاة لنشر دعوتهم وقد أدى الصراع العنيف بين أهل السنة
والشيعة الى توضيح عقائد السنة والشيعة مما أدى الى ازدهار الحياة
الفكرية والعقائدية فى القيروان .

اما فى التاريخ فنجد ان بعض المؤلفات قد وضعت فيه الا انها
فقدت كفتوح افريقية لعيسى بن محمد بن أبى المهاجر وممن اشتغل
بالتاريخ عبد الله بن أبى حسان اليحصبى وكان عالما بالتاريخ وأنساب
العرب واسحق المشونى الذى كان عالما بأخبار الأمم السالفة والاعوام
الماضية وغيرهم من المؤرخين الذين ظهروا فى القيروان ومن المؤرخين
الذين انتفع البحث بمؤلفاتهم أبو العرب تميم والرقيق القيروانى من
مؤرخى هذا العصر . وقد اهتم البربر كالعرب بأنسابهم والفوا فى ذلك
بعض الدواوين لحفظ انسابهم وربما أخذ عنها ابن خلدون أنساب البربر ،
وقد اهتم الفكر التاريخى بسيرة الرسول ﷺ وقصص الانبياء وتاريخ
الأمم السابقة ومغازى الفتح وتسجيل حياة العلماء .

وقد مارس علماء القيروان الرحلة والمرور بالبلدان وملاحظة
البلاد الا انه لم يصلنا ما يفيد شيئا عن مؤلفاتهم الجغرافية الا فى القرن
الرابع : فمحمد بن يوسف الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ألف فى
مسالك افريقية وممالكها وعنه ينقل البكرى فى مسالكه مما يبين الاهتمام
بوصف الاماكن . وعلى نضج الفكر الجغرافى ، كما عملت خريطة للمعز
لدين الله مبينا عليها اقطار العالم وخاصة مكة والمدينة ولعل كتب الجغرافيين
فى المشرق قد وصلت الى القيروان :

وفى الاجتماع نجد سحنون القاضى يحث الناس على شكر الأمير على
التزامه بالحق الذى قضى به حتى يكون ذلك دافعا للأمير على السير فى
طريق العدل دائما . كما نجد ما يدل على مراعاة الآداب العامة عند
الزيارة ، وعلى تميز العلماء بزي خاص . وتمييز اليهود والنصارى ،
وكان فى القيروان الملاهى والملاعب . كما جمع العلماء بين الجهاد والعلم ،
وقد شاركت المرأة الرجل فى الرباط والدفاع عن البلاد وفى كثير من

الاعمال وكل ذلك يدل على ملاحظة للمظاهر الاجتماعية الدالة على الفكر الاجتماعى .

وفى التربية نجدهم يلاحظون الاختلاف فى طبائع الاطفال ومراعاة حال السامع ولذلك وجه بعض المعلمين النقد الى ابن سحنون لأنه لم يراع هذه القاعدة . كما اوصوا باختيار المعلم صحيح العقيدة والاخلاق . كما رأوا ان على الاستاذ محاولة اصلاح التلميذ عندما يعثره نازع نفسى يلهيه عن دراسته ، وان اللعب حق للاطفال كذلك . ولكنهم كانوا يتسمون بالجد فى تحصيل العلوم والمعارف وكان العلماء يسلكون طريق السؤال للتوضيح المسائل ، ويرون أن يتلقى العلم على العلماء ، وكان يعلم فى المكتب والمساجد وفى المنازل ايضا كان يعلم ابناء الاثرياء وكان التعليم للذكور والآنث وهو مباح للجميع وللغرد ان يحضر الحلقة التى يريدها . وكانوا يلاحظون حاجة الطالب الى التربية الجنسية وأن يتم ذلك عن طريق حلال مع مراعاة التزام الطالب بأداب فى التعلم وفى التعليم .

وأشار البحث الى أنه قد وجد فى القيروان من يعرف بعض اللغات ويتكلم بها وخاصة فى اواخر الدولة الاغلبية وهناك بعض الحوادث تدل على ذلك كالسفارات بين القيروان وايطاليا وفرنسا والأسر الذين يؤخذون من صقلية كما كان هناك من يشتغل بالترجمة وفى القيروان نسخة مترجمة لكتاب تاريخ الأمم القديمة ومن المترجمين أبو سهل دونش بن تميم وهو يتقن العربية . وقد ترجمت مؤلفات من اللغات اليونانية واللاتينية الى العربية ، كما ترجم كذلك بعض المؤلفات العربية العلمية الى اللاتينية ، وكان المعز لدين الله يتقن خمس لغات عدى العربية .

أما الطب والصيدلة فقد بدأ الاهتمام به فى القرن الثانى وازدهر عند تأسيس بيت الحكمة وقدم اسحاق بن عمران الذى ادخل الطب فى القيروان وتعلم عليه كثير من ابنائها وألف ابن عمران كتبا كثيرة اهمها كتاب المانخوليا . وبرع بعده تلميذه اسحاق بن سليمان الذى عاصر الاغالبة والفاطميين وألف كتبا فى الطب لا يزال بعضها موجودا الى اليوم -

وهناك عدد كبير من أطباء البدن ذكرهم المؤرخون مما يدل على نهضة طبية قد قامت فى القيروان . وممن نبغ من أبناء القيروان ونال شهرة واسعة أحمد بن ابراهيم الجزار الذى ألف كتابا قيمة فى الطب وكانت له عيادة وصيدلية خاصة ويعتبر كتابه زاد المسافر وقوت الحاضر من أهم الكتب العربية ، وقد ترجم الى اليونانية واللاتينية والعبرية . وكان الاطباء يخصصون فى الامراض الباطنية وفى العيون والجراحة ، وكان يقوم بشأن مستشفى الدمنة بالقيروان مسئولون عنه ليسهرون على راحة المرضى . وقد رحل الى مصر بعض الأطباء عند رحيل المعز الى مصر .

كما تدل النهضة المعمارية والحربية على نهوض هندسى ورياضى ظهر فى المنشآت والمباني وفى صناعة بناء السفن والآلات ، ولذلك كان هناك عناية بالحساب والرياضة وبحركة الأفلاك والنجوم وتحديد الأوقات وخاصة أوقات الصلاة وقد درس ذلك الذين رحلوا الى المشرق أو القادمون منه ومن أشهر العلماء فى ذلك أبو سهل « دونش » ادنيم بن تميم القيروانى الذى برع فى الحساب والفلك وعمل فى خدمة الفاطميين وألف كتابا فى الحساب والنجوم منها كتاب فى الحساب الهندى وكتاب فى الفلك وحركة الكواكب وغير ذلك وتوفى بالقيروان سنة ٣٦٠ هـ . ونسيم بن يعقوب الذى برع فى الفلك ووصلت شهرته الى العراق والأندلس وكان يوجد فى بيت الحكمة آلات رصد الكواكب وحساب سيرها وقد ألف غير هؤلاء كتابا فى مواقيت الصلاة ومعرفة النجوم .

وقد وجدت اشارات قليلة عن الكيمياء فى المصادر وممن تعلمها فى المشرق وعمل بها فى القيروان اسماعيل بن يوسف الذى نقلها الى القيروان وكان يحضر المواد الكيميائية وقد تعلم عليه بعض التلاميذ ومنهم محمد بن حادث الخشنى ، كما حضر الكبريت الأحمر فى القيروان وغير ذلك من عمليات التقطير وتحضير الروائح .

وقد قامت فى القيروان نهضة تأليفية واسعة شملت جميع العلوم

والفنون وقد اشار البحث الى كثير من هذه الكتب التي ذكرها المؤرخون والتي توضح الحركة التأليفية فى القيروان ومازال ينتفع ببعض هذه المؤلفات الى اليوم .

وقد نشأ عن هذه النهضة المكتبات التي حوت شتى الكتب المؤلفة فى مختلف العلوم وخاصة بعد تأسيس بيت الحكمة الذى جلبت له الكتب من كل مكان وساعد على كثرة الكتب تولى المرابطين لنسخها وكانت الترجمة من العوامل المشجعة لنمو المكتبات ، ولذلك نجد مكتبات تابعة للدولة ومكتبات فى المساجد موقوفة عليها ومكتبات خاصة يملكها بعض العلماء ، وقد بلغت بعض هذه المكتبات الخاصة الى خمسة وعشرين قنطارا من الكتب ، وبعضها بيع بعد وفاة صاحبه بالف ومائتى دينار وقد حمل هذا الشغف بالكتب ان قدم التجار بالكتب من المشرق لتباع فى القيروان مما يوضح لنا النضج الفكرى فى القيروان .

وتحدث الفصل السابع عن العلاقات بين القيروان وغيرها .

وبين كيف توثقت العلاقات بين القيروان ومكة والمدينة منذ البداية واستمرت على مدى فترة البحث وتمثلت هذه العلاقات فى :

١ - رحلة العلماء من القيروان واليهما وقد ذكر البحث بعض هؤلاء الراحلين .

٢ - وفى الرسائل التي كانت ترسل الى المدينة .

٣ - وبوفود بعض العلماء الى القيروان للزيارة او للقامة وكان ممن قدم الى القيروان أيضا من الحجاز بعض القراء وعلماء اللغة .

كذلك اتصل أبناء القيروان بالعراق وتلقوا على علمائه كما ارسلت الرسائل والاستفتاءات والمكاتبات فيما يحدث فى القيروان من المشكلات الى علماء بغداد ووصل بعض أبناء القيروان الى الرى وخراسان . وبجانب ذلك كان هناك اتصال بشراء الكتب واحضارها الى القيروان

ووصول بعض الكتب المؤلفة فى القيروان الى بغداد مما وثق العلاقة الفكرية بين القيروان والعراق .

ولكننا نلاحظ قلة اشارة المؤرخين الى من رحل من القيروان الى الشام وان كان عمر بن عبد العزيز هو الذى ارسل بعثة الفقهاء الى القيروان كما نجد ان بعض ابناء القيروان قد ذهب لتلقى العلم فى الشام واتصل بعلمائها . وان كان المؤرخون لم يزودونا بأسماء كثيرة مما يزيل الخفاء عن هذه العلاقة .

أما بالنسبة لمصر فقد كانت فى طريق كل من ذهب الى المشرق من القيروان وكثير من الراحلين نزل بها وتلقى العلم فيها وخاصة أسد وسحنون وقد كان العلماء المصريون يعظمون علماء القيروان كما حدث لعبد الله بن فروخ ومحمد بن سحنون وربما درس علوم اللغة فى مصر القزاز كما نجد رد علماء القيروان على بعض العلماء الذين نزلوا مصر ودعوا الى الاعتزال ، ولقد تزعم الطب فى القيروان اسحاق بن سليمان المصرى وهذا يوضح قوة الاتصال بين القيروان ومصر .

وكانت القيروان هى المركز الفكرى للمغرب الأوسط والأقصى ولذلك حضر اليها الكثير من ابنائهما واغترفوا من فكرها وعلمها وقد استقر فى القيروان بعض ابنائهما بعد رحلته الى المشرق .

وكانت علاقة القيروان بالآندلس وثيقة قوية منذ البداية ولذلك أقبل أبناء الآندلس الى القيروان جماعات جماعات ومن كل أنحاء الآندلس ليتعلموا على علماء القيروان ثم يعودوا الى الآندلس وقد ذكر علماء الطبقات كثيرا من أسماء الذين قدموا الى القيروان من الآندلس من كل مدنها وعلى مدى فترة البحث وتعلموا شتى أنواع العلوم فالقيروان هى المقر العلمى الذى تهوى اليه أفئدتهم وذكر البحث اسم طالب أو عالم من كل بلد من الآندلس قدم الى القيروان . كما اشار الى بعض القضايا فى قرطبة الذين حضروا الى القيروان وتعلموا فيها وكذلك بعض الأطباء .

ونلاحظ اهتمام طلاب الأندلس بالتعليم فى القيروان والاستعداد لذلك وخاصة بالنسبة للسمع من سحنون . وكان هناك اتصال بالمراسلة بين القيروان والأندلس وخاصة بين القضاة ، كما رحل بعض علماء القيروان الى الأندلس ودرسوا فيها وعلموا أبناءها فكانت لهم جهود مشكورة فى الحياة التعليمية فى الأندلس وفى توثيق العلاقات بينهما وقد اشار البحث الى بعضهم . ولقد كانت الأندلس ترحب بهؤلاء العلماء الذين كانوا يقدمون اليها بسبب اضطهاد الفاطميين لهم . ومعظم العلماء الذين رحلوا الى الأندلس كانت رحلتهم للتعليم ونشر المعرفة وليس للتعلم . وبذلك كانت القيروان عاملا فى تغذية الفكر فى الأندلس .

أما علاقات القيروان بصقلية فقد كانت قوية حيث كانت صقلية نحت حكم القيروان ، ولا شك ان كثيرا من أبناء صقلية قدم للتعلم فى القيروان وان لم يذكر المؤرخون ذلك . كما رحل بعض العلماء من القيروان الى صقلية فقاموا بنشر العلم والمعرفة فيها . وكان للقضاة جهود كبيرة فى بث العلم فيها . ومما شجع على الرحلة الى صقلية ما كان فى القيروان من اضطهاد لعلماء السنة أيام الفاطميين لم تصل صقلية الى درجته وكانت الكتب وسيلة قوية لتوثيق العلاقات بين القيروان وصقلية كما اتصلت القيروان بغير صقلية من جزر البحر المتوسط ونشرت فيها العلم والمعرفة .

وقد توثقت هذه العلاقات واستمرت بالجهود الخاصة للعلماء وبحبهم للعلم والمعرفة ولم يستطع أى حاجز ان يقف فى سبيلها أو يمنعها . مما حمى القيروان من العزلة الفكرية عن غيرها من مراكز الفكر وضمن لها التجدد الفكرى المستمر .

وكان الفصل الثامن والاخير عن التأثير والتأثر .

وقد وضع ان الحياة الفكرية فى القيروان بدأت متأثرة بالشرق بالأخذ عن الصحابة والتابعين ثم عن بعثة الفقهاء ولم تلبث ان بدأت الرحلات الى المشرق وصاحبها رحلة العلماء الى القيروان فكان هذا

الاتسبال هو المظهر العملى الواقعى لتأثر القيروان بهذه المراكز فى المشرق والتفاعل معها فى حقل الحياة الفكرية وبجانب ذلك كان استقدام الأطباء من المشرق وشراء الكتب التى كانت تظهر فى المشرق واحضارها الى القيروان ليتعلم منها أبناء القيروان ، ولقد بلغ الأمر بهم الى احضار بعض الخزف لتزيين محراب جامع عقبة بن نافع وكل ذلك يوضح مبلغ تأثير الحياة الفكرية فى القيروان .

وقد استطاع أبناء القيروان أن يكون لهم نصيب من التأثير فى المشرق وأورد لنا المؤرخون شيئا من مظاهر هذا التأثير فى رواية الحديث عن بعض أبناء القيروان وفى انتصارهم على بعض أبناء المشرق فى المناظرة ومن نسخ الأسدية من أسد فى مصر ، ووصول سمعة البهلول الى سمرقند ، وتحليق العلماء على محمد بن سحنون فى مصر ، ووصول منهج سحنون فى تفكيره الى أولى العلم فى المدينة ، وتقدير أهل بغداد لكتاب ابن سحنون فى الامامة ، وانتشار رسالة ابن أبى يزيد الى كافة اقطار العالم الاسلامى كما ان المعز لدين الله عند انتقاله الى مصر استصحب معه كثيرا من علماء القيروان وأدبائها وكثيرا من الكتب القيمة فيها .

وبذلك نرى ان الحياة الفكرية فى القيروان بعد ان كانت متأثرة بالمشرق وصلت فى النهاية الى التأثير فى المشرق مع اختلاف فى درجة التأثير والتأثر .

أما بالنسبة للمغرب فقد كان للقيروان تأثير فكرى قوى فى المدن والأقاليم والجزر التى اتصلت بها . وقد تولى كثير من أبناء الأندلس الذين تعلموا فى القيروان مناصب كبيرة فى الأندلس وقاموا بنقل العلوم اليها . كما رحل الى المدن والأقاليم المحيطة بالقيروان بعض علماء القيروان أو أوفدوا اليها فكانوا عاملا من عوامل التأثير فيها .

(١) فى مجال العلوم الشرعية حيث تولوا مناصب القضاء والافتاء وتدريس العلوم الشرعية فكان المتعلمون فى القيروان هم المصاييح فى كل بلد .

(ب) وفى مجال العلوم اللغوية والأدبية نجد أبناء هذه البلاد قد رووا الشعر واللغة عن علماء القيروان .

(ج) وفى العلوم الصقلية نجد أبا جعفر بن نطف أو نطيف يقرأ فى صقلية كتاب تجديد الايمان وشرائع الاسلام .

(د) وفى العلوم الاجتماعية نجد بعض من تعلم فى القيروان من أهل الأندلس قد ألف فى تاريخ المحدثين كما نجد ابن حارث من القيروان وألف فى الأندلس فى التاريخ وابن الغرضى أيضا تعلم فى القيروان .

(و) وفى مجال علوم الأوائل قامت القيروان بتأثير قوى وخاصة فى الطب الذى وصل أثره الى مدن المغرب والأندلس وصقلية والى ايطاليا وخاصة فى كلية سالرن التى انتقل اليها بعض مترجمى القيروان ونقلوا اليها الكتب العلمية فى الرياضة والنبات والطب والصيدلة بعد ترجمتها الى اللاتينية وكانت القيروان بذلك أسبق تأثيرا فى أوربا من مدرسة طليطلة .

ومع هذا التأثير للقيروان على غيرها من المدن والأقاليم المحيطة بها فى مجالات الحياة الفكرية فإننا نلاحظ حالات فردية تدل على بداية لتأثر القيروان بغيرها من المدن والأقاليم المحيطة بها فنجد عالما من فاس ينقل كتاب ابن المواز الى القيروان ويحدث به كما نجد علماء من الأندلس قد درسوا فى القيروان وتلقى عليهم أبناء القيروان العلم وخاصة بعد رحلتهم الى المشرق كما كان للرهبان الصقليين الذين احضرهم ابراهيم بن الاغلب والكتب اللاتينية التى قاموا بترجمتها تأثير فى القيروان بالإضافة الى بعض التأثير الناتج عن الاتصال بالبربر والذى ظهر فى المعاجم اللغوية التى جمعت بين العربية والبربرية .

ومما ذكرناه يتجلى لنا تمتع القيروان بالاستقلال الفكرى الذى نستطيع ان نلمس مظاهره فى بعض الحوادث والمظاهر . كمئذنة مسجد

القيروان ومحاربه وقبائه وتأثير ذلك فى المغرب والأندلس ومصر ،
واعجاب عبيد الله بأشياء لم يرها فى المشرق ثم شهرة علماء القيروان
فى مراكز الفكر الأخرى من العالم الاسلامى وشهرة الكتب التى ألفت
فى القيروان للرد على المخالفين وتتبع المراكز الأخرى لما يجد من فكر
فى القيروان وأخيرا فان امتداد الفكر القيروانى الى أوروبا دليل على
تقدمه وازدهاره ، الذى هو نتيجة للاستقلال والتحرر .

واذا كان طابع الحياة الفكرية فى القيروان يعتبر متشابها مع غيره
من ناحية نوع العلوم التى تدرس حيث كان يبتدىء بالعلوم الشرعية
والعربية والعقلية مع اتصال بعلوم الأوائل الا أن التأثير بالبيئة ظهر
مع ذلك فى بعض النماذج بالجمع بين الجهاد والعلم وكالرباط بجوار
التفقه للعلماء والزهاد ، والجمع بين العربية والبربرية فى القواميس مثلا .

كما ان القيروان قد أدت واجبها بالتأثير بأفكارها وحياتها العلمية
فى غيرها ، فهى لم تنعزل ولم تتجمد وان كانت الصبغة الغالبة عليها
هى الالتزام بالكتاب والسنة مع التحرر من الالتزام بأقوال الفقهاء وميل
بعض العلماء الى المذاهب المختلفة فقهيا وعقائديا وميل آخرين الى الزهد
والتصوف والمراعاة فى سبيل الله نشرا للفكر الاسلامى ودفاعا عن
جزء من الوطن الاسلامى الكبير .

ونستطيع أن نلخص النتائج التى توصل اليها البحث بعد دراستنا
للحياة الفكرية للقيروان فى الأمور التالية :

١ - كان فى القيروان نهضة واسعة النطاق فى مختلف العلوم
الشرعية من الفقه والحديث والتفسير والقراءات وكان الطابع العام لها
هو التمسك بالكتاب والسنة وبالمذهب المالكي وان كان ذلك لم يمنع
من وجود مذاهب فقهية أخرى أخذ بها بعض العلماء .

٢ - كان هناك اهتمام بالعلوم العربية : فى النحو واللغة والأدب
وتجلى ذلك فى النحو التنظيرى أو الدراسة المقارنة مع الاحاطة بمذاهب

البصريين والكوفيين ، وفى وضع معاجم لدراسة العربية والعبرية والبربرية وفى رقى الأدب وخاصة الشعر الذى قيل فى كثير من أغرضه مع اهتمام بالكتابة والخطابة .

٣ - مع التزام علماء القيروان بالكتاب والسنة والسير على منهج السلف فى العقيدة الا أن القيروان قد عرفت المذاهب المختلفة من خوارج ومعتزلة وشيعة وكان من أهل السنة من مال الى الزهد والتصوف الذى تحول الى الرباط والدفاع عن وطن الاسلام وثغوره .

٤ - اهتم الفكر القيروانى بتاريخ الحوادث التى عاصرتها ودراسة الأحداث الماضية ومرصد المسالك والممالك وتسجيل المظاهر الاجتماعية ووضع الأسس والنظريات التربوية من أجل الرقى بالحياة الفكرية .

٥ - كان هناك اهتمام بدراسة اللغات والترجمة من اللغات الأخرى وخاصة فى علوم الطب والصيدلة والفلك والرياضة .

٦ - حققت القيروان تقدما واضحا فى الطب والصيدلة والرياضة والفلك والكيمياء .

٧ - قامت فى القيروان حركة تأليفية واسعة شملت جميع العلوم والفنون وبعض هذه المؤلفات مازال يدرس حتى اليوم . وانشئت المكتبات المتعددة : حكومية مملوكة للدولة وعامة موقوفة على المساجد ، وخاصة مملوكة للأفراد .

٨ - فى مجال العلاقات نلاحظ :

(١) ان القيروان داومت على عقد الصلات الفكرية بمراكز الفكر المختلفة فى المشرق وكان لها صلات بالمدن والأقاليم فى المغرب ، وتم ذلك بشتى الطرق (من رحلة أشخاص - احضار كتب - ارسال رسائل) .

(ب) كانت تلك العلاقات بمجهود ذاتى اختياري ويدافع فطرى حبا للعلم والمعرفة .

(ج) لم يستطع أى عائق - سواء من تغير الولاة أو الامارات او العداء السياسى - أن يوقف مد العلاقات الفكرية المتدفق على مدى الفترة الزمنية التى خصص البحث لها .

٩ - ضمن الاتصال القيروانى الوثيق بمراكز الفكر الأخرى الاحاطة بما يجد من فكر فى غيرها وجعل معين الفكر فيها دائم التجدد والتطور والتقدم ولم يجعلها تنعزل عن تيار الفكر والمعرفة فى فترة البحث .

١٠ - كانت الحياة الفكرية فى القيروان ذات اثر قوى فى نقل الفكر الاسلامى والحضارة العربية الى المدن والأقاليم المحيطة بها وإلى الأندلس وجزر البحر المتوسط ثم الى ايطاليا عن طريق تائيرها فى صقلية .

١١ - ظلت الحياة الفكرية فى القيروان فى هذه الفترة هى الرائد للفكر الاسلامى والعربى فى غرب العالم العربى الاسلامى واستمرت تحمل مشعل الهداية والفكر بما يحقق ما اراده لها مؤسسها صاحب رسول الله ﷺ عقبه بن نافع الفهرى رضى الله عنه عندما دار حولها هو والصحابه رضى الله عنهم ودعا لها قائلا : « اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر واغز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » .

« ولله الحمد والمنة »

* * *

الملاحق

(ملحق ١)

من نماذج الخطابة :

الخطبة السياسية التى ألقاها ابراهيم بن الأغلب على منبر القيروان عندما طرد تمام بن تميم التميمى وذكر الناس فيها بحالتهم وخشيتهم من اتباع الخارج على السلطان . وقد ذيل خطبته بالشعر وهى خطبة توضح المهمة التى قدم من أجلها بان يخلص القيروان من الثائرين ويرجعها الى والى أمير المؤمنين .

فقد صعد ابراهيم منبر مسجد القيروان واجتمع اليه الناس . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ايها الناس اذكروا ما كنتم فيه من الضر ، وتتابع عفوان البلايا اذ الدولة عليكم لا لكم ، واستقر قلوبكم خشية الاتباع ، لا تطمعون فى انصاف ، ولا تتجاوز همتكم الكفاف لا تنتصرون من عدوكم الا بالدعاء ، فى كل يوم دولة وعصبية وتحرق لا يغير صاحب ذى خلاف ، ولا يرعوى ذو خلاف الى طاعة ، فقد عادت عليكم ... يامن بها خوفكم ويعز بها ذلکم . لست اميركم ولكنى اخذت ثغر أمير المؤمنين ممن أخذته بالخلاف .

واميركم محمد بن مقاتل . وأنا مكاتبه ثم مسلمه اليه ان شاء الله .
» ثم أنشد :

لو كنت لاقى تمام لسار به ضرب يفرق بين الروح والجسد
لكنه حين سام الموت يقدمنى ولى فرارا وخلقى لى عن البلد
ان يستقم نفع عما كان قدمه وان يعد بعدها فى غيه نعد^(١)

(١) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢١٨ ، ٢١٩

(ملحق ٢)

من نماذج الشعر :

قال احمد بن ابي سليمان فى طول العمر واتره فى الانسان وكيف
نتحول حاله من قوة الى ضعف فى السمع والبصر والجوارح والنطق
ومن طلب للغنّى الى زهد فى الدنيا • ثم الأمل فى عفو الله بمغفرته
وهو يعبر عن ذلك بأسلوب سهل ومعان واضحة فيقول :

ولما محامرى ثمانين حجة	هجرت تكاليف الحياة لما فجا
ولاقيت اترابى فأحسب ماشيا	وأخر مكفوفاً وأخر أعرجاً
وخالف عيني العشا بعد حدة	وصار لسانى ان تكلم لجلجاً
وفى أذنى وقر وظهرى به حنا	وما ابتغى مما أنا فيه محرّجاً
وأصبحت مما كنت أبغى من الغنى	الى الزهد فى الدنيا الدنية أحوجاً
وحبست نفسى بين بيتى ومسجدي	وقد صرت مثل النسرا هوئى النعرجاً
كأنى بهم قد اعلنوا بعدى البكا	إذا أنا صرت فى المدارج مدرجاً
وفى حين يفيضنى وفى قول بعضهم	لبعض :توفى الشيخ وانقطع الرجا
فياخير مرغوب اليه لراغب	وياخير من يلجأ اليه من لجا
كما لم تضعنى رب منذ خلقتنى	قنى فى معادى حر نار تاججاً ^(١)

ومن قصيدة له أيضا وهى طويلة قالها فى تغير الدنيا بأهلها وصبره
على أفراحها وأتراحها ووصفه للجنة والنار وأمله فى عفو الله ومغفرته
منها :

تفهم ما حييت هديت قيلسى	تغال بفهمه خيرا كـ
سمعتك تذكر الشعراء طـ	وتنشد قولهم جما غـ
وليس مؤلف قولا حكيمـ	كأخر قائلـا أفكـا وزورا

(١) حسن حسنى مجمل تاريخ الادب ص ٦٩ •

يرخرف قوله لينسال دنيا
 فلا تشتغل بقول غير قليل
 ودع عنك المذاهب واتبعنى
 وكنت مؤدبا نفسى لنفسى
 فنلت من العلوم لطول عمرى
 وحزت من السلامة ما كفانى
 وبم البسل لذل الفقر ثوبا
 ولم أجزع وللايام صرفا
 ولم أفرح الآن لها انقلابا
 وانى ان تولى الفجع جندا
 ولا أبدو لنائبة خضوعا
 أرى الدنيا تغيرها الليلالى
 أرى يوما ينجى بكل خير
 كذا أحوال دهرك حال أمن
 وكم ملك عظيم ذى اختيال
 وكان مده ذا خطر عظيم
 ومن ذاك التملك والتعالى
 وأضجع فى التراب بلا مهاد
 وكم من طالب للامنال يسعى
 فصار يود لو أن كان أضحى
 وعاد يود أن لو كان أمسى
 وقد حبس اللسان فلا كلام
 فامامؤمنا يرجو خلاصا
 فويل للشقى اذا تردى
 الى نار تلظىها شديدا
 وطوبى للسعيد اذا حباه
 وطاب له جنان الخلد حالا
 وصار شرا به من سلسبيل

اذا ما نالها نال الغرورا
 فما فى النفع كان له نظيرا
 متابعة تجد خيرا كثيرا
 على نفسى اجنبها النكيرا
 وامضائى وتجربتى الدهورا
 ووقائى وبلغنى السرورا
 ولم اك فى الغنى بطرا فخورا
 يعود عسيرها سهلا ييرا
 يعيد بصيرها صعبا عسيرا
 على أحداثها اغضى صبورا
 ولا متضعضا جزعا ضجورا
 واياما مؤلفة شهورا
 ويوما بالحوادث مستطيرا
 وحال تجزع البطل الجسورا
 أعد خزائنا وبنى قصورا
 فصار مؤجلا أجلا قصيرا
 وسكنى قصره سكن الحفيرا
 يضيق اللحد منجدلا غفيرا
 ويركب فى مطالبه البحورا
 على تفريق ما يحوى قديرا
 وليس بمالك منه نقيرا
 وقد سمع الصياح المستطيرا
 واما كافرا يصلى سعيرا
 وصار الى التى ساءت مصيرا
 وتزفر فى تغيظها زفيرا
 اله العرش فى الفردوس حورا
 كما حلى مع الذهب الحريرا
 وانهار مفجرة خمورا

ارانى قد كبرت ورق عظمى
كاسى بالبكاء على فاش
الى دار البلى حملا سريعا
وخلونى بأعمال فروجى
اجرنى من عذابك واعف عنى
فانى قد كبرت ورق عظمى
وانى لم ازل ارجوك عفووا

وصرت مخامرا ضرا ضريرا
وقد حملوا بجثسى السريرا
وينصرفون عن قبرى نفورا
على الحالات تنتظر النشورا
وكن لى منك يا املى مجيرا
لجأت الى فنائك مستجيرا
لأنك لم تزل ربا غفورا^(٢)

ومن قول بكر بن حماد فى الموت :

قف بالقبور فنادى الهامدين بها
قوم تقطعت الاسباب بينهم
راحوا جميعا على الاقدام وابتكروا
والله والله لو ردوا ولو نطفوا
ما بالقلوب حياة بعد غفلتها
اين البقاء وهذا الموت بطلبنا
بيننا ترى المرء فى لهو وفى لعب
هذا يباكر دنياه منغصصة
فكلنا واقف منها على سفر
فى كل يوم نرى نعشا نشيعه
الموت يهدم ما تبنيه من فرح

من اعظم بليت فيها وأجساد
من الوصال وصاروا تحت أطواد
فلن يروحوا ولن يغدو لهم غادى
اذن لقالوا التقى من افضل الزاد
والله سبحانه منها بمرصاد
هيهات هيهات يا بكر بن حماد
حتى تراه على نعش وأعواد
فيها حزازات أحشاء وأكباد
وكلنا ظاعن يحدوا به الحادى
فرائح فارق الاحباب أوغاد
فما انتظارك يا بكر بن حماد^(٣)

وقال أيضا يصف مدينة تاهرت :

ما اخشن البرد وريعانه^(٤) واطرف الشمس بتاهرت^(٥)

(٢) المالكي رياض ص ٤١١ - ٤١٣

(٣) الديباغ معالم ج ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤

(٤) ريعان البرد : اضطرابه

(٥) تاهرت : مدينة بالجزائر تسمى اليوم تيارت كانت قاعدة

لامارة بنى رستم ولها ذكر كبير فى التاريخ الافريقى .

تبدو من الغيم اذا ما بدت كأنها تنشر من تخسبت
فنحن فى بحر بلا لجة تجرى بنا الريح على السميت
نفرح بالشمس اذا ما بدت كفرحة الذمى بالمسببت^(٦)

ومن قوله فى الرثاء :

وهون جدى اننى بك لاحق وان بقائى فى الحياة قليل
وان ليس يبقى للحبيب حبيبة وليس بباق للخليل خليل
ولو أن طول الحزن يـردده للزمنى حزن عليه طويل^(٧)

وقال : أبو القاسم محمد بن عبد الله الفزارى :

فى فصيده التى القاها امام المنصور وذكر فيها أخبار مشاهير
العرب فى الجاهلية والاسلام بما يبين مقدار الثقافة التى كانت موجودة
فى القيروان آنذاك ويوضح لنا مدى ما وصل اليه الشعراء من معرفة :

لعمرك ما أوس بن سعدى بفومه ولا سيد الاويار قين بن عاصم^(٨)
ولا كان ذو الحدين بين كتائب لها ميم من بكر وحى اللهازم^(٩)
ورب معد والاحاليفه حوله عباب كموج اللجة المتلاطم^(١٠)

(٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٤

(٧) معالم الايمان ج ٣ ص ٦٩

(٨) أوس بن سعدى : هو أوس بن حارثة الطائى ، كان من
سادات العرب وكرمائها وسعدى أمه وقيس بن عاصم من بنى منقر من
تميم وهو سيدهم فى زمانه وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم
(هذا سيد أهل الوير) .

(٩) ذو الحدين هو مسعود بن بسطام من بنى شيبان من ربيعة
وكان شريفا سيدا فى قومه واللهازم بطن من بنى شيبان .

(١٠) يقصد برب معد : قصى بن كلاب جامع كلمة قریش وبانى

دار ندوتها بمكة .

- ولا حاجب ذو القوس يخطر حوله
واحنف سعد بين سعد ومالك
ولا خالد سم العدة ابن جعفر
وذو الجبلين فى عصائب طيء
ولا كان زيد الخيل والخير والقنا
وعمر بن ابي ثور وعمر بن عامر
ولا علم الاجواد كعب بن مامة
ولا عوف الموفى بذمة جاره
- (٩) قروم كاسد الخيل من آل دارم
(١٢) ومن رامهم من نهشل والبراجم
(١٣) ولا الحارث المشهم الفؤاد بن ظالم
(١٤) فتى الفضل والنعمى عدى بن حاتم
(١٥) وزيد المنايا والسبوف الصوارم
(١٦) وعمر بن عمرو فى الأسود الضراغم
(١٧) عقيد الثناء المحض دون اللوائم
(١٨) ولا جر فى واديه غير المسالم

- (١١) حاجب ذو القوس : هو ابن زرارة بن عدس التميمى المشهور بشرفه فى الجاهلية والاسلام وسمى ذو القوس لانه كان رهن قوسه فى عام شدة فى أرض فارس ليحصل على توسعة لقومه .
- (١٢) يعنى الاحنف بن قيس التميمى وبه يضرب المثل فى الحلم عند العرب ونهشل والبراجم قبيلتان .
- (١٣) خالد بن جعفر : سيد بنى كلاب . اما الحارث بن ظالم : فهو احد فرسان غطفان المشهورين بالشجاعة .
- (١٤) يعنى جيل طيء هما : اجا وسلمى . ومن فخر عدى بن حاتم ان النبى صلى الله عليه وسلم قدمه على قومه واكرمه .
- (١٥) زيد الخيل سمي بذلك لطرادها والغارة عليها وسمها رسول الله بعد اسلامه زيد الخير .
- (١٦) ابو ثور عمرو بن معدى كرب البطل العربى المشهور وبشجاعته يضرب المثل ، وعمر بن عامر : هو ابن ماء السماء كان من سادات العرب وامرائها ، وعمر بن عمرو من اشرافه قبيلة عبس المشار اليهم .
- (١٧) كعب بن مامة الايادى : احد اجواد العرب وبه يضرب المثل فى الجود .
- (١٨) عوف بن هود الشيبانى وهو المقول فيه : « لا حرب بوادى عوف » لشرفه ورفعته مكانه .

ولا الاشعث الكندى بين فوارس صفوف على أهل النجير صلامد^(١٩)

وبعد ذلك تخلص الشاعر الى مدح الخليفة المنصور الفاطمي بقوله :

بأمنع منى فى جوار خليفة عطوف على أهل البيوتات راحم
كريم المساعى والايادى سمت به أبوه صدق من ذؤابة هاشم^(٢٠)
شريف الادانى والاقاصى مهذب اذا ما عددنا فضل أهل المكارم^(٢١)

وقال محمد بن هانىء الأزدي يمدح المعز أيضا ويبين انه بجيشه وأسطوله متحكم فى البر والبحر . وان ظهور أسطوله ناشرا للاعلام والبنود - أخاف ملك الروم لأنه يقدح النار ويزفر غيظا . وان كل ذلك موجه الى اعلاء دين الله . وكيف صار أسطوله سيد الاساطيل والاسلوب جزل قوى والمعانى مبتكرة رائعة تبين لنا مقدار الازدهار الشعري .

ولم أر مثلى ماله من تجلـد ولا كجفونى ما لهن جمود
ولا كالمعز بن النبى خليفة له الله بالفخر المبين شهيد
فأسيفه تلك العوارى نصولها الى اليوم لم تعرف لهن غمود
لك البر والبحر العظيم عبابه فسيان أغمار تخاض وبيد
اما والجوارى المنشآت التى سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد
ولله مما لا يرون كتائب مسومه تحدو بها وجنود
وما راع ملك الروم الا اطلاعها تنشر اعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبـيره له بارقات جمـة ورعود

(١٩) الاشعث أمير كندة أسرته مذبح ففدى بما لم يفقد به عزيزا
ولا أمير سواه ويعنى بصفوف نجير يوم أخذ الاشعث الراية فغلب عسكر
معاوية على ماء بصفين وصلاح : أسود أو صلاب .

(٢٠) الذؤابة فى الأصل : الشعر المنسدل من الرأس الى الظهر
ومعناها هنا السلالة أى سلالة هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢١) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٨٤ - ٨٦

من الراسيات الشم لولا انتقالها
من الطير الا انهن جـوارح
من القادحات النار تضرم للصلى
اذا زفرت غيظا ترامت بمسارج
فانفاسهن الحاميات صواعق
الا فى سبيل الله تبذل كنه ما
فلا غرو ان اعزرت دين محمد
غضبتله ان ثل بالثام عرشه
فبت له دون الانام مسهدا
فعزمك يلقى كل عزم مملـك
وفلكك يلقى الفلك فى اليم من عل

فمنها قنان شمش وريـود
فليس لها الا النفوس مصيـد
فليس لها يوم اللقاء خلـود
كما شب من نار الجحيم وقود
واقواهن الزافرات حديد
تضمن به الانواء وهى جمود
فأنت له دون الملوك عقيـد
وعادك من ذكر العواصم عيـد
ونام طليق خائن وطريـد
كما يتلاقى كائد ومكيـد
كما يتلاقى سيد ومسود (٢٢)

وانشد ابن هانىء المعز فى المنصورية قصيدته التى أعلن فيها
استيلاء الفاطميين على مصر واستسلامها لهم دون أن تراق قطرة دم
وبين كيف حبرت فيها الخطب ودبجت المقالات وقد حسنت السيرة مما جعل
بغداد تود لو أنها مصر وبين ان الفاطميين أحق بالخلافة من بنى العباس :
وأعلن نبأ استيلاء الفاطميين على مصر بقوله :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر
وقد جاوز الاسكندرية جوهـر
وقد أوفدت مصر اليه وفودها
فقد دانت الدنيا لآل محمد
ورد حقوق الطالبيين من زكت
فدونكموها أهل بيت محمد
وما ضر مصرأ حين القت قيادها
وقد حبرت فيها لك الخطب التى

فقل لبنى العباس قد قضى الامر
تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وزيد الى المعقود من جسرهما جسر
وقد جررت أذيالها الدولة البكر
صنائعه فى آله وزكا الذخر
صفت بمعز الدين جماتها الكدر
اليك أمد النيل أم غاله جزر
بدائعها نظم والفاظها نثر

فلم يهرق فيها لذى ذممة دم حرام ولم يحمل على مسلم أصر
غدا جوهر فيها غمامة رحمة يقى جانبها كل نائبة تعرو
كأنى به قد سار فى القوم سيرة تود لها بغداد لو أنها مصر^(٢٣)

وقال يصف الغيث والروض وكيف ان الغيث كدموع من لؤلؤ وان
الربيع عطر الجو وملاء بالعبير وهى صورة بديعة مبتكرة .

الؤلؤ دمع هذا الغيث أم نقط ما كان احسنه لو كان يلتقط
بين السحاب وبين الريح ملحمة معامع وظبى فى الجو تخترط
كأنه ساخط يرضى على عجل فما يدوم رضى منه ولا سخط
أهدى الربيع الينا روضه انفا كما تنفس عن كافوره السقط
غمائم فى نواحي الجو عاكفة حقل تحدر منها وابل سبط
كان تهتانها فى كل ناحية مد من البحر يعلو ثم ينهبط
والبرق يظهر فى الالاء طلعتة قاض من المزن فى أحكامه شطط
والارض تبسط فى خد الثرى ورقا كما تنتشر فى حافات البسط
والريح تبعث انفاسا معطرة مثل العبير بماء الورد مختلط^(٢٤)

ومن قوله فى الهممة والجد والسعى الدؤب وان الانسان حسب عمله :

ولم أجد الانسان الا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد اجدرا
وبالهمة العليا يرقى الى العلا فمن كان ارقى همة كان اظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدما ولم يتقدم من يريد تأخرا^(٢٥)

وقد أخذ على بن هانى ما بالغ به فى وصف المعز حين قال :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فأحكم فانت الواحد القهار
وكأنما انت النبى محمد وكأنما انصارك الانصار

(٢٣) الديوان ص ٧٨ - ٨٢

(٢٤) الديوان ص ٩٦

(٢٥) نفس المرجع ص ٨٦ ، ٨

انت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الاحبار والرهبان
 هذا امام المتقين ومن به قد دوخ الطغيان والكفار
 هذا الذى ترجى النجاة بحبه وبه يحط الاصر والاوزار
 هذا الذى تجدى شفاعته غدا حقا وتخمد ان تراه النار
 من آل احمد كل فخر لم يكن ينمى اليهم ليس فيه فخر^(٢٦)

وقال على بن محمد الايادى :

يصف أسطول القائم الفاطمى بالمهدية وكيف تتعجب العيون من
 منظره والأمواج تتلاعب به مشبها لقوادم النصور سريعة الطيران .
 وسفنه مملوءة بالوقود الذى يرمى على الأعداء . والأسطول ذو مجاديف
 صلبة يحركها الرجال عند عجز الشراع عن تسييرها . وعلى سفن
 الأسطول الدبابات التى ينقب الجنود منها الحصون . وكيف ان الأسطول
 يتحكم فى سيره باستعمال المجاديف عند معاكسة الرياح له حتى يتعبها .
 ويختم القصيدة بأن على سفن الأسطول أسود الخلافة المدافعين عنها
 تختال فى عدد السلاح الرهيب .

أعجب لأسطول الامام محمد ولصنه وزمانه المستغرب
 ليست به الامواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
 من كل مشرفة على ما قابلت اشراف صدر الاجدل المنتصب^(٢٧)
 دهماء قد لبست ثياب تصنع تسبى العقول على ثياب ترهب
 من كل أبيض فى الهواء منثر منها واسحم فى الخليج مغيب^(٢٨)
 كقوادم النسر المرفرف عريت من كاسيات رياشه المتهدب
 خرقاء تذهب ان يد لم تهدها فى كل اوب للرياح ومذهب
 ولها جناح يستعار بطيرها طوع الرياح وراحة المتطرب

(٢٦) نفس المرجع ص ٨٨ ، ٨٩

(٢٧) الأجلد : هو الصقر .

(٢٨) اسحم : أسود .

تسمو بأجرد فى الهواء متوج
فكأنما رام استراقه مقعد
عريان منسوج الذؤابة شوذب^(٢٩)
للسمع الا أنه لم يشهب

ومنها :

سجروا جواحم نارها فتقاذوا
محفوفة بمجادف مصفوفة
وتحثها أيدى الرجال اذا ونت
جوفاء تحمل كوكبا فى جوفها
يعلو بها حدب العباب مطارة
يتركب السلاح من دبابة
وكانما جن ابن داوود اذا
من كل مسجور الحريق اذا انبرى
عريان يقذفه الدخان كأنه
يذهبن فيما بينهن لطافة
شرجو جوانبه مجادف اتبعته
والبحر يجمع بينها فكأنه
فكأنما البحر استعار بزيهم
ولو حق مثل الآهله جنح
منها بالسن مارج ملتهب^(٣٠)
فى الجانبين دوين صلب صلب
بمصعد منه بعيد مصوب
يوم الرهان وتستقل بمركب
فى كل لج زاخر مغولب
لورام يركبها القطا لم يركب^(٣١)
ركبوا جوانبها بأعنف مركب
من سجنه انصلت انصلات الكوكب^(٣٢)
صبح يكر على الظلام الغييب
ويجئن فعل الطائر المتغلب
شاو الرياح لها ولما تتعب^(٣٣)
ليل يقرب عقربا من عقرب
ثوب الجمال من الربيع المذهب
لحق المطالب فائتات المهرب

(٢٩) الشوذب : الطويل الحسن .

(٣٠) سجروا جواحم نارها : ملؤها وقودا وهو يشير الى نار

النفط التى كانت تلقى على العدو فى الحرب .

(٣١) الدبابة : آلة من خشب وحديد على شكل البيت تتخذ فى

الحروب لركوب العساكر فتندفع على عجلات فى أصل الحصون وينقب

الجنود منها الحصن وهم فى جوفها .

(٣٢) انصلت : أسرع .

(٣٣) شرجوا : شبكوا .

كنقائض الحيات رحن لواعبا حتى يقعن ببرك ماء الميزب^(٣٤)
تنصاع من كئيب كما نفر القطا طورا وتجتمع اجتماع الربرب^(٣٥)
وعلى مراكبها اسود خلافة تختال فى عدد السلاح المرهب^(٣٦)

وقال يصف البستان فى صورة شعرية رائعة . وكيف ان شذاه حملته
الرياح فدل عليه قبل رؤيتها . وكيف خجل الورد من الضحى وابتسمت
ثغور الاقحاح وان الحمام يصدق فى جنباتها منذ انبلاج الصباح :

نم بالروض خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح
واخجل الورد شعاع الضحى وابتسمت فيه ثغور الاقحاح
وقام فى الدوح لنعى الدجى حمائم تطربنا بالصياح
مذ ولد الصبح ومات الدجى صاحت فلم تدر غنى ام نواح
ويوم دجن حجبت شمس وأشرقت فى ليلة شمس راح
فما ظننا الصبح الا دجى ولا حسبنا الليل الا صباح

وقد قيل الشعر فى أغراض أخرى غير هذه الأغراض :

فمن ذلك ما قاله محمد بن زرزر فى توحيد الله عز وجل والرد على
الزنادقة والمحلدين المكذبين^(٣٧) :

تهتك الستر عن ذى البغى والفد وحصص الحق أهل البغى واللد
وايقن المشرك الداعى له ولدا بأنه الله لم يولد ولم يلد
لا موت يدركه لا شيء يشبهه تبلى الابوة لا يبلى على الأبد
وفى الخلود نعيم غير منصرم باق بقدرته باق بلا أمد

(٣٤) نضائض الحيات : الحية النضاضة هى التى لا تستقر بمكان
وإذا نهشت قتلت من ساعتها أو التى أخرجت لسانها تنضضه أى تحركه .

(٣٥) الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٣٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٩٨

(٣٧) انظر المالكى رياض ص ٤١٥ الدباغ معالم ج ٢ ص ١٦٧

ومن الشعر الاجتماعى ما ذكره البكرى^(٣٨) عن بعض الظرفاء فى
نقد تحريم التبديد فى القيروان واباحته فى رقادة قوله :

ياسيد الناس وابن سيدهم ومن اليه الرقاب منقادة
من حرم الشرب فى مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة

ومن الأراجيز ما قاله أبو جعفر أحمد بن المروزى عندما انتصر
مصلحة بن حبوس والى تاهرت لعبيد الله المهدي على سعيد بن صالح
الحاكم على سعيد بن صالح الحاكم على نكور وأحضرت رؤسهم وطيف
بها فى القيروان ونصبت بمدينة رقادة فقال فى أرجوزة^(٣٩) له :

لما طغى الأردل وابن الأردل فى عصابة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربي معلى اتاه محتوم القضاء الفصيل
من الاله كالحريق المشعل فحل ارضا طال ما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكلل وجاء رأس رأسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل ذو لمة شائعة لم تغسل
ولحية غبراء لم ترجل

أما عيسى بن ممكن فقد قال فى الشباب :

لعمري يا شبابى لو وجدتك بما ملكت يمينى لارتجعتك
ولو جعلت لى الدنيا ثوابا وما فيها عليك لما وهبتك
فقدتك فاقتددت لذىذ نومي وطيب معيشنى لما فقدتك
ونحتك وانتحيت عليك دهرا فلم تغن النياحة حين نحتك

(٣٨) البكرى المغرب ص ٢٨

(٣٩) البكرى المغرب ص ٩٦

(ملحق ٣)

من نماذج الكتابة :

أرسل عامر بن نافع بن عبد الرحمن الى زيادة الله بن الأغلب
يقول : أما بعد

« فقد اتانى كتابك وفهمت ما ذكرت : أنك شفيق على ذرية وعيال
صيرتها بأرض مضیعة ، وعد مكتنف وفتنة أوقدها من صبره الله جزلا
لها وصيرت نفسى مكانة فيها وقد كنت أنا الشفيق عليها ، والناصر لها
فى الأيام التى قطعت بالتهديد قلوبها وحرصت على ايتامها وكشف سترها
اذ كنت اعدو واروح الى بابك متوقعا لأمرک بسفك دمی من وراء حجابك
وان كان شعارى كفى أعتد به دون دثارى مكتتما به من الخلق لا يظهر
الى منك الا أصلح فطرب ولا يبلغنى عنك الا تجنى الذنوب وقد كان
نظرك ونصرتك لتلك الحرم أحق منك قبل اليوم وتسكينك لروعها
أولى وأحرى .

ثم ذكرت أنه لا حقد ولا أحنة ولا ترة الا وذلك مضمحل مع
الألفة والانابة . فقد والله حقدت بلا ذنب وونزت بلا ترة وحلفت بعهود
ومواثيق وإيمان معلظة قلدها عنقك وأخفرت بها ، زرا ذمتك وما بينى
وبينك هوادة الا ضرب السيف حتى تضع الحرب أوزارها ويحكم الله
بيننا وهو خير الحاكمين » (١) .

ومن الحكم النثرية التى قبلت فى هذا العصر مما يصور الكتابة
الحكمية والفكر الحكمى ما ورد من حكم عيسى بن مسكين فى قوله :

أشرف الغنى ترك المنى . من قاس الأمور علم المستور . من حصن
شهوته صان قدره من أطلق طرفه كثر أسفه . فى تغلب الأحوال على

(١) ابن الأبار الحلة السیراء ج ٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥

جواهر الرجال • بحسن التانى تسهل المطالب • الحسن النية يصحبه
التوفيق • المعاش مذل لأهل العلم • كفاك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرك •
قارب الناس فى عقولهم تسلم من غوائلهم (٢) •

وما ورد عن عبد الجبار بن خالد بن عمران المرتضى :

من قل كلامه قلت آثامه • من كانت له وليه لم يعدم بليه • الصوم
عن الكلام أثقل من الصوم عن الطعام • من خزن لسانه كثر فى الدنيا
والآخرة أمانه •

ومن خلا بربه لم يعدم النور من قبله • ومن خلا بغيره لم يعدم
الزيادة فى ذنبه • من كان فى الله همه قل فى الدنيا والآخرة غمه •
من كان بالليل نائما وبالنهار هائما متى ينال الغنائم ؟ من سكت سلم •
ومن تكلم بذكر الله غنم • ومن خاض اثم ما أبعدنا منه على قربه منا •
كل كلمة لم يتقدمها نظر فالكلام فيها خطر • وإن كانت من أحباب
النظر (٣) •

وكتب جواهر الصقلى فى عهده الى المصريين عند فتح مصر (٤) :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا كتاب من جواهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله
صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر ، الساكنين بها (من أهلها)
ومن غيرهم • انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم
أبو جعفر مسلم الشريف أطلال الله بقاه ، وأبو اسماعيل الرسى أیده

(٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٢٥

(٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٦٣

(٤) المعز لدين الله حسن إبراهيم طه شرف ص ٢٩٨ عن المقرئى

انفاذ الحنفا ص ٦٧ - ٧٠

الله ، وأبو طالب الهاشمى أيدى الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم ، وقد أبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم (العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستدل وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة والتغلب عليه وأحر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان الشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه^(٥) فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة وبإدارة بانعاذ الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق ، الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة واكتنفتهم المصائب وتتابعت عليهم الرزايا واتصل عندهم الخوف استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغشهم الا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه واحسانه لديه وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاد من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب اليم وإن يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه ، للخوف المستولى عليهم واذا لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، واذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرى به عادته من صلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، اذ كان

(٥) أى طعمه ويقصد بذلك الدولة البيزنطية .

قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها اذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ثم تجويد السكة وصرفها الى العيار الذى عليه السكة ليمونة المنصورية المباركة قطع الغش منها ، اذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يسع من ينظر فى أمور المسلمين الا اصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما او عزيه سيدنا ومولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام فى الحق واعانة المظلوم مع التسففة والاحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة واقتفاء الأحوال وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى اوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم الا على ما لم سُعتهم وأقام أودهم وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باثباتها عليكم وإن أجريكم فى الموارث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم ببيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وإن اتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد وإن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم عليهم ، ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها الا من بيت المال ، لا باحالة على من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم ايديكم الله وصانكم اجمعين بطاعة مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه من انكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب امانكم فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهى اقامتكم على مذهبكم وإن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثابتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم وإن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج

والجهاد على ما امر الله به فى كتابه ونصه نبيه ﷺ فى سنته وأجرى
أهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل
المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم
ونعمكم وضياكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم وعلى أنه لا يعترض عليكم
معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب وعلى أنكم
تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض الى
إذاكم ولا يسارع احد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قوكم
فضلا عن ضعيفكم وعلى ألا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم
نفعه ويصل اليكم خيره وتتعرفون ببركته وتغبطون معه بطاعة مولانا
وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته
وأعطيتكم إياه ، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة
الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا وسيدنا
أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون
بالانصراف اليها وتخرجون الى وتسلمون على وتكونون بين يدي الى أن
أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد
على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون الى فروضها ولا تخذلون وليها
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتم به
وفقكم الله وأرشدكم أجمعين « (٦) .

(٦) عن كتاب المعز لدين الله للدكتور حسن إبراهيم وطه شرف
ص ٢٩٨ نقلا عن المقرئى الفاظ الحنفا ص ٦٧ - ٧٠

(ملحق ٤)

سجل بأسماء مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة بالقيروان ومعظمها
بالخط الكوفى على الرق ولها صور بالمكروفيلم .
وقد نقلت هذه المكتبة من القيروان الى دار الكتب القومية بتونس .

وقد قال لى المسئولون عنها ان ذلك امر مؤقت الى حين بناء
دار الكتب والمتحف الاثرى بالقيروان . فتنقل مكتبة القيروان العتيقة
الى القيروان مقرها الاصلى .

والكتب الموجودة بالمكتبة سلسلة بالأرقام الآتية :

من ١ الى ٥٣ : من الرقم ٥٣ صور لنماذج من المصاحف العتيقة
المكتوبة بالخط الكوفى .

من ٥٤ الى ١١٣ : الجزء الاول من كتاب الحج من النوادر والزيادات
على ما فى المدونة لعبد الله بن أبى زيد .

من ١١٤ الى ١٣٦ : كتاب التخيير والتمليك والخلع من المستخرجة
من الأسمعة مما ليس فى المدونة استخراج محمد بن أحمد العتبى رواية
يحيى بن عبد العزيز مما عنى بترسيمه وتبويبه عبد الله بن أبى زيد .

من ١٣٧ الى ١٥٨ : الجزء الثالث من النكاح من مختصر المدونة
والمختلطة تأليف الشيخ أبى محمد عبد الله بن أبى زيد .

من ١٥٩ الى ١٩٨ : الجزء الثالث من الصلاة من النوادر والزيادات
على ما فى المدونة .

من ١٩٩ الى ٢٢٩ : كتاب القذف والاشرية والجنايات من مختصر
المدونة والمختلطة لعبد الله بن أبى زيد .

من ٢٣٠ الى ٢٤٦ : كتاب المربحة وشراء الغائب وبيع الغرر تأليف
عبد الله بن أبي زيد .

من ٢٤٧ الى ٢٦٥ : الجزء الثاني من الزكاة من مختصر المدونة
والمختلطة تأليف أبي محمد عبد الله بن أبي زيد .

من ٢٦٦ الى ٢٧٧ : كتاب التخيير والتمليك والظهار من مختصر
المدونة والمختلطة تأليف عبد الله بن أبي زيد .

من ٢٧٨ الى ٢٩٧ : كتاب الجراح والديات من مختصر المدونة
والمختلطة باستيعاب المسائل واختصار اللفظ في طلب المعنى وطرح
السؤال واسناد الآثار وكثير من الحجاج مما عني بجمعه واختصاره
أبو محمد عبد الله بن أبي زيد .

من ٢٩٨ الى ٣٠٩ : الجزء الثاني من كتاب السلم من مختصر المدونة
والمختلطة تأليف أبي محمد عبد الله بن أبي زيد .

من ٣١٠ الى ٣١٣ : الجزء الأول من النكاح من مختصر المدونة
والمختلطة تأليف عبد الله بن أبي زيد .

من ٣١٤ الى ٣٣٢ : كتاب القطع في السرقة من مختصر المدونة
والمختلطة تأليف عبد الله بن أبي زيد .

من ٣٣٣ الى ٨٠٩ : تفسير يحيى بن سلام البصرى القيروانى المتوفى
سنة ٢٠٠ هـ .

من ٨١٠ الى ٨٥٧ : من كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن الشيبانى
رواية أسد بن الفرات القيروانى .

من ٨٥٨ الى ٨٧٦ : كتاب الضحايا والصيد عن موسى بن معاوية
عن على بن زياد عن مالك بن أنس (قطعة من الموطأ رواية على بن
زياد التونسي) .

من ٨٧٧ الى ٩٠٤ : قطعة من تفسير في قالب طسويل يظهر أنه
لأبى سعيد الحداد أولها : ولا يجوز في الصفة ، وآخرها : يدخلون
عليهم (بها نقص) .

من ٩٠٥ الى ٩١٨ : لا أول لها ولا آخر في الكلام يظهر أنه
لأبى عثمان سعيد الحداد ، أولها : ما لواهما اللذان ، وآخرهما :
واعصب كما يعصبون .

من ٩١٩ الى ٩٣٦ : كتاب فيه أحاديث في السنة والنهي عن البدعة
لما حدثني به أحمد بن زيد المعلم عن موسى بن معاوية الصمادحى
وغيره .

من ٩٣٧ الى ٩٨٩ : الجزء الرابع من كتاب أدب القاضى والقضاء
تأليف البشر بن سليمان .

من ٩٩٠ الى ١٠٣٤ : كتاب الشهادات من المختصر الكبير
لأبى عبد الحكم لصلاة ابن أبى القاسم .

من ١٠٣٥ الى ١٠٥٧ : الاسدية - كتاب السرقة وقطع الطريق عن
محمد بن أبان عن المعمر بن منصور عن أسد بن الفرات عن محمد بن
الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة .

من ١٠٥٨ الى ١٠٨٢ : كتاب الزكاة من مجالس أبى زيد عبد الرحمان
ابن أبى الغمر عن عبد الرحمان بن القاسم .

من ١٠٨٣ الى ١١٢٤ : الجزء الخامس والجزء الرابع من كتب
الحج لأشهب بن عبد العزيز المصرى رواية أبى سعيد سحنون بن سعيد .

من ١١٢٥ الى ١١٥٥ : الجزء السابع من كتاب ايضاح الوقف
والابتداء في كتاب الله عز وجل تأليف أبى بكر محمد بن القاسم الانبارى .

من ١١٥٦ الى ١٢٢١ : قطعة في الرد على الشافعى مبدؤها فتحريم الصلاة التى صلاها فى الكعبة وآخرها آخر الكتاب لأبى عثمان سعيد الحداد .

من ١٢٢٢ الى ١٢٤٤ : كتاب فيه الخلاف بين نافع بن أبى نعيم المدنى وبين أبى عمرو بن العلاء البصرى وما اتفقا عليه وما انفرد به أبو عمرو عن أصحابه .

من ١٢٤٥ الى ١٢٨٧ : كتاب فيه تفسير غريب موطأ مالك بن أنس مما فسرہ الاخفش أحمد بن عمران بن سلامة البجوى .

من ١٢٨٨ الى ١٣١٠ : الجزء الثانى عشر من كتب الحجة فى الرد على الشافعى فيما اغفل من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه محمد ﷺ فى نفى العبيد اذا زنوا الى آخره ليحيى بن عمر .

من ١٣١١ الى ١٣٤١ : الجزء الثانى من الحج من موطأ مالك بن أنس المدنى رواية يحيى بن زكريا بن عبد الواحد الاموى عن أبى مصعب عن مالك .

من ١٣٤٢ الى ١٣٥٣ : كتاب البيوع من موطأ مالك رواية عبد الرحمن بن القاسم برواية سحنون بآخره نقط .

من ١٣٥٤ الى ١٣٨٠ : الجزء الثانى من تفسير موطأ مالك بن أنس مما سأل عنه يحيى بن ابراهيم للقابسى .

من ١٣٨١ الى ١٣٩٥ : قطعة بأولها نقص بالورقة الاولى بيع الحيوان باللحم وهى تفسير موطأ مالك .

من ١٣٩٦ الى ١٤٢٦ : الجزء الخامس من تفسير موطأ مالك بن أنس مما سأل عنه يحيى بن ابراهيم بن عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ومحمد بن عيسى واصبغ بن الفرغ فيه كتاب الجهاد .

من ١٤٢٧ الى ١٤٧١ : قطعة كاملة من موطأ مالك للقباسي .

من ١٤٧٢ الى ١٤٧٩ : قطعة من الجزء السابع والثامن والتاسع
من تفسير موطأ مالك بن أنس بآخرها نقص .

من ١٤٨٠ الى ١٥١٨ : كتاب الطلاق من أمالي أبي عثمان سعيد
بن محمد على أجوبة مسائل المدونة .

من ١٥١٩ الى ١٥٤٩ : الجزء الرابع من معاني الاخبار خرجته
وشرح معانيه أبو عثمان سعيد بن محمد .

من ١٥٥٠ الى ١٦٠٠ : قطعة يظهر أنها تفسير الموطأ ليحيى بن يحيى
الليثي رواية محمد بن الوضاح الاتدلسي .

من ١٦٠١ الى ١٦٣٢ : كتاب العلم من جامع عبد الله بن وهب
البصري رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب .

من ١٦٥٣ الى ١٦٩٢ : كتاب المحاربة من موطأ عبد الله بن وهب .
من ١٦٩٣ الى ١٧١٨ : كتاب الحجة مما دون يحيى بن عون .

من ١٧١٩ الى ١٧٧٨ : لابي الحسن علي بن محمد الربيعي اللخمي
القيرواني .

من ١٧٧٩ الى ١٧٨٢ : قطعة لا اول لها ولا آخر لعلها من كتاب
يحيى بن عمر في البيوع اول الورقة الاولى : لا تبتدعوا في دينكم ،
وآخرها : فقال له من انت قال فلان .

من ١٧٨٣ : آخر وجه من كتاب النكاح كتب حريز بن أحمد
الكلبي بالمنستير بقصر الكبير وذلك في شهر شوال من سنة خمس وأربعمئة .

من ١٧٨٤ الى ١٧٨٥ : الوجه الأول من الجزء الخامس من المقدمات

الممهدات والوجه الأخير من حيث أنه بخط أحمد بن محمد بن رشد
وقع الفراغ منه بالجمادى الآخر سنة ٥٢٩ هـ .

من ١٧٨٦ الى ١٧٨٧ : قطعة من المدونة بها سماع مؤرخ في ٣٠٦ هـ
وبها تعداد كتب اشهب سماعات بخطوط أصحابها في آخر ورقة من كراس
من جزء من المدونة وهو كتاب الايمان بالطلاق .

من ١٧٨٨ : سماع بآخر كتاب حديث من يحيى بن عون وتاريخه
جمادى الاولى سنة ٢٩٣ هـ .

من ١٧٨٩ الى ١٨١٣ : كراس من جزء من احكام القرآن لاسماعيل
بن اسحاق ومنتسخ في سنة ٤٠٧ لا أول له .

من ١٨١٤ : آخر ورقة من كتاب فقه مكتوب بخط محمد بن على
الربيعي وذلك في آخر ذى الحجة سنة ٤١٠ هـ .

من ١٨١٥ الى ١٨١٦ : وجه كتاب فيه رسالة مالك بن انس الى
هارون أمير المؤمنين .

من ١٨١٧ الى ١٨٣٨ : كتاب الشعر والغناء من جامع عبد الله بن
وهب رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب .

من ١٨٣٩ الى ١٨٨٣ : كتاب من أمهات مذهب مالك .

من ١٨٨٣ الى ١٨٨٥ : ورقتان بظاهر أولهما : الكتاب الثالث من
البيوع عن يحيى بن سلام بخط أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم .

من ١٨٨٦ الى ١٩١٦ : الجزء الاول من الصلاة في السفر تصنيف
أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن زياد المواز .

من ١٩١٧ الى ١٩٥٣ : الجزء الثانى من الاول من كتاب الوصايا
من الموازنة .

- من ١٩٥٤ الى ١٩٨٢ : كتاب القذف من كتب الموازنة .
- من ١٩٨٣ الى ٢٠٠٤ : كتاب التفليس من كتب الموازنة .
- من ٠٠٥ الى ٢٠٤٦ : الجزء الثالث من كتاب الوصايا من الموازنة .
- من ٢٠٩١ الى ٢١٢٢ : الجزء الاول من كتاب الديات من الموازنة .
- من ٢١٢٣ الى ٢١٣٨ : الجزء الاول من جنایات العبيد من الموازنة .
- من ٢١٣٩ الى ٢٢٠١ : الجزء الثانى من كتاب الزكاة من الموازنة .
- من ٢٢٠٢ الى ٢٢١٧ : الجزء الثالث من الديات من الموازنة .
- من ٢٢١٨ الى ٢٢٢٥ : المعقود والابل من الموازنة .
- من ٢٢٢٦ الى ٢٢٧٣ : قطعة من اختصار الموازنة .
- من ٢٢٧٤ الى ٢٢٨٨ : قطعة من الموازنة اولها ما جاء فى البيع والسلف وآخرها ما جاء فى العنية وبيع الآجال .
- من ٢٢٨٩ الى ٢٣٧٠ : الجزء الثالث من كتب الحج من الموازنة .
- من ٢٣٧١ الى ٢٣٩٤ : الجزء الثانى من كتاب النكاح من الموازنة .
- من ٢٣٩٥ الى ٢٤٠٣ : اربع ورقات من الموازنة .
- من ٢٤٠٣ الى ٢٤٠٦ : ورقتان من الموازنة على ظاهر الاولى الجزء الخامس من العتق وطالع الاخيرة باب فى بيع الموير .
- من ٢٤٠٧ الى ٢٤١٢ : قطعة من الموازنة بآخرها نجد كتاب الاقرار الثانى .

من ٢٤١٣ الى ٢٣٢٨ : قطعة من العتبية ، اولها : ذلك على اهل تلك البلد ، وآخرها : قلت لحمد كيف رأى مالك وأصحابه . بأولها وآخرها نقص .

من ٢٤٢٩ الى ٢٤٩٤ : قطعة من اختصار الموازنة اولها من كتاب الوضوء . .

من ٢٤٩٥ الى ٢٥٠٥ : قطعة من الموازنة اولها : المائة والخمسين ، وآخرها : آخر الجزء الثانى من كتاب الجهاد .

من ٢٥٠٦ الى ٢٥٠٩ : قطعة من الموازنة على ظاهرها : الجزء الاول من الجرائم والديات .

من ٢٥١٠ الى ٢٥١٣ : ورقتان من جزء كتاب طلاق السنة من الموازنة .

من ٢٥١٤ الى ٢٥١٥ : ورقة اولى من الجزء الثانى من الزكاة من الموازنة .

من ٢٥١٦ الى ٢٥٢٠ : ثلاث ورقات من الموازنة على ظاهر الاولى منها : الجزء الثانى من البيوع ومنها ورقة صغيرة .

من ٢٥٢١ الى ٢٥٥٠ : كتاب الحج من المستخرجة (العتبية) .

من ٢٥٥١ الى ٢٦٢١ : كتاب الصلاة والوضوء من المستخرجة (العتبية) .

من ٢٦٢٢ الى ٢٦٧٢ : كتاب المكاتب من العتبية .

من ٢٦٧٣ الى ٢٧٠٧ : الجزء الاول من كتاب العتق والتدبير من الواضحة .

من ٢٧٠٨ الى ٢٧٣٠ : الجزء الثانى من كتاب الطلاق من الموازنة .

من ٢٧٣١ الى ٢٧٧٨ : كتاب القضاء فى الدين والتفليس من الواضحة .

من ٢٧٧٩ الى ٢٧٩٥ : قطعة من الواضحة ، طالع الورقة الاولى :
العمري عن نافع عن ابن عمر ، وآخره : آخر الكتاب .

من ٤٠٤ الى ٤٣١ : الاول من كتاب التصاريف ليحيى بن محمد
بن يحيى بن سلام البصرى (حفيد المفسر) والكتاب فيما اتفق لفظه
واختلف معناه من كلام الله عز وجل .

تنبيه

الأرقام اليمنى (داخلية فى اعداد التفسير) .

تعريف ببعض المصادر

١ - طبقات علماء افريقية وتونس لابی العرب محمد بن أحمد
ابن تمیم القيروانی المتوفى سنة ٣٣٣ هـ :

من نفائس المخطوطات التى طبعتها الدار التونسية للنشر
سنة ١٩٦٨ وقد قام بتحقيقه على الشابی من الجامعة التونسية ونعيم
حسن الیافی من الجامعة السورية .

والمؤلف هو أبو العرب محمد بن أحمد بن تمیم التمیمی . وقد
اشتهر بأنه رافع لواء التاريخ بافريقية ووصفه المؤرخون بأنه ثقة عالما
بالسند والرجال من أبصر أهل وقته بها كثير الكتب والتقيد وكانت له
مكتبة تحتوى على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب خطها بنفسه .

والكتاب يعتنى عناية بالغة بالسند مما يدل على أن فن التراجم
لم ينفصل فى ذلك الحين عن الطريقة التحديثية . وهو يختصر بعض
الاحداث . ويوجز فى ترجمته ويكثر الرواية عن أبى عثمان سعيد
الحداد ، ومحمد بن محمد اللباد كما ينقل عن الواقدى وأبو العرب
لا يذكر دائما تاريخ وفاة من يتحدث عنه ، كما أنه مع كثرة نقله عن
أبى سعيد الحداد لم يترجم له . ومن أتى من المؤرخين بعد أبى العرب
ينقل عنه . مثل كتاب الرياض ، وترتيب المدارك ، ومعالم الايمان .
وقد ذكر أبو العرب فى الكتاب أسماء من دخل افريقية من الصحابة
والتابعين . ومن روى عن التابعين من أهل افريقية وبعض من قدم
الى القيروان واقام فيها أو رجع الى المشرق . وهو يورد بعض الاحداث
عن يترجم لهم بدون ربط بينها كما يذكر بايجاز أساتذة العلماء الذين
ترجم لهم .

وأخبار أبى العرب خالية من المبالغات . وقد يشير الى المظاهر
الاجتماعية كقوله عن ابن غانم « انه يجيد اللباس لقد مات فأصابوا له

كسى قومى بالف دينار « كما يصدر احكاما على بعض من ترجم لهم كقوله عن ابن فروخ « كان ثقة فى حديثه ورمى بشيء من القدر حتى تبينى براءته » وربما ذكر بعض الرؤى مثل ما ذكره بالنسبة لاستسقاء النعمان أبى المنذر .

ويعتبر كتاب طبقات أبى العرب من أهم المصادر التى وصلتنا عن هذه الفترة باعتبار أنه كان معاصرا لهذه الفترة ومن أقدم كتب الطبقات التى وصلت إلينا وقد استفدت منه كثيرا فى تلمس الحياة الفكرية فى القيروان .

٢ - قضاة قرطبة لمحمد بن حارث بن أسد القيروانى الخشنى المتوفى سنة ٣٦١ هجرية - المكتبة الاندلسية نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب سنة ١٩٦٦ م .

عاش المؤلف سنواته الاولى فى القيروان وسمع من علمائها ثم رحل الى الاندلس ونبغ فيها ونال حظا وشهرة ولف فيها مؤلفات عدة .

وقد استخلص المؤلف مادة كتابه من مصادر مختلفة . منها ما سمعه من طبقات الشعب المختلفة من الحكام الى المحكومين ، وبعض الخطابات التى تبودلت بين الحكام والقضاة ، وبعض الوثائق التى كانت محفوظة عند بعض الاسر وربما اعتمد كذلك على بعض الكتب ولكنه لم يشر إليها وكان يعتمد على الروايات المتوارثة بين الاجيال مثال ذلك ما ذكره عن القاضى مهاجر بن نوفل القرشى عما سمع منه بعد أن هيل عليه التراب وفى حديثه عن القاضى عمر بن شراحيل يقول : وأخبرنى من اثق به من أهل العلم قال « وعن القاضى محمد بن بشير المعافر يقول : فمن مستفيض الاخبار التى لا يتواطأ على مثلها أن . . . وعن القاضى الفرغ بن كنانة وقرأت فى الديوان جواب الحكم رضى الله عنه . . . الخ وهو يسجل الاخبار التى يسمعها دون تغيير او اضافات والكتاب بعيد عن الميل والتحيز أو الانسحاق وراء شطحات الخيال ولم يكن يميل الى التعصب السياسى أو التملق والمداهنة .

وقد أفادنا هذا المصدر في معرفة العلماء والطلاب الذين قدموا
ووضح لنا الرسائل التي كانت تدور بينهم ومنزلة كل منهما من الآخر .
كما انه يذكر من تعلم من قضاة قرطبة في القيروان .

٣ - تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى عبد الله بن محمد بن
يوسف الازدي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة
مطابع سجل العرب سنة ١٩٦٦ م .

أحد الكتب الهامة من المكتبة الاندلسية (التي قامت بطبعها الدار
المصرية للتأليف والترجمة من كتب التراث) وهو يضم تراجم مختصرة
لفقهاء الاندلس وعلمائه ورواته . وقد اقتصر المؤلف على ذكر الميلاد
والوفاة والسماع والرواية . وهو مرتب على حروف المعجم . واهتم
كثيرا بالفقهاء وان كان قد ترجم لبعض الأدباء والشعراء وذكر بعض
اشعارهم . وهو لا يغرق في حديثه عن العلماء بالتفاصيل والروايات
وانما يذكر لمن يترجم له الاسم والكنية والأساتذة الذين تعلم عليهم ومقر
نشاطه العلمي وولايته او رحلاته ثم وفاته . وقد ذكر في مقدمة كتابه
المصادر التي اعتمد عليها في كتابه ومن أخذ عنهم مشافهة .

وقد أفادنا هذا الكتاب في بيان الصلة بين قضاة قرطبة والقيروان
من الاندلس الى القيروان وتلقوا العلم فيها وكذلك من رحل من علماء
القيروان الى الاندلس وان لذلك جانب كبير في فصل العلاقات والتأثير
والتأثر بالنسبة للاندلس .

٤ - تاريخ افريقية والمغرب . للرقيق القيروانى تحقيق المنجى
الكعبى . نشر مطبعة الوسط تونس سنة ١٩٦٧ م .

وهو جزء لقطعة من كتاب الرقيق : تبدأ من أواسط القرن الاول
الى أواخر القرن الثانى وقد ألف في منتصف القرن الخامس الهجرى .
وهو المصدر المفضل عند ابن عذارى وابن خلدون والتيجانى .

وكان لتأليف كتاب الرقيق اثر كبير بالنسبة لما ألف قبله حيث لم يعد هناك ذكر قوى لكتب الواقدي وابن الوراق وغيرهما من فدامى المؤرخين والخباريين المغاربة فقد غطى عليهما كتابه واصبح عمدة عند المؤرخين .

وكتاب الرقيق لا يخلو من بعض القصص الشائعة التي قد يكون لها أساس من الواقع . وهو لا يهتم بالسند في الاخبار فمعظم الاخبار يرسلها دون اشارة للمصادر التي استقاها منها ويظهر أنه كان يعتمد في نقلها على كتب القيروانيين أمثال ابن أبي حسان اليحصبي .

واسلوب الرقيق سهل مسترسل . ولا يكاد يشغله استطراد يخرج به عن الموضوع الذي يأخذ فيه . وهو يهتم بتحديد الاماكن والدقة في تاريخ الوقائع والاحداث لتحديد مكان وزمان التقاء زهير بكسيلة .

وقد افادني ذلك الكتاب بايراد الشعر الذي قيل في يزيد بن حاتم ووفود الشعراء عليه ، وبايراد المحاورات والمكاتبات والاشعار والخطب التي دارت بين الولاة ومن ثار عليهم . مثل حوادث ثورة تمام التميمي على محمد بن مقاتل العكي ، ونصرة ابراهيم بن الاغلب له وذكر الكتب التي دارت بينهما مما يعطينا صورة عن الحياة الفكرية في القيروان .

٥ - كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم تأليف أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي المتوفى سنة ٤٣٨ هـ .

قام على نشر الجزء الاول الدكتور حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م . في صدر هذا الكتاب اخبار الفتح الاسلامي الى ايام حسان بن النعمان ثم يذكر المؤلف من دخل افريقية من اصحاب النبي ﷺ ثم الطبقة الاولى من علماء التابعين في القيروان كما يشير الى من دخل القيروان من العلماء ثم عاد الى بلده .

يبدأ بعد ذلك في الترجمة لفقهاء مدينة القيروان مبتدئا لهم
بعبد الرحمن بن انعم ويخصص كل طبقة بذكر الذين اشتهروا منها
بالعبادة والنسك . ويشير الى العلماء الذين لم يلقوا مالكا ولا روبا
عنه . وهو يطيل في بعض التراجم حتى تصل ترجمة بعضهم الى
اربعين صفحة .

وقد يورد لمن يترجم له ذكر بعض الكتب وبعض الحكم والاقوال
المأثورة . كما يذكر الشعر لبعض من قاله ويسجل بعض المواعظ
بطولها وقد اعانى ذلك على تصور الفكر واستجلاء جوانبه . وهو في
حديثه عن الزهاد يذكر اجابة الدعوات وصنوف الكرامات مما نراه في
ترجمته لعبد الرحيم الزاهد وغير ..

والمالكي ينقل كثيرا عن أبى العرب تميم كما ينقل عن مجالس
سليمان بن سالم ، وعن المجموعة لابن عبدوس وعن مدونة سحنون
وموطأ مالك وكتاب انطبقات لمحمد بن سحنون وتصانيف ابن وهب
وهو ينقد السابقين أحيانا ، فقد نقد أبا العرب وابن اللباد فيما ذهبا
اليه من أن ولاية أبى كريب القاضي كانت أيام يزيد بن حاتم ، ويحققها
بأنها كانت أيام عبد الرحمن بن حبيب وهو الصواب .

وهو يفصل بعض ما أوجز أبو العرب وبذلك كان مكملًا لوضوح
الصورة مع اتسامه بسهولة الأسلوب وبالأمانة في اسناد الأقوال
الى أصحابها .

٦ - المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب
المسالك والممالك تأليف أبى عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ نشر مكتبة
المثنى ببغداد .

الف هذا الكتاب في النصف الثانى من القرن الخامس وهو وصف
عن جغرافية افريقية وتاريخها وقد اشتمل على معلومات وافرة
ودقيقة مستندة الى وثائق صحيحة . ومع أنه كان منصرفا الى الجغرافيا

الا انه يأتى بنبذة تاريخية يسندها غالبا الى الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ . وقد افادنى هذا المصدر فى تخطيط القيروان وبيان المنشآت والمشاريع والاصلاحات والاضافات التى تمت فيها كما أنه افاض فى وصف المدن التى قامت حول القيروان . كما أشار الى دخل البلاد من المزروعات والحاصلات وغيرها من الامور التى افادتنا فى فصل تأسيس القيروان وفى الحالة الاجتماعية والاقتصادية .

٧ - جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الاندلس : تأليف محمد بن أبى نصر فتوح الازدى ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ - المكتبة الاندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة مطبعة سجل العرب سنة ١٩٦٦ م .

هذا المؤلف كتبه مؤلفه فى بغداد من حفظه . وقد طلب منه ذلك بما يعطى صورة عن الاندلس . وقد ترجم فيه مؤلفه لرجال الحديث والفقه والتاريخ . ورتبه على الحروف وذكر فيها كثيرا من القطع الادبية والشعرية وذكر كثيرا من الوقائع والاحداث التى دارت بين العلماء والحكام . ومع اهتمامه برجال الحديث والفقه فهو يذكر قضايا سياسية واجتماعية وأدبية تستغرق جانبا كبيرا من الكتاب ولم يخل الكتاب من الطرائف التى تشير الى طبيعة هذا المجتمع ومزاجه وهو يختار نصوصا شعرية وأدبية ذات لون خاص يشعر قارئها بشفاقية المؤلف ودوقه الرقيق وهى مثبتة فى جميع صفحات الكتاب . وبعد أن ذكر المؤلف مقدمة عن الاحوال السياسية التى عاش فيها العلماء . بدأ يترجم للعلماء فيذكر النسب والبلد والشيخوخ الذى تلقى العالم عليهم والنشاط الذى قام به ثم يذكر مؤلفاته .

ولصاحب الجذوة عدة مؤلفات تدور حول الامور الدينية والاخلاقية والعلاقات الاجتماعية والتاريخ والتراجم والسير وفنون الادب وخاصة فن الشعر .

وقد استفاد البحث من هذا الكتاب مع كتاب ابن الفرضى فى بيان العلاقات خاصة بين الاندلس والقيروان حيث بينا لنا الصلة الوثيقة بينهما .

٨ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك :
للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتي المتوفى
سنة ٥٤٤ هـ فى أربعة أجزاء تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود من
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان سنة ١٩٦٧ م .

وهو يبتدىء باظهار فضل علم اهل المدينة وترجيحه على غيره
وهو يدافع عن رأى المالكية فى الاخذ بعمل اهل المدينة ، ويرد على
من خالفهم بالمنطق وبالأمثلة ويرجح مذهب مالك على المذاهب الأخرى .

وعياض يذكر فى ترتيب المدارك من روى عن الامام مالك ومن أخذ
بمذهبه من أهل العراق والمشرق ومن أهل الحجاز . واليمن . ومصر .
والشام ومن أهل القيروان والأندلس . وقد ذكر ممن أخذ عن مالك نحو
ألف اسم ممن عرف اسمه وصحت روايته وشهرت صحبته . وبالنسبة
للقيروان يذكر العلماء الأول من أهل القيروان الذين رحلوا الى مالك
والتقوا به . ثم يترجم للمالكيين من أهل القيروان الذين التزموا بالمذهب
المالكي سواء رحلوا الى المشرق أو لم يرحلوا .

وهو يذكر الكرامات لبعض العلماء ومنهم واصل العابد ، وعبد الرحيم
الربعى ، ويذكر الاساتذة لمن يترجم لهم . ويورد أسماء المؤلفات لمن
يترجم لهم متتالية مثل ما ذكر لمحمد بن سحنون وغيره .

ومن مراجعه التى يشير اليها فى مؤلفه وينقل عنها مؤلفات محمد
ابن سحنون وسليمان بن سالم فى مجالسه ، وسعيد بن الحداد ،
وأبى العرب تميم ، ومحمد بن حارث الخشنى . وعن كتاب التعريف
لابن الجزار الذى ذكر نقله عنه فى ترجمة ابن فروخ كما يأخذ عن
المالكي فى رياض النفوس .

وترتيب المدارك يوضح أشياء عن المترجم له بالنسبة لما ذكر
فى الرياض ويذكر سنة الوفاة ، كما يذكر عدة روايات لمن تقدمه

من المؤرخين كما يحدث في ترجمة ابن غانم . وهو عندما يستشهد بالشعر يترك الفاحش منه ويقول : تركناه لفحشه وان كان بيعت الأبيات .

وقد افاد هذا الكتاب البحث في معرفة علماء الاندلس الذين نعلموا في القيروان فكان تقسيمه لعلماء الامصار معينا للباحث في سرعة الوصول الى ضالته بدون عناء كبير . وصاحب المدارك يقسو في حكمه على الفاطميين ويبالغ في وصف ما قاموا به بالنمبة للصحابة والعلماء .

وهو يضع عناوين جزئية لمن يترجم لهم فيقول بعد ذكر الاسم والحديث عنه كالبهلول مثلا : ذكر فضائله وعبادته وورعه وتواضعه وشمالته وبقية أخباره . ذكر تسننه ومجانبته أهل الاهواء ومولاته ومعاداته في الله . ذكر محنته ووفاته .

ونلاحظ في الكتاب : الدقة في اسناد الأقوال الى مصادرها . والتفصيل في بعض الحوادث كما ذكر بالنسبة لمجلس أسد بن الفرات وحديثه عن المسالكية والأحناف .

٩ - معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : لعبد الرحمن بن محمد الانصارى الاسدى الدباغ المتوفى سنة ٦٩٦ هـ واكملة وعلق عليه ابو القاسم بن عيسى التنوخى المتوفى سنة ٨٣٩ هـ وهو في أربعة أجزاء الجزء الاول الطبعة الثانية مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٨ م تصحيح ابراهيم شيوخ وثلاثة الاجزاء الأخرى طبع المطبعة العربية التونسية سنة ١٣٢٠ هـ.

وهذا الكتاب قد ذكر ما ورد في مدح القيروان والأشعار التي قيلت في فضلها وتحدث عن المساجد السبعة القديمة الفاضلة في القيروان مما لم يذكره بهذا التفصيل أحد قبله - ثم يذكر أسماء من نزل القيروان من الصحابة ويخص كل صحابي بحديث مسند . كما يتحدث عن فتح افريقية الى أيام حسان بن النعمان .

ومن المراجع التي رجع اليها الدباغ في كتابه الواقدي ومحمد بن

سحنون وأبو العرب تميم ومحمد بن يوسف الوراق والمالكي في الرياض
وعياض في المدارك .

وما أسند فيه الى الدباغ يصدر بيقال . وما أسند الى ابن ناجي
يصدر بقلت وابن ناجي يستدرك أشياء على الدباغ أو يزيد أشياء أخرى
وهو ينقل في زياداته عن المالكي وعياض أو يبدى رأيه هو .

والكتاب يهتم بذكر الوفاة وإذا لم يعثر على تاريخ الوفاة يقول :
لم أقف له على تاريخ وفاة .

وابن ناجي ينقد أحيانا آراء المترجم لهم كما حدث في رفض ابن
فروخ لتولى القضاء كما يذكر في تعليقه شيئا من سيرته هو كما حدث
في ترجمة القاضي سليمان بن عمران وتعليقه على الفراسة .

وقد ترجم الدباغ لأبي سعيد الحداد بينما لم يترجم له أبو العرب
وعياض مع كثرة نقل أبي العرب في طبقاته عنه . وهو في ترجمته له
يبين الدور العظيم الذي قام به ابن الحداد في الرد على الشيعة والدفاع
عن السنة .

وهو يشير أحيانا الى بعض الاحلام والرؤى ويورد اشعارا لمن قال
شعرا من العلماء ، أو لمن قيلت في رثائهم ، كما يتحدث عن بعض
الفقهاء بأنه كان فقيه البدن وعرفه بأنه كان طبيبا . ولا شك أن هذا
المصدر قد أفاد البحث في الرجوع الى بعض التراجم خاصة سليمان
بن عمران القاضي الحنفي حيث أن المالكي لم يترجم للفقهاء الأحناف
وانما يشير الى ما حدث بينهم وبين المالكية من وقائع .

١٠ - البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب : لابن عذارى
المراكشي ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وكولان - نشر دار الثقافة بيروت
لبنان .

كتب ابن عذارى البيان المغرب في نهاية القرن السابع الهجري

واعتمد كثيرا على تاريخ الرقيق كما اعتمد على كتب الواقدي والمسعودي والوراق والبكري وعبد الله بن أبي حسان من المؤرخين السابقين . وهو يفصل في الاخبار ويعرض أمور الفتح والاحداث . ومع أنه يهتم بالاحداث السياسية الا أنه يذكر كذلك وفيات العلماء من رجال الفقه والقضاء والحديث والطب والعربية وغيرهم . وهو خلال ذلك يورد الأشعار مثل ما يذكر عن بكر بن حماد وغيره ويشير الى ذكر الأحداث التي وقعت مع العلماء عند قيام دولة الفاطميين والتعذيب الذي لقيه العلماء منهم مع تلميح الى الامور الاقتصادية والاجتماعية .

وهو يورد الاحداث عاما بعد عام . ولقد اعاننى التفصيل الذى يمتاز به ابن عذارى على المتصور الواضح للجوانب التى تحدث عنها .

* * *

المصادر والمراجع

نورد فيما يلى المصادر والمراجع التى رجعنا اليها . وقد رتبنا
أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة وفاة المؤلفين
الأقدمين .

آدم متز :

١ - الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع أو عصر النهضة فى الاسلام
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . الطبعة الثالثة مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر سنة ١٣٧٧ هـ سنة ١٩٥٧ م .

أنخل جنثالث بالنثيا :

٢ - تاريخ الفكر الأندلسى نقله عن الاسبانية دكتور حسين مؤنس
من مختارات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية . الطبعة الاولى
سنة ١٩٥٥ م ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية .

ابن الأبار - أبو عبد محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى
المعروف بابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨ هـ .

٣ - الحلة السيرة ج ١ ، ٢ حققه وعلق حواشيه دكتور حسين
مؤنس الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ م .

ابراهيم العدوى دكتور :

٤ - موسى بن نصير اعلام العرب عدد أغسطس سنة ١٩٦٧ م

ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ العلامة أبو الحسن على بن أبى الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن
الأثير الجزرى المقلب بعز الدين .

٥ - تاريخ الكامل ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ الطبعة الاولى
بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هـ .

٦ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ١ نشر مطابع الجمعية
التعاونية .

احسان حقى :

٧ - تونس العربية دار الثقافة بيروت .

احسان عباس دكتور :

٨ - العرب فى صقلية مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م .

احمد أمين :

٩ - ظهر الاسلام ج ١ - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م .

احمد توفيق المدنى :

١٠ - كتاب الجزائر . طبعة ثانية نشر دار الكتاب - البليدة -
الجزائر .

احمد زينى دحلان :

١١ - تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية . المطبعة البهية
سنة ١٣٠٦ هـ .

احمد شوكت الشطى دكتور :

١٢ - الطب عند العرب - مع العرب - مؤسسة المطبوعات الحديثة .

احمد فكرى - دكتور :

١٣ - المسجد الجامع بالقيروان - مطبعة المعارف سنة ١٣٥٥ هـ -
١٩٣٦ م .

الادريسي ت ٦٤٩ هـ : محمد بن عبد العزيز الشريف :

١٤ - صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من
كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - مطبعة بريل بمدينة ليدن
سنة ١٨٦٤ م .

ابن أبي أصيبعة ت ٦٦٧ هـ موفق الدين أبو العباس أحمد بن
القاسم الخزرجي :

١٥ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - الطبعة الاولى المطبعة
الوهبية سنة ١٢٩٩ هـ .

الاصطخرى ت في النصف الاول من القرن الرابع الهجرى -
أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي :

١٦ - المسالك والممالك - تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال
الناشر دار القلم سنة ١٩٦١ م .

أميل لود فيخ :

١٧ - البحر المتوسط (مصاير بحر) ترجمة عادل زعتر دار
المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ م .

الباجي : أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي :

١٨ - الخلاصة النقية في أمراء افريقية - مطبعة الدولة التونسية
بتونس سنة ١٢٨٣ هـ .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك :

١٩ - الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم
وإدبائهم ج ١ ، ٢ - طبع في مدينة مجريط بمطبعة روخس سنة ١٨٨٢ م .

البكري ت ٤٨٧ هـ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز :

٢٠ - المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - مكتبة المثنى ببغداد .

البلاذري ت ٢٧٩ هـ : أحمد بن يحيى بن جابر :

٢١ - فتوح البلدان . نشره ووضع ملاحقه د . صلاح الدين المنجد
ملتزم النشر مكتبة النهضة المصرية .

التجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد قام بالرحلة
في البلاد التونسية وطرابلس من سنة ٧٠٦ هـ - ٧٠٨ هـ :

٢٢ - رحلة التجاني : قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب المطبعة
الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨ م نشرات كتاب الدولة للتربية القومية .

ابن جلجل ألفه سنة ٣٧٧ هـ أبو داود سليمان بن حسان
الأندلسي :

٢٣ - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد سيد - مطبعة
المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م
الحبيب تامر - دكتور :

٢٤ - هذه تونس مطبعة الرسالة - مكتب المغرب العربى .

الحبيب الجنحاني - دكتور :

٢٥ - القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاملامية في المغرب
العربى الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ م .

الحبيب حسن عمر :

٢٦ - تقويم تونس سنة ١٩٤٦ - مطبعة الادارة - تونس .

ابن حزم ت ٤٥٦ هـ أبو محمد على بن سعيد :

٢٧ - جمهرة أنساب العرب . تحقيق وتعليق ا . ليفى بروفنسال
ذخائر العرب - دار المعارف بمصر .

حسن إبراهيم حسن - دكتور :

- ٢٨ - تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب
الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٤ م .
- ٢٩ - عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب مكتبة
النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ بالاشتراك مع طه أحمد شرف دكتور .
- ٣٠ - المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر -
مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤ بالاشتراك مع طه
أحمد شرف . دكتور .

حسن أحمد محمود - دكتور :

- ٣١ - الاسلام والثقافة العربية في افريقية طبع مكتبة النهضة
المصرية سنة ١٩٥٨ م .

حسن حسنى عبد الوهاب :

- ٣٢ - ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية - الناشر
مكتبة المنار تونس سنة ١٩٦٥ م .
- ٣٣ - بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق
المطبعة التونسية تونس سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٣٤ - خلاصة تاريخ تونس الطبعة الثانية .
- ٣٥ - الامام المازري ملتزم الطبع دار الكتب الشرقية تونس .
- ٣٦ - مجمل تاريخ الادب التونسي الناشر مكتبة المنار تونس
سنة ١٩٦٨ م .

حسين مؤنس - دكتور :

- ٣٧ - فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالجماهير .

الحميدى ت ٤٨٨ هـ أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن
عبد الله الأزدي :

٣٨ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس - المكتبة الأندلسية
الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

الخشنى ت ٣٦١ هـ أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد
القيروانى :
٣٩ - قضاة قرطبة - المكتبة الاندلسية - الدار المصرية للتأليف
والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربى :
٤٠ - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ نسخة
من مكتبة الأزهر رقم ١٠٥ أباطة .

٤١ - المقدمة : تحقيق الدكتور عبد الواحد وائى . الطبعة
الثانية ١٩٦٨ م نشر لجنة البيان العربى أربعة أجزاء .

ابن خلكان ت ٦٨١ هـ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن
أبى بكر الشافعى :

٤٢ - وفيات الأعيان تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد
فى ستة أجزاء نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م .

خواد بخش المؤرخ الهندى :

٤٣ - الحضارة الاسلامية ترجمة وتعليق د . على حسنى الخربوطلى
دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه سنة ١٩٦٠ م .

الدباغ ت ٦٩٦ هـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى :

٤٤ - معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان ج ١ الناشر مكتبة

الخانجى بمصر سنة ١٩٦٨ تحقيق ابراهيم شيوخ ، ج ٢ ، ٣ ، ٤
نشر المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٠ هـ .

ابن أبى دينار ت ١١١٠ هـ محمد بن أبى القاسم بن عمر
القيروانى :

٤٥ - المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس - تحقيق محمد شمام -
الناشر المكتبة العتيقة بتونس .

الرقيق القيروانى أبو اسحق ابراهيم بن القاسم ت القرن الخامس
الهجرى :

٤٦ - تاريخ افريقية والمغرب . تحقيق المنجى الكعبى الناشر مطبعة
الوسط بتونس .

زكى محمد حسن دكتور :

٤٧ - الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى .

زيدان : جرجى زيدان :

٤٨ - تاريخ التمدن الاسلامى خمسة اجزاء مطابع دار الهلال
سنة ١٩٥٨

٤٩ - تاريخ اداب اللغة العربية ج ١ ، ٢ مراجعة وتعليق شوقى
ضيف دكتور - مطابع دار الهلال سنة ١٩٥٧ م .

السلطان المؤيد : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل صاحب حماة :

٥٠ - تقويم البلدان - طبع باريس سنة ١٨٤٠ م .

السلامى : احمد بن خالد الناصرى :

٥١ - الاستقصا لتخبار دول المغرب الأقصى - طبع المطبعة البهية
بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ .

السنوسى : محمد بن على السنوسى :

٥٢ - الدرر السنية فى اخبار السلالة الادريسية - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

سيد امير على :

٥٣ - مختصر تاريخ العرب - ترجمة عفيف البعلبكي الطبعة الثانية دار العلم للملايين سنة ١٩٦٧ م .

السيوطى ت ٩١١ هـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى :

٥٤ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة الطبعة الاولى سنة ١٣٢٦ هـ مطبعة السعادة .

السيد عبد العزيز سالم دكتور :

٥٥ - المغرب الكبير ج ٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م .

٥٦ - مقال فى كتاب الشعب بيوت الله مساجد ومعاهد ج ٢ مطابع الشعب سنة ١٩٦٠ - عنوان المقال المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٩

شكرى فيصل دكتور :

٥٧ - حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول - مطابع دار العلم للملايين الطبعة الاولى سنة ١٩٥٢ م .

٥٨ - المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول - مطابع دار العلم للملايين سنة ١٩٥٢ م .

شمس الدين أبو عبد الله محمد أبو طالب الأنصارى الدمشقى :

٥٩ - نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر - مكتبة المثنى بغداد .

الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى :

٦٠ - تاريخ الفتح العربى فى ليبيا الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .

الطبرى ت ٣١٠ هـ : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى :

٦١ - تاريخ الأمم والملوك - الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية

ج ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٠

عباس محمود العقاد :

٦٢ - أثر العرب فى الحضارة الأوربية دار المعارف الطبعة الثانية

سنة ١٩٦٣ م ابن عبد الحكم ت ٢٥٧ هـ أبو القاسم عبد الرحمن بن

عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى .

٦٣ - فتوح مصر وأخبارها طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٠ م .

عبد الرؤف مخلوف :

٦٤ - ابن رشيقي القيروانى - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م .

عبد الرحمن باغى دكتور :

٦٥ - حياة القيروان وموقف ابن رشيقي منها . الطبعة الأولى

سنة ١٩٦١ م دار ربحانى للطباعة والنشر بيروت .

عبد الوهاب الشعرانى :

٦٦ - الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار فى طبقات الأخبار

ج ١ ، ٢ مكتبة ملتزمية .

عثمان الكعك :

٦٧ - الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . طبع

معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦٥ م .

٦٨ - البربر (كتاب البعث) مطبعة الترقى سنة ١٩٥٦ م .

ابن غذارى توفى أواخر القرن السابع الهجرى : أبو عبد الله

محمد المراكشى :

٦٩ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب تحقيق كولان ،
ليفى بروفنسال - دار الثقافة - بيروت لبنان .

أبو العرب تميم ت ٣٣٣ هـ محمد بن أحمد التميمى القيروانى :
٧٠ - طبقات علماء افريقية وتونس - تحقيق على الشابى ونعيم
حسن الميافى الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

العماد الأصفهاني الكاتب :

٧١ - خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب - تحقيق
محمد المرزوقى ومحمد العروسى الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٦ م .

عمر الركبانى :

٧٢ - خلاصة التاريخ التونسى - الطبعة الثانية - مطبعة الادارة
بتونس سنة ١٩٣٩ م .

غستاف لويون :

٧٣ - حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - الطبعة الثالثة -
طبع دار احياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

ف . بارتولد :

٧٤ - تاريخ الحضارة الاسلامية - ترجمة حمزة طاهر - الطبعة
الثالثة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ م .

ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون
المدنى المالكى :

٧٥ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب فرغ مؤلفه
من تأليفه سنة ٧٦١ هـ - الطبعة الاولى سنة ١٣٢٩ هـ مطبعة السعادة
بمصر .

ابن الفرضى ت ٤٠٣ هـ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف
الأزدى :

٧٦ - تاريخ علماء الأندلس - المكتبة الأندلسية - الدار المصرية
للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

فون كريمر :

٧٧ - الحضارة الاسلامية ومدى نائرها بالمؤثرات الأجنبية . ترجمة
مصطفى طه بدر - دكتور - الناشر دار الفكر العربى .

الفيروز آبادى : محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى :

٧٨ - القاموس المحيط - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢ - مطبعة الحلبي
بمصر .

القاضى عياض ت ٥٤٤ هـ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض
اليحصبى السبتي :

٧٩ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك -
تحقيق أحمد بكير محمود دكتور - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت -
لبنان .

كارل بروكلمان :

٨٠ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ، ٢ ترجمة نبيه فارس -
دكتور ، منير البعلبكي - الطبعة الثالثة - دار العلم للملايين - بيروت
سنة ١٩٦٠ م .

الكندى ت ٣٥٠ هـ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب :

٨١ - كتاب الولاة وكتاب القضاة - طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين
بيروت سنة ١٩٠٨ م .

المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الاسلاميه :

٨٢ - بحث عن اثر الحضارة الاسلاميه فى رقى البشرية وسعادتها
للدكتور محمد خلف الله أحمد - الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٥م

المالکى ت سنة ٤٢٨ هـ أو سنة ٤٥٣ هـ أبو بكر عبد الله بن أبى
عبد الله المالکى :

٨٣ - رياض النفوس فى طبقات علماء القیروان وأفريقية - نشر
حسين مؤنس دكتور - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ م

مبارك محمد الهللى الملى :

٨٤ - تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ١ ، ٢ الناشر مكتبة
النهضة الجزائرية .

مجلة العربى : تصدرها وزارة الارشاد والانباء بحكومة الكويت :

٨٥ - العدد ٨٤ مقال بعنوان ابن شرف للدكتور طه الحاجرى
ص ٤٨ - ٥٣

٨٦ - العدد ١٠٤ مقال بعنوان أسد بن الفرات للواء محمود
سيت خطاب ص ١٠٤ - ١١٠

٨٧ - العدد ١١٨ مقال بعنوان ابن هانى الاندلسى بقلم حسن
الأمين ص ٦٠ - ٦٤

أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى
بردى الاتابكى :

٨٨ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
- الطبعة الاولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ م
محمد رفعت :

٨٩ - تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية - مكتبة العلوم السياسية - دار المعارف بمصر .

محمد بن عثمان الحشائشي التونسي ت ١٩١٢ م :

٩٠ - رحلة الحشائش الى ليبيا سنة ١٨٩٥ م - تحقيق على المصراطي - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٥ - دار لبنان للطباعة والنشر .

محمد علي دبوز :

٩١ - تاريخ المغرب الكبير ج ٢ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ - طبع دار احياء الكتب العربية .

محمد غلاب - دكتور :

٩٢ - الفلسفة الاسلامية في المغرب - جمعية الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٨ م .

محمد الفاسي :

٩٣ - التعريف بالمغرب - طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦١ م

محمد الفاظيل بن عاشور :

٩٤ - اعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي - نشر وتوزيع مكتبة النجاح بتونس .

محمد فريد وجدى :

٩٥ - دائرة معارف القرن الرابع عشر - المجلد السابع - طبع دائرة معارف القرن العشرين سنة ١٩٣٨

محمد لبيب البتنوني :

٩٦ - رحلة الاندلس - الطبعة الثانية - مطبعة مصر .

- ٥٦١ -

(٣٦ - القيروان)

محمود شيت خطاب - اللواء الركن :

٩٧ - قادة فتح المغرب العربي - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٦ -
الناشر دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت - ج ١ ، ٢

المراكشي ت ٦٦٩ هـ : محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي
التميمي :

٩٨ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق محمد سعيد
الريان ، محمد العربي - مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م

المسعودي ت ٣٤٦ هـ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي :
٩٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان - طبع المطبعة البهية
المصرية سنة ١٣٤٦ هـ

المقدسي ت ٣٨٧ هـ شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي
المعروف بالبشازي :
١٠٠ - أحسن التقاسم في معرفة الاقاليم - الطبعة الثانية - مطبعة
بريل بلندن سنة ١٩٠٦ م .

المقرئ ت ١٠٤١ هـ : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني :
١٠١ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب - تحقيق محمد
محيى الدين عبد الحميد - ستة اجزاء - الطبعة الاولى - مطبعة السعادة
سنة ١٩٤٩ م .

م . م . شارف :
١٠٢ - الفكر الاسلامي منابعه وآثاره - ترجمة وتعليق أحمد شلبي
دكتور - مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٢ م

المنجي الكعبي :

١٠٣ - القزاز القيرواني - الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ م .

ميخائيل امارى :

١٠٤ - المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم
والمراجع طبع مكتبة المثنى ببغداد بالانوفست .

النبهاني المسالقي : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الاندلسي :
١٠٥ - تاريخ قضاة الاندلس - وسمى المرقبة العليا فيمن يستحق
القضاء والفتيا - نشر ليفى بروفنسال - القاهرة - دار الكاتب المصرى
سنة ١٩٤٨ م .

ابن النديم ت ٣٨٣ هـ محمد بن اسحاق :
١٠٦ - الفهرست - مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

الواقدي ت ٢٠٧ هـ أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي :
١٠٧ - فتوح الشام جزءان - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٤ - مطبعة
مصطفى الحلبي بمصر .

ابن هاني ، ت ٣٦٢ هـ : أبو القاسم المكنى بأبي الحسن محمد
ابن هاني الازدي :

١٠٨ - ديوان بن هانيء - المطبعة اللبنانية - بيروت سنة ١٨٨٦ م
ياقوت ت ٦٢٦ هـ : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي
البغدادى :
١٠٩ - معجم البلدان - الطبعة الاولى - طبع مطبعة السعادة في
عشرة أجزاء .

يحيى هويدي - دكتور :
١١٠ - تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية - نشر مكتبة النهضة
المصرية سنة ١٩٦٥ م

اليعقوبي ت ٢٨٢ هـ : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب
ابن واضح :

١١١ - تاريخ اليعقوبي - طبع بريل سنة ١٨٨٣ م .
يوسف فهمى الجزائريلى :
١١٢ - أرض البطولة الجزائر : طبع الوكالة العربية للدعاية والنشر .

الفهرسبست

الصفحة

الاهـداء	٥
المقدمة	٩

الفصل الاول

الفتح الاسلامى فى افريقية

(١٥ - ٦٨)

الفتح الاسلامى فى افريقية	١٧
* فتح برفرة	١٧
* فتح طرابلس	٢٠
* فتح افريقية	٢٤
- غزوة عبد الله بن سعد بن أبى السرح	٢٤
- غزوة معاوية بن حديج	٣١
- عقبة بن نافع فى افريقية	٣٤
- أبو المهاجر دينار	٣٧
- عقبة بن نافع فى افريقية ثانيا	٤٠
- زهير بن قيس البلوى يسترد القيروان	٤٨
- حسان بن النعمان الغسانى يثبت اقدام المسلمين	
فى افريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر	٥٤

الفصل الثانى

تأسيس القيروان

(٦٩ - ١٠٠)

(١) الاسباب التى دعت عقبة لتأسيس القيروان	٧٢
---	----

- (ب) اختيار مكانها ٧٣
- (ج) تخطيط عقبة للقيروان ٧٨
- (د) الحركة العمرانية فى القيروان فى فترة البحث ٨١
- (ا) التحصينات الحربية ٨٢
- (ب) معالم دينية ٨٣
- (ج) المنافع العمرانية العامة للدولة والشعب ٨٩
- ١ - دار الامارة والدواوين ٨٩
- ٢ - مشاريع المياه والقناطر ٩٠
- ٣ - الأسواق وحوانيت التجارة والمصانع ٩٣
- ٤ - الحمامات والمتنزهات والمستشفيات ٩٥
- ٥ - المقابر ٩٥
- (د) المنشآت الخاصة ٩٧
- (هـ) حول القيروان ٩٨
- ١ - القصر القديم او العباسية ٩٨
- ٢ - رقنادة ٩٨
- ٣ - صبرة او المنصورية ٩٩

الفصل الثالث

الحالة السياسية فى القيروان بعد ان تم فتح افريقية

(١٠١ - ١٤٩)

- (ا) عصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس ١٠٣
- ١ - موسى بن نصير ٢ - محمد بن يزيد ٣ - اسماعيل بن عبيد الله ٤ - يزيد بن أبى مسلم ٥ - بشر بن صفوان الكلبى ٦ - عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ٧ - عبيد الله ابن الحبحاب ٨ - كلثوم بن عياض القشيري ٩ - حنظلة ابن صفوان الكلبى ١٠ - عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ١١ - محمد بن الاشعث الخزاعى ١٢ - الأغلب بن سالم

- التميمي ١٣ - عمر بن حفص ١٤ - يزيد بن حاتم ١٥ - روح
ابن حاتم ١٦ - نصر بن حبيب المهلبى ١٧ - الفضل بن
روح ١٨ - هرثمة بن أعين ١٩ - محمد بن مقاتل العكى ١٠٣
(ب) عصر الاغالبة ١٢٢
١ - ابراهيم بن الاغلب ٢ - عبد الله بن ابراهيم ٣ - زيادة
الله بن ابراهيم ٤ - الاغلب بن ابراهيم ٥ - محمد بن
الاغلب ٦ - أحمد بن محمد بن الاغلب ٧ - زيادة الله
الثانى ٨ - أبو الغرانيق محمد بن أحمد ٩ - ابراهيم بن
أحمد ١٠ - عبد الله الثانى ١١ - زيادة الله الثالث . . . ١٢٢
(ج) عصر الفاطميين ١٣٤
قيام الدولة الفاطمية ١٣٤
١ - عبيد الله المهدى ١٣٧
محاولات فتح مصر فى أيام المهدى ١٣٩
٢ - القائم أبو القاسم محمد ١٤٢
٣ - المنصور اسماعيل بن القائم ١٤٣
٤ - المعز لدين الله معد بن اسماعيل المنصور . . . ١٤٤

الفصل الرابع

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

(١٥١ - ١٨٢)

- ١ - الحالة الاقتصادية ١٥٣
(ا) الزراعة ١٥٥
(ب) الصناعة ١٥٧
(ج) التجارة ١٦٢
٢ - الحالة الاجتماعية ١٦٨
المظاهر الاجتماعية ١٧٢
١ - فى السلوك الاجتماعى العام ١٧٢
٢ - وضع المرأة فى القيروان ١٧٣

الصفحة

٣ - اللباس	١٧٤
٤ - الطعام	١٧٥
٥ - المراكب	١٧٦
٦ - الهبات والثروة والترف	١٧٧
٧ - مظاهر التسلية والملاهي	١٧٩
٨ - الصحة والنظافة	١٨٠
٩ - الأمن والروح العسكرية	١٨١

الفصل الخامس بداية الحياة الفكرية في القيروان (١٨٣ - ٢٣٧)

تمهيد	١٨٥
١ - العلوم الشرعية : تعليم القرآن - الحديث - الفقه - التفسير	١٨٥
أسماء الصحابة وبعض التابعين الذين دخلوا القيروان	١٨٦
بعثه الفقهاء الى القيروان	١٩٠
علماء الشريعة من أبناء القيروان :	١٩٦
١ - عبد الرحمن بن زياد أنعم	١٩٧
٢ - عبد الله بن فروخ الفارسي	٢٠١
٣ - البهلول بن راشد الرعيني	٢٠٥
٤ - عبد الله بن غانم الرعيني القاضي	٢٠٨
٢ - العلوم العربية : الادب واللغة	٢١٥
١ - الادب	٢١٥
(أ) الخطابة	٢١٧
(ب) الشعر	٢١٩
١ - الحكم بن ثابت السعدي	٢ - ربيعة بن
ثابت الرقي	٣ - عامر بن المعمر بن سنان
التميمي	٤ - المسهر التميمي
٢٢٤	٢٢٤
(ج) الكتابة	٢٢٤
١ - دجين بن عامر الحجري	٢ - خالد بن ربيعة
الافريقي	٣ - الحسن بن سعيد البصري
٢٢٦	٢٢٦

الصفحة

٢	اللغة	٢٢٧
	النحو ورواية الادب واللغة	٢٢٧
١	المعمر بن سنان التيمي ٢ - عياض بن	
	عوانة الكلبي ٣ - يونس بن حبيب الضبي	
٤	قتيبة الجعفي النحوي ٥ - امان بن	
٢٢٩	الصمصامة بن الطرماح الطائي	
٣	العلوم العقلية العقائدية	٢٣٠
١	اهل السنة	٢٣١
٢	المعتزلة	٢٣٢
٣	المرجئة	٢٣٣
٤	الخوارج :	٢٣٣
٢٣٤	(ا) الصفريه ، (ب) الاباضية	

الفصل السادس

ازدهار الحياة الفكرية

(٢٣٩ - ٤١٥)

٢٤١	تمهيد
٢٤١	١ - العلوم الشرعية :
٢٤١	الفقه :
٢٤٨	١ - اسد بن الفرات
٢٥٧	٢ - سحنون بن سعيد
٢٧١	٣ - سليمان بن عمران
٢٧٧	٤ - أبو عثمان الحداد
٢٨٣	٥ - النعمان بن محمد
٢٨٧	القرآن والتفسير والحديث
٢٩٥	٢ - العلوم العربية
٢٩٥	تمهيد

الصفحة

- ١ - الادب : خطابة - شعر - كتابة ٢٩٦
- (ا) الخطابة ٢٩٦
- (ب) الشعر ٢٩٨
- (ا) الشعراء خلال حكم الاغالبة ٣٠١
- ١ - محمد بن الاغلب ٣٠١
- ٢ - مجبر بن ابراهيم ٣٠٣
- ٣ - أحمد بن أبي سليمان الرعي ٣٠٤
- ٤ - مهريه الاغلبية ٣٠٦
- ٥ - بكر بن حماد ٣٠٧
- (ب) الشعراء خلال حكم الفاطميين ٣١٠
- ١ - محمد بن عبد الله الفزاري ٣١٠
- ٢ - محمد بن هانيء الازدي ٣١٢
- ٣ - علي بن محمد الايادي ٣١٦
- (ج) الكتابة ٣١٨
- ١ - داود الكاتب ٣٢٢
- ٢ - ابراهيم بن محمد الشيباني ٣٢٣
- ٢ - اللغة : ٣٢٦
- النحو ورواية الادب واللغة ٣٢٦
- (ا) من غلب عليهم الاشتغال بالنحو ٣٢٧
- ١ - عبد الملك بن قطن المهري ٣٢٧
- ٢ - ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ٣٢٨
- ٣ - أحمد بن أبي الاسود ٣٢٩
- ٤ - ابراهيم بن الوزان ٣٢٩
- ٥ - محمد بن جعفر القزاز ٣٣٠
- (ب) من غلب عليهم الاشتغال والميل الى اللغة ٣٣٢
- ١ - عبد الله بن محمد ٣٣٢
- ٢ - أحمد بن ابراهيم اللؤلؤي ٣٣٣

الصفحة

٣	- حسن بن محمد التميمي العنبري	٣٣٤
٣	- العلوم العقلية العقائدية	٣٣٤
	تمهيد	٣٣٤
١	- أهل السنة	٣٣٧
١	- محمد بن سحنون	٣٤٢
٢	- عبد الله بن أبي زيد	٣٤٦
٢	- الزهد والتصوف	٣٤٩
(١)	شقران بن علي	٣٥٠
(ب)	عبد الرحيم الربيعي	٣٥٢
٣	- الخوارج	٣٥٤
٤	- المعتزلة	٣٥٧
٥	- الشيعة	٣٦٠
٤	- العلوم الاجتماعية والتربوية	٣٧٠
١	- التاريخ	٣٧٠
٢	- الجغرافيا	٣٧٤
٣	- الوعي الاجتماعي	٣٧٧
٤	- التربية	٣٨١
٥	- الترجمة	٣٨٩
٦	- العلوم الطبيعية او علوم الاوائل	٣٩٢
(١)	الطب والصيدلة	٣٩٣
١	- اسحاق بن عمران	٣٩٣
٢	- اسحاق بن سليمان	٣٩٥
٣	- أحمد بن الجزار	٣٩٨
(ب)	الرياضة والفلك	٤٠١
	أبو سهل دونش	٤٠٢
(ج)	الكيمياء	٤٠٤

الصفحة

الفصل السابع
العلاقات الفكرية بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر
(٤١٧ - ٤٤٦)

الفصل الثامن
الحياة الفكرية فى القيروان بين التأثير والتأثر
(٤٤٧ - ٤٦٧)

الصفحة

(ج) فى مجال العقائد	٤٦٠
(د) فى مجال العلوم الاجتماعية	٤٦١
(هـ) سماتها	٤٦٤
خلاصة وافية عن البحث ونتائجه	٤٦٩
الملاحق	٥٠٩
ملحق رقم (١) من نماذج الخطابة	٥١١
ملحق رقم (٢) من نماذج الشعر	٥١٢
ملحق رقم (٣) من نماذج الكتابة	٥٢٤
ملحق رقم (٤) سجل مكتبة القيروان	٥٢٩
تعريف ببعض المصادر	٥٣٨
المصادر والمراجع	٥٤٩
الفهرس	٥٦٥
كتب للمؤلف	٥٧٤



للمؤلف

- ١ - كتاب المسلمون فى الفلبين جهادهم ومشكلاتهم : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٢م .
- ٢ - كتاب أضواء من سيرة محمد ﷺ بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم دار الوفاء للطباعة - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م .
- ٣ - كتاب الخلفاء الراشدين : بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم - دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨١ م .
- ٤ - كتاب تاريخ الدولة العباسية وحضارتها بالاشتراك مع الدكتور محمد الطيب النجار - مطابع دار الهلال بالرياض سنة ١٩٧٨ م .
- ٥ - كتاب دراسات فى تاريخ مصر الاسلامية : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٢م .
- ٦ - كتاب المسلمون فى المغرب والاندلس : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٣ م .
- ٧ - المسلمون فى الشرق الاقصى .
- ٨ - بحث عن مسلمى الفلبين منذ الاحتلال الاسبانى حتى الوقت الحاضر : (بحث قدم الى المؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول الذى عقد فى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٩٧٩م .
- ٩ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفكر فى الشرق حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض العدد الاول سنة ١٩٧٧ م) من ص ٣٦٧ - ٣٨٣ .

١٠ - تحليل تاريخى لما يذكره المؤرخون عن موسى بن نصير فى فتح
الاندلس (مجلة كلية العلم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود
الاسلامية - العدد الثانى سنة ١٩٧٨م) من ص ٣٥٩ - ٣٦٨ .

١١ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية فى المغرب
حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كلية العلوم الاجتماعية -
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد الثالث سنة ١٩٧٩) من ص
٣٠٣ - ٣٣٢ .

١٢ - الفتح الاسلامى للاندلس : دراسة وتحليل (مجلة كلية العلوم
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد الرابع سنة ١٩٨٠) من
ص ٣٠٣ - ٣٣٢ .

١٣ - عائد من الفلبين : مجلة الازهر عدد ابريل وأغسطس سنة
١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .

١٤ - مع بعثة الفقهاء الى شمال افريقيا مجلة المهدى الاسلامى ليبيا
سنة ١٩٧٠ م .

١٥ - الردة ، بحث قدم الى مؤتمر تاريخ الجزيرة العربية الثالث
الذى عقد فى جامعة الملك سعود سنة ١٩٨٣ م .

١٦ - بحث عن موقف المجتمع المكي من الدعوة : قدم الى مؤتمر
السيرة والسنة الذى عقد فى الازهر عام ١٩٨٥ م .

١٧ - بحث عن الهجرة وإثرها فى قيام الدولة الاسلامية قدم الى
مؤتمر السيرة والسنة الذى عقد فى الازهر عام ١٩٨٥ م .

١٨ - بحث عن تأثير الازهر فى الخارج بين الماضى والحاضر نشر
فى مجلة الازهر عدد رمضان وعدد ذو الحجة سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٧٣ م .

١٩ - بحث عن الحياة الفكرية فى القيروان بين التأثير والتأثر :
نشر فى حولى كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٣ .

٢٠ - مجلة التضامن الاسلامى - المسلمون بناة حضارة عددى جمادى الثانية ، شوال ١٤٠٧ هـ وصفر وشعبان ١٤٠٨ هـ .

٢١ - مجلة المؤرخ العربى - الفتح الاسلامى لشمال افريقيا - العدد السادس عشر - القسم الاول سنة ١٤٠١ هـ - سنة ١٩٨١ م .

تحت الطبع :

١ - دولة الاغالبية واثرها فى الفتح الاسلامى .

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٥٤١

دار الفقه والدراسات
للطباعة والنشر
الأزهر/الحياتان الموقعتين
بجوار جامع الدماء
ت ٩٦٥٢٠٤ القاهرة

هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب صورته السابقة عن مدينة إسلامية عريقة كان لها دور كبير في نشر الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية .
و يوضح الفتح الإسلامي في إفريقية وكيف تألفت مدينة القيروان وما احتوت عليه من سافع علماني ومشاريع حضارية بالإضافة إلى الدور السياسي الذي ساهمت به في عصر الولاة والأغالبة والفاطميين .
وقد تناول المؤلف في هذا الصدد الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فنسجده عن الزراعة والصناعة والتجارة وعن طوائف المجتمع التي ساهمت بدور بارز في إثراء الحياة الفكرية والحضارية كطبقة الحكام والعلماء والتجار وسواهم .
وأهتم المؤلف بعصفه خاصة بالحديث عن مظاهر الحياة الفكرية وازدهارها وشمولها لعلوم الشريعة واللغة والأدب والطب والطبيعة والرياضة وغير ذلك من العلوم والفنون .
ويبين أيضاً دور الصحابة والتابعين وترجم للعلماء المجيدين في كل علم وفن .
وفصل القول في علاقة القيروان بغيرها من مراكز الفكر والثقافة في المجتمع الإسلامي مبيناً إلى أي مدى كان تأثيرها وتأثيرها بهذه المراكز .

[الناشر]